د. عبد الوهاب محمد الزنتاني

مسافر يبحث عن الموت

رواية أحداثها واقعية



مسافر يبحث عن الموت

رواية اجتماعية أحداثها واقعية

تأليف

د . عبد الوهاب محمد الزنتانى

مسافر يبحث عن الموت

د. عبد الوهاب محمد الزنتانى

الكتـــاب: مسافر يبحث عن الموت

المـؤلـف: د. عبد الوهاب محمد الزنتانى

رقم الإيداع: ٢٠٢٨

الناشــر:
دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع

الإدارة والمطابع:
١٢ شارع نوبار لاظوغلى (القاهرة)
تليفون: ٠٠٢٠٢٧٩٤٢٠٧٩ فاكس: ٠٠٢٠٢٧٩٥٤٣٢٤

التوزيــع:
٣ شارع كامل صدقى الفجالة - القاهرة
تليفون: ٠٠٢٠٢٥٩١٧٩٥٩

www.dargareeb.com

مقدمة الطبعة الثانية

نشرت هذه الرواية خلال نهاية القرن الماضي وكانت من جزءين، الجزء الأول نشر في ٢٣ يوليو ١٩٩٩ م بينما نشر الجزء الثاني في ٢٣ يوليو ٢٠٠٢ م، والرواية اجتماعية هادفة أحداثها واقعية وفي مجملها تروي التاريخ الاجتماعي والظروف الاقتصادية الصعبة التي دفعت بهؤلاء الناس أقصد (أهلنا) إلى أن يذهبوا في الغالب سيرا على الأقدام بحثا عن وسيلة عيش تتمثل في ممارسة عمل قاتل وهو تفكيك القنابل والألغام والصواريخ يبيعونها لمتعهد ينوب في شراء مخلفات الحرب عن متعهد يهودي كبير يسمى (بيو ناحوم) وكان هذا اليهودي يصدّر جميع أنواع مخلفات الحرب العالمية الثانية عن طريق إيطاليا إلى حكومته الصهيونية التي أقيمت عنوة على أرض فلسطين، وقد استمر هذا من نهاية الحرب العالمية إلى سنة ١٩٥٢ م وخلال هذه المدة تمكن هذا اليهودي بمساعدة بعض المنتفعين في بلادنا من تصدير جميع تلك المخالفات بما فيها الطائرات والدبابات والمدافع وغيرها، ولم يكن أحد من رجال حكومة العهد السابق يهتم بما كان يحيق بأولئك الناس من خطر قاتل محتوم حيث كانوا يموتون بالجملة إما بانفجار القنبلة أو إذا لم يمت الذي

تنفجر فيه يجرح وبالتالي يأكله الذئب الذي اعتاد على أكل لحوم البشر منذ دارت الحرب على تلك الأراضي...

إن أحداث هذه الرواية تشتمل على تفاصيل تلك الكارثة التي يذكرها بعض الأحياء ممن كتب الله لهم أن يعيشوا رغم بحثهم عن الموت، هؤلاء يحيون بيننا، منهم من فقد ذراعيه أو رجليه أو على الأقل جزء هام من جسده، ولقد أردت بكتابة هذه الرواية أن يعرف شبابنا وأهلنا ممن لم يعاصروا تلك الفترة ويروا كم واجه أهلهم من صعاب ومشاكل وأخطار، وبسبب العوز والفقر ذهبوا يبحثون عن الموت ...

والسلام ،،،

د. عبد الوهاب محمد الزنتاني

بلدة الزنتان

المقدمة

أَشكَرْ من بَرْوَقةٍ .... هكذا يقول المثل العربى ، والبَرْوَقَةُ هى تلك العشيبات الصغيرة التى تعيش على أقلّ قدر من المياه مكتفية غالبًا بالندى ، وهكذا أنا ، إنى والله لأشكر وأعترف بفضل وجميل كل من يقدم ولو النزر القليل من الخدمات لبلادى وأمتى (ديموقراطية وحقوق إنسان واستقرار وخدمات تعليمية واجتماعية واقتصادية وصحية وصناعية إلخ) بلادى ليبيا وأمتى العربية ، كذلك فأنا أعتقد أن التاريخ كلمة تكتب ويجب أن تكون صادقة وحقيقة ولذلك فأنا أسجّل ما يجول بخاطرى من أحداث عشتها وظروف عاصرتها بلا تحوير أو تغيير أو حذلقة إلا ما يدفع القارئ إلى الاستمتاع ورغبة المتابعة ، ويعنّ لى دائمًا أن ألبس أحداث التاريخ شكل روائى بحيث أقدمها خفيفة غير مملّة كأنما هى ذكريات بين الكاتب ونفسه يتأمل فيها ما مضى محاولاً تبين ما سيأتى وهذا ما حاولت أن يكون عليه الجزء الأول من هذه الرواية إذ كنت أرى أن سير الحكام السابقين (لهم أو عليهم) يجب أن تسطّر لتبقى على مر الزمان بحيث لا نكتب على أنفسنا بأننا أمة بلا تاريخ أو أن تاريخها يبدأ من عند الواقف أو الجالس على كرسى الحكم فقط ،

لكن رقيب المطبوعات فى بلادى (وأنا يقشعر جسمى عندما أحس بأن هناك رقيبًا على الكلمة) لم ير ما رأيت ويقتنع بأن تربة بلادى طيبة وخصبة ، فقطع التاريخ بالمقص ومنع الرواية من التداول (سيجد القارئ نص رسالة المنع فى آخر الكتاب) ومبرره فى ذلك على ما أعتقد أن الرواية حَوَتْ بعض إيجابيات نظام حكم سابق وهو يريدها سوءات بالكامل ، وهذا ما يؤكد أن التاريخ والأخلاق فى كثير من بلدان العالم الثالث لم يتصالحا بعد ، عكس ما قاله السيد (هافيل) منذ زمن ، ورغم ذلك فأنا أعتقد أن الانحياز السياسى والمواقف الشخصية لا تلغى أحداث التاريخ والحجر على الرأى لا يخدم مجتمع أو نظام ولابد أن يأتى بعد زمن مؤرخين يمحّصون الأحداث بنظرة أكثر اتساعًا ورؤية أكثر واقعية يطمئن الباحثون فيها إلى حكمهم ذلك أن العمل التاريخى يكون ناقصًا قبل أن تعرف نتائجه ولقد قال (هيجل) ذات مرة إننا لا نستوعب التاريخ إلا عندما نستطيع أن نرى الحاضر بصورة عامة كنتيجة لتلك الوقائع التى تمثل حلقاتها الأساسية أخلاق وأعمال المشاركين فيها .

وما أكتبه ليس تاريخًا بالمفهوم العلمى للتاريخ باعتبار أن له جانبان ، واقعى يتناول زمن ونظام حكم عاصرته وبالتالى ليس فيه من خيال أو انحياز أو تحريف ، وجانب أدبى يضفى على الرواية مسحة تشويق فى

شكل تأملى من أجل الحكم على تلك الأحداث وأدوار اللاعبين فيها من خلال ما كان يضمره الكاتب آنئذ تحليلاً لما يجرى فى الضوء أو يدور خلف الكواليس وربما يمكن القول إن ما أكتبه يمثل تشخيصًا لمأسى الفقر وبعض عيوب المجتمع وسطوة المستعمر الأجنبى (الذى صار حليفًا بعد أن كان مستعمرًا !) وانتهازية بعض الناس فى الحكم الوطنى ...

والله من وراء القصد ،،

دكتـــور

عبد الوهاب محمد الزنتانى

بلدة الزنتان فى ٢٣ يوليو ٢٠٠٢ م




إهــداء

إلى بلدتى التى ولدت على أرضها وفتحت عيناى على نور الخالق العظيم . . .

وإلى كل من يرتبط بتراب الوطن ويعمل من أجل تقدمه بلسان لا يعرف الملق ويد لا تعرف السرقة وضمير لا يعرف الغش . . .

إليها وإليكم أهدي هذه الرواية الاجتماعية التى تسجل أحداثًا واقعية عاشها أهلنا فى زمن مضى، ولقد كانت هواجسا وأفكارا وآلاما ومعاناة وأهوالا صعبة التصديق أو حتى التخيل لو لم يكن شهودها أحياء يرزقون، كانت معاناة وشقاء بحثا عن لقمة العيش التى صعب منالها فى ذلك الوقت إذ كانت البطون جوعى والعيال ينتظرون والعمل مفقود ولا خيار إلا المخاطرة فإما موت أو حياة، قد يكون نسيها البعض ممن عاشوا تلك الفترة بينما لم يسمع بها أو يعايشها البعض الآخر ولهذا نريد أن نذّكر لعل الذكرى تنفع من به بصر وسمع.

ومن الله العون والسداد ونحن له من الشاكرين الذاكرين لنعمائه ، ، ،




الفصل الأول

الحياة البدائية فى الصحراء وفى القرية
عادات وتقاليد وحرف وفنون وهوايات وأسلوب حياة

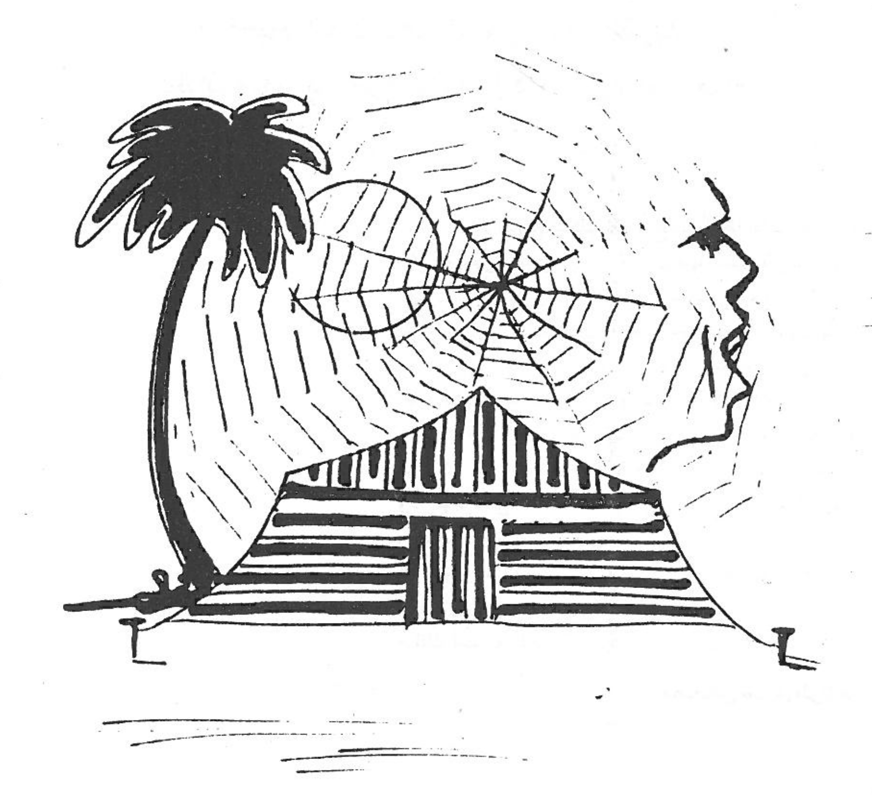
إن التاريخ ليتكلم بلغة أوسع من ألفاظه إذا قرأه من يقرؤه على أنه بعض نواميس الوجود، صورت فيها النفس الإنسانية كيف اعتورت أغراضها، وكيف مدت فى نسقها، وكيف تغلغلت فى مسالكها، وما تأتى لها فجرت به مجراها، وما دفعها فانحدرت به إلى مقارها، فهو ليس بكلام تستقبله تقرأ فيه ولكنه أحوال من الوجود تعترضها فتغير عليك حسك بإلهامها وأحلامها، وتتناولها من ناحية فتتناولك من الأخرى، فإذا الكلمة من ورائها معنى، من ورائه طبيعة من ورائها سبب وحكمة، وإذا كل حادثة فيها إنسانيتها وإلهيتها معا، وإذا الوجود فى ذهنك كالساعة ترسم لك حد الثانية بخطرتين، وحد الدقيقة من عدد محدود من الثوانى، وحد الساعة إلى حد اليوم، وإذا البيان فى نفسك من كل هذه الحواشى، وإذا التاريخ فيما تقرؤه مفنن فى ظاهره وباطنه يفىء عليك من ألفاظه بظلال هى صلتك أنت أيها الحى الموجود بأسرار ما كان موجودا من قبل.

مصطفى صادق الرافعى

لم تكن الحياة سهلة ولكنها أيضا لم تكن معقّدة، فرغم الشقاء الذى يعانيه الناس خلال فصلى الحرث والحصاد فهى بسيطة.

الإنسان فى هذا المجتمع تنمو منذ الصغر وتحكم سلوكه فى الكبر مُثل وأخلاق ومبادئ والتزام، هى المرؤة والنجدة والتوادد وتأدية الفرائض الدينية والتضامن مع جماعة كبرت أو صغرت، مشاغلهم فى دنياهم هى الحرث والحصاد وتربية الأغنام والإبل والخيل.

عدتهم دائما الفرس والبندقية، بعضهم يعيشون فى تجمعات قبلية تمثل ما يشبه القرى، سكناهم فيها دواميس وهذه عبارة عن حفير فى باطن الأرض يمتد أفقيا به فتحة واحدة هى المدخل وبالقرب منه عادة ماجن أى بئر يتجمع فيها ماء المطر يكفيهم عادة للشرب، وجماعات أخرى منهم لا تستقر فى مكان، تعيش أينما وجد المرعى حيث تنصب خيامها المصنوعة من الصوف والشعر أو الوبر وتسمى بيت عادة ما يكون مصبوغا باللون الأسود، يلتقى هؤلاء وهؤلاء من القبيلة الواحدة فى مناسبات الأفراح والمزارات وفى المآتم ويساندون بعضهم فى حالة الحروب التى تقع أحيانا بين قبيلة وأخرى بشأن المرعى والزرع عندما تهطل الأمطار، ولكل قبيلة أراض خاصة بها تحارب للحفاظ عليها، وكلما كبرت وقويت القبيلة قامت الحرب بينها وبين المعتدين إلا أن هذه القبائل تتحد وتتجمع لتقاتل معا إذا ما وقع عدوان خارجى على بلادها كحالة الحرب ضد العدوان الإيطالى الذى استمرت القبائل الليبية فى مقاومته قرابة ربع قرن من



الزمان، وحتى بعد أن تغلبت القوات الإيطالية عليها لم تستسلم وقد لجأت إلى الصحراء الواسعة ما عدا تلك التى تعيش فى المدن أو ما يشبه المدن والشواطئ حيث كانت مستقرة تمارس الزراعة المروية.

لم تكن قبائل الجبل تعرف الزراعة بمعناها المعروف وإن كانت تستنبت أشجار الزيتون والتين، وزيت الزيتون أساسياً فى حياة هؤلاء الناس ذلك إن مأكلهم لا يختلف أو يتغير فهو إما من الشعير أو القمح أو كلاهما، وأحيانا يحصلون على بعض التمر، بمعنى أن أساس المأكل هو الشعير والقمح والزيت وهم يطبخون أكلهم فى أوانى طينية يصنعونها بأنفسهم، ويوقدون النار بالحطب، فمثلا يطبخون البازين أو الرشدة فى إناء يسمى (قدرة) ويوقدون نار الشاى فى موقد يسمى (كانون) ويحفظون الماء الذى يشربونه فى إناء يسمى (طاس) أو قربه ويشربون من إناء اسمه (باقولة)، لم يعرفوا الملاعق ولا الشوك وإنما يأكلون بأيديهم، أما الحليب واللبن فيشربونه فى إناء يسمى (حلاّب) ويستخرجون الماء من السانية أو البئر بإناء يسمى (دلو)، أما أولئك الذين يقيمون فى تجمعات أى شبه قرى فيلتقون عادة فى المساجد وأحيانا فى الكندورة، وهذه الكندورة هى مرتفع مسطح يقع بين الدواميس، كانوا يلتقون للتحدث والبحث فى بعض شئون معيشتهم فقط ثم استجد فى حياتهم حكايا أبى زيد الهلالى والخفاجى عامر هذه الحكايا التى كانت تروى من طرف فرد يحفظها أو آخر يقرأها من كتب صفراء قديمة وهى تتحدث عن بطولات أولئك الرجال ومنازلاتهم فى ساحات الوغى، وتلك كانت هى التسلية الوحيدة التى يتابعونها باهتمام بالغ بل ينقسمون بين هذا البطل وذاك ويتراهنون على من يمكن أن ينتصر، ولم يكن الشاى قد عرف وقتئذ وإن لم يطل الوقت حتى عرف الشاى عندما جاء أحدهم

من الخارج وأنشأ دكانًا يبيع فيه الشاى والسكر اللذين كانا يأتيانه مهربان من تونس، وتلك تسلية أخرى صار يتجمع حولها الناس، فى البداية للرجال فقط ثم انتقلت إلى النساء، ومع الشاى والسكر كان يبيع ذلك التاجر بالمقايضة حاجيات أخرى، وبعد فترة عرفت الكاكوية أى الفول السودانى الذى لم يكن يزرع فى بلادهم وإنما كان أيضا يأتى مهربا من الخارج كان ملبسهم هو الجرد الأبيض صيفا والعباءة البنية شتاء مع قميص أبيض وطاقية بيضاء تسمى (معرقة) فى الصيف وقبعة صوفية مصبوغة باللون الأسود الفاتح شتاء وتسمى (كبُّوس) وسروال أبيض أيضا مصنوع من القماش القطنى مع نعل أى صندل يسمى (مداس) وكان يصنع من جلد الإبل، لم يكونوا يعرفون الصابون إلا فى فترة متأخرة وكانوا يستخدمون فى الغسيل مواد محلية كالطين أو بعض الأعشاب، أما المرأة فهى ترتدى قفطان وملحفة أو رداء وعادة ما تكون ملابسها ملونة ومخططة وهى تقوم بكل عمل البيت، فهى تذهب لإحضار ماء الشرب إذا لم يكن فى البئر أو الماجن ماء من مكان بعيد بين جبلين عبارة عن عين ماء تسمى مسلغين فى منطقة تسمى الشنطيرة، ثم هى ترحى الشعير أو القمح وتخبز وتطبخ ولا تهتم بنفسها إلا نادرا عندما يكون هنالك عرس ولا تعرف النساء فى هذا المجتمع من الحلى غير بعض الخرز وقطع فضية صغيرة يبتاعنها من يهود متجوّلين ويحملون تلك الحاجيات على ظهور الحمير وأكبر حلية تستخدمها المرأة تسمى صالحة وهى عبارة عن حلية مستديرة الشكل عليها بعض النقوش وتتوسطها ختمة سليمان وهى من الفضة، والأعراس تتجمع فيها النساء وتقوم الكبيرات منهن بإعداد الصغيرات اللواتى يقمن وهن جاثيات على ركبهن باستعراض ما يتقنن من فن الهد بحيث تقوم الواحدة منهن بدفع رأسها

ورقبتها يمنى ويسرى ناخّة بشعرها الذى يكون عادة طويل وأسود مشبع بزيت الزيتون وكلما كان الشعر الأسود طويلا متدليا كلما كانت الفتاة مفضّلة ويأتى الرجال وأغلبهم من الشباب للتفرج وفى هذه الأعراس يحدث انتقاء شريكة العمر عادة ذلك أن اللقاء لا يتم مباشرة بين الذكور والإناث إلا فى مثل هذه المناسبات، أما أولئك الذين يقيمون حيثما وجد المرعى فإن أكلهم ولبسهم لا يختلف عن هؤلاء كذلك أفراحهم وأتراحهم والخلاف الوحيد أنهم لا يستقرون طويلا فى مكان واحد، وهؤلاء يمارسون هواية صيد الغزلان والأرانب وركوب الخيل ويتمتعون بمشاهدة الكباش وهى تتناطح والجمال وهى تتصارع ويسعدون بتوالد أغنامهم كما يسعدون بأطفالهم وقد منحتهم تلك الصحراء المترامية الأطراف القدرة على تحمل السفر والترحال، ترى وجوههم دائما ملفوعة بحرارة شمس تلك الصحراء، صحرائهم التى عشقوها فأرضها فراشهم وسماؤها غطاؤهم وامتدادها حريتهم واستقلالهم.

والمناسبة الأهم لديهم هى تلك المزارات حيث يقومون بإعداد الأطعمة وتقديمها للزائرين وعادة ما يكون لكل قبيلة عدة مزارات، فهذا مرابط جد القبيلة الفلانية يزار خلال شهر كذا وذلك خلال الشهر الآخر وهكذا، وهذه المناسبات أيضا هامة لإظهار قوة القبيلة ومقدار ما لديها من الفرسان والخيول حيث يتبارى ويتنافس الرجال بخيولهم فى السباق الذى يعرف باسم اللهود فى مكان يسمى الشارف وهو مكان يشبه الوادى المنفتح الجانبين ولا يمتد طويلا.

لم تكن السيارات أو العربات أو أى نوع من الآليات مستخدمة لديهم أو حتى معروفة فيما عدا عربة واحدة كانت تمر عبر المنطقة أسبوعيا تابعة للإدارة الإيطالية وبعدها الإدارة البريطانية يقولون إنها البوسطة أى سيارة البريد،

وحتى شرطة كلا الإدارتين التى تجوب المناطق بغير انتظام كانت تستخدم الخيول، ولم تكن هناك إضاءة بالكهرباء أو أجهزة راديو ولا حتى جرائد أو مجلات، فإضاءتهم بالزيت والأخبار الخارجية تأتيهم نقلا بالشفاه وحتى أخبار حرب فلسطين ضد اليهود كانوا يسمعون عنها أحيانا عندما يأتى أحد من الخارج رغم أن البعض منهم قد تطوّع للجهاد فى سبيل الله مثلهم مثل بقية إخوانهم فى ليبيا.

أما الأطفال الذكور فهم عندما يبلغ الواحد منهم أربع سنوات ويصير قادرا على ممارسة بعض الألعاب كلعبة الكعب غالبا ما يذهبون إلى خلوة الفقيه ليدرسوا القرآن الكريم ومبادئ القراءة والكتابة على اللوح الذى يكتب عليه بالصمغ المصنوع محليا، والفقيه الذى يعلم الأطفال القرآن الكريم بالتحفيظ يعيش على ما يأتى به الأطفال يوم الختمة أى عندما يختم الطفل حزبا من القرآن الكريم حفظا كاملا، وهذا الفقيه يقوم بإمامة الجماعة فى أوقات الصلاة ويحظى باحترام وتوقير الجميع كبارا وصغارا، ويأتى الطفل عند الختمة ببعض من القمح أو الشعير أو البيض أى ما يتيسر بمعنى أن هذا الفقيه يعلّم الناس مجانا وهو إضافة إلى ذلك عادة ما يقوم بأعمال الحراثة وغيرها مثل بقية الناس، والصمغ يصنع من الصوف المحروق، ويقوم الأطفال كذلك بمساعدة الأهل حيث يرعون الجديان إن وجدت، ولعبهم هو الكعب وكرة القدم التى تصنع من أى قماش قديم، أما الشباب الذين بلغوا سن الزواج فهم فى غير وقت الحرث والحصاد يقضون أوقاتهم فى مناسبات الأفراح إذ عندما يتزوج أحدهم يجمع حوله العديد منهم فيما يعرف بالعرّاسة حيث يتسامرون ويمرحون كل ليلة ويوم لمدد قد تطول ويكون العريس هو السلطان وله نائب يختاره، وما يقرره السلطان

يلتزم به الجميع وهم فى ألعابهم يغرِّمون من لا يستطيع أداء اللعبة المعينة كما يغرمون من يخطئ أو يتفوه أو يأتى بعمل يعد خطأ من حق السلطان، وتكون مدة العراسة – هكذا تسمى – أسبوعين أو ثلاثة أو أكثر حسب الظروف ووقت الزواج يتناول فيها الجميع وجبة أكل لدى أحد جماعة الشباب تلك، فى البلدة أو القرية يوم يبيع فيه الناس ويشترون ويعرف بيوم السوق وكان البيع والشراء غالبا بالمقايضة، لم يكونوا يخضعون إلا لتقاليدهم وعاداتهم ودينهم الإسلامى ومذهبم مالكى.

أما العادات والتقاليد فهى متوارثة يلجأ إليها كبار السن للفصل فى أى منازعات أو خلافات وللكبير السلطة النافذة فى الأسرة وفى القبيلة قبل أن يعرفوا سلطة الحكومة متمثلة فى مركز للشرطة ومدير منطقة.

لحفظة كتاب الله فى مجتمعهم تقدير خاص واحترام كبير، المدير الذى هو موظف حكومى يعين من طرف الحاكم فى طرابلس وغالبا ما يكون من بين أهل البلدة أما أفراد البوليس الذين يرتدون لباسا عسكريا ويحملون سلاحا ويستخدمون خيولا فى تنقلاتهم فهم يتبعون أيضا السلطة العسكرية فى طرابلس، وهؤلاء يمكنهم القبض على المواطن فى حالة الشجار أو ارتكاب جرائم القتل أو غير ذلك ومن يرتكب جرما ولا يتم القبض عليه إذ غالبا ما يكون هاربا يسمى إفرار أى فارا من وجه الحكومة، هذا بالنسبة للمقيمين فى تجمعات شبه مستقرة أما أولئك الرحل فإنهم لا يخضعون لأى قانون أو سلطة ولا يحتكمون إلا لكبارهم وسلاحهم وإذا ما لاحقتهم الحكومة فإن أفرادها قاتلون أو مقتولون.

وكان عبد الله بن محمد – أحد أطفال هذه القرية أو قل شبابها إذ إن هؤلاء يحملون المسؤولية وهم صغار – كان قد التحق بخلوة الفقى التركى رحمه

الله، وهذا الفقى درّس لأغلب شباب القرية وقد حفظوا القرآن الكريم على يديه، كان قاسيا يجلد الطفل على أقل هفوة ويطرح أى طالب أرضا ليربط الفلقة على رجليه ويجلده بنفس القسوة إذا ما فشل ولو لمرة واحدة فى حفظ واجبه على اللوح، وخلوة الفقى التركى تقع فى جانب من ذلك المسجد القابع على ربوة تشرف على أغلب المساكن (الدواميس) وعلى سفح الربوة القبلية هناك المقبرة القديمة والوحيدة آنئذ وفى وسط هذه المقبرة طريق ترابى معشب يتخذه عبد الله يوميا صاعدا أو هابطا، صاعدا إلى المسجد حيث توجد الخلوة والفقيه أو هابطا عائدا إلى أهله، لا أحد يحتج أو يسأل أو يراجع ما يفعله الفقيه فعصاته رحمة وهو يعلّم القرآن الكريم، ومن يحفظ القرآن الكريم فى هذا المجتمع الصغير يحظى بتقدير عال، كان عبد الله وحيد أبويه حتى أنهما أفردا له مكانا خاصا للنوم فى الداموس وتلك ميزة لا تتوفر لكل طفل نظرا لضيق الأمكنة وقد اعتادوا أن يجعلوا أطفالهم ينامون على نفس السدة التى ينامون عليها، والسدة تلك هى مجموعة أخشاب أو ألواح من جذوع النخيل تشد إلى بعضها بشكل متقاطع كوضع السرير الذى نعرفه الآن وعادة ما يكون عليها فراش من الصوف، وصوف الأغنام يصنع منه غالبا كل شىء، الحولى والعباءة والفليج وغيرها، وكانت والدة عبد الله حليمة فى كل حديث تقول إن فاطمة لعبد الله، وفاطمة هذه هى ابنة عمه شابة جميلة ذات شعر فاحم السواد يتدلى على كتفيها وكانت تحرص دائما رغم صغر سنها على المشاركة فى حفلات الأفراح تجثو على ركبتيها مثل أولئك الشابات البالغات اللواتى يقمن بالهد أى النخيخ، فاطمة كانت فرحة زاهية بذاك الشعر الأسود الطويل الذى تعرف أن الرجال يتغنون به، وكان أكثر ما يفكر به الأهل لأولادهم (والذكر هو المفضل لديهم) هو الفرس

والبندقية والزوجة، غالبا ما يتفق لعبد الله مجالسة أولئك الذين مروا بتجربة الزواج عندما بلغ الثانية عشرة من العمر، كان يستمتع ببعض الحكايا ويتأفف من البعض الآخر على أنه كان يصغى السمع ولا يشارك فى الحديث إذ لا تجربة سابقة له فى هذا الميدان. أولا: لأنه مازال صغيرًا، وثانيا: لأن مجتمعه الصغير لايسمح بالاختلاط ذلك أن قضية الشرف من الأمور المقدّسة، كان والده قد أصيب بمرض عضال لم تنفع معه أحجبة الفقى ولا تطبيب ما كان يعرف بدواء العرب أى استخدام بعض الأعشاب والكى بالنار أحيانا وقد صارت يداه ترتعشان وضعف سمعه وكان لا يؤدى الصلاة إلا جالسا مما استدعى الإسراع بزواج ابنه عبد الله وكان عمره وقت الزواج سبع عشرة من السنوات إذا صدقت ذاكرة أمه إذ كانوا يعدون السنين بالذاكرة ويوقتونها بأحداث طبيعية حتى إنهم يقولون إن فلان قد ولد عام الغبورى أو عام الهزة أو عام الصابة ... إلخ، كان والده يريد أن يراه متزوجا ومسؤولا عن أسرة، لابد للمرء أن يكمل نصف دينه، وعبد الله ينظر إلى مرض والده واستعصاء علاجه بتفجع شديد رغم أن هؤلاء القوم قد تربّوا على تحمل الشدائد ومواجهة الفواجع منذ الصغر بجلد بحيث صارت قلوبهم مثل الصخر، ورفاق عبد الله الذين عرفوه صاروا يجدونه مقطّبا مكفهرا فيتندرون عليه بالقول إنه مثل الفتيلة التى نضب زيتها تمتد مع الهواء وتتضائل من الأسفل وتنطفئ فجأة لكنه لا يعبأ بذلك فهمه الوحيد أصبح البحث عن دواء يعالج والده، كان فى القرية عجوز خبر أسماء بعض الأدوية وبذلك صار ممرضا يصرف الأدوية لمن يأتيه وهى غالبا نوع من الحبوب البيضاء فاعتبره الناس طبيبا والحقيقة أنه عجوز متفانى فى خدمة أهل قريته وهم يعتبرونه طبيبا وينادونه بذلك إلا أنهم إذا ما غضبوا منه عيروه بالخمر فيقولون هذا

السكّار لأنه كان معتادا على شرب نوع من الخمر يسمى لاقبى يستخرجه أهل الشاطئ من النخيل ويبيعونه فى الأسواق المحلية وهو نوعان حلو غير مسكر وآخر يطيح برؤوس الشاربين، ومن كبرى الكبائر لدى هؤلاء القوم شرب المسكرات وإذا حدث أن تناولها البعض فبسرية تامة وتلك عادة المجتمع المغلق على أى حال.

قيل لعبد الله إن شفاء والده فى أكل الأفاعى السامة فصار يبحث عنها ويوصى الآخرين وهى كثيرة فى هذه النواحى حتى إنها كثيرا ما تقتل من يجره حظه إليها، والأفاعى التى تؤكل كدواء يقص مقدار ثلاثة أصابع موضوعة بالعرض من جانب رأسها وتلك هى منطقة السم كما يقولون ثم تطبخ فى ماء وملح ويؤكل لحمها وحدث أن شفى بعض الناس من أمراض كانوا يعانون منها بعد أن أكلوا عددا من الأفاعى، هكذا يقولون.

وعلى أى حال فقد كان الغرض هو المداواة والرغبة فى الشفاء وكما يقال فإن الغارق يتعلق بقشة والمريض كذلك، إلا أن والد عبد الله رغم ذلك لم يظهر عليه أى تحسن وكان دائم الإلحاح على ابنه بشأن الزواج، «يا ابنى كمل نصف دينك والأعمار بيد الله» هكذا يقول بكلمات متعثرة مقطعة يلوكها كأنما يمضغ شفرة حلاقة وما يكاد يلفظ تلك الكلمات حتى يطلب ماء يبل به شفتيه اليابستين وكان على عبد الله أن ينفّذ رغبة والده فرضى الوالدين من رضى الخالق، تزوج عبد الله من خديجة التى كانت والدته قد اختارتها منذ كانت صغيرة فقد كانت معجبة بها وزاد إعجابها بتلك الصبية ابنة العم بعد أن صارت شابة تهد فى أفراح الأقارب، ومتطلبات الزواج فى مثل هذا المجتمع بسيطة كبساطة حياتهم وتكاليفها قليلة، هى عبارة عن بعض الفضيات وملحفة أو رداء

وفستان وبلغة كلها عادية ومصنوعة إما محليا أو مستوردة من تونس فيما البلغة التى تكون أحيانا مطرزة بالخيوط الحريرية أوخيوط القطن المصبوغة بمختلف الألوان ثم بضعة شويهات تذبح فى المناسبة أما الأكل فهو البازين أو الكسكسى وأحيانا المرق وخبز الفرن وهو غالبا يصنع من الشعير وأحيانا من القمح، وبطبيعة الحال السكر والشاى والكاكوية.

كانت المناسبة فرحا وإن كان يتخللها بعض الانقباض، هى بهجة للناس وأهل العروس وتأسى لعبد الله وأمه، فالوالد مريض ولابد أن يكون الحمل ثقيلا على عبد الله الذى يدخل حياة الزوجية من باب ضيق، كيف لقلبه أن يفرح والآلام المبرحة تعصر جسد والده والقلق يهز كيانه لكنه على أى حال تزوج وصار عريسا وقد أقيم الفرح وهدّت النساء كما غنى المغنون غناءهم المباشر التعبير والتصوير وهى بهجة فى كل حال وقد أجاد الشعراء ورنّت المقرونة ذلك الصوت الرقيق المدغدغ، هى موسيقاهم والمعبرة عن أشجانهم ولابد أن موسيقى القرب فى ذلك البلد الأوربى الذى يلفّه الضباب والمطر دائما كانت تقليدا لمقرونتهم التى تشجن وتحزن وكانت الزغاريد تتعالى.

لم يكن والد عبد الله قد تجاوز الخامسة والستين من العمر ويذكر عبد الله أن والده عندما كان يعود من المسجد عبر ذلك الطريق المترب الذى يمر وسط المقبرة والذى تحفّه من الجانبين عشيبات كأنها لم تر الماء فى أى يوم من الأيام وكأنما هى تتغذى من عرق أرجل السائرين صعودا وهبوطا أو من قبور الموتى الذين اسودّت شواهد قبورهم من حرارة شمس الجبل، بعد صلاة الجمعة يكون متهللا يمشى الهوينة ونظراته موشّاة بالرضى والسكينة وأنه كان يحثه على إتمام نصف دينه قائلا إن السنين تفنى والعمر ينطوى كما ينطوى هذا

الطريق أمامنا، وإذا جلس لتناول الطعام فإنه يجلس هادئا راضيا ولا يمد يده إلا ويسبقها بالبسملة، باسم الله وعلى بركة الله.

الراقدون فى تلك المقبرة وهى قديمة وربما الوحيدة كانوا غالبا أقرباء ويعرف أحدهم الآخر وقد يكون البعض فقيرا والآخر غنيا ولكنهم فى القبر سواء، شريط طويل يمر أمام عينه وهو يرى والده طريح الفراش لم ينفع معه أى دواء، إنها إرادة الله، يتذكر أنه سأل ذات مرة امرأة تقازه وهى امرأة تجلس على الأرض وترمى بضع حجيرات وفحيمات على قماشة ملونة كانت تفرشها أمامها وتحرك عليها تلك الحجيرات بقفى يدها اليمنى وهى تخاطبها بتمتمات غير واضحة، سألها فنظرت إلى حجيراتها وأومأت بيدها قائلة، اليوم سعادة وغدا تعاسة، وقد تركها وهو يردد كذب المنجمون ولو صدقوا، تذكر أنها قالت طريق العودة واللاعودة، نظر إلى الجامع وهو المبنى الوحيد الواقف فوق الأرض إضافة إلى شواهد قبور الموتى فى تلك المقبرة، أما الأحياء فإنهم تحت الأرض سكناهم وسبحانه الباقى والدائم فى قوله ﴿ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾[1]، سار فى طريقه متفكرا، لا أحد يعرف ما يخبئه القدر.

كان والد عبد الله ميسورا فهو يحرث ويحصد ولديه جمل وفرس وعدد من الشياه وذلك ما يحتاجه المرء فى هذا المجتمع ليكفى حاجته ويعيش مستورا، على أنه كان يختفى أحيانا فلا يحضر جلسة الكندورة عدة أيام وعندما يسألونه يقول إنه كان فى الشط لدى أحد أصحابه وفى مرات أخرى يقول إنه كان فى الحمادة، وقد سرت الوشوشات التى تقول إنه متزوجا من جنية.

---

(١) سورة المؤمنين، الآية ١٤.

وتروى الحكاية إنه بينما كان ذات يوم متجها عبر غابة الزيتون الذى تشتهر به قريته وهو على صهوة فرسه إذا بامرأة واقفة قرب زيتونة وعندما اقترب منها تقدمت وامسكت برصن الفرس من جهة اللجام ثم طلبت منه أن يصحبها وإذ ترجل قالت له اتبعنى فسألها، وماذا عن الفرس ومن تكون؟ قالت اصحبنى إلى أهلى وإنها جنية تريد الزواج منه.

أما الفرس فتبقى فى مكانها بلا حراك وسوف تجدها عندما تعود، وفجأة بعد أن سار خلفها وجد نفسه أمام مجلس من كبار القوم ولم يكن يدرى أهو فوق الأرض أم تحتها.

عندما وقف أمام المجلس الذى كان يتوسطه رجلٌ ذو لحية بيضاء تتدلى على صدره ويظهر عليه الوقار خاطبته المرأة قائلة إنى أريد الزواج من هذا الإنسى، فسأله الرجل ذو اللحية البيضاء بعد أن اعتدل بشكل مهيب فى جلسته ويظهر أنه كان زعيم قومه من الجن، أحقا توافق على الزواج منها؟ ارتبك ولم يجب فعاود الرجل سؤاله، أحقا توافق على الزواج منها ؟

ارتبك ولم يجب فعاود الرجل سؤاله، أحقا توافق على الزواج منها؟

فأحس هذا بأنه لا خيار له فى ذلك وليس أمامه من فرصة وقد تذكر أنه سمع ذات مرة أن هناك حوادث مماثلة حصلت قيل فيها إن الإنسى إذا تزوج امرأة جنية على رغبتها وشروطها سيطرت عليه أما إذا أسعفته الذاكرة والشجاعة فقال إنه يتزوج بشروطه هو صارت تحت أمره وسيطرته وحسب طلباته، وهنا قال:

نعم يا سيدى، ولكن بشروطى أنا، فأنا أحكمها ولا تحكمنى أعاملها كزوجة وتعاملنى كزوج أطلبها متى شئت ولا تطلبنى، فسألها زعيم قومها، أتوافقين على شروطه؟

أجابت نعم أوافق، قال إذن تم الزواج.

غادر محمد المجلس ترافقه تلك المرأة وبعد هنيهة وجد نفسه فوق الأرض أمام فرسه التى وجدها واقفة فى نفس المكان.

كانت المرأة جميلة قمحية البشرة سوداء الشعر كأنما هى من الإنس ومن نساء قريته اللواتى عرفهن، مكتملة الأنوثة، وكان من ضمن شروطه أن يراها دائما فى هذا الشكل أى امرأة بكل معنى المرأة لأنه كان قد سمع أن بعض الجنيات يظهرن فى أشكال غريبة ومخيفة كأن تظهر الواحدة منهن رجليها مثل حوافر الحمار أو البقرة أو تأتى مصحوبة بريح شديدة أو فى زوبعة ترابية أو كعنزة أو طائر ... إلخ.

ومنذئذ صار يختفى بل وقيل إنها تأتيه بالأكل فى الصحراء وفى أصعب الأوقات وأحيانا ترعى الشياه إذا كان يريد أن يقضى حاجة ما بعيدا عنها ودون أن يراها أحد، ولقد وصلت الإشاعة وما أضيف إليها إلى أم عبد الله السيدة حليمة ورغم أنها حاولت عدم تصديق ما يشاع فالرجل تقى ولا يفوته وقت صلاة إلا أن تغيبه المفاجئ أصبح عادة مما يؤكد ما يقال وكان هذا الشىء الوحيد الذى يعكّر صفوة حياة هذه العائلة الصغيرة بين وقت وآخر.

لم يسأل عبد الله أباه ولا هو اهتم بما يقال إذ كان يحظى بكل العطف والود وعادة ما كان والده يقول له، إذا كبر ابنك خاويه فأنت ابنى وأخى الصغير، وكان الحاج محمد، وهذا ما ينادى به بين الأهل، مربوع القد قوى البنية ذا شنب معقوب، ولقد كان الشنب فى ذلك الوقت عنوانا للرجولة، وكان شديدا، نظراته نافذة وخصوصا مع الحريم حتى إن والدة عبد الله رغم ما تثيره فى نفسها تلك الإشاعات عن الزواج من الجنية وذلك التغيب المفاجئ لا تجرؤ على النظر

مباشرة فى عينيه ولا تقوى رجليها على الوقوف إذا ما نهرها، كان يحظى بالاحترام بين رجال عائلته على أن تينك العينين النفاذتين بالنسبة لعبد الله كانتا تفيضان محبة ورفقا وودا فهو الابن الوحيد المدلل الذى لا يرد له طلب، وسبحان الخالق العظيم، له فى خلقه شئون، وفى هذا المجتمع الصغير ذى التقاليد الراسخة يحتل الوضع الاجتماعى فيه مكانة خاصة، فالطفل يولد ويترعرع ويكبر ليمر بمراحل هى الذهاب إلى خلوة الفقيه لتعلم القرآن الكريم ثم مشاركة الأهل فى شئونهم الحياتية كالرعى والحرث والحصاد ثم الزواج وتكوين أسرة تسير على نفس المنوال.

وهكذا فقد تزوج عبد الله وكانت تلك أسعد أيام الوالدين، على الرغم من المرض الذى ألم بوالده، لقد كبر ابنهما الوحيد وصار رجلا، والزواج فى هذا المجتمع يحدث مبكرا خصوصا بالنسبة للبنات، ولقد كانت خديجة شابة جميلة معتدلة القوام ذات شعر أسود فاحم متناسقة التقاطيع تجمل وجهها عينان سوداوان تهفهف عليهما أهداب طويلة تفوقان الكحل فى اسوداده أما الخضاب على الأصابع الرقيقة والقدمان الصغيرتان فكأنه ابتكر خصيصا لها، وتلك الحناء السودانية الداكنة وهى أداة الزينة الوحيدة لديهم والتى يكثر استعمالها فى كل المناسبات، فى حين أن زيت الزيتون هو الدهان المفضل للشعر، وكان الوشم سائدا بين هاته النساء كبيرات وصغيرات لأنه يمثل نوعا من الزينة، ولا يعرف الرجال إلا نوعا واحدا من العطر يسمى، برزيتى، وهو ذو رائحة قوية تدوم طويلا، كانت خديجة تبلغ من العمر خمس عشرة سنة أما عبد الله فقد تجاوزها بسنتين، كانت والدة عبد الله رغم وهنها وهى امرأة معلولة أصلا ذات شعر أشيب ويدين جافتين وبقية من جمال آفل، تصّر على الجلوس أطول

مدة لإعداد الشاى الذى يقدم للنساء وكانت هناك ضوضاء فالأطفال لا ينهاهم أو يردعهم أو يقرعهم أحد فى مثل هذه المناسبات، كان عبد الله طويل القامة شعر رأسه كثيف ويزيّن وجهه شنب خفيف، حاجباه كثيفان، كتوم قليل الكلام وإن كانت ثمة فيه عادة قد تكون سيئة هى أنه سريع الغضب والحركة حتى إن خطواته تكون متلاحقة إذا ما مشى يراه المراعى كأنما هو يجرى.

انتهى الفرح وتفرّق الأحباب كل إلى غايته فى الحياة ومشاغلها وكان على عبد الله أن يهتم بوالده المريض رغم أنه لا يملك إلا الدعاء إلى العلى القدير أن يعافيه، وما هى إلا أيام معدودات حتى انتقل إلى الدار الأخرى كأنما هو كان ينتظر إتمام زواج ابنه عبد الله وانتهاء مراسم الفرح.

أصيبت الأسرة الصغيرة بصدمة ولفها الحزن بظلاله إذ كانت وطأة الحادث شديدة، ﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾[1]، ولكل أجل كتاب، دفن والد عبد الله فى نفس المقبرة التى كان يسلك الطريق المار بوسطها يوميا، وورى التراب وتقاطر المعزون يشدون على يدى عبد الله منهم من يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، ومن يردد الآية الكريمة: ﴿وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو﴾[2]، وإن الله مع الصابرين، وكانت أياما ثلاثة هى فترة العزاء المعتادة لدى المسلمين، بعدها انفض العزاء واستقر الحمل على كاهل عبد الله، استقر على أكتاف الشاب الذى لم يتزود بعد بعدة مواجهة ظروف الحياة.

كانت الأيام التالية كئيبة فارغة أليمة وقد أصيبت والدته هى الأخرى بما لم يعرف له تعليلا فهى صامتة باكية لا تقبل على الأكل ولا ترد على سؤال مما

(١) سورة الأعراف، الآية ٣٤.

(٢) سورة الأنعام، الآية ٣٢.

زاد فى تمزق قلبه، على أن الأيام كفيلة كما هى الحياة على مداواة الجراح والحياة عادة لا تتوقف.

دارت الأيام وتغيرت الأحوال فثمة مشاكل كثيرة لابد من مواجهتها بالصبر والإيمان، رزق بمولود أسماه باسم أبيه، محمد، وقد أدخل الزائر الجديد بعض البهجة على والديه رغم أن والدة عبد الله ظلت على صمتها وكانت تنتحب لأتفه الأسباب وتغضب من أقل بارقة أو إشارة فى شكل ضحكة أو بابتسامة كأنما كل الناس يجب أن يكونوا حزانى أبد الدهر، تنطوى فى زاوية من الداموس غير عابئة بأى شىء وكانت محاولات ابنها تفشل فى استرضائها دائما، وهو لا يدرى ماذا يفعل فلابد له أن يمارس حياته العادية كما لابد أن ينصرف إلى مشاغل الحياة وقد حل وقت الحرث حيث هطلت أمطار غزيرة مما يبّشر بسنة وفيرة الرزق إن شاء الله، وعليه أن يستعد للحرث أسوة بالآخرين وتلك هى السنة الأولى بعد وفاة والده وليس له أن يتخلف وإلا قيل عنه الشىء الكثير فأوصى زوجه خديجة مشددا على ضرورة الاهتمام بوالدته أكثر من أى شىء آخر، وقبل ذلك جاءها بفقيه قيل إن يده طويلة وإنه يشفى المرضى، وقال ذاك الفقيه إنها مصابة بالعون وهو نوع من الجن العدوانى وقد جلس القرفصاء عند رأسها وصار يتمتم بما لم يفهم وأمر الجن أن يخرج لكن ذلك الجن كما كان يوحى الفقيه بداية طلب أن يخرج بواسطة جرة مليئة بالذهب لكنه أجبره على القبول بأن يخرج فى إناء ملئ بالماء وطلب أن يوضع الإناء عند قدم المريضة حيث حركت رجلها فاندلق الماء وهنا قال الفقيه إن الجن قد خرج، وهكذا تركها نائمة إلا أنها فى الحقيقة لم تشف كما زعم ذلك الفقيه.

استعد عبد الله وأعد متطلبات الحرث ومما خفف الوطأة أن الناس لا يرحلون بعائلاتهم للحرث مثلما يحدث وقت الحصاد، وعلى الرغم من أن حساسيات وصدامات وأحيانا معارك وتقاتل تحدث وقت الحرث وبعد هطول الأمطار وسيل الوديان بين القبائل إلا أن هذه السنة كانت هادئة خالية من كل ذلك فقد ارتوت الأرض وزرع الناس القمح والشعير واستبشروا خيرا فقد جاد الله بالزرع والضرع، ﴿وأمطرنا عليهم مطرا﴾[(١)]، ﴿وأرسلنا الرياح لواقح﴾[(٢)]، تلك كلمات الخالق الرازق، ومرت السنوات زاهية بما أفاء الله على الناس من خير، وقد رزق عبد الله بطفل ثان أطلق عليه اسم أحمد أى اسم جده، وكانت الأسماء التى تطلق على الأبناء والبنات دائما عربية إسلامية لأن هؤلاء لم يصابوا بمرض التقليد وتقليعات المجتمعات التى بدلت جلودها ربما لأنهم بعيدون عن تأثير الإعلام إذاعة وصحافة ولم تكن قد وصلت إليهم حتى السينما الصامتة، على أن مجتمعهم الصغير هذا قد وفدت عليه أشياء جديدة أحدثت تغييرات فى العلاقات ونمط الحياة مثل تكاثر الدكاكين والتجارة الاستهلاكية.

ولقد حدث أن حلت بالبلاد سنوات عجاف إذ هطلت أمطار غزيرة مصحوبة برياح عاتية فقضت على أغلب الحيوانات فى مراعيها، إما جرفتها السيول أو ماتت وهى واقفة، وتلك هى ثروة هؤلاء الناس وسبيل معيشتهم، وأعقب ذلك سنوات عجاف شداد ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به بنات الأرض، فأصبح هشيما تذروه الرياح، وكان الله على كل شىء مقتدرا﴾[(٣)]، جفاف وتصحّر ورياح.

---

(١) سورة الشعراء، الآية ١٧٣. (٢) سورة الحجر، الآية ٢٢.

(٣) سورة الكهف، الآية ٤٥.

وإذ كان الناس يعيشون على ما ينتج من الزرع والحصاد والحيوان فقد صارت الحياة لا تطاق، على أن المصائب والكوارث تحدث عادة وتؤثر على حياة البشر ولكنها فى مثل حالة هؤلاء تقضى قضاء مبرما على سبل حياتهم، فعندما ينحجب المطر لا يكون لهؤلاء من طريق للعيش، وهكذا تحول المجتمع الصغير المتماسك إلى مجتمع قلق متوتر. والحياة الهادئة المستقرة إلى حياة مضطربة مشتتة فالكل يبحث عن منفذ وهم الذين لم يألفوا الهجرة ولا الاغتراب ولا خبروا حرفة أو صنعة أخرى غير التى عرفوها بالتوارث، والذى لم يخبر السفر والترحال لا يمكنه المخاطرة باصطحاب أطفال ونساء وعائلات الشىء الذى أدى إلى تفرق أفراد الأسرة الواحدة فصار القادرون صحيا على السفر يتركون البلاد بما فيها ومن فيها، الأولاد والزوجات والوالدون والجيران والأهل، إنه سفر إلى المجهول، كان البعض يلجأ إلى الفقى الذى يسدى النصح فيقول اطلبوا الرحمة من الله، ﴿ يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾[1].

ولكن الصبر أصبح مستحيلا إذا باعوا أو استبدلوا ذلك الشىء المتواضع الذى يملكونه مقابل صاع من القمح أو الشعير وحتى هذا لم يعد متوفرا، إذن لابد من البحث عن رزق فأرض الله واسعة، قيل لهم إن بلاد الشرق، برقة، لها خيرات وأهلها طيبون فقرر البعض التوجه شرقا والبعض الأخر توجهوا غربا إلى تونس وهى بلاد أخرى والبقية القليلة عملت بنصح الفقيه فرابطت وربطت على البطون ﴿ والذين هاجروا فى سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقا حسنا وإن الله لهو خير الرازقين ﴾[2].

★ ★ ★

(١) سورة آل عمران، الآية ٢٠٠.

(٢) سورة الحج، الأية ٥٨ .

الفصل الثانى

طريق العودة

..... معاناة ما بعد المعاناة ،،

غير مجد فى ملتى واعتقادى
نوح باك أو ترنم شاد
أبو تمام

والنفس راغبة إذا رغبتها
وإذا ترد إلى القليل تقنع
شاعر عربى

وقال تعالت قدرته فى كتابه الكريم:

﴿وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين﴾[1]
صدق الله مولانا العظيم

(١) سورة هود، الآية ٦.

ربما

صدق ابن زيدون في بعض الحالات عندما قال:

اغتنم صفو الليالى إنما العيش اختلاس . . .

ولكن أين هى الليالى الصافية، وسبحانه القائل فى محكم كتابه الكريم ﴿قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلا مما تأكلون ❋ ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتهم لهن إلا قليلا مما تحصون ❋ ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون﴾[1].

هكذا بالضبط، فقد كان الغيث وكان الزرع والضرع ثم حلت السنوات الشداد فما بقى لهؤلاء شيئا مما يحصدون، ويحدث دائما فى حالات الكوارث الطبيعية أن وطأتها تقع مباشرة على الفقراء راقدى الريح، فقد توقف الغيث وكانت مسغبة، ولابد أن فى ذلك حكمة من عند الخالق الكريم.

ضاق الحال بالناس، منهم من شد الرحال فرحل دون إبطاء إلى أى مكان اعتقد أن فيه سعة وأنه قد يجد فيه فرصا للكد، فأرض الله واسعة ومنهم من ينتظر لعل وعسى

أقيمت صلوات الاستسقاء فى كل مكان طلبا للرحمة ففضل الله واسع وقد أصابت المجاعة أغلب الناس حيث صاروا يأكلون الأعشاب والفكريس والفيتورا وحتى القليل من التمر الذى كان يأتى من فزان لم يعد متوفرا فقد كانوا ينقلون القمح والشعير ليقايضوا به فى الحصول على التمر، وكانت الرحلة

(١) سورة يوسف، الآيات ٤٧ - ٤٩ .



تستغرق بين أسبوعين إلى ثلاثة أسابيع ذهابا وعودة بالإبل ومشيا على الأقدام إذ لم تكن هناك مواصلات والرحلة عبر صحراء قاحلة تنعدم فيها المياة وتكثر فيها الأفاعى السامة، وقد انفقد القمح والشعير وبالتالى التمر كما أن أولئك الذين كانوا يسافرون إلى فزان تعذر عليهم ذلك لأن الزاد قد نضب ولم يعد لديهم ما يقتاتون به فى رحلة الطريق وما يسد رمق عوائلهم أثناء غيابهم، وليس هناك من مفر غير التفكير فى الهجرة والبحث عن مكان العيش، أولئك الذين غادروا مبكرا منهم من قضى نحبه فى الطريق ومنهم من استقر فى أقرب مكان وجد فيه قليلا من العيش ولو فى أعمال وضيعة رغبة فى عدم الابتعاد عن الأهل ومسقط الرأس وهو عزيز، على أن الهدف أساسا كان الوصول إلى بنغازى فى برقة إذ كانت خيرات تلك البلاد على ما يحكى وفيرة وهناك تجار مخلفات الحرب العالمية الثانية فقد ظهر مقاولون تجارا أجانب اتخذوا لأنفسهم وكلاء من أهل البلاد وصاروا يشترون تلك المخلفات، النحاس والألمنيوم والحديد، وتلك كانت كثيرة فى الساحات التى دارت فيها الحرب بشدة، طبرق وبئر حكيم والعلمين.

كان أولئك الذين استقروا فى بنغازى خلال أول فترة من النزوح قد كيفوا أنفسهم حسب الظروف التى واتتهم دون أن يثيروا فضول أهل البلاد الأصليين، ذلك إن من له قريب أو معرفة هناك قد لجأ إليه من أجل المساعدة فى عمل أو سكن وما إلى ذلك.

كانت أول مركبة قد توقفت بهم فى أوائل منتصف الأربعينيات بعد رحلة عناء شديد فقد كانت المركبات قديمة وبطيئة فى السير والمناطق مقفرة فى الطريق الطويل بين طرابلس وبنغازى وهو شريط أسود ضيق ما يكاد يتسع لعربتين فى اتجاه متعاكس.

لم تكن بنغازى تلك المدينة الكبيرة ولكنها قديمة قائمة على سبخة سكنها مهاجرون قدامى جاؤوا أيضا من الغرب وكانوا يمارسون تجارة التنقل لكنهم استقروا هناك وكونوا مجتمعًا يمارس البيع والشراء وقد عرفت تلك المدينة بأسماء كثيرة آخرها اسم بنغازى نسبة إلى مرابط جاءها من المغرب يسمى سيدى غازى وقد مات ودفن بها ومازال ضريحه معروفا هناك حتى الآن، وكانت المدينة وقتئذ تنقسم إلى قسمين تفصل بينهما سبخة يمتد فوقها طريق معبد صغير وهو الصلة الوحيدة بين هذين القسمين وبين القسمين فى منتصف الطريق يقع مبنى مرتفع يسمى السيلس وهو عبارة عن صومعة لخزن الحبوب، هناك توقفت العربة حيث نزل منها أولئك المهاجرون الفقراء إلى عالم مجهول بالنسبة إليهم مع أنهم يعلمون أنها جزء من بلادهم التى تسمى ليبيا، ليتعاملوا مع أناس لا يعرفونهم وإن كانوا يتكلمون نفس اللغة ويدينون بدين الإسلام، دين الرحمة، ولابد أن تتوفر الرحمة وربما الاستقرار وكما يقال فى الأمثال العربية، الغريق يتعلق بقشة.

فعندما وصل هؤلاء المهاجرون الأوائل استقروا فى أماكن متواضعة كتلك البيوت التى أصيبت فى الحرب وبقيت خالية ووجدوا فرص عمل فى المعسكرات التابعة للجيش البريطانى إذ صاروا يقومون بالأعمال الصعبة كتحميل عربات الجيش أو أعمال النظافة وغيرها، وكان العامل يتقاضى أجرا قدره أربعة عشر قرشا فى اليوم مقابل عمل يستمر حوالى اثنتى عشرة ساعة، على أن هذا المبلغ يكفى بالكاد لإعالة أسرة من أربعة أو ثلاثة أشخاص وهم فى وضعهم ذاك لا يحتاجون إلى أكثر من حصير ينامون ويجلون عليه وبعض أوانى للطبخ والشرب، إبريق ماء وقدر وأشياء أخرى متواضعة إن أمكن أما الملابس

فهم يشترون تلك المستعملة والتى تباع فى أسواق شعبية وهى أيضا أعقاب ملابس من جنود الجيش، أما البعض الآخر أولئك الذين لم يجدوا عملا فى المعسكرات فقد صاروايعملون فى الغابات ويبيعون الحطب والفحم، وكان على أولئك الذين يبحثون عن العمل فى معسكرات الجيش أن ينتظروا أمام مكتب يسمى، فيشو لافورى، وهذه لغة إيطالية، أى مكتب العمل وتحت شمس حارقة أحيانا لساعات طويلة ولعدة أيام أو حتى شهور، وإذا ما ظهر عليهم المسؤول فى المكتب اندفعوا نحوه فى زحام وتدافع على أمل أن يسجل أسماء البعض منهم وهو عادة ما يطلب شخصا أو اثنين وهكذا يعود الباقون إلى الجلوس والانتظار، ومن ليس له مكان إقامة وذلك هو الغالب ينام أمام مكتب العمل ذاك ويقضى حاجته البشرية قرب أى حائط متهدم وما أكثر تلك الخرابات حيث إن المدينة لم تستعد عافيتها من آثار الحرب.

ومن لم يجد عملا وخصوصا أولئك الشبان الصغار صار يبيع الأشياء الصغيرة للجنود وأسرى الحرب من ألمان وآخرين يعرفون باسم (المرسيان) وهم ملونون ربما كانوا من موريشوس فى أفريقيا وقد حرفت الكلمة فى الاستعمال المحلى، كان الطفل أو الشاب يقف أمام المعسكر وهو يحمل صندوقا من الخشب مقسوما على جزئين وموصولا بحبل أو خيط حول رقبته بحيث يتدلى على صدره وتكون فيه بضاعته وهى عبارة عن بيض مسلوق أو كاكوية مقلية بالملح، ومقابل ما يبيعون يشترون سجاير وبعض الفضلات ويجمعون أعقاب السجاير التى يفركونها فيما بعد ويبيعونها فى أكوام صغيرة لأولئك الذين يدخنون ولا يملكون ثمن شراء السجاير الملفوفة وهذه تباع فى سوق شعبى يعرف باسم سوق الرويسات، وتكون حصيلة الشاب أو الطفل من جمع بقايا

الخبز وجبة فى الغالب لعائلته، وكان الإنجليز عادة لا يعطونهم ذلك الخبز وإنما يرمونه مع القمامة وعلى هؤلاء أن يجمعوه منها والخبز ذاك فى العادة يكون مدهونا بالمربى الشىء الذى يجعله مليئا بالتراب وغيره إلا أن هؤلاء يمسحون ما يعلق به ويأكلونه، لعن الله الفقر.

كانت العملة المتداولة فى بنغازى وغيرها من المناطق الشرقية هى الجنيه المصرى أما فى طرابلس فقد كان الفرنك الإيطالى والشيلن الإنجليزى الذى يستعمل محليا فقط وقد اعتاد الإنجليز أن يطبعوا عملة محلية تستخدم فى المكان الذى يسيطرون عليه وهى عادتهم فى أن كل شىء يعملونه فى المستعمرات لابد أن يكون مؤقتا.

وعلى الرغم من أن أهل البلاد وهم فى الحقيقة كانوا قد جاؤوا أيضا من مختلف المناطق والقبائل والأعراق، غالبا من الغرب، إلا أنهم استوطنوا وتملكوا وصاروا ينتمون إلى تلك البلاد وبالرغم من أنهم استفادوا من أولئك المهاجرين الجدد لأنهم عمالة رخيصة تؤدى أى عمل إذ إن من كانت له حيوانات وجد رعاة لها ومن كانت له زراعة وجد من يزرع ويحصد لكن موجات الهجرة من الغرب إلى الشرق تزايدت بشكل مثير ومعها جاءت عادات وتقاليد وسلوك وقيم ربما كانت غريبة على أهل الشرق وهكذا حدثت المشاكل وصار أهل تلك البلاد يقولون إن (عرب الغرب) جاؤوا ليأكلوا خيرات بلادنا، ولأن الإدارة أجنبية ولابد أن سياسة بلادها كانت تحبذ بل وتعمل على عدم التقارب بين الناس بل بين أصحاب وأبناء البلد الواحد، وقد ساعد على ذلك أن ليبيا كانت مقسمة إلى ثلاثة أقسام أو أجزاء أو قل حكومات محلية قد تتصور إلى أن تكون حكومات مستقلة متعادية متخاصمة فيما بعد إذا ما أراد المستعمرون ذلك

مستقبلا، أو لم يقسموا الوطن العربى الذى كان واحدًا فصار عشرات الأوطان والحكومات؟ ومن مبادئ الإنجليز مصطلح (فرق تسد).

كانت برقة وهى إمارة لها أمير وحكومة محلية وبرلمان ومجالس وإدارات خلافا لما كانت عليه طرابلس وفزان، بمعنى إنه كان هناك غرب وشرق فالمهاجر من نواحى طرابلس يعرف فى برقة باسم الغرباوى، وهذا الغرباوى كان يمثل الأكثرية الفقيرة التى جاءت إلى أراض فيها أقلية مرتاحة أو هى ربما غنية، وكان القلق الذى أظهره بعض الناس، والله يعلم من كان وراء ذلك، قد نتج عنه إجراءات رسمية فقامت الشرطة بحملة استمرت طويلا لطرد أولئك الذين جاؤوا من الغرب أى (الغرابة) ولم تكن هناك طريقة يمكن بواسطتها معرفة الغرباوى من الشرقاوى غير اللهجة ذلك أن الناس لم تكن لديها بطاقات أو جوازات سفر أو ربما حتى شهادات ميلاد، ولهذا صاروا يقبضون على كل من يشتبه فيه على أنه غرباوى.

كانت سيارات الشرطة تجوب الأحياء والشوارع لهذا الغرض وما أشرسها عندما تجد الفرصة، وفى التحقيق كانوا يسألون المقبوض عليهم (قل شبكة وقل ثور وقل ثلاثة) فإذا قال (تور وشبكة وتلاتة) يقررون أنه غرباوى أجنبى فيرحل إلى خارج الحدود، وتلك الحدود كانت عند القوس وهو العلامة الفاصلة بين طرابلس وبرقة، وعادة فإن أهل الشرق يقولون (ثور وشبكة وثلاثة) وأهل الغرب يقولون (تور وشَبَكَة وتلاتة) أى أن الفرق الذى يقرر مصير الإنسان هو نطق حرف واحد (الثاء)، كان ذلك يحدث فى المدن ولهذا فقد ابتعد المهاجرون إلى الأرياف ومناطق الدواخل.

وليتصور معى القارئ الكريم كيف كان يتم القبض والتحقيق مع الناس وكيف كانت إجراءات ووسائل الشرطة فى القبض والمطاردة ثم كيف يكون شعور مواطن يقبض عليه ويطارد ويطرد وهو فى بلاده !!

كانوا يحشرون الناس فى حجرات ضيقة قذرة تعج بالبق والحشرات، وفى التحقيق ينهالون عليهم بالتقريع والإهانات وحتى الضرب، أما إذا حاول أحدهم الهرب فحدث ولا حرج مما سيلاقى من عذاب.

كانوا قبل القبض عليهم يهربون فى كل اتجاه للاختباء وتحاشى القبض عليهم، ولقد حدث لأحد الهاربين أن انقلع حذاؤه فاستمر يجرى حافيا ولم يكن يملك مالا يشترى به حذاء غيره فظل يمشى حافيا، وآخر فلتت منه عمامته وهو يجرى ولم يستطع التقاطها وقد كانت غطاء لرأسه فى النهار وفراشا به فى الليل، وثالث عثر بعد أن التفت وهو هارب فوقع لتنكسر رجله وعندما قبضوا عليه صاروا يحققون معه وهو يصرخ من الألم وبعد التحقيق نقلوه إلى المستشفى ليبقى تحت الحراسة لأنهم قرروا أنه غرباوى أجنبى ولابد أن يرحل، ومن هؤلاء من يرحل دون أن يسمح له أن يرى أطفاله وفيما بعد يضطر للعودة من خارج الحدود أى بعد القوس لينضم إلى أطفاله الذين بقوا خلفه دون أن يعرفوا عنه شيئا، وأحيانا يعود مشيا على الأقدام إما لأنه لا يملك أجرة الركوب أو لأنه يخشى أن يقبض عليه مرة أخرى ولقد كان رجال الشرطة عندما يحققون مع الواحد منهم ويتأكد لديهم أنه غرباوى يستولون على ما لديه من متاع.

يحدث هذا لمواطن فى وطنه، فليبيا لكل الليبيين وإن كانت إدارتها أجنبية، وحتى هؤلاء البسطاء الذين أجبرهم الفقر وغضب الطبيعة على ترك

مواطنهم ومواقع رؤوسهم بحثا عن الرزق كانوا يعرفون أن آباءهم وأجدادهم قد قاتلوا وجاهدوا سويا ضد كل الغزاة، وكان الجهاد من أجل ليبيا ولكن ما حيلتهم إذا كان الحاكم أجنبى.

ولم تكن الهجرة إلى جزء من بلادهم إلا قسرية ومع ذلك فقد كانت مفيدة إذ أدرك أهل البلاد المستوطنون ذلك وإن بعد معاناة ومشاق ودموع، على أن الدموع عادة عندما تنهمر من عيون كثيرة يتعمق الإحساس بالمأساة وجدوى البكاء ذلك أن اهتياج العواطف فى الصدور يعنى صدق إنسانية الإنسان، هكذا يقول علماء النفس.

ولقد حدث أن اختلط الناس وتعاونوا ذلك أن المزارع وجد صاحب مزرعة يعمل معه والعامل وجد صاحب شركة أو مؤسسة أو معمل يستخدمه، وحامل كتاب الله وجد الطلبة فجاد عليهم بما منحه البارى من علم ومعرفة بالقرآن وأصول الدين، والحقيقة أن أكثر الناس ترحيبا برجال الدين واعتقادا فى رسالتهم كانوا أولئك البدو الذين يعيشون فى تجمعات خارج المدن، إنهم مازالوا أنقياء ورسالة الإسلام تجد قبولا وتأثيرا فى قلوبهم وأفئدتهم، وكانوا يقولون عن حامل كتاب الله (سيدى الفقى) وهذا الفقيه لا يعلّم الأطفال فقط وإنما يصلى بالناس ويرشدهم إلى أصول دينهم ويكتب الأحجبة للمرضى ويحرر عقود الزواج طبقا للشريعة الإسلامية كما يكتب عقود المصالحة عندما يتم الاتفاق بين أطراف متخاصمة، بل إن كلمته مسموعة فى التوفيق بين الناس وحتى الأزواج.

وكان هؤلاء الفقهاء يكتفون بالنذر اليسير الذى يأتى من تعليم القرآن الكريم لأنهم يرون أن تلك رسالتهم وأن أجرهم على الله سبحانه وتعالى.

كان الواحد منهم تغطى جسده أسمال بالية أو شبه بالية ولكن عقله عامر بالإيمان فهو يؤدى رسالة السماء، دين الإسلام الحنيف، دين المحبة والإخاء والصفاء والأمانة، وكان مجيئهم إلى هذه البلاد يشبه مجىء أولئك الرواد الأوائل الذين نشروا رسالة محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام فى أغلب أرجاء المعمورة، هم مثل أولئك الصوفيين العابدين الناسكين، وعلى الرغم من أنهم واجهوا بعض المتاعب والصعاب كما واجه أولئك لكن ديننا حامل رسالة الصبر، إن الله مع الصابرين، هذا ما يرددون إذا صعب الأمر، ولقد كانت عدتهم كتباً قديمة أغلبها مخطوطات يدوية، قرآن كريم، أحاديث نبوية، نهج البردة، دعاء الصالحين، تفسير الجلالين، فقه السنة ... إلخ.

كان أحد أوائل أولئك القادمين، وإن لم يكن من الفقهاء فهو رجل أمى دفعه الفقر كغيره إلى ذلك المشوار، يدعى محمد بن أحمد ولم يشأ أن يترك أسرته الصغيرة، كما يقول، خلفه، فهى عبارة عن طفل وزوجة، وكان ذلك الطفل لما يتجاوز السادسة من العمر جاء به والده إلى عالم جديد دون أن يسأله، وهل يسأل الطفل عن مصير أسرة، عندما هبط من العربة بعد نوم عميق فى دفء حضن أمه، فتح عينيه فإذا هناك عالم آخر، عربات وحركة دائبة وألبسة من مختلف الألوان والأنواع بيع وشراء وضجيج لم يألفه فى تلك القرية الصغيرة التى غادرها دون أن يعرف إلى أين المسير والمصير، رب الأسرة وإن كانت صغيرة لا يملك حتى ثمن غذاء يومهم ولا يضمن أو يتوقع أن يجده، هو رجل أمى ولا يتقن أى حرفة ولا عمل إلا بيع جهده العضلى إذا وجد الشارى، يأمل فى أن يعلم ابنه الصغير هذا فلا يكبر دون أن يتزود بسلاح العلم، كان يقول له لابد أن تدرس، وتدرس دائما، وكلما رأى من يقرأ يضرب كفا بكف متحصرا

ويشير لابنه، أرأيت هذا البيك؟ كان الذى يرتدى ملابس إفرنجية عادة ما يشار إليه بذى اللقب.

هبطوا من تلك العربة التى ما فتح بابها الخلفى إلا بصعوبة وهو يطرطق بعد أن قضت أياما بين طرابلس وبنغازى، وما رغب سائق تلك العربة أن يذهب بالركاب إلي الجنسية لأن صاحبها لا يريدهم فهؤلاء فقراء لا يجنى من ورائهم إلا التعب كما يقول.

كان الرجل يعلم أن له ثلاثة من الأقرباء يقيمون فى بنغازى منذ مدة بأسرهم أحدهم فى منطقة تسمى الكيش وهى فى ذلك الوقت أفقر المناطق وأكثرها بؤسا ساكنوها يعيشون فى أكواخ مبنية من الصفيح، والأخران فى منطقة تسمى البركة يقال إن أحدهما بقال والآخر خياط ملابس.

ترك الزوجة والطفل تحت شجرة قريبة من المكان الذى هبطوا فيه من العربة التى أقلتهم من طرابلس وبالقرب من الشجرة حائط مقبرة سيدى داود ولهذا فهما - أى: الطفل والزوجة - سيتظلان بالشجرة وورائهما حائط المقبرة يقيهما ريح ذلك النهار، والله وحده يعلم كم سيبقيان هناك، لم يكن مع المرأة غير صرة بها بعض الملابس القديمة أما الطفل فهو حافى القدمين عارى الرأس عليه أسمال بالية هى عبارة عن قميص وسروال وكانت رِجْل السروال اليمنى مقطوعة.

سأل الرجل عن منطقة البركة دون أن يعرف أن مقبرة سيدى داود هى جزء من البركة، فقيل له اتجه قِبْلَةَ ومع الطريق المعبد مباشرة ستجد مركزا للشرطة على يمينك وبعض المبانى على شمالك فى أولها مسجد ذو قبة ومنارة دائرية، اسأل هناك، ارتعب من سماع مركز الشرطة فهو قد وصل لتوه وترك ابنه وزوجه فى العراء وبلا أكل أو شرب فماذا سيحدث لو قبض عليه ورحل؟

قرر أن يبتعد عن مركز الشرطة بقدر الإمكان ذلك الذى يقع على جهة اليمين كما قيل له وليتجه إلى جهة الشمال، توكل على الله، سار فى الطريق المعبد يحدق النظر فى وجوه الناس الذين يركبون عربات الكارو ويلتفت ليرى تلك التى تأتى من خلفه، فقد كان الكارو والكروسة هى الوسيلة الأساسية فى النقل وعادة ما يجر الكارو حصانا أما الكروسة فيجرها حمار، كان ينتعل صندلا مصنوعا محليا من جلد الإبل وهو النوع الوحيد الذى عرفه والذى يستعمل فى بلاده، ويرتدى قيمصا وسروالا أبيضين وقد اتسخا عليهما بالطو مصنوع من قماش يشبه قماش خيم الجنود وعلى رأسه كبوس تحته معرقة وفى يده علبة نفه (نشوق) إذ إنه كان قد أصيب بالرمد منذ مدة وقيل له إن نشوق مسحوق التبغ المخلوط بالعنبرة مفيد فدأب على ذلك حيث أصبحت عادة لازمته إلى آخر أيام حياته.

مر بسلام قبالة مركز الشرطة وهو ينظر بتوجس وخوف إلى المبنى المهيب المرعب، أليس هؤلاء هم الحكومة وهم الذين يقبضون على الناس ويرحلونهم دون رحمة ولا شفقة؟

رأى شرطيا يقف أمام مدخل المبنى فارتعشت فرائصه كأنما ذلك كان يتهيأ للقبض عليه، خمن ماذا سيفعل فى تلك الحالة؟ كان الهلال الذى يحيط النجمة البيضاء يلمعان فى مقدمة الكلبك الذى يضعه الشرطى على رأسه، وذلك هو شعار البوليس السنوسى (كان شعار الشرطة فى برقة هلالا ونجمة بينما فى طرابلس كان صورة حصان أبيض وكلها من حديد أبيض وتصنع فى الخارج) رأى العلم الأسود الذى تتوسطه تلك النجمة والهلال يرفرف فوق المبنى وهو علم السنوسية وذلك هو المظهر الوحيد الدال على سلطة الإمارة إذ

كانت كل السلطات فى يد الإنجليز أى أن المحتوى إنجليزى والغلاف ليبى برقاوى، على كل حال هذا لا يهمه وليس من شأنه، المهم أن يمر بسلام ويلقى قريبه حيث يتدبر أمر زوجه وطفله قبل حلول الليل فقد كان الوقت عصرا وهو يحث الخطى مسرعا، تمنى لو كان بإمكانه أن يغير تلك الملابس التى تبين للناظر بوضوح لا يقبل اللبس أنه من الغرب، ولكن أين هو ذلك فليس للجائع أمانى غير لقمة يسد بها الرمق، وهو لا يفكر فى نفسه وإنما فى ذينك الاثنين اللذين تركهما قرب مقبرة سيدى داود، الزوجة وذلك الطفل الذى يتمنى له أن لا يعيش مسغبة كالتى عاشها هو والذى يريد له أن يكون متعلما عالما مفيدا، ترى هل كثير عليه أن يتمنى حتى لو كانت الأمانى بعيدة؟

تنهد وقال فى داخله، الله يسهل ... وبعد مسيرة ساعة تقريبا كانت كلها خوفا وترقبا فهو لا يملك من المستندات حتى شهادة ميلاد مع أن أى أوراق لا تنفع مع أفراد الشرطة المتنمرين، اهتدى إلى محل أحد أقاربه وهو ذلك البقال وعلى الرغم من أنه قد عرفه عندما سلم عليه وذكر له اسمه وعائلته وبيته إلا أن المقابلة كانت باردة كالثلج، ربما لأن هؤلاء الناس قد ملّوا من سؤال وتطفل القادمين، والمحتاج مجبر أحيانا على التطفل والمحتاجون كثير، قال فى داخله، (الجرانة مسكينة والحنش جيعان) ورغم المقابلة الباردة ومظهر الاشمئزاز فقد طلب من ابن عمه أن يساعده فى العثور على مكان يأوى أسرته، وأضاف إنه ترك زوجه وولده فى العراء وهو لا يعلم ماذا سيحدث لهما وأنه يخشى الشرطة وهو لا يريد إلا السترة وسوف يبحث عن عمل أى عمل وفضل الله كبير وكثير.

إن عائلته صغيرة وأى مكان يمكن أن يكفيها، ويود أن يسلّفه ابن عمه أى مبلغ بسيط ولو جنيه واحد يعيلهم به يومين أو ثلاثة أيام إلى أن يجد عملا، وعلى مضض أعطاه الجنيه وقال له إن المبانى الواقعة خلف مركز الشرطة خالية غالبا ويمكنه أن يقيم فى أى حجرة بها سقف فى هذه المبانى، من العادة فى مثل هذه الحالة أن يدعو الواحد الآخر كأن يقول تفضل، لكن ابن العم هذا لم يفعل ومن المعروف عنه أنه عصبى المزاج قلق دائما حتى أنه يكسّر البيض أو يرفس الطماطم إذا ما قال له أى مشترى إن الثمن مرتفع أو فاصله فى السعر، وعلى الرغم من أن دكاكين البقالة لم تكن كثيرة فى المنطقة إلا أن دكانه كان أقلها مبيعا بسبب من عصبيته، هذا فى الأوقات العادية أما فى أوقات الصيام أى خلال شهر رمضان فحدث ولا حرج إذ إنه لا يفتح دكانه إلا نادرا لأنه لا يطيق الصوت العالى أو الكلام الكثير أو أى طرطقة، ويقول الليبيون عن هكذا حاله إن فلان (محشش فى رمضان) وإذا كان هناك شيئًا فوق التحشيش فهى من عادات ابن العم هذا خلال شهر الصوم، وعلى أى حال فقد كانت أمائر الفرح ظاهرة على وجه الرجل الفقير، فالعصبية لا تهم وكذلك الامتعاض طالما أنه حصل على الجنيه الذى سيحل مشاكله مؤقتا، إلا أنه عندما فكر فى المبانى الواقعة خلف مركز الشرطة اختلجت عضلات وجهه لأنه كان مرعوبا من الشرطة وهو بعيد عنها فكيف يسكن بالقرب منها؟

وبعد أن حاول الانصراف عاد ليسأل، أترى أنه لا مكان آخر غير هذا القريب من المركز؟

أجابه، لا عليك فأنا أعرف ضابط المركز وإذا ما حدث أى شىء فسوف أكفلك، فرح بذلك واطمأن قليلا رغم أنه لا يثق فى أى شرطى إذ ترسخت تلك

الحكايات التى سمعها عنهم، لاحت على محياه شبه ابتسامة أما الضحك فقد غاب عنه منذ وقت طويل، إيه إن هموم الدنيا تشيب الطفل الرضيع، هكذا قال دون أن ينطق.

كان ذلك الجنية منحة من السماء إذ كان يمثل دخل رجل يعمل لمدة عشرة أيام كما أنه كان كافيا لإطعام العائلة لمدة أسبوع على الأقل وعليه أن يقدر ذلك فيما بعد عندما يبدأ فى شراء ما يحتاجونه، ولم يهدأ أو يرتاح إلا بعد أن لاحت من بعيد شجرة الأ كاسيا الخضراء ورأى ابنه وزوجه مازالا هناك قابعين قرب جدعها، كانا فى انتظار رحمة الله يتضورون جوعا وعطشا، وكان قد جاء بثلاثة أرغفة من الخبز الأسمر الجاف بثمن نصف قرش أحمر مثقوب من الوسط ومعها حبات من الطماطم وتلك وجبة دسمة لبطن جائعة وما عدا ذلك فهو ترف لا يتناسب مع حالتهم، وقد حكى لزوجه وكان الطفل يستمع تلك القصة المتداولة عن حكيم كان يوصى ابنه قائلا، إذا كنت مع جماعة فى سفر فلا تشكو إذا تعبت لأنهم مثلك ولا تأكل الخبر إلا بالعسل وإذا دخلت حصاة بين رجلك وحذائك اقلعها لأنها تخصك وحدك، فنفذ الابن الوصية ما عدا العسل الذى لم يجده ليأكل به الخبز، وحار فى أمره إلى أن لجأ إلى رجل مسن يسأله النصيحة وقص عليه وصية والده، فقال له ذلك الرجل تعال غدا دون أن تأكل شيئا فأحقق لك ما تريده.

جاء فى الموعد المضروب وأبقاه الرجل المسن يوما كاملا بلا أكل على الإطلاق ثم بعد منتصف الليل أتاه بقطة خبز فالتهمها فورا لأنه جائع وهنا سأله ذلك العجوز قائلا، ما رأيك فى طعم الخبز فرد، إنه لذيذ، قال له هذه وصية أبيك، لا تأكل إلا إذا كنت جائعا.

هكذا هى الحال بالنسبة للفقراء، قليل يسد الرمق، أكلوا تلك الأرغفة مع حبات الطماطم ولابد أنها كانت فعلا بالعسل وشربوا ماء باردا إذ كان هناك بئر ماء داخل المقبرة عليه علبة صدئة موصولة بحبل مربوط فى حلقة حديدية، أنزلوا تلك العلبة مع ثقب دائرى فى وسط غطاء البئر، تبادلوها حتى ارتووا، فضل من الله، والحمد لله، رددوها عدة مرات والطفل ينظر إليه وبحكم العادة قال الطفل، الحمد لله.

كان عليهم بعد ذلك أن ينتقلوا إلى مكان الإقامة، أى المكان الذى نعتة له قريبه، فصار مرة أخرى يفكر فى المركز ولكن ما عساه أن يفعل إذ لابد من سقف وأربعة حيطان حتى لو كانت بحذاء الشرطة وضعت المرأة تلك الصرة التى بها بعض الملابس على رأسها وأمسكت بيد ابنها وتبعاه، كانت حافية القدمين وكذلك الطفل ولا أحد منهم يعرف ما الذى سيحدث بين المقبرة ومركز الشرطة وذلك المبنى المنعوت المتهدم.

ما أصعب أن يكون الإنسان جائعا وخائفا بل ربما حتى فاقد الأمل، صار يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات الأرض ولا يئوده حفظهما وهو العلى العظيم﴾[1] صدق الله مولانا العظيم.

وهو رغم أنه أمى إلا أنه كان يحفظ سورا من القرآن الكريم وهذا فرض على كل مسلم كفرض الصلاة.. وصلوا بسلام وكان المبنى مهدما من جانبيه

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٥٥.

الشمالى والغربى إلا أنهم وجدوا فى الجانب الشرقى حجرتين أرضيتين سليمتين بينهما دورة مياه حائطها الشرقى مهدوما، ولم تكن فى أى الحجرتين أبواب ولا نوافذ، قال بعض الشىء خير من لا شىء.

دخلوا ووضعت المرأة تلك الصرة التى كانت فوق رأسها ونظرت يمنة ويسرة فإذا الحيطان قائمة ولكن الأرض قذرة تنبعث منها روائح البول لكنها أفضل من ظل شجرة الأكاسيا قرب المقبرة.

وكان عليه أن يشترى بعض الأشياء فهم كما يقول المثل الشعبى (طير على حطبه) سيحتاجون حصيرة ولتكن قديمة وربما بطانية مستعملة ولا حاجة للوسائد وكذلك قدر أو طنجرة وصونية، كان معهم براد شاى وطاسة واحدة وسيوقدون النار بالحطب أو ببعض الخشب الذى يمكن جمعه من الجزء العلوى من المبنى وجردل للماء وعلبة كيفما تكون يشربون بها.

قالت له الزوجة إنها تحتاج مقشة لتنظيف المكان والمقشة هنا هى عبارة عن عرجون نخل خالى من البلح، أما الأكل فلا يحتاجون لأكثر من دقيق شعير وأشياء صغيرة معه لا بأس فهو يملك خمسة وتسعين قرشا وهذه كافية لشراء الحاجيات ومؤونة أسبوع بعدها لابد أن يفرجها الخالق الكريم ﴿ الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ﴾[1]، وقليل من الزيت للأكل والإضاءة، الإضاءة هى عبارة عن علبة يوضع بها الزيت وقطعة قماش مفتول تدخل فيها وتشعل برأسها النار لإضاءة الحجرة وهى بلا باب أو نوافذ، بالطبع هو لا يدخن وبالتالى سوف يحتاج علبة كبريت ليوقد النار ويشعل الفتيل، ذلك يضاف إلى قائمة

(١) سورة قريش، الآية ٤.

المشتروات، لتكن ولكن ما الحل فى دورة المياه وهى متهدمة الجانب ولا ماء فيها ولابد للإنسان أن يقضى حاجته البشرية فى ستر وراحة.

صار يبحث عن الجزء المتهدم لعله يجد قطع خشب أو أى شىء، استل طرف زينقو كان يتدلى بين أكوام الحجارة وحديد السقف، خمن أن هذا كافيا لأن يغطى جانب دورة المياه الشرقى المتهدم، قال لنفسه لا بأس كل شىء مؤقت، بعدئذ يخرج إلى السوق أى الدكاكين وهى ليست بعيدة أو على الأقل بالنسبة له لأنه اعتاد منذ الطفولة على المشى، كان تحسس تلك الثروة التى وضعها فى جيب البالطو الداخلى خوفا من السرقة، إنها خمسة وتسعون قرشا بالتمام.

يأتى بالمقشة والحصيرة وبقية الأشياء مستبشرا فهو لغرابة الحال لم يشعر هذه المرة بالخوف من الشرطة ؟

هل هى كلمات ابن عمه الذى قال له إنه يعرف ضابط المركز وإذا حدث شىء فسوف يكفله؟

هل الطمأنينة جاءت من الجنيه الذى فى جيبه أى الخمسة والتسعين قرشا؟

دار بخلده كثير من الأسئلة وهو يحمل ذلك المتاع، ثم طرد كل الأفكار عندما قارب الوصول إلى البيت وقد قابلته الزوجة بنظرات فاحصة متسائلة وهى تساعده على وضع الأشياء على الأرض، قال فرجها الله، وجدنا حاجتنا وبقى من الجنيه ما يكفى، القناعة كنز لا يفنى.

تناولت المقشة دون أن تنبس ببنت شفة وصارت تكنس.

أما هو فبالإضافة إلى تلك الحاجيات وهى ضرورية على الرغم من أنه يحرص على كل قرش من الجنيه الذى يجب أن يكفى لمدة أسبوع على الأقل

فقد تشجع واشترى قطعتى حلوى لابنه كان ثمنهما نصف قرش، الحلوى تسمى علاكى وسبب التسمية أنها عندما توضع بين الأسنان تتعلك ومن يقضمها يحس بأن أسنانه تكاد تنخلع من فمه إلا أنها مع ذلك لذيذة، وكان لابد أن يفرح الطفل، فالبيت جديد والجنيه فى الجيب، أى أنه لابد أن يحس بأن والده صار يملك مالا، وما أجل أن يفرح ابنك ويضحك وما أسعدك وأنت تمتلك جنيها وأن قد صرفت نصفه، وسبحانه مغير الأحوال وهو الذى لا يتغير .. فهو عندما رأى مركز الشرطة اعتقد أن جميع آماله قد تقوّضت وأن مصير أسرته قد تقرر، إنه الجوع والتشريد وربما الموت وهو أهون، أما الآن فقد تعززت الآمال وتبدد الخوف بالجنيه وانحلت العقد وظهرت بوارق الأمل.

إنه لا يريد شيئا غير عمل ودخل بسيط وسقف يظله وأن يرى ابنه ينتعل حذاء ويحمل حقيبة مدرسية وكتب وأقلام، يريده عالما يفخر به إذ سيقال إن هذا الرجل الأمى قد ربى طفلا فشابا فرجلا عالما، يتمتم، هل سيكتب له الله عمرا حتى يرى ذلك وقد تحقق؟ ليس على الله صعب.

كانت الزوجة قد ثبتت على مدخل الحجرة قطعة قماش هى عبارة عن ملحفة قديمة كانت من ضمن الأشياء فى الصرة التى جاءت بها منذ غادرت قريتها تحملها على رأسها إذا سارت وتتكئ عليها إذا جلست، وما انفك جمع العائلة يعمل حتى تهيأ المكان للإقامة والنوم وهو على الأقل يحمى من حرارة الشمس، حجرة واحدة وبجانبها حفرة لقضاء الحاجة أما الحجرة الأخرى فبقيت كما هى ربما لأنهم ليسوا فى حاجة إليها وقتذاك والمثل يقول (على قد لحفاك مد رجليك) كما أن حصيرة واحدة لا تحتاج لأكثر من حجرة.

وكان عليه بعد أن هدأ باله وتمكن من وضع عائلته تحت سقف أن يبحث عن عمل، أى عمل ومهما كان قبل أن ينفذ ما بقى من الجنيه الذى يعتبر دين عليه لابد أن يرده متى فتح الله باب الرزق صار يذهب باكرا غالبا قبل طلوع الشمس إلى مكتب يسمى (فيشولافورى) كما قيل له وهو يقع فى منطقة على شاطىء البحر تسمى (توريللى) ولأنه لا يستطيع استخدام المواصلات كان يركب فى كارو الذى رأى الناس يستخدمونه وهو عبارة عن ألواح مدقوقة فى شكل طولى ومثبتة على قوائم فوق عجلات يجرها حصان والذين يركبون عليها ملزمون بأن يجلسوا على الجوانب بحيث تتدلى أرجلهم بينما تجلس النساء القرفصاء فى الوسط ويكون السائق فى المقدمة واضعا رجليه على إحدى القوائم التى تمتد على جانب الحصان وهو يمسك الرصن بيد والسوط بيد أخرى حيث يهش على الحصان أو يضربه إذا تباطأ، هو لا يستعمل تلك الوسيلة لأنه لا يستطيع دفع قرش أو قرشين ثمنا للركوب، وإذا ما خرج قبل طلوع الشمس فسوف يصل مكان العمل بعد أن تغمر اشعتها الكون وسيجد عشرات من الفقراء يجلسون على الأرض أمام المكتب ينتظرون إطلالة (الباشكاتب) أى الموظف الذى يعلن أن فرصة العمل من نوع كذا وأنه لا يقبل أكثر من كذا وهو فى الحقيقة موظف يعمل مع الإنجليز، وعندما يظهر تتدافع الناس كل يريد أن يقترب لعله يحظى بعطف ذلك الباشكاتب.

كان يذهب لمدة ثلاثة أيام متتالية من الصباح الباكر ولا يعود إلا فى المساء مكدودا واهنا بلا أكل ولا يهدأ توتره إلا بتلك (النفة) التى يقبض على مسحوقها بين السبابة والأصبع الكبير ويدفع بها فى فتحة أنفه اليمنى أو لا ثم اليسرى حيث يغرق فى عطس مستمر إلى أن تدمع عيناه.

لم يبق من ذلك الجنيه الثروة إلا عشرة قروش وهو يحتاج مع زوجه وابنه إلى ثمانية أرغفة خبز فى اليوم، خبز حاف مع شربة ماء فقط، وهذا يعنى أنه بعد يومين ونصف اليوم سوف لن يجد ثمن الخبز الحاف وليس له من حيلة ولا يمكنه أن يطلب من ابن عمه مساعدته مرة أخرى وحتى إذا طلب فمن المشكوك فيه أن يحصل على شىء وهو مع ذلك يتعفف عن الطلب مهما كان.

كان دائما قبل أن يخرج يؤدى صلاة الصبح ويدعو الله أن يفتح عليه باب الرزق، رزق بسيط، أى عمل من أجل هذا الطفل، يا رزاق يا كريم.

كوابيس تتفاعل فى صدره وألم فى أمعائه وهواجس تدور فى رأسه، ثلاثة أيام من الليل إلى الليل دون بارقة أمل والجنيه تآكل بينما الأقدام حفيت، ورغم أنه يسعل فإنه لا يفكر فى المرض ولا فى نفسه وإنما فى زوجه وابنه اللذين جاء بهما إلى بلاد الغربة وهو غير قادر على إطعامهما، وكان كثيرا ما تنتابه رعشة وقشعريرة ثم دوخة حتى إنه لا يقوى على الوقوف فيجلس لبعض الوقت ولكنه عندما ينصت للنداء الداخلى ينسى وينهض، إنه نداء الحاجة.

فى اليوم الرابع وقد خرج منهوك القوى كأنما رجليه لا تقويان على حمله وذلك ليس غريبا فلا نوم ولا أكل ولا راحة، وصل مكتب العمل كالعادة سيرا على الأقدام وإن كان على غير العادة جاء متمهلا إذ كان يجلس بين الفينة والأخرى فى الطريق ليرتاح قليلا، وأين الراحة؟ كانت أشعة الشمس تنغرز كالإبر على رؤوس الناس الذين يتدافعون بالمناكب وكان الباشكاتب واقفا منفوخ الأوداج كأنه يتفرج على حفل مصارعة وربما هناك من البشر من يستمتع ببؤس الناس، وما كاد يقف حتى أشار إليه ذلك الباشكاتب فنظر حواليه غير

مصدق أنه هو المقصود، ومترددًا وضع يده على صدره قائلا أنا؟! فهز الباشكاتب رأسه، الدنيا لم تسعه من الفرحة، حتى وهو لما يعرف بعد لماذا أشار إليه ذلك الرجل، عمل ! حمدًا لله إن باب الرزق قد فتح.

تقدم مندفعا خوفا من أن يغير ذلك الواقف رأيه وما أسهل أن يفعل ذلك لأنه غالبا ما كان يغضب من الزحام والضوضاء فيأمر بقفل الباب، حقا الشبعان ما يدرى على الجيعان.

ربما انتهى الكدر الذى خيم على نفسه خلال الأيام الثلاث الماضية، فى تلك اللحظة ظهر الحزن على بعض الوجوه ربما بسبب خيبة الأمل وطول الانتظار لمثل هذه الفرصة ولابد أن كآبة ستخيم على أهل هؤلاء الناس عندما يعودون بخفى حنين يستتبعها أسى وخوف من شبح الجوع، والفرح على وجوه أخرى إذ سنحت الفرصة لرزق وربما هناء إذ ليس هناك ما يؤلم ويؤرق ويخيف غير جوع الأهل وعدم القدرة على توفير الطعام من جانب رب الأسرة الذى يعرض جهده للبيع.

يصرخ أحدهم وهو يحاول أن يرتفع على أصابع قدميه لكى يراه الباشكاتب، عمل يا باشكاتب، أى عمل، والله أنا هنا منذ أسبوع أنام على الأرض ولا أجد ما آكل، يضيع صراخه فى زحمة المتدافعين بينما يستدير الباشكاتب موليا ظهره إليهم غير عابئ بالصراخ والبطون الجائعة إذ لابد أنه يعيش فى بحبوحة بفضل الانجليز الذين يخدمهم، هكذا هى الدنيا، واحد فوق وواحد تحت، يفطن لنفسه، فيم يفكر وماله وحال الآخرين وهو نفسه يعانى من نفس الضنك وها قد حانت فرصة العمل يعود الجميع إلى حيث كانوا يجلسون

منـهـم مـن يـجلس على حَجَر والأكثرية تفترش الأرض، لاحت امرأة حافية القدمين تحمل سخان شاى وطست صغيرة وراءها طفل حافى أيضا وعلى جسده قميص ممزق يحمل علبة حديد «تنكه» شبك طرفيها بحبل وشده إلى كتفه والناظر إليه يراه مائلا إلى ذلك الجانب بسبب ثقل التنكة، تقول المرأة بصوت واهن، طاسة شاى أحمر مع طاسة ماء بنصف قرش، تدور بين هؤلاء حيث وصلت مكانهم، ولكن من يملك نصف قرش يمكن أن يصرفه على طاسة شاي يتكيف بها بينما رغيف الخبر بنصف قرش وهم جياع؟

تنصرف المرأة دون أن يشتري منها أحد طاسة الشاي تلك رغم رغبة البعض منهم في رشفه شاى، كانت تتمايل متجه إلى تجمع آخر أمام مخزن للأسمنت، عمال ينتظرون صاحب المخزن الذي قد يبيع بعض الأسمنت لأحد فيحتاج هذا من يحمل الجوالات علي الكارو أو الكروسة.

كانت هناك قرب مكتب العمل ذاك شجرة سرو واحدة ظلها وارف لا يحظى بالجلوس تحتها إلا من جاء مبكرا وقد تقشر جدعها فصار أبيض بسبب الاحتكاك، منظر الجلوس مزري مؤلم كأنما هموم الدنيا قد تجمعت فوق رؤوسهم، ومن يرى إليهم يدرك مغزي ما يفكرون فيه بالتأكد، لا شيء غير فرصة عمل أي عمل ومهما كان فمن يبيع جهده لا يسأل عن نوع العمل الذي سيفني فيه ذلك الجهد الرخيص، منهم من يضع رأسه بين يديه مركزا نظراته علي مساحة صغيرة أمامه يجول بخاطره بعيدا أو قريبا ترهقه الهموم ويعصره الجوع، ومنهم من يتمدد علي قفاه مبحلقا في باطن عريفات شجرة السرو تلك ومنهم من التقط عودا وصار يخطط علي الأرض، وكلهم يهرشون جلودهم بين الفينة والأخري لأنها تمثل مرتعا مريحا للقمل، لعن الله الفقر.

الكل يتألم ويتحسر وإن كابروا علي البكاء، فبعد المسافة عن الأهل والعوز في بلاد الغربة والتضّور جوعا في وضح النهار إنما هي مسغبة بكل المعاني، ولكن ما حيلة الواحد منهم غير الصبر وانتظار الفرج.

أما الذين أسعدهم الحظ وسجل أسماءهم الباشكاتب فقد نقلوا في عربة تابعة للجيش البريطاني ووزعوا علي ثلاثة معسكرات، ولسان حالهم يقول، ليس مهما نوع العمل أو مكانه، المهم أن يكون هناك عمل وقد قيل لهم إن الماهية ستكون أربعة عشر قرشا في اليوم وستدفع أسبوعيا ومن يفصل أو يطرد تدفع له أجرة أيام عمله، ارعبهم القول، من يفصل أو يطرد فقد انتظروا بفارغ الصبر هذه الفرصة، أما يوم الأحد فهو عطلة وبدون أجر، هذا يعني أن الأسبوع ستة أيام أي أن ماهية الأسبوع تبلغ أربعة وثمانين قرشا أي جنيهان واثنان وخمسون قرشا في الشهر، قال أحدهم بركات، العمل عضلى تحميل وتنزيل أي شيء، ولقد كانوا ممتنين جدا من ذلك الباشكاتب الذي سخّره الله ليهيئ لهم فرصة رزق ولو وصلوا إليه لقبّلوا يديه الاثنتين، كان العمل يبدأ من الصباح الباكر أى السادسة صباحا وينتهى السادسة مساء أى اثنتى عشرة ساعة فى اليوم تتخللها ساعة واحدة للغذاء أو قل للراحة فغذاء هؤلاء لا يحتاج لأكثر من عشر دقائق، إنه رغيف خبز ورأس بصل وأحيانا الرغيف فقط وربما خمسة دقائق للصلاة فى أوقاتها وهذه بناء على طلبهم وفى غير وقت الراحة فإن من يتأخر فى الصلاة ينهره (الماركاتيمبو) أى المشرف ويسمى مسجل الوقت، فالصلاة عنده لا يجب أن تزيد على خمس دقائق.

كان محمد بن أحمد هذا فى غاية السعادة عندما عاد بعد انتهاء العمل فى اليوم الأول رغم أنه كان منهك القوى فقد ظل يحمل السيارات بالمواسير

طول النهار، لكن ذلك لا يهم فقدْ ضمن بفضل الله قوت أهله، يمكنه الآن أن يحصل من الدكان على المواد الغذائية وهى قليلة بالدين حتى نهاية الشهر، ولقد حسب ماهية الشهر ووجد أن جنيها وخمسين قرشا تكفى وبذلك سيوفر جنيها وقرشين وهذا يعنى أنه خلال الشهر الثانى بعون الله سوف يستطيع أن يستأجر بيتا ويشترى بقية احتياجات أهله ولقد قيل له إن أجرة البيت الذى به حجرتان أو ثلاث حجرات فى حدود سبعين أو ثمانين قرشا فى الشهر، حمدا لله.

كان يحدث زوجه هكذا فى تلك الليلة وقال إن الدراسة – وقد سأل عنها أحد المشرفين – ستبدأ بعد ثلاثة أسابيع تقريبا وسوف يشترى شنطة مدرسية لابنه يوم الأحد لأن ذلك اليوم عطلة من العمل، التعليم كان مجانيا فى جميع مراحل الدراسة وكان منهج التعليم على النظام المصرى وهو ذو مرحلتين، التحضيرى والثانوى أما التعليم الجامعى فلم يكن متوفرا وقلة من أولئك الميسورين الذين تتاح لهم الدراسة الجامعية فى الخارج وغالبا فى مصر، على أى حال هو يحلم وما على الله صعيب.

كان المدرسون غالبا من مصر وقليلون جدا من بلاد عربية أخرى.

كان أول مبلغ استلمه محمد بن أحمد بعد شهر من العمل الشاق جنيهين واثنين وخمسين قرشا أى أجر أربعة أسابيع أى إنه كان يقبض أربعة وثمانين قرشا عن كل أسبوع، فرح بالمبلغ كما لو كان هدية من السماء.

والحقيقة أن مطالب ومطامح الفقراء قليلة، وربما هى المرة الأولى فى حياته التى يحصل فيها على مثل هذا المبلغ ، كان يحرث ويحصد ويعيش فى بحبوحة إلا أنه فيما يتعلق بالأوراق المالية لم يكن قد حصل على مثل ذلك

المبلغ ولا حاجة له به فى ذلك الوقت، صار يحلم ويتأمل ثم يعيد تلمس ذلك المبلغ الذى وضعه فى الجيب الداخلى وتحسس الجانب المرتوق منه للتأكد من حفظ هذا المال، سيؤجر بيتا وسيشترى قميصا وسروالا لابنه وبعض الأوانى وربما وسادة أو اثنين وحصيرة جديدة بدلا من تلك القديمة المهترئة.

إن أحلام الفقراء كأحلام العصافير صغيرة وقليلة وصادقة فى الغالب حتى إن شاعرهم لا يطلب إلا الخبز، الشبع، عندما يقول:

ناديت يا جد سيدى زايد   عندك قدايا من قديم وعايد
نبى نندهك راني بديت انكايد   حتى الجرد كايدنى بدا سوقانا
ناديت يا زعزوعى ويا سى   أوحيدا أسرعوا بفزوعى
يا بجاه بودبوس والجربوعى   وفي وين صالح باينا برهانا
لاه يا سيادى ما وجعكم جوعى   ناس يا سرا جتكم مشت شبعانا

وفى يوم الأحد وهو عطلة من العمل صار يبحث عن بيت يكتريه وحرص على أن يكون قريبا من مدرسة تحضيرية بحيث يلحق ابنه بها عندما تبدأ الدراسة ليكون قادرا على الذهاب إليها والعودة دون عناء وقد وفق فى تأجير بيت فيه ثلاث حجرات ومنافع، كان يريد بيتا بحجرتين فقط لكنه لم يجد، اشترى البيت بمبلغ سبعين قرشا فى الشهر وهو بيت قديم ولا بأس به، انتقلوا إليه دون أن يشترى شيئا من لوازم البيت فلابد أن يقتصد قليلا لعل وعسى.

هذه المرة فى الحجرات أبواب وشبابيك من الخشب وهو قريب من مدرسة البركة الوحيدة وكذلك قريب من الجامع القديم الذى يقع فى ناصية الشارع قبالة مركز الشرطة، والمركز ذاك عبارة عن مبنى قديم من البناء الإيطالى

ربما، ويحتل ناصية الشارعين المعبدين الوحيدين، وكان عليه أن يعود إلى البيت المتهدم الذى كانت فيه عائلته إذ إن زوجه قد نست مصباح الزيت هناك، والآن وقد صار لهم بيتا فيه أبواب وشبابيك فلابد من الإضاءة.

عندما خرج أوصته بأن يبحث عن بعض المسامير فى الطريق لأن بعض الأشياء يجب أن تعلق كما قالت إنها تريد ماء للشرب والطبخ، والماء هنا يباع بواسطة باعة متجولين فى الشوارع بعرباتهم التى تجرها الحمير، خزان ماء متوسط الحجم على كروسة ذات عجلتين كبيرتين كعجلات المدافع القديمة مصنوعة من الخشب ومحاطة بطبقة ساج رقيق ليحميها من التآكل، قال سوف يبحث عن المسامير أما الماء فإنه سيحتاج لشراء صفيحة لحفظه، وهى لابد أن تكفى لأنهم لا يحتاجون لماء كثير فهو للشرب والطبخ ولا شىء غير ذلك لأن الرجل يتوضأ فى الجامع يوم العطلة وفى المعسكر أثناء العمل، وإذا ما كان من الضرورى الاستحمام، فالمسلم لابد أن يكون طاهرا للصلاة، إذا كان لابد وذلك قليل لأن العمل مضنى وشاق فسيكون فى الحمام العام القريب، الاستحمام فيه يكلف أربعة قروش وهذا مبلغ كبير بالنسبة لأمثاله على الرغم من وجود الماء الساخن والصابون والمنشف، فإذا استحم مرتين فى الشهر فذلك يعنى صرف ثمانية قروش، لا بأس، لن يكون هناك أصعب مما مر وهو لا يستطيع أن يرتاح يوم عطلة الأحد لأنه فى بقية الأيام لا يجد وقتا لشراء رغيف خبز على أن ابنه صار يمشى إلى الدكان القريب عندما تبعثه أمه بقرش أو نصف قرش، هى فى الواقع لا تعرف النقود لكن الأحمر النحاسى المثقوب فى الوسط قيل لها إنه نصف قرش أما الأبيض الدائرى الصغير فهو القرش ولابد أن تفحص تلك العملة قبل أن تدفع أى منها للطفل كى يشترى خبز أو بصل أخضر، وتلك هى

المطالب اليومية خصوصا للغذاء عندما يكون الزوج غائبا، وأيام الأسبوع كلها شقاء بالنسبة له وما يكاد يضع رأسه على حافة الحصيرة بدون وسادة حتى يغرق فى نوم عميق، آه من شقاء البدن لكنه أفضل من فراغ البطن، فى أيام زمان عندما كان فى قريته وقبل السنوات العجاف كان عمله موسميا أى حوالى ثلاثة أشهر فى السنة وكان لديه كثيرا من الوقت ليسأل عن الأحباب ويواسى الناس ويعود المريض كما يتحدث مع أهل بيته، أما الآن .. الآن لابد من النوم مبكرا والاستيقاظ مع صياح الديكة لأن (الماركا تيمبو) يخصم من المعاش إذا ما تأخر أو على الأقل ينذر ويتوعد وهو لا يطيق أن ينهره أحد أو يخصم من معاشه لأن كل قرش محسوب ويسد فجوة، وحسبه أنه متفانى فى العمل وفى توفير ضروريات معيشة أسرته ويمكن القول إن شبح الجوع قد ابتعد وأن حياته ليست خالية ولا حقيرة كحالة أولئك الرجال والناس الذين بالطلب يذلون أنفسهم، فهو مستور وأسرته الصغيرة يظلها سقف، يطلق على غطاء تلك العلبة الصغيرة التى لم تفارقه منذ زمن، إنها علبة النفة وهو يعمل هكذا قبل أن يفتحها كأنما يريد أن يتمتع السماع قبل الشم أى حاستان فى وقت واحد وليس من عادات غير تلك النفة.

يرى أن الشيب قد اشتعل فجأة فى شعر صدغيه وكان شعر رأسه كثيفا فصار ينسحب إلى الخلف رويدا رويدا مظهرا بداية الصلع، ولقد اقترب فصل الخريف وصارت الأشجار تتعرى بسبب تساقط أوراقها، اليوم هو الثالث عشر من شهر أغسطس سنة ألف وتسعمائة وست وأربعين، عندما سأل عن التاريخ لم يكن يعتقد أنه قد مر عليه ستون يوما منذ غادر قريته فى رحلة العذاب، وهو لايتذكر أنه شبع فى أى يوم من تلكم الأيام وحتى الآن فهو لا يحصل إلا على نصف بطن حتى إن وجهه أصبح شاحبا لكنه صابرا ويمنى النفس بفرج الله

القريب والذى رزقه بالقليل قادرا على أن يرزقه بالكثير .. ولقد تعود على أن ينهض مبكرا فيشهد انبلاج ضوء الصباح ثم انتشار أشعة الشمس الفضية وسماع آذان الفجر، الله أكبر، الشىء الذى يبعث الطمأنينة فى النفس، كما سماع أصوات الطيور كأنغام موسيقى هادئة تزقزق كأنما هى تتبادل التحايا فى ذلك الصباح الباكر، طقس الصباح الخريفى رطبا، إنه نسيم رقيق يلفع وجهه فيحس بقشعريرة لكنه يتفاءل فيقول: أصبحنا وأصبح الصبح لله، يا كريم يا مغيث.

يصل المعسكر دائما قبل جميع العمال وينتظر حتى يأتى الماركا تيمبو ليفتح باب الحديد الرئيس، يقف ليتبادل معه التحية، اسمه بشير.

– صباح الخير يا سى بشير.

يرد بنوع من التعالى:

– صباح الخير يا سى محمد.

يصل بقية العمال فيبدأ العمل فى تمام الساعة السادسة صباحا، يتبادلون تحية الصباح ويتوزعون كل اثنين معا حسب تعليمات ذلك المسؤول.

أمائر الفرح ظاهر ة عليهم لأنهم عندما يبدأون العمل اليومى فذلك يعنى أن الماهية التى تبلغ أربعة عشر قرشا قد تأكدت وليس مهما بعد ذلك مقدار التعب، لابد أن يشقى الإنسان لكى يكسب مالا أو جاها أو علما وتلك حقيقة سرمدية تبقى مع المخلوق إلى آخر أيام العمر الذى قرره الله سبحانه وتعالى، ولولا ذلك لخرب كل شىء وهو مغزى ومعنى الآية الكريمة ﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين﴾[1]، صدق الله العظيم.

(١) سورة القصص، الآية ٧٧.

استمر العمل وكان كل من هؤلاء يتلقى ذلك المبلغ فى آخر كل أسبوع، أربعة وثمانين قرشا وهى لا تزيد بل ربما تنقص إذا ما قرر الماركا تيبو لأى سبب أن يخصم منها يومين أو يومان وذلك لا يحدث كثيرا لأن كل منهم يحرص على المواعيد ويؤدى بكل همة أو نشاط كل عمل يطلب منه.

فى البداية كان العمل شاقا بسبب تحميل المواسير الثقيلة على الأكتاف وكل ماسورة لابد أن يحملها اثنان فقط، يضع كل منهما أحد طرفيها على كتفه وتكون ممدودة بينهما وهما يسيران إلى أن يضعاها إما فى مكان آخر أو فى صندوق عربة ومن ثم انزالها فى المكان الذى تذهب إليه تلك العربة، كان نقل المواسير واحتكاكها عند المشى على الكتف وهو شبه عارى يدمى المكان الذى توضع عليه حتى إن الموضع يجف ليتحول إلى لحم يابس كخف الجَمَل، بعضهم يحاول وضع خرق بالية على الكتف ولكنها عادة ما تقع وإذا ما توقف أى عامل ولو قليلا انصب عليه لعنات المشرف ذاك الماركا تيمبو وإنذاراته بالخصم أو الطرد، ولكن مع الوقت اعتادوا على العمل وسارت الأمور سيرها العادى ولكل من أولئك همومه، والدنيا لا تخلو من الهموم. هموم بعضهم كانت فى تلك العائلات التى تركوها خلفهم والتى تتوقع منهم العون على مشاق الحياة ولابد أنها فى ضنك شديد وليس هناك من وسيلة لإرسال بعض النقود فالمواصلات شبه معدومة أما الاتصالات فهى غير موجودة على الإطلاق، وحتى لو وجد المسافر فإلى طرابلس فقط، كذلك فإن السفر يحدث فى اتجاه واحد أى من الغرب إلى الشرق بسبب الفقر والجفاف، وإذا ما فكر الواحد منهم فى السفر لزيارة عائلته فسوف يفقد رزقه لأن العمل مؤقت وليست هناك أجازات ولهذا فإن الذين جاؤوا بأسرهم كان حالهم أفضل أى أن الهم فيه ما تختار أحيانا.

بدأت الدراسة وكان محمد بن أحمد قد اشترى لابنه شنطة وهذه فى الغالب تصنع من قماش مقوى والبعض يصنعها فى البيت، أى إنها عبارة عن قماش، كما اشترى له قميصا وسروالا وسندلا وسعد أيما سعادة بذلك إذ حقق أول أمانيه كما فرح الطفل لأنه لأول مرة يضع سندلا فى خفيه، ويتفق لوالده عندما يلاقيه وهو عائد من المدرسة، وذلك قلما يحدث، أن يقول مازحا، جاء الأستاذ وتلك بادرة تشجيع وترغيب.

عندما ذهب الطفل خلال اليوم الأول إلى المدرسة أعطاه والده نصف قرش للإفطار، وكان الإفطار الذى يباع أمام المدرسة عبارة عن فول مطبوخ تقوم عجوز سوداء بإعداده وبيعه إذ تجلس القرفصاء صباح كل يوم أمام المدرسة ويطلق عليها الأطفال اسم (الدادا) وأحسن أنواع الفول هو ذلك المزرع، وعما لا يتوفر نصف القرش يحمل الطفل قطعة خبر شعير من البيت والذى تصنعه أمه بعد أن تطحن الشعير.

وبعد فترة من العمل حل وقت الزرع وكان العام ممطرا ويبشر كالعادة فى برقة بحصاد وفير وقد رتب محمد بن أحمد أموره ليذهب إلى الحصاد تاركا العمل فى معسكرات الانجليز ولو مؤقتا أولا ليجرب حظه فى شىء جديد ربما فيه الخير والبركة وثانيا لأنه فعلا اعتقد أن تلك السنة خصيبة ولابد أن يكون المردود من الحصاد وافرا، قرر أن يذهب إلى الحصاد فى منطقة تبعد خمسين كيلو مترا عن بنغازى لكنه كانت تتنازعه مشاعر قلق وخوف وانشغال، فحصاد الزرع سوف يساعده على حل كثير من المشاكل الحياتية لكن ذلك سوف يجعل ابنه ينقطع عن الدراسة لمدة سنة تقريبا وهو الشىء الذى لا يريده ولا يتمناه أبدا ولا حتى يقبل مجرد التفكير فى حدوثه فهو يقول لابنه فى كل

وقت لا شىء غير الدراسة والعلم فكيف يمكنه أن يقوم بشىء يمنعه من الدراسة، وليس له أقارب فى المدينة يمكن أن يقبلوا أن يبقى معهم الطفل إلى أن تحل العطلة المدرسية، ولقد انتظم الطفل فى الدراسة بشغف وسعادة، فما العمل؟ الحصاد مهم ومفيد ولكن الطفل والدراسة أهم وأفيد.

قيل له إن هناك ملجأ لأبناء الفقراء يقع قبالة معسكر الجيش البريطانى فى البركة بالقرب من ضريح أحد الأولياء ويسمى (سيدى بوسديره) ويمكنه أن يذهب إلى هناك ليقدم طلبا بإيواء ابنه فى الملجإ ولو مؤقتا.

فى بادئ الأمر تردد بانزعاج، فكيف له أن يترك ابنه فى ملجإ مع أطفال آخرين قد يكونوا لقطاء؟ ولكن ما حيلته؟ فهو يريد الفائدتين، الحصاد والتعليم؟

تحدث مع الزوجة فصارت تبكى ذلك إنه ابنها الوحيد، وقالت له: يمكن أن أبقى أنا هنا مع ابنى من أجل أن يقرأ وأنت تذهب إلى الحصاد، إلا أنه لم يوافق لأنها لابد أن تساعده ليس فى الحصاد فقط وإنما فى المعيشة فهو لا يعرف حتى كيف يعمل شاى.

ورغم دموعها وتوسلاتها فقد ذهب صباح اليوم الثانى إلى ذلك الملجأ وهو مبنى صغير يتكون من طابقين ويقع مباشرة على جانب الطريق العام وهو أحد شارعين معبدين فى المنطقة وقتئذ بابه من الحديدالأسود الصدئ الشىء الذى جعله يتشاءم منذ اللحظة الأولى، وقف أمام الباب مترددا ثم عزم وحزم فطرق الباب وبعد هنيهة فتحت امرأة الباب وكانت عوراء شعثاء شيباء أنفها أفطس وجبهتها بارزة ترتدى جلبابا طويلا قذرا وفى يدها اليمنى مكنسة عيناها حمراوان غائرتان فمها واسع وأسنانها بارزة كأن منكر ونكير قد وكلاها على هكذا عمل.

قالت:

- ماذا تريد ... وهى تومئ باليد الممسكة بالمكنسة وبصوت عال؟

أجاب باقتضاب:

- ابنى صغير وأريده أن يبقى فى المدرسة وظروفى ...

وقبل أن يكمل، قالت:

- مفيش مكان، الحوش ضيق والأطفال واجدين.

ولقد حاول أن يراجعها لكنها أقفلت الباب الحديدى بقوة كأنما هى تريد أن تصفعه تمتم ببضع عبارات غير مسموعة ودار ليعود إلى البيت.

وإذ عاد بخفى حنين وكما يقول المثل الشعبى: (رجل قدام وأخرى وراء)، أبلغ زوجه ما حدث ففرحت لأنهم لم يقبلوا ابنها فى الملجأ، وقالت: (الحمد لله وليدى ما خشش فى الملجأ).

وكان ذلك الملجأ قد قفل ثم تم هدم المبنى كليا كأنما البلاد وأهلها صاروا أغنياء ولم يعد هناك أطفال يحتاجون إلى المساعدة أو الرعاية والإيواء، ولم يعرف أحد لماذا حدث ذلك.

ولقد اضطر محمد بن أحمد هذا إلى الانتقال من بنغازى إلى مكان الزرع وهكذا نقل ابنه معه إذ لم يجد له مكانا يأويه وضاعت سنة دراسية من عمر الطفل الذى يريده متعلما أو عالما لكن الطفل رغم انقطاعه عن المدرسة ظل يحمل الشنطة على كتفيه كل صباح رغم بعده عن المدرسة، والسنة من عمر المرء فى التعليم الأولى باهظة الثمن إذا ما ضاعت وكان الطفل مولعًا بالقراءة

والمدرسة حتى إنه لا يهوى اللعب مع أحد من الأطفال فى أى وقت، وإذ كان يرى ابنه مستمرا على ذلك الحال طيلة الصباح كأنما هو فى المدرسة جعل يتألم ويندم على قراره ذاك الذي اتخذه لترك العمل والتفرغ للحصاد فى مكان بعيد عن المدرسة على الرغم من أنه يدرك تماما فائدة حصاد الزرع فى تلك السنة بالذات ومردوده المادى عليه وعلى أهله، وما كاد الحصاد ينتهى حتى عاد فورا إلى المدينة وقرر بينه وبين نفسه أن لا يحرم ابنه مرة أخرى من الدراسة مهما حدث ومهما كانت المكاسب المادية المتوقعة.

بعد أن عاد قام ببيع القمح والشعير الذى حصل عليه وأبقى منه ما تحتاجه عائلته طيلة السنة القادمة ومن ذلك توفر له مبلغا من المال قدر أنه سوف يساعده على افتتاح محل بقالة صغير، أى بقالة لأى نوع من البضاعة.

استأجر بيتا فى منطقة الكيش إذ رأى أن تلك المنطقة مناسبة له وافتتح دكانا لبيع الحطب والفحم والكاز، وتلك كانت تمثل احتياجات الناس اليومية بجانب الطعام لأن الإضاءة بالكاز والطبخ بالحطب والتدفئة وعمل الشاى بالفحم.

هدأت الأحوال حيث صارت التجارة تتقدم والطفل انتظم فى الدراسة، وعرف هؤلاء الفقراء طعم اللحم الذى صاروا يحصلون عليه بين وقت وآخر.

وفى المدارس كان أغلب الأطفال متساوين فى مستوى المعيشة، ولم تكن البلاد تحصل وقتذاك على أى مساعدات إنسانية من الدول أو المؤسسات العالمية كما حدث فيما بعد حيث توفر الحليب والتمر والدواء وغير ذلك للأطفال فى المدارس مثلما توفرت المساعدات للبلاد وأحس الليبيون بأنهم أصحاب بلد واحد بعد الاستقلال الذى تقرر فى نوفمبر سنة ١٩٥١ م.

★ ★ ★

الفصل الثالث

أوائل المهاجرين فى سفر الموت
أدوات العمل

ليت شعرى هل دروا أى قلب ملكوا
وفـؤادى لـو درى أى شُـعب سـلـكـوا
أتـراهـم سـلـمـوا أم تـراهـم هـلـكـوا
حار أرباب الهوى فى الهوى، وارتبكوا
ابن عربى

رب لـحـد قـد صـار لـحـد مـرارا
ضـاحـك مـن تـزاحـم الأضـداد
المعرى

لم يكن لعبـد اللـه سابق معرفة بالمدن وأهلها فهو عندما وصل إلى طرابلس ظل مذهولا ينظر يمنة ويسرة ذلك أن الشوارع معبدة وملأى بالناس الذين يتحركون فى كل اتجاه، لم تكن معه إلا مخلاة بها بعض الأشياء المتواضعة وليس على جسده إلا قميص وسروال وجرد أبيض علت حافته العليا الأمامية آثار العرق وقد اتسخ، وهذا الجرد إرادة أن يقيه حرارة الشمس والبرد فى وقت الشتاء فى هذه البلاد أما فى قريته فالجرد لابد منه إذ لم يكن من العادة أن يظهـر المرء بلا جـرد وإلا عد غير عاقل ذلك أن أهله دون استثناء يلتحفون بالجرود عند الخروج من السكن وأحيانا حتى داخل مساكنهم.

كانت هناك عربات وضجيج، بعض الناس يسيرون على حافة الطرقات والبعض الآخر يركبون شيئا لم يره فى حياته هو عبارة عن عجلتين دائريتين موصولتين بعمود حديدى فى مقدمته مقود معقوف كقرون الكبش ومزلاقتين يحركهما الراكب برجليه فى شكل متعاكس، عرف فيما بعد أنها تسمى دراجة هوائية، أما السيارات المسرعة فى هذا الاتجاه أو ذاك فهو لا يعرف أسماءها ولا أنواعها ولا حتى كيف تسير، وثمة أناس يبيعون ويشترون هذا قاعد على الأرض وأمامه بضاعة وذاك فى دكانته المليئة ببضائع ليست كبضائع دكاكين قريته، وآخرين يصرخون بأسماء بضائع لا يفهمها وقد استهواه منظر أطفال يحملون حبلا مشتعلا بالنار فى أيديهم وهم ينادون (سبسى بالولعة) وهو لم يكن يعرف السبسى هذا فالتبغ وقد دخل قريته أخيرا كان يستخدم كنفة أى



نشوق أو مضغة الأولى تقحم فى الخياشيم والثانية توضع فى الفم، وهو لم يجرب لا هذه ولا تلك، لباس هؤلاء مثل لباس الأجانب أو أفراد البوليس الذين رآهم فى القرية، بنطلون وقميص ملتصقان بالجسد ومن يرى السائر من الخلف وهو يرتدى ذلك اللباس يعتقد أنه عارى.

قبل أن يأتى إلى المدينة قال له أولئك الذين رافقهم من القرية إلى صرمان عندما تصل طرابلس اسأل عن الجنسية حيث يمكن أن تجد مكان تنام فيه وتجد من يرشدك فيما بعد على مكان عمل أو شىء من ذلك.

استبد به القلق أو ربما الخوف فهو لا يعرف أحدا ولا يملك مالا، وبعد عناء وتفكير اتفق له أن يسأل فاختار رجلا عجوزا كان يجلس القرفصاء فى زاوية مبنى ويعرض أشياء للبيع، أشياء لا يعرفها عبد الله وقد نظر إليها بتمعن حتى إن ذلك العجوز حسبه يرغب فى شراء شىء منها، وكانت صرخات الباعة لم تنفك تلاحق أذنيه أو هكذا اعتقد، أصوات مزعجة لا تنقطع، سأل العجوز عن الجنسية فأصاخ هذا السمع مبحلقا فى السائل الذى أضاف أنه غريب ولا يعرف المدينة، قال: عم تسأل؟ أعاد عبد الله السؤال بصوت عال إذ اعتقد أن العجوز يمكن أن يكون سمعه ضعيف، أسأل عن الجنسية.

أى جنسية وما اسمها؟

عبد الله لا يعرف اسم الجنسية وبخجل وتردد قال، الكراهب التى تقل الناس إلى بنغازى، وكانت بنغازى هذه التى سمع عنها هى المحطة الثالثة فأولا كانت صرمان ثم طرابلس وبعدها بنغازى ولا يعلم أى محطة أخرى سيسوقه القدر إليها.

تنحنح العجوز ومال إلى الإمام وقد كان متكئا على الحائط ليمعن النظر فى السائل:

- ومن أين أنت، هكذا قال وبصوت خفيض.

- من أرض الله الواسعة، أنا نَبِّى الجنسية، قالها بامتعاض فهو لم يألف التعامل مع أهل المدن وكان يسمع عنهم الشىء الكثير لأنهم يستغلون الناس ويسرقون ما لديهم على الرغم من أنه لا يملك ما يمكن أن يسرق منه، لكنه امتعض من نظرة ذلك العجوز، ففى القرية إذا سألت دلوك وإذ احتجت أغاثوك، أما هنا فإنه يظهر أنه لا أحد يدرى بأحد.

صمت العجوز قليلا وهو ما يزال ينظر إلى وجه سائله ربما مستغربا من شكل هندامه، ثم قال: اذهب فى هذا الاتجاه، مادا يده، لمدة ربع ساعة تقريبا وهو لا يملك ساعة ولا حتى رآها سوف تجد من يدلك على الجنسية، لم يقل له أحد تفضل أو ما شأنك وحتى أولئك الذين يمر بجانبهم محييا بتحية الإسلام غالبا لا يردون التحية.

يتذكر أنه عندما غادر قريته كان ذلك اليوم غائما وكانت السماء باردة وكان ينظر إلى أشجار الزيتون التى لم يفارقها أبدا وقد صارت تختفى رويدا رويدا، وحتى الجمل الذى كان الرفاق يحثونه على السير كان يتعثر فى خطواته كأنما هو لا يريد الابتعاد، إنه مثل عبد الله كان أحيانا يتجه إلى القبلة ولم يحدث أن اتجه إلى المشرق.

الزيتونة التى أقسم الله باسمها يفارقها عبد الله، كان ينحدر عبر الوديان، الرفاق ثلاثة والجمل واحد وعبد الله يتباطأ فى مشيه، تطرق أذنيه كلمات أحد

الرفاق فينتفض كما لو كان نائما، يقول الرفيق خيرها كرعيك موش قادرة على شيلك؟ يهز رأسه فى أسى، يشد الخطو فالرجال لا يبكون والهجرة جهاد أحيانا، ﴿والذين هاجروا فى سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقا حسنا وإن الله خير الرازقين﴾[١] صدق الله مولانا العظيم.

ينحدر عبر الوديان، ينتهى إلى الشنطيرة، الجبل المرتفع عالى شامخ كشموخ أهله زمان، ولكن كيف الشموخ مع البطون الجائعة، لعن الله الفقر.

يستمر الانحدار عبر الجبل والانحدار لا يعنى غير الخسارة، فارق الأهل والزيتونة إلى أين؟ إنه سفر إلى المجهول، شىء بدأ جديدا فى حياته وهو لم يألف التغيير ولم يفارق الأهل، الجفارة تمتد أمام ناظريه إنها صحراء جافة خالية موحشة ينقبض قلبه، الزيتونة تختفى الريح تصفر والليل يقترب، بدأت الشمس فى الانحدار هى الأخرى، ذلك كان اليوم الأول ورفاقه يقصدون صرمان وهى المحطة الأولى أو الغربة الأولى بعيدا عن الزيتونة، قالوا إنهم يحتاجون إلى ثلاثة أيام لكى يصلوا إلى طرابلس وربما استقروا فى هذه المحطة وهذا يعنى أنه سيمشى وحده، نعم هو يتعثر فهل ستنطلق خطواته كلما ابتعد يقولون البعد جفاء، ربما تلك حقيقة، يتوقف عقله عن التفكير وهو الذى لم يشغله شىء فى حياته غير تلك البلدة والناس الطيبين، أمه وولديه وزوجه والكندورة وذكريات والده الذى توفاه الله بعد زواجه مباشرة حيث وضع الحمل على كتفيه ورحل عنه، رحل إلى عالم آخر.

(١) سورة الحج، الآية ٥٨ .

لم يفطن وهو يمشى ساهما يردد فى سره رحلة اليوم الأول وربما يكون قد تجاوز مكان الجنسية فقد قال له العجوز إنها تبعد مسافة ربع ساعة، وأين هى الساعة وكيف له أن يعرف ذلك؟

هاجس فى نفسه يقول إنها بداية ربما أعرفها لكن النهاية يعلم بها الله وحده وقد أصابه ذلك بتخاذل وهلع شديدين، كان قد قال لخديجة بأسى وحسرة سأسافر يا خديجة وكانت الكلمات تخرج من حلقه كأنما هى شفرات حلاقة، الأولاد وأمى أمانة فى رقبتك يا خديجة، قالت: وين تمشى ولمن تتركنا؟

تحجرت الكلمات وجف اللسان فهو لم يعرف السفر فى حياته ولم ير مدينة، لم يبرح قريته إلا فى وقت الحرث والحصاد وحتى فى تلك الحالة فهو يتجه مع أبيه جنوبا إلى الوديان دون أن يختفى صياح الديكة فى تلك القرية عن أذنيه أبدا.

اليوم ها هو فى بلد يسمى طرابلس ولا يسمع إلا صراخ الباعة وضجيج العربات، هذه الأصوات التى لم يألفها، اعتراه إحساس غريب وانقبض قلبه وغارت عيناه وتقلصت عضلات وجهه وفغر فاه، وهنا عزم على العودة حتى بعد أن وصل إلى طرابلس، فنصف الطريق ولا كمالها، وها هو فى طريقه إلى الجنسية ربما تنقله إلى أبعد من طرابلس، لا يليق به أن يترك أمه وزوجه وأولاده فى عوز وخوف وهم يجهلون نهاية أمر سفره، يقف ترتعش شفتاه يضع راحة يده على جبينه ويتفكر.

ما فائدة العودة ماذا سيقولون عنه وما الذى يضفيه عليهم وجوده وهم جياع؟ غاب وايش جاب ... لا، لا، يحث الخطى ليجد الجنسية ثم يفرجها رب

العباد، فى المدينة رائحة نتنة عفنة ربما هى رائحة البحر الذى لم يكن قد رآه فيما سبق، لابد له أن يسأل عن الجنسية، أين الجنسية؟

قبل الوصول إلى الجنسية التى يبحث عنها توقف متسمرا فى مكانه فكل شيء غريب عليه فى هذه البلاد لأنه لم يألف ولا عرف مثل هذا الذى يراه ولم يكن يتصور أن المرأة قد ترتدى ملابس الرجال أو كالرجال وتخرج تتمشى فى الطرقات وهى بكامل زينتها، لم يشهد هذا الاحمرار فى الوجنات والشفايف وقد اعتقد أنها طبيعية من عند الله، كان عندما تقابله واحدة منهن يبحلق فى وجهها ويقف ليتابعها بعينه عندما تفوته ولم يكن يدرى أنهن مسلمات أم لا، أحذية عالية وفساتين قصيرة وطويلة رقيقة أحيانا بعضها مخطط والبعض الأخر ملون بألوان زاهية بعضهن يضعن قبعات على رؤوسهن والبعض الأخر عاريات الرؤوس شعورهن تتدلى فى ضفائر أغلبها يشبه أشعة الشمس عند المغيب أو هى كالنحاس الأحمر ومنها الأصفر أيضا، ولغرابة الأمر أنه رأى أكثر من واحدة تركب تلك التى يسمونها دراجة هوائية وتمرق بسرعة البرق دون أن تسقط، سبحان الله الخالق، وقد عن له أن يقف متكئا على حائط إحدى المبانى شابكا يديه حول صدره ينظر فى وجه هذه أو تلك، ومنهن من تنظر إليه باستغراب وربما اشمئزاز لكنه لا يدرك معنى ذلك ولا أحس بأن منظره هو الغريب فى هذه البلاد، كما أنه رأى أنه حتى العجائز لا يخجلن من ارتداء لباس الرجال والتبرج والخروج إلى الشوارع، وهو يعتقد أن الخروج إلى الشارع للتفسح فقط ولم يكن يعرف أنهن يعملن ويساهمن فى مختلف الأنشطة.

ويعود بذاكرته إلى القرية وتلك النساء اللواتى لا يرى الناظر منهن حتى وجوههن، يقول بينه وبين نفسه، لا، لا، المرأة المحتشمة أفضل وهى التى

لا تعرف إلا البيت والزوج والأولاد، ثم يرد أيضا على نفسه، لماذا هذه المقارنة؟ ينفض تلك الأفكار من رأسه، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ويعاود المشى مسرعا إلى حيث الجنسية.

وجد نفسه بالمصادفة قرب الجنسية عندما سأل أحد المارة الذى لم يتوقف وإنما التفت إليه وكأنه فى عجلة من أمره قائلا ها هى قبالتك، حدق بعينيه الحائرتين فى اتجاه أكشاك أقيمت من الصفيح محاطة بسياج مربع هو عبارة عن ألواح ساج دقت مع بعضها بالمسامير على قوائم أخشاب وبشكل غير منظم، كان وجه عبد الله شاحبا يظهر عليه الإرهاق وكان ظمآنا يود لو وجد قطرة ماء، وقبل أن يتجه إلى تلك الجنسية التى لا يعرف أهلها وليس عليه أن يعرف فهو يرغب فى السفر فقط وسوف يسأل عن كيفية الوصول إلى بنغازى، مال إلى الأمام مادا يده ليربط المداس حول كعبه الذى كان قد انقطع وربطه فيما سبق بخيط التقطه من الطريق وكان كم قميصه مقدودا لكن لا سبيل إلى رتقه الآن، وصل سور الساج ودلف إلى الداخل، كان هناك أشخاص يتحلقون وهم جالسون على حصير حول كانون نار كان عليه براد شاى ورأى جرة ماء فلعق شفتيه الجافتين بلسانه، قال السلام عليكم، نظر إليه أحدهم شزرا وأجاب باستخفاف، وعليكم السلام، ربما سبب الاستخفاف أن ملابس عبد الله كانت رثة مكرمشة ويدل جرده على أنه من خارج المدينة، طلب ماء مركزا عينيه على الجرة الموضوعة قرب الكانون وقال إنه عطشان، مد إليه أحدهم الجرة وطلب منه أن يجلس فجثى على ركبتيه متناولا الجرة حيث دفعها بقوة على فمه وكانت يده ترتعش مما جعل الماء يندلق على ذقنه وصدره، لم يكن قد حلق ذقنه منذ غادر قريته ولا حتى غسل وجهه وكان يحمل فى مخلاته موس حلاقة مقبضه من

العاج البنى وشفرته تنطوى داخل النصال ومعه مسن وذلك هو النوع الذى يستعملونه فى حلاقة الذقن والرأس فى تلك المناطق وهم لا يتركون شعور رؤوسهم تطول.

بعد أن شرب وحمد الله سأل الجالسين عن السفر.

قالوا إلى أين؟

أجاب إلى بنغازى.

فقالوا هناك عربة بعد ثلاثة أيام من الآن والأجرة ما يساوى جنيه بالفرنكات.

ثلاثة أيام ! بحلق بعينيه ومال برأسه إلى أعلى متسائلا بينه وبين نفسه، من أين لى بقيمة الجنيه وكيف أقضى الأيام الثلاث؟ يتمتم.

سأله أحدهم، ما بك؟

قال: ثلاثة أيام .. أين أقضيها وأنا لا أعرف أحد هنا.

فقالوا: يمكنك أن تنام فى الجنسية، أشار أحدهم إلى مربع الساج الذى ليس له سقف وهو عبارة عن باحة يحيط بها جدار من الساج والصفيح وكان صاحب الجنسية ورفاقه داخل المكتب الذى به منضدة خشبية قديمة خلفها مقعد اتسخت مسانده من أثر اللمس وفى زاوية من المكتب وهو عبارة عن حجرة مقامة من الصفيح سرير حديد صدئ عليه بطانية مهترئة ووسادة لا يكاد يميز الناظر إليها لونها من أثر العرق، وعادة كان صاحب الجنسية يقفل هذا الذى يسميه مكتبا عندما يغادر بينما ينام الناس فى تلك الباحة، كان عبد الله ينقل نظره بين هذه الأشياء ثم تمتم، صحيح من يدخل المطابخ يشّوه .. سألوه ماذا؟ فقال سوف أعود.

عندما خرج من الجنسية لم يكن يدرى وجهته لكنه ربما أراد أن يشغل نفسه بالمشى دون هدف إلى أن يقضى الله أمورا، ولابد أن يفكر حتى ربما يهتدى إلى ما يمكن عمله، جعل يدور من شارع إلى شارع وهو ينظر إلى المبانى والناس، الشـوارع ممتـدة، سمع عن طرابلس وقيل له إنها بلد كبير لكنه كان يعتقد أن ناسها مثل الذين عرفهم فى قريته عرب مسلمون ولم يكن يدرى أن العرب المسلمين يخرجون إلى الشوراع ورؤوسهم عارية ويأكلون وهم يمشون أو يجلسون على جوانب الشوارع وأمام الناس المارة كما أنهم يرتدون ملابس مثل الأجانب النصارى، حاول أن يسـأل أحـد المارة لكنه وجد أن هذا لايفهم كلامه ففى المدينة الكثير من الطليان واليهود وأجانب ربما من كل بلد، هناك بعض المتسولين يقفون هنا وهناك يسألون، لوجه الله يا مؤمنين، هذا الأمر جعل أمعاءه تصعد إلى حلقه فالسؤال مذلة ويمكن أن يجوع الإنسان ولكن لا يجب أن ، يساسى، رأى رجلا معقوف الأنف طويل القامة شعره منكوش يظهر من جوانب الطاقية التى اتسخت ولم يعد بياضها يظهر إلا عند القبعة، اسماله بالية يمشى متمهلا وكلما وجد جمعا من الناس وقف لينظر إليهم ثم يقول: الحق أزناد والشرع أفلوس والتى ما عنداش أفلوس يمشى محبوس، ثم يوجه تلك العصا الطويلة التى يتكئ عليها عندما يتحدث يوجهها كأنما هى بندقية قائلا، بوووو، وينصرف والناس لا يهتمون به ولا أحد حتى يسأله لماذا يفعل ذلك، وقد خيل إليه أن المجانين فى المدينة يختلفون عن المجانين فى القرى، ففى قريته يظهر من وقت لآخر مجنون أو مجانين يدورون طول النهار من مكان إلى آخر عادة ما تكون يدى الواحد منهم قذرة وأصابعه متيبسة كقرون البقر وأسماله بالية قذرة لا يتكلم وإن طلب ثمن خبز، أحيانا يظل يجمع علب الصفيح الفارغة

الصدئة وفى الليل ينام فى أى مكان تحت زيتونه أو أى شجرة أما هذا المجنون فى المدينة فهو يقول حكمة، الحق أزناد أى الحق مع القوة والشرع أفلوس أى أن القانون مع الأغنياء، ومن يرى إلى هذا المجتمع سيجد أن ما يقوله هذا المجنون هو الحقيقة بعينها ذلك أن القانون لا يطبق إلا على المعوزين، أحيانا يحيط به أطفال يشاغبونه وهم يتصارخون فيلتفت إليهم مصوبا تلك العصا حتى ينفضّوا هاربين فيبتسم ويستمر فى تجواله، لا يطلب ولا يستجدى وإذا ما قدم له أحد شيئا أخذه من البعض ورفضه بغضب واستنكار من البعض الآخر كأنما هو يميز بالسليقة بين الحلال والحرام، حتى إنهم يقولون إذا أردت أن تعرف ما إذا كان مالك حلال فجرب مع هذا المجنون.

بعد أن أعياه المشى وخاف أن يبتعد فلا يعرف طريق العودة إلى الجنسية وقد قالوا له إنه لابد أن يأتى قبل الغروب، ترى لماذا؟

فى قريته يمكن أن يبقى الإنسان طول الليل خارج السكن تحت السماء الصافية المقمرة كأنما القمر لا يغيب عنها، ابتسم عندما تذكر قريته، هناك الأمن والأمان والهدوء ولكن.

عندما عاد وجد أكثر من عشرة أشخاص داخل سياج الجنسية متكدسين على الأرض، أسعده ذلك فهؤلاء مثله ربما هم أيضا مسافرون، ولقد حقق الله أول أمنيه له إذ كان يعزى نفسه وهو يمشى بلا هدف أنه قد يجد من يمد له يد العون كأن يلاقى معارف أو أحباء يدلونه على الطريق ممن كانوا قد سافروا أو هم على معرفة بهموم السفر والعمل.

سلم على الموجودين ووقف قليلا حيث كان مازال يتصبب عرقا، لم يعرف أحدا إلا أنه يدرك أن الحديث قد يفضى إلى تعارف، جلس على الأرض ونحى الحذاء فها هو قد وجد أناسا مثله ربما يكون وجودهم مفيدا له وعلى الأقل للتخلص من القلق والحيرة، ومن المعتاد والمألوف أنه كلما التقى الناس فى مكان واحد لبعض الوقت كلما كانت الأريحية أوسع والحديث أشمل.

وهكذا حدث فقد بدأ الحديث والتعارف بين كل اثنين قريبين من بعضهما ثم شمل الكلام الدائرة كلها، وربما كانت الهموم المتشابهة أدعى إلى التقارب ولقد كان ثلاثة من أولئك الجلوس من نفس قرية عبد الله، اثنان منهم فى عمره أما الثالث فهو فى العقد الخامس من العمر كما يظهر وقد قال له إنه يعرف والده رحمه الله وهو عائد التو إلى العمل فى طبرق بعد أن زار أهله، تحدث عن فرص الرزق هناك وعن الرابش وهو باب الرزق الوحيد الذى يمكن أن يولجه أمثالهم من الغرباء، قطع استمرار الحديث آذان المغرب الذى كان ينطلق من مسجد قريب، وهو ما يبعث الطمأنينة فى قلب كل مسلم، فأدوا الصلاة جماعة متيممين إذ لم يكن هناك ماء للوضوء فى الجنسية إلا القليل للشرب ولا يمكنهم الخروج لأن صاحبها نبه عليهم بضرورة عدم الخروج.

بعد الصلاة جمعوا بعض الفرنكات من كل واحد منهم من أجل شراء سكر وشاى وعشاء وكان المبلغ الذى جمعه يساوى خمسة قروش ونصف القرش وهى كافية للعشاء والشاى ولقد أصاب كل منهم أقل من نصف رغيب جاف مع الشاى، صار تبادل الحديث سهلا بعد أن سرت الألفة بين الجميع، وكان أحدهم من منطقة فى دواخل طرابلس وهؤلاء خبروا بعض حياة المدن

وعاداتها مثل التدخين ولباس الإفرنج إذا توفر وأحيانا تناول المشروبات الكحولية، وهذه جميعا من المكروهات بالنسبة لهؤلاء القرويين، وحدث أنه أخرج من جيب فرملة قديمة علبة صدئة بها تبغ وورق بافرا وعندما بدأ يعد سيجارته وضع تبغا على ورقة البافرا الرقيقة وكان التبغ المستعمل فى ذلك الوقت يكون أحيانا فى شكل سجاير وأحيانا أخرى فى شكل نفة أو مضغة، ومن لا يستطيع شراء التبغ المصنع يشترى التبغ المفروع وهذا رخيص ويأتى من أعقاب السيجاير التى يلتقطها البعض بعد أن يرمى بها المدخن، أى عقب سيجايره، أما فى الطريق العام أو المقاهى أو معسكرات الجيوش الانجليزية أو الأمريكية وغيرها، بالنسبة لأولئك الذين يعملون فى تلك الأماكن وهى تمثل جزءا من الدخل لهم إذ يبيعونها فى كديسات صغيرة بالسوق الشعبى، وعندما أعد هذا سيجارته ابتسم وقال، قال الشيخ الفطيسى بعد الأكل والشرب يلزم سبيسى، ضحك البعض إذ ما هو الأكل والشرب والسبيسى، أقل من نصف رغيف جاف وطاسة شاى أحمر وعقب سيجارة، وحقا شر البلية ما يضحك.

انقضى يومان وهم على هذا الحال ينامون على الأرض ليلا ويجلسون متقرفصين فى شكل دائرة أغلب الوقت فى النهار انتظارا للعربة التى سوف تقلهم، وكان على من يريد أن يقضى حاجته البشرية أن يذهب إلى الجامع أثناء النهار أما ليلا فبقرب المكان، وكل عدتهم صطل ماء للشرب وبراد شاى عروته مكسورة وطاستان صغيرتان.

فى اليوم الثالث أبلغهم صاحب الجنسية بأن العربة ستصل ظهرا وتغادر ليلا وقبل أن يعرفوا ما إذا كانت العربة ستأتى فعلا أم لا طلب دفع الأجرة من الجميع ولم يكن لدى عبد الله إلا ربع المبلغ أى ما قيمته ربع جنيه وكان حائرا

فصاحب الجنسية سوف لن ينتظر وصاحب العربة لن يوافق على نقله ما لم يكن قد دفع المبلغ كله وليس له من وسيلة لتدبر الجزء الباقى، ضاقت الدنيا وهى واسعة فى وجهه فها قد جاء وقت السفر دون أن يكون مستعدا له، والسماء لا تمطر ذهبا، لاحظ أحد الرفاق تلك الحيرة والتردد قليلا ثم باح له بما يحيره حيث قال إنه لم يكن يتوقع أن أجرة العربة إلى بنغازى ستكون غالية، إلا أن أولئك الذين عرفهم وكانوا من قريته دفع كل منهم جزءًا من الثلاثة أجزاء الباقية فصار المبلغ يساوى جنيها على أن يدفعه بعد أن يعمل ويتوفر لديه بعض المال، تمتم، المال ! المهم قد توفر ثمن ركوب العربة إذا جاءت ثم .. رفع رأسه يفرجها الله والغريب للغريب رحمة.

جاءت العربة وهى قبل أن تصل الجنسية سمعوا قرقعة أبوابها لأن المنطقة كانت مليئة بالحفر ولابد أنها قديمة، سألوا صاحب الجنسية كم تأخذ من الوقت عربته لتصل إلى بنغازى؟

قال: إن شاء الله يومين ونصف، أو يومين وليلة، وذلك حسب الظروف وحالة السائق.

تبادلوا النظرات إما إعجابا أو استغرابا، ذلك أن من لم يركب عربة لابد أن يعجب بسيارة تقطع كل تلك المسافة خلال يومين وليلة أما ذلك القروى المسن الذى كان قد سافر فيما سبق فقد استغرب لأنه فى المرة الأولى قطعت العربة التى سافر فيها خلال يومين فقط.

لم يعجب صاحب الجنسية المنظر، فقال بازدراء: احمدوا ربكم إذ وجدتم عربة فى هذه المدة القصيرة لأن بعض الناس ينتظرون أكثر من أسبوعين

أو ثلاثة حتى يجدوا وسيلة نقل، قال ذلك ودار فى الاتجاه الآخر ولا سبيل إلى مناقشته وقد استلم أجرة الركوب.

فى تلك الأثناء وصلت العربة، ويالها من عربة فقد كانت تهتز حتى كأنها سوف تتفكك ، طلب منهم أن يركبوا فى الصندوق الحديدى المربع الذى يقع خلف كابينة القيادة، وتلك الكابينة هى عبارة عن علبة أمامية بها كرسى مستطيل مهترى من الوسط وقد وضع سائقها وسادة فى المكان الذى يجلس فيه عندما يريد قيادتها أما الصندوق الذى قيل لهم اركبوا فيه فهو مربع ساج صدئ قائم على أربع عجلات يفتح بابه من الجانب الخلفى وفى تلك المرة استعصى الباب على الفتح فطلب منهم القفز من الأجناب، لم يكن لديهم شيئا من متاع الدنيا إلا ما كان على البدن وهو قليل وهكذا قفز كل واحد من الجانب الذى كان يقف بقربه والمهم أن تتحرك العربة وليس معروفا ما إذا كانت فعلا ستقطع المسافة خلال تلك المدة التى ذكرها صاحب الجنسية أم لا.

كانت أرضية الصندوق الحديدى ذاك محرفة حتى إن الجالس لا يمكنه أن يستوى عليها ومع ذلك فقد كان صاحب الجنسية يتظاهر كأنما هو أجاد عليهم بشىء عظيم.

لا بأس، فقد أوقف السائق العربة بعد قرقعة وأزيز وصفير، وذهب إلى حانة قريبة دون أن يحيى أو يتحدث مع أى منهم، كانت أمام الحانة طاولات خشبية يجلس حولها أناس كل منهم يشرب شيئا خاصا به وكان شرب الخمر مباحا فى طرابلس، تساءلوا بنظرات الاستغراب دون أن يجرؤ أى منهم على السؤال ما إذا كان السائق إذا شرب خمرا سيقود السيارة أم لا وهل فعلا سيغادر هذه الليلة؟

لا أحد يعرف وليس من حقهم أن يسألوا وإذا ما قرر عدم المغادرة تلك الليلة فلابد أن يناموا فى ذلك الصندوق لأن صاحب الجنسية يتهيأ لاستقبال آخرين ينامون فى نفس المكان انتظارا لعربة أخرى أو ربما لهذه متى عادت من رحلتها إلى بنغازى، وكانت العربات ظهرت خلال العشرينات فى طرابلس كان وقودها حطبا حتى أن أغلب حمولتها فى أى رحلة تكون من الحطب أى إن تلك العربات كانت تسير بدفع البخار وقيل أن فى مقدمتها ماسورة دائرية مجوفة يوضع فيها الحطب الذى تلتهمه النار فيغلى خزان الماء الذى يولد بخارًا يدفع العجلات وكلما سارت عدة كيلو مترات توقف سائقها ليضع الحطب فى تلك الماسورة وهكذا دواليك ولهذا فإن نوع هذه العربة الآن يعد متقدما فى مجال النقل إذ ما كان يقطعه الإنسان من مسافة فى خلال شهر كامل مشيا على الأقدام صارت مثل هذه العربة تقطعه فى ثلاثة أيام أو يومين أحيانا، ألم يقل صاحب الجنسية إنها ستصل خلال يومين وليلة؟

لم يكن هناك غطاء للصندوق الحديدى الذى جلسوا فيه وكان على كل منهم أن يضع أى شىء على رأسه بعد أن تتحرك تلك العربة اتقاء الريح أو ربما حتى المطر ذلك إن الفصل خريفا والمطر فى نواحى الشرق بالذات متوقع إذ كما يقال إن برقة أمطارها كثيرة، وفى حالة المطر لن تكون هناك من حيلة إلا إذا توقف السائق بحيث يمكنهم اللجوء إلى تلك البيوت القديمة التى قيل إن الإيطاليون كانوا قد أقاموها على امتداد الطريق الساحلى خدمة لأغراضهم فى ذلك الوقت وهى خالية الآن وقد خلعت أبوابها وشبابيكها لأن الرعاة كانوا يوقدون بها النار للتدفئة والطبخ.

المهم الآن أن تغادر العربة إذ إنهم كانوا قد حشروا فى ذلك الصندوق الخلفى بينما كان السائق ما يزال جالسا على كرسى فى الحانة القريبة وليس فى إمكان أحد منهم أن يكلمه خوفا من أن يغضب وقد يرفض نقل ذلك الذى أغضبه، لا بأس من الانتظار والصبر طيب.

بعد فترة انتظار جاء السائق ومعه قرطاس لابد أن به مشروبات، أشعل محرك السيارة الذى دار ببطء كأنه جمل يرغى وصارت العربية تهتز نافثة كمية كبيرة من الدخان خلفها ثم تحركت وكان الوقت بعد منتصف الليل، ولا أحد يعرف ما هى الحكمة فى أنها جاءت ظهرا بينما غادرت ليلا، بعضهم كان نائما منطرحا على أرضية الساج فى وسط ذلك الصندوق وهى أرضية متعرجة، استيقظ من كان نائما بسبب اهتزاز العربة وصوت المحرك وأنينه، ومن يريد أن ينام لابد أن يضم رجليه بحيث تلامس ركبتيه ذقنه أى أن يكون منكمشا كانكماش الدودة إذ ليس هناك متسعا فى ذلك الصندوق الحديدى، وكان السائق وهو يرتدى اللباس الأفرنجى، جبة وبنطلون وبالطو كان يحمله فى يده ثم رماه على الكرسى المحادى له فى كابينة القيادة وقد رفض أن يركب معه أحد فى تلك الكابينة كأنما هى محجوزة لأحد غيرهم.

وحتى قبل أن يغادروا طرابلس متجهين إلى المحطة الثالثة بنغازى استهوى عبد الله كلام ذلك الرجل الذى خبر العمل فى طبرق وما قاله عن جمع النحاس وبيعه وذلك لابد أن يكون سهلا ولا يحتاج أى خبرة أو حتى انتظار وما يليق به هو أن يجد مصدر دخل سريع حتى يأكل ويدفع دينه لهؤلاء الذين ساعدوه مشكورين، وهكذا فقد قرر بينه وبين نفسه أن ذلك هو مكانه

المناسب ويبدو أن الفرصة ستكون مواتية خصوصا أن معهم من خبر ذلك العمل، كما أنه قال إن هناك كثيرين من أبناء عمومتهم فى طبرق والعدم وبئر حكيم وهم جميعا يقيمون فى حى اسمه (سوق العجاج) وإذا كان هذا الذى يتحدث عن الرابش والعمل فى تلك النواحى قد زار أهله وهو عائد الآن فلابد أن ذلك العمل مجزيا على الرغم من مخاطره، ولقد سمع عن أولئك الذين ماتوا بسبب انفجار لغم أو قنبلة والذين قطعت أيديهم أو أرجلهم، لكن لا مناص من المخاطرة فهى إما حياة أو موت، وأحيانا الموت رحمة للإنسان إذا لم يستطع أن يطعم أهله ويعيل نفسه أو أن يضطر إلى الطلب والمذلة.

وفى طرابلس لم يكن العرب المسلمون يؤدون إلا أعمالا حقيرة ذات مردود زهيد بينما يسيطر اليهود والإيطاليون وأجناس أخرى على أعمال التجارة والحرف الأخرى، وفى الزراعة كان المالك غالبا إيطالى والعمال ليبيون يحصلون على الشىء القليل، لكن من يجد عملا فى بلاده حتى لو كان حقيرا أو متعبا يعد محظوظا، وكانت بعض النواحى فى طرابلس وخصوصا الزراعية تسمى بأسماء أولئك الأجانب وهى عربية إسلامية منذ فتحها القائد المسلم عمرو بن العاص حاملا رسالة الإسلام الخالدة سنة ٢٢ - ٢٣ هجرية فى عهد الخليفة العادل عمر بن الخطاب بحيث هزم البيزانطيين وأسس أول مسجد بها رفع فيه الأذان (الله أكبر على من طغى وتجبر) ومر عليها ستة من القادة المسلمين العظام هم (عبد الله بن أبى سرح وعقبة بن نافع وزهير بن قيس وحسان بن النعمان وحسان بن ثابت وموسى بن نصير) كانت حاضرة ليبيا ظهيرا وقاعدة وسندا للإسلام والمسلمين منذئذ حتى وطأئما أرجل الفاشيست

الطليان وإن دافع عنها أهلها بما ملكوا من سلاح متواضع وإيمان قوى متين وكان أن رووا أرضها بدمائهم الزكية.

عندما وصلت العربة ذلك المكان الفاصل بين طرابلس وبرقة والذى يقف فيه مبنى شامخ تعلوه تماثيل نحاسية وبه نقطة للشرطة الطرابلسية تقوم بتفتيش السيارات وأحيانا توقيف الناس المسافرين لسبب أو بلا سبب وإعادتهم، وإذا ما أعيدوا فلابد أنهم يقطعون المسافة مشيا على الأقدام وقد يموتون عطشا أو جوعا، دون أن يهتم بذلك أحد، خيم على أولئك المحشورين فى صندوق الحديد شبح الخوف والقلق لأن تلك هى أول عقبة تواجههم وربما كان عبد الله أكثرهم خوفا وهلعا فقد أحس بأن دقات قلبه قد تزايدت حتى كأنها تخترق صدره فهو لا يمكنه أن يعود إذا لم يتوفر له أساسا حتى المبلغ الذى دفع كأجرة للعربة التى تقله الآن كما أنه قد تعلق بقشة ربما تنجيه من الغرق متمثلة فى الرجل الذى حدثه عن طبرق وعن الرابش وفرص الكسب الذى لا يحتاج إلى خبرة أو انتظار ومن له بذلك إذا ما أعيد أو حتى أوقف؟ كان ذلك يعتمل فى نفسه بينما فرائصه ترتعد وقد نهره أحدهم قائلا: اصبر ولا تلفت النظر إلينا بخوفك هذا، الآخرون ربما كانوا قد تعودوا على السفر والتعامل مع الشرطة ومثل هذه الظروف أما هو فإن كل شىء معلق بهذه الرحلة، رفع يديه، يارب سترك.

أوقف السائق عربته قبل الوصول إلى القوس لينبه الركاب أنه لن ينتظر أيًا منهم إذا ما أوقفتهم الشرطة وهو غير مسئول كذلك عن أى واحد يعيدونه، الأمر الذى ضاعف دقات قلب عبد الله وانقباض صدره، ولكن ولحسن الحظ مرت العربة بلا صعاب أو مشاكل وأحس جميع أولئك الركاب المساكين

الذين يلاحقهم الخوف ويسير معهم الرعب بالفرح، مرت العربة وأحسوا وكأن العالم أصبح أكثر اتساعا والسماء أكثر رحمة والهواء ازداد نقاءً وقد نزلت قطرات مطر كما لو أنها هبة من الله لتبرد ظمأ النفوس الحائرة المرعوبة وكأن الطريق الضيق الممتد قد اتسع وتحول سواده إلى اخضرار والتواءه إلى استقامة، وتلك الفيافى الموحشة إلى أراض آمنة، يحدث ذلك بعد أن انتظروا مدة طويلة أحسوا كأنها الدهر كله أمام تلك البوابة، وكلما ظهر شرطى كان البعض يطأطئ الرأس وينكمش والبعض الآخر يشيح بوجهه فى اتجاه آخر خوفا من أن تلتقى عين أحدهم بعيون الشرطى فيشير إليه بالنزول ليبدأ معه تحقيقا لابد أن يكون مملا قد يشمل كل الركاب وقد يؤدى إلى إيقافهم أو إعادتهم من حيث أتوا وكان ذلك الحصان الأبيض الذى يقبع فى مقدمة قبعة الشرطى يلمع كأنما هو يبعث الشرر تحذيرًا وإنذارا.

وها هم الآن فى أراض أخرى، إنها برقة التى يدخلون أرضها من الجانب الغربى وستكون أول بوابة للشرطة أمامهم على أرض تلك المنطقة التى شهدت أبشع عمل بربرى قام به الإيطاليون الفاشيست ضد الليبيين العزل من السلاح عندما جمعوا النساء والأطفال والشيوخ انتقاما من المجاهدين وذلك فى معتقل العقيلة، تلك المأساة التى سجلها الأدب الشعبى بكلمات تقطر دما ودموعا، مأساة شعب حشر فى أرض فضاء محاطة بالأسلاك الشائكة يتضور جوعا ويرتعد خوفا يقتل رجاله بإطلاقات على الرأس دون سبب أو تحقيق ولمجرد رغبة فى الانتقام والقهر، يقول الشاعر:

ما بى مرض غير دار العقيلة   وحبس القبيلة   وبعد الجفا من بلاد الوصيلة
ما بى مرض غير حد النكد   وشوية الزاد   وريحة اللى مجبرة بالسواد
الحمره اللى وين صار العناد   عناتها طويلة   لها وصف ما عاد تاجد مثيلة
ما بى مرض غير فقد الرجال   وفنية المال   وحبس نساوينا والرجال
والفارس اللى كان يقدع المال   نهاره جفيلة   طايع لهم كيف طوع الحليلة
مابى مرض غير شغل الطريق   وحال رقيق   ونزوح وما طاق فى البيت ريق
ما بى مرض غير ضرب الصبايا   وجلودهن عرايا   ولا يقعدن يوم ساعة هنايا
ما بى مرض غير بعد العمالة   وحبس الرزالة   وقلة اللى من الخطأ ينشكالا
وغيبت اللى يحكموا بالعدالة   النصفة قليلة   وباطل على الحق وأخذ الميلة
ما بى مرض غير سمع السوايا   ومنع الغوايا   وفقد اللى قيل كانوا سمايا
ما بى مرض غير قول اضربوهم   ولا تصنعوهم   وبالسيف فى كل شىء خدموهم

فى العقيلة توقفت العربة وقد انتابهم الخوف مرة أخرى من الشرطة فهى لا تختلف كثيرا وإن اختلف المكان والشعار والسلطة، جاء شرطى يرتدى بزة رسمية وفى يده ورقة كأنما هو يريد اسما بعينه، كان الشعار المثبت فى مقدمة قبعته التى تميل على الجانب الأيمن من رأسه جديدا عليهم إذ إنهم ألفوا الحصان الأبيض على قبعات الشرطة فى طرابلس ونواحيها، كان شعار شرطة برقة عبارة عن نجمة بيضاء محاطة بهلال أبيض أيضا، والهلال شعار المسلمين، وكل شىء له علاقة بالإسلام يطمئن النفس، سأل الشرطى عن أسماء الركاب وكذلك اسم السائق ولم يطلب منهم النزول من العربة كما فعل أولئك أصحاب شعار الحصان الأبيض فى منطقة القوس، دار الشرطى حول السيارة مرتين ثم اتجه إلى عمود البوابة الذى يقطع الطريق بالعرض ورفعه ثم أعطى إشارة للعربة

كى تمر، استبشروا خيرا بهذه المعاملة الطيبة وعدم الانتظار الطويل أمام بوابة الشرطة، وربما هذا يعنى أن تلك الإجراءات التى قيل إنها اتبعت فى بنغازى قد تغيرت أى طرد (عرب الغرب) من تلك البلاد، أو ربما لم تصل تلك التعليمات إلى هذه المنطقة بعد، المهم أنهم قطعوا أكثر من نصف المسافة وهناك أمامهم أجدابيا وإذا اقتضى الأمر وعرفوا بطريقة ما أن طرد الغرابة من بنغازى ما زال مستمرا يمكنهم التوقف فى أجدابيا ومنها عبر الصحراء إلى طبرق وقد قال لهم ذلك الذى خبر العمل فى تلك المناطق أن هناك طريقا صحراويا جنوب أجدابيا يسمى طريق رومل يمكنهم أن يسلكوه سيرا على الأقدام وقد يحتاجون إلى عشرة أيام أو أكثر لكى يصلوا طبرق، وربما أمكن للبعض منهم إن يجدوا عملا فى الطريق إن أرادوا البقاء مثل رعاية الأغنام أو الحرث ومن ثم الحصاد مع أهل البادية الذين عادة ما يرحبون بالغرباء ويستخدمونهم.

سأل أحدهم، ولكن ما الذى سيحدث، كيف يمكن أن يحصلوا على الأكل والشرب خلال تلك الأيام العشرة أو أكثر؟

إجابة ذلك الذى خبر العمل هناك فى السابق، إن أهل البادية هنا يكرمون الضيف ويساعدون الغريب ويمكن أن نقف عند أى نجع وسوف نستضاف لدى أول بيت فيه نأكل من أكلهم وننام عندهم وحتى إنهم سوف يدلوننا على الطريق أن احتجنا لذلك، وليس هناك مشكلة فى هذا الشأن كما أن النواجع كثيرة بين أجدابيا وطبرق.

وهنا تدخل ذلك الذى جاءت من دواخل طرابلس ليقول إنه ذاهب إلى بنغازى مهما كان الأمر، ثم تساءل، لماذا تريدون الانتحار؟ هل من الحكمة أن

يسافر المرء سيرا على الأقدام عبر الصحراء فقط لأنه يخاف الشرطة وإجراءاتها؟ إنكم تنتحرون.

كان يتحدث عن الصحراء فهو لا يعلم أن هؤلاء فعلا ذاهبون إلى الموت، لم يكن يدرى شيئا عن الألغام والقنابل والرابش ولا سمع بأن هناك من يموت فى انفجار لغم بينما رفيقه أو قريبه يرى أن جسده قد تقطع ولا يتوقف عن القيام بنفس العمل الذى قتله، فقد يحدث أن يكون هناك اثنان مترافقان فيقتل أحدهما ليدفنه رفيقه ولا يتوقف عن تفكيك تلك القنابل التى قد تقتله هو أيضا دون أن يجد من يدفنه أحيانا وإذا وجد من يدفنه قد لا يكون باقيا منه إلا قطعا من لحم محروق مفروم، لم يناقش أحد منهم ذلك الذى احتج على خيار الانتحار بالسفر عبر الصحراء، فلا وقت لترف النقاش والاختيار بين الموت والحياة لأنه إما موت أو حياة.

غادرت العربة العقيلة بسلام وكان سائق تلك العربة قد تحدث مع هؤلاء الركاب لأول مرة وكان موقفه ودودا حتى إنه قال إنه على استعداد أن يتوقف فى أجدابيا ليتيح لهم فرصة التأكد من تلك الأخبار التى تقول إن الشرطة تطرد عرب الغرب من بنغازى، وكان تبدل موقف هذا السائق الذى كان يتأفف حتى من مجرد الحديث معهم غريبا، وربما كان للجغرافيا فعلها السريع فقد كان عبور القوس بشكل وبعد العقيلة بشكل آخر، فى الأول كان متغطرسا متنمرا وفى الثانى صار طيبا متسامحا، سبحان الله الذى يغير ولا يتغير، ربما كان تصرفه ذاك زائفا ولكن ما الذى يجعله يفعل ذلك، هل هو خائف من شرطة برقة التى يمكن أن تنصرهم عليه إذا ما حدث خلاف أو شجار؟ لا أحد يعرف.

من المؤكد أن هناك سببا ولكن سوف تتضح مصداقية الأمر عندما يتوقف كما قال فى أجدابيا، وكانوا أربعتهم، عبد الله وأولئك الثلاثة الذين من قريته، قد قرروا أن يتوقفوا فى أجدابيا إذا ما عرفوا أن إجراءات الشرطة والقبض على الناس فى بنغازى هى حقيقة.

كانت هموم السفر والخوف من الشرطة وهواجس القبض والتحقيق وربما الإعادة والمنع من مواصلة الرحلة مسيطرة عليهم جميعا وإن بأشكال مختلفة حتى إن هناك من كان نادما على ركوب العربة أساسا ويقول إنه كان من الأجدى السفر مشيا على الأقدام بحيث يعبر المسافر الصحراء ولا يمر على بوابات الشرطة دون اهتمام بما يمكن أن يحدث فى تلك الحالة إذ فى الصحراء مخاطر أكثر عشرات المرات من إجراءات الشرطة، جوع وعطش وأفاعى وحتى قطاع طرق على الرغم من أنهم ليس لديهم ما يطمع فيه قاطع الطريق، هذه الهموم والهواجس أنستهم حتى مجرد التكفير ولو للحظة فى أهلهم وبلادهم، وكانوا يتقاسمون حبات التمر تلك التى كانوا قد اشتركوا فى شرائها، أربع حبات تمر لكل واحد مع شربة ماء فى كل وجبة، ويا لها من وجبة، حارة تمر، وهم يأكلون فى وجبتين فقط، الغذاء والعشاء، إن صح أن تسمى وجبات أكل.

ولم يكن حال أولئك الذين لم يهجروا مناطقهم بأحسن، فإذا كان هؤلاء قد حصلوا على حارة من التمر لكل واحد منهم وهم رجال يمكنهم أن يصبروا فإن الذين بقوا وجلهم من النساء والأطفال والعجزة لم يعد لديهم شىء يطعمهم فحتى تلك الفيتورا التى كانت تساعد على ملء البطون ولو مؤقتا ودون فائدة غذائية قد انفقدت لأن الزيتون لم يعد يثمر بسبب انحباس المطر، وإن هؤلاء الذين كتب الله عليهم البؤس فى هذه المنطقة من العالم وفى تلك القرية

القابعة على قمة جبل نفوسه خاصة لم يتركوا شيئا إلا أكلوه، لقد أكلوا جميع أنواع الأعشاب والنباتات وحتى ذلك الجراد الذى كان هو الآخر يأكل ما يقع عليه من شجر وزرع ونبات إن وجد فقد أكلوه.

وقد شاءت الأقدار أن يأتى يهودى مرابى آخر أنشأ شركة لشراء نبات الحلفا وأخذ هو الآخر وكلاء وطنيين من أهل البلاد يشترون له ذلك النبات وصارت النساء والأطفال ومن بقى من الرجال ينتشرون فى الأراض القريبة والبعيدة لاقتلاع وجمع الحلفا وإحضارها على ظهورهم من مسافات بعيدة فى الغالب يبيعونها بثمن زهيد ومع ذلك فقد اعتبروا رغم كل الشقاء أن تلك رحمة من الله وأنه مورد رزق لولاه لماتوا من الجوع، وهكذا كان هناك يهودى مرابى فى شرق ليبيا يشترى النحاس والألومينيوم والحديد ومرابى آخر فى غرب ليبيا يشترى نبات الحلفا، كلاهما يهودى ولكل منهما وكلاء من أهل البلاد صاروا هم أيضا مرابين يستغلون البؤساء الذين يبحثون عن لقمة العيش أو فلس يعيلون به أطفالهم، ولابد أن وراء هذين اليهوديين دول ومؤسسات أو جمعيات لكن ذلك لا يهم فكما يقولون (إذا جاع الجمل أكل تبن الحوية).

وهؤلاء جياع وليس من شأنهم إن كان الشارى يهودى أو نصرانى، وقد صارت خديجة مثلها مثل غيرها من النساء والأطفال والشيوخ فى تلك القرية تذهب لجمع ذلك النبات حيث تترك طفليها ووالدة زوجها فى ذلك الداموس المظلم بلا أكل، وهى إذا لم تذهب لن يأتيهم الطعام ذلك إن كل مخلوق لاه فى نفسه والكل جياع ومحتاجون، كانت حافية القدمين لا تتدثر إلا بملحفة قديمة تستر جسدها النحيل وقد أصبحت كحماتها مريضة يلازمها السعال ليلا

ونهارا وقال البعض إنها مصابة بالسل الذى كان منتشرا بين الناس فى ذلك الوقت وليس من دواء له.

لقد حزنت كثيرا عندما تركها زوجها مجبرا وكان حزنه هو موجعا أيضا وكل الذى حدث بعد ذلك اليوم، يوم الفراق، كان شاقا ومؤلما لكليهما، قسوة الظروف ووطأة المرض ونكد الفراق والجوع كلها قاسية مميتة ولكن ما حيلتهم؟ تنهمر الدموع من عينيها وهى تحاول كبح جماح مشاعرها، عجوز مريضة وأطفال جياع وزوج غائب لا تعلم عنه شيئا وهى تكد حافية لتوفر لهم ما يسد الرمق، سبحان الله كم يصبر الإنسان وكم هى مقدرته على التكيف مع الظروف الحياتية التى يواجهها !

وهى كلما خرجت ينخلع قلبها عندما تظن أن شيئا قد يحدث لأطفالها الصغار الباقين فى الداموس مع تلك العجوز المريضة التى لا تتحرك وقد تموت فى أى لحظة، وحمدا لله أن هذا المجتمع الصغير رغم كل الذى يعانيه من فقر وعوز ما زال يحتفظ بأخلاق تحد من انحرافه ولولا ذلك فهى لا تدرى ماذا كان سيحدث لها وهى شابة مازال فيها بقية من جمال ونضارة، كان يمكن أن تبيع جسدها من أجل لقمة لأطفالها وبطنها الخاوية.. تنتفض صاحية من تلك الأفكار .. استغفر الله.

ترى هل يدرى زوجها عن حالها وحال أطفالها ووالدته التى تركها طريحة الفراش تصارع الموت؟ لماذا لم يبعث جوابات ؟ لماذا لم يرسل نقود؟

فهى لا تعتقد أن الذين يسافرون إلى ذلك البلد الذى اسمه بنغازى لا يجدون عملا وبالتالى لا يحصلون على مال، كيف يتركها على هذا الحال؟

لم تكن تعرف مشاق السفر وإجراءات الشرطة ولا حتى كم يبعد البلد الذى ذهب إليه زوجها، إن واجبه أن لا يتخلى عنها، هذا الذى تعرفه، أليس من مسؤولية الرجال العمل وتوفير احتياجات أسرهم؟

تمتعض من هذه الأفكار، تباشر قلع الحلفا، ذلك النبات الذى يجرح الأكف وباطن الأصابع لأنه يجب أن يقتلع من الجذور، هكذا قال الذين يشترونه، حكم القوى على الضعيف والشبعان على الجيعان .. وهى بالكاد تجمع خلال النهار كله ما يساوى ثمن كليويين من دقيق الشعير وهذا قد يكفى للغذاء والعشاء حيث تقوم بخبز العيش من ذلك الدقيق ويكون سقاءه من مائه وهذا يسمى (عيش بالصفايا) وهو عبارة عن دقيق شعير يطبخ مع ملح وماء ولا شىء غير ذلك.

تعود يوميا خائرة القوى منهوكة الجسد لتجد طفلين جائعين كما لو أنهم فراخ طير فى عش يتلقفون الأكل بأفواه فاغرة مرتعشة وعجوز مريضة حتى إنها تتمنى الموت لترتاح مما هى فيه، تسأل أحيانا عن ابنها الغائب الذى تريده أن يدفنها ويترحم عليها، إنه بعيد فى بلاد أخرى قد يأتى وقد لا يأتى، قد يكون حيا أو ميتا، لا أحد يعرف والبعد جفاء كما يقولون، وعلى الرغم من أنها لا تطيق أن ترى أطفالها جوعى لكنها لم تعد قادرة على حمل هذا العبء الثقيل فهى تذهب لقطع وجمع الحلفا ثم عليها أن ترد لتأتى ببعض الماء من عين تقع بين جبلين وعلى مسافة عدة كيلو مترات كما عليها أن تحتطب وأن تغسل وتبطخ، كل هذا وهى تسعل وينخر جسدها مرض السل وقد صارت تخاف من الموت وتفكر ما الذى سيحدث لأطفالها، وهل من وسيلة لإبلاغ عبد الله بكل ذلك.

لم يعد همها منصبا على الطعام فقط إذ كان فصل الخريف قد حل وبعده الشتاء والأسمال بالية وليس هناك لباس أو غطاء ويظهر أنها ستصاب بمرض الأعصاب زيادة على سعالها وقد بدت شاحبة الوجه هزيلة الجسد، انخرطت فى نحيب متواصل وبكاء حتى كأنها لن تتوقف إلى أن تعمى، ومرد ذلك أنها كانت خائفة ومنهوكة القوى ومريضة وكان يمكن أن تتمنى الموت لولا ذينك الطفلين اللذين لا ذنب لهما إلا أنهما ولدا فى هذا الوقت التعيس لأبويين فقيرين عاجزين، تتوقف قليلا عن التفكير، ثم عضت على شفتها السفلى ونهضت بعد أن كانت جاثية على ركبتيها كأنها تندب بينما كانت فى الواقع تهدئ مشاعرها وتلتقط أنفاسها، وكانت قربة الماء ملآنة ومصلوبة بجانبيها فنظرت إليها كأنها تتساءل ما إذا كان بمقدورها أن ترفعها على كتفيها وتمشى، وأخيرا عادت بها وهى تئن دون أن تمد رجليها فى خطوات واسعة خوفا من الوقوع وظلت تمشى نحوا من ثلاث ساعات حتى وصلت.

إنها لا تعرف كيف يمكن أن تطعم طفليها وتلك العجوز المريضة إذا ما نفذ نبات الحلفا الذى ترزق منه الآن من الأرض القريبة، وذلك لابد أن يحدث لأن أهل القرية كلهم وحتى القرى المجاورة يجمعون هذا النبات من الصباح إلى المساء يوميا وإذا كانت الحلفا قد قاومت الجفاف فلا يمكن أن تقاوم هذا الجيش من الناس الذين يقتلعونها، وإذا حدث ونفذت ولم يبق إلا المناطق البعيدة التى يذهب إليها بعض الناس ويبيتون أياما فإنه لن يكون بإمكان امرأة عزباء أن تذهب وتنام فى الخلاء كذلك إذا لم يصل من عبد الله شىء فانها وأولادها سيجوعون لأن كل أهل القرية يكدحون ليلا ونهارا وليس لديهم ما يجودون بـه وحتى لو جاد أهل الرحمة بشىء من طعامهم فسيكون ذلك ليوم

أو نصف يوم، لكل هذا وذاك فهى مثقلة بالهموم وربما حتى اليأس المطبق رغم معرفتها بأنها واحدة من عشرات النساء والأطفال الذين يعانون ويواجهون نفس المصير فى قريتها وقرى أخرى، إنه المرض والجوع وفراق الأحباب وأولياء الأمور.

بعد أن مرت تلك العربة التى تقل مجموعة من الرجال الباحثين عن الرزق بوابة العقيلة وصارت تقترب من أجدابيا إذ خلفت وراءها مرسى البريقة لم يعد ثمة من خيار إلا أن يفترق الجماعة فى طريقهم هؤلاء الذين جمعتهم الصدفة وحدها فى جنسية بطرابلس دون سابق معرفة أو ترتيب كما كان لابد من اقتسام ما تبقى من مرطة التمر المشتركة ويجب أن يتم ذلك قبل أن يصلوا أجدابيا إذ لا أحد يعرف ما الذى سيحدث من جانب الشرطة وما الذى يخبئه القدر لهم فإذا كانت المعاملة فى نقطة العقيلة قد تيسرت ربما لأنها بعيدة عن بنغازى فإن الوضع فى أجدابيا قد يختلف، اقتسموا التمرات وهى قليلة واحتفظ كل واحد بنصيبه ولم يعد من الضرورى التشديد فى أن يحصل كل واحد على حارة من التمر فقط وصار كل منهم حرا فى أن يأكل التمرات كلها أو يقتصدها.

وبعد مسيرة نصف يوم تقريبا من العقيلة وأجدابيا لاحت بوابة الشرطة التى تقف على الطريق بعيدا عن مدخل تلك البلدة كما لو كانت حجر صحى، وعندما وصلوا كان الجو مكهربا فقد جاء شرطى يضع ثلاثة أشرطة فى شكل رقم سبعة مركبة واحدة فوق الأخرى على ذراعيه وكان مقطبا يوحى منظره كما لو أن القيامة تقوم أو أن أعز الناس إليه قد مات للتو، وعادة ما يتشاءم الناس من ملامح الوجه خصوصا إذا كان الأمر يتصل بهؤلاء الذين يملكون حق تقرير مصير الخلق، لم يكن على رأس هذا الشرطى قبعة وقد فك حزام وسطه كأنما هو يتهيأ لمعركة فاصلة مع أعداء أشداء وليس هؤلاء الفقراء المساكين الذين يأملون فى

الوصول إلى جزء من بلادهم قد يجدون فيه فرصة عمل، أوقف العربة ونظر إلى ما فيها شزرا ثم أومأ بيده دون أن يتكلم إشارة معناها انزلوا، تبادلوا النظرات فى ارتياب وخوف وتململ كل واحد منهم كأنه يريد أن يسبقه الآخرين لكن ذلك الشرطى صرخ بصوت أجش قائلا، ألم تفهموا يا ..... عرب غرب أليس كذلك؟

نزلوا جميعا يجرون أرجلهم التى تيبست من أثر الجلوس على أرضية العربة لمدة طويلة واحدا بعد الآخر وهم ينظرون بعيون حائرة إلى ذاك الوجه العبوس الذى يقف صاحبه متحفزا وفى يده الحزام الذى تلمع فى نهاية طرفيه مشابك نحاسية صفراء، هل غضب عليهم الله حتى يجدوا مثل هذا المخلوق أمامهم وقد كادوا أن يقطعوا المسافة كلها، هم الآن فى برقة وكانوا يتوقعون ربما معاملة طيبة، طلب منهم أن يقفوا أمام المكتب وهو عبارة عن حجرة مربعة مسقوفة برقائق من الساج الصدئ، تركهم وتوجه إلى السائق ليسأله ما إذا كانت معه ممنوعات مثل التبغ والعنبرة التى قيل إنها كانت تهرّب إلى مصر عبر برقة، قال السائق إنه لا يحمل شيئا من ذلك ويمكنه أن يفتش العربة إذا رغب فأشار بيده كأنه يقول له اذهب إلا أن السائق قال إنه سوف ينتظر هؤلاء الركاب، أجابه الشرطى الذى يتكلم بسرعة وعصبية، من قال لك إننا سنسمح لهؤلاء بالعبور؟ زلزل هذا الرد كيان عبد الله الذى لم يقوى على الوقوف بعد سماعه ذلك الكلام فجلس على الأرض إلا أن الشرطى وقد استكثر على أحد التعساء أن يرتاح فقال (نوض أوقف على مكسوراتك) بمعنى على رجليك، قفز هذا واقفا ليقول حاضر يا أفندى، كان قد سمع كلمة أفندى فى طرابلس واعتقد أنها تقال لأى شرطى، انتظر سائق العربة فعلا موفيا بعهده إذ كان قد قال إنه سوف ينتظرهم، كانوا وقوفا بينما دخل الشرطى إلى تلك الحجرة وصار يشير بإصبعه لكل واحد منهم كى يأتى إليه.

يسأل، ما اسمك يا غرباوى ولماذا جئت؟ ومن تعرف وكم معك من المال وهل سبق لك أن جئت إلى برقة؟ وهكذا دواليك وكل من ينتهى معه السؤال أو التحقيق غير المكتوب يعود ليقف فى الشمس أمام المكتب، وجاء دور عبد الله عندما أشار إليه الشرطى بسبابته تقدم ورجلاه تصطكان وتترنحان كما كان وجهه شاحبا وقد رسم على شفتيه ابتسامة ذابلة، نفس الأسئلة الجافة ونفس الكلمة عندما تنتهى الأسئلة، امش، ويا لحالة الفقير المحتاج لابد أن يقبل الإهانة والاستخفاف صاغرا، وقبل أن ينادى على آخر واحد ليسأله ثم يقرر مصيرهم وصل شرطى آخر وقد نظر إليهم متفحصا ثم قال السلام عليكم، قالوا معا وعليكم السلام ورحمة الله والبركة، وقد اسعدهم أن يحييهم شرطى، وقبل أن يدخل سألهم (كنكم ؟).

أجاب أحدهم وهو يرنوا إلى وجه هذا القادم الجديد، لا شىء، لا نعرف نحن ركاب متجهين إلى بنغازى.

نظر مرة أخرى وأن باستغراب، مسافرين؟ اركبوا عربتكم وامشوا.

تسمروا فى أماكنهم ينظرون إلى ذلك الشامت العصبى داخل الحجرة إلا أن هذا كرر قوله، اركبوا العربة وامشوا، عرب غرب فقراء، لسنا قطاع أرزاق، وما أجمل عمل الخير ولوجه الله فقد صاروا يدعون لهذا الرجل الذى أفرج عنهم بعد أن أظلمت الدنيا فى وجوههم، يدعون له بالتوفيق والصحة حيث إنه كان وسيط خير، ويا لدعوة المظلوم والمكضوم والمعوّز، ويا لقلب هذا الرجل الطيب، فرحوا وقد تسابقوا إلى العربة رغم هزالهم.

حاول الأول الذى كان يسألهم أن يعترض لكن الثانى أجاب بحزم، يا أخى هؤلاء فقراء (رقاد أرياح خليهم يمشوا).

تحركت العربة وكانت هذه التجربة قاسية ومخيفة لأنهم شعروا أنهم كلما اقتربوا من بنغازى كلما صارت الإجراءات شديدة وقد يحدث أن يقبض عليهم ويتم ترجيعهم، وإذا كان فى إجدابيا بهذا الحزم والشدة فما الذى سيجرى فى بنغازى؟

ومن خلال تصرف هذين الشرطيين يتضح مقدار الانقسام فى التفكير والتصرف فكلاهما وطنى عربى مسلم، الأول محبط تعكس تصرفاته الحقد على الغير والثانى متسامح لابد أن وطنيته وانسانيته تغلبتا على الجوانب الأخرى، وفى حالة الأول يقول علماء النفس أن الإحباط يولد العدوانية ومشاعر الحقد التى تنصب على الآخرين وأحيانا على النفس، ومن هنا فإن هذا الشرطى المحبط أراد أن يصب جام غضبه على هؤلاء التعساء ولكن القدير العزيز أرسل إليهم صاحب خير أنقذهم من بين يديه وفى أجدابيا توقفت العربة حيث هبط منها أربعة من الركاب قرروا التوقف بحثا عن عمل ولو مؤقت حيث يمكنهم فيما بعد التوجه إلى طبرق بينما غادر الآخرون إلى بنغازى، وكان عبد الله أحد الأربعة وهم جميعا من قريته أى أقاربه.

أجدابيا هذه بلدة صغيرة تجمع بين البادية والحضر وبين البحر والصحراء، بين التجارة والرعى والزراعة، ولقد كانت فى فترة سابقة إحدى مراكز الدعوة السنوسية وصارت فى فترة أخرى عاصمة للإمارة السنوسية وإن شاركتها ونافستها الكفرة فى استضافة السنوسيين ونيل بعض المزايا.

ومن المكان الذى توقفت فيه العربة توجهوا شرقا متحاشين دخول البلدة إذ كان هاجس القبض والترحيل ملازمين لهم مسيطرين على تفكيرهم، وما انفكوا يحثون الخطى حتى ابتعدوا واختفت مبانى البلدة، ولم تكن فى برقة دوريات شرطة تجوب الصحارى على صهوات الخيول كما هو الحال فى دواخل

وصحارى طرابلس وتلك عادة إيطالية حافظ عليها الإنجليز، فقد كانت السلطات الإيطالية تستخدم أفراد من أهل البلاد لمراقبة الناس وجباية المكوس والضرائب عن كل شيء حتى إن المواطن الليبى كان يدفع ضريبة على كل رأس من الغنم حتى لو كانت عنزة واحدة ويحصّل منه المكس عن كل شيء يباع وهو قليل، ولهذا فإن هؤلاء وقد ابتعدوا عن البلدة اطمأنوا وقد تغير الهم من الأمن إلى الطعام فهم جوعى ذلك إن بقية التمرات قد نفدت وانتابهم بعض القلق حيث إن البطن هى المحرك لبقية أعضاء الجسم وما انفكوا يهبطون إلى هذا الوادى ويصعدون إلى ذاك السفح إلى أن لاح لهم نجع يتكون من عدة بيوت وهذه تختلف عن بيوت نواجع الغرب إذ إنها ذات ألوان مختلفة لأنها تصنع من قطع القماش التى تخاط مع بعضها ولذلك فإن البيت يتكون من مئات قطع القماش وعادة ما تكون القطع ملونة بعدة ألوان بينما فى الغرب البيت يتكون من نسيج شعر الماعز الذى يصبغ باللون الأسود زيادة على أن الشعر أسود ويتكون من قطع مستطيلة يسمى الواحد منها فليج وهى أيضا تخاط مع بعضها بخيط مصنوع من نفس الشعر وبنفس اللون، ويبنى البيت على عمود فى الوسط يسمى ركيزة فى رأسها قطعة خشب محفورة من الوسط بحيث يثبت فيها رأس الركيزة وتسمى تلك الخشبة كربة والغرض منها حماية الفليج من رأس الركيزة مع ثلاثة أعمدة فى الجوانب واثنين فى الخلف والأمام وهذه تشد بحبال مصنوعة من الحلفا وتربط بوتد يسمى موثق، وفى حالة وجود ضيف يقسم البيت بواسطة بطانية أو لحاف من الوسط بين الركيزة والمقدم فيكون الضيف فى جانب وأهل البيت فى الجانب الآخر ولابد أن ينام المضيف مع ضيفه إذا اقتضى الحال أن يبقى الضيف ليلة أو ليلتين.

عرجوا على ذلك النجع ومن العادة أن يتجه الضيف إلى أكبر البيوت فى النجع ولا يحتاج إلى سؤال أو أية مقدمات ذلك إن صاحب البيت، أى بيت، يعرف أن القادمين ضيوف فيرحب بهم ويقدم لهم ما يتوفر من الأكل ومع أى نوع من الأكل يقدم عادة اللبن، والأكلات فى بادية الشرق غالبا مثرودة وهى خبز فى شكل رقائق مصنوعة من القمح وتخلط بالسمن، وتسمى مثرودة لأن الخبز يثرد مع السمن، ولم يكن أولئك الناس قد عرفوا الأرز أو غيره من مأكولات المدن ولهذا فهم دائما أصحاء البدن والنظر والعقل، وبعد الأكل وتناول الشاى الأحمر سألهم صاحب البيت ما إذا كان أى منهم يرغب فى البقاء للرعى أو حصد الزرع فهو يحتاج إلى راعى غنم وحصاد زرع، وافق اثنان منهم أحدهما لحصاد الزرع والثانى لرعاية الغنم، وقد اتفق مع الأول على أن يكون نصيبه خروف وليد من كل خمسة وعشرين خروفا ولمدة ستة شهور مع الأكل بالطبع، أما الثانى فاتفق معه على مبلغ قدره جنيه واحد لفترة الحصاد والدرس وهى تقريبا ثلاثة شهور مع نسبة واحد من العشرة فى الإنتاج أى إنه سوف يحصل على مرطة شعير أو قمح من كل عشر مرطات وهذه تسمى فى الشرق (ميزوره) وبعد أن كانوا أربعة فقد انقسموا ليبقى اثنان ويغادر اثنان معا، كان عبد الله وذلك الرجل الذى خبر فى العمل فى الرابش بطبرق هما اللذين غادرا، تعانقوا وداعا إذ إنهم قد لا يلتقون من مرة ثانية بفراق البعد أو الموت، قال تعالى فى كتابه الكريم ﴿قل من يرزقكم من السموات والأرض قل الله، وإنا أو أياكم لعلى هدى أو فى ضلل مبين..﴾[1] صدق الله العظيم.

(١) سورة سبأ، الأية ٢٤.

كان عبد الله منطويا لا يفصح عن مكنونات قلبه بينما كان صاحبه ذاك الذى خبر العمل فى الرابش دائما يظهر سعادته ويقهقه بصوت عال حتى إنه يقول إنه سيموت وهو يضحك وقد نجا ذات مرة من لغم كان قد داسه برجله اليمنى وتفصيل الحكاية أن هؤلاء الذين خبروا الرابش ابتكروا بعض الخطط لحماية أنفسهم وهى تنجح أحيانا فكانوا إذا أحس الواحد منهم أن موقع قدمه قد انخفض عندما يكون ماشيا فى منطقة يتوقع أن بها ألغاما يقف فى مكانه لأنه يعرف أنه إذا رفع رجله أو حركها فسوف ينفجر اللغم ويقتله ولهذا يبقى ضاغطا برجله على ذلك المكان الذى هبط عندما وضع رجله عليه حتى يأتى رفاقه فيقومون بحفر قناة مستطيلة خلفه تكون مساوية لطوله وعندما ينتهون من الحفر يبتعدون عنه وعليه بعد ذاك أن يقع على قفاه بشكل سريع فى تلك الحفرة فينجوا أحيانا من الانفجار لأن قوة ذلك الانفجار تكون رأسية أى فى اتجاه أعلى بينما يكون هو قد وقع فى المنخفض أو الحفرة، وأحيانا أخرى يصاب فتقطع رجله مثلا تلك التى كانت ضاغطة على اللغم وذلك أهون الشرين، وإذا ما نجا استمر فى نفس العمل دون تردد أو خوف، أما إذا جرح فينقل للعلاج وقد ينزف دمه كله ويموت فى الطريق قبل أن يصل المستشفى الوحيد فى طبرق ذلك إن مكان الرابش عادة ما يكون بعيدا والمواصلات قليلة جدا، قال إنه وطأ على لغم وحفر له رفاقه حفرة مستطيلة ووقع فيها وقد انفجر اللغم دون أن يصاب، وهكذا فقد نجا بأعجوبة وبعد ذلك جمع مبلغا من المال قدره ثلاثين جنيها وعاد إلى بلدته وها هو يعود الآن لنفس العمل وقد يلاقى مصيرا أسوأ من السابق لكن لا محيد عن ذلك ، يضحك ويقول إن المترددين والمرتعشين هم دائما الذين يتضررون فلو أنه كان مترددا أو مرتعشا خائفا لرفع رجله من على اللغم حيث ينفجر فيه ويموت.

كان عبد الله يستمع وفى نفسه قال إذا كان يمزح فإن أمازيحه سخيفة وإذا كان يريد إخافتى فسوف يرى أننى أتمتع بقلب أسد وإذا اعتقد أنه يستثير حفيظتى فلن أعلق على كلامه، وفى هذه الأثناء تناهى إلى أسماعهم صوت غناء شجى عميق وإن كانوا لا يفهمون معنى كلماته، كان أحد الرعاة يغنى بالعلم هكذا يسمون ذلك النوع من الغناء فى الشرق، اتجهوا إليه وعندما وصلوه وسلموا بتحية الإسلام قدم لهم قدحا مملوءا بحليب إبل وهو أحسن أنواع الحليب وأكثرها دسامة، ومن المعروف أن أهل تلك البرارى قرب منطقة أجدابيا أكثر الناس كسبا للإبل فى برقة، عندما جلسا على الأرض قرب رتمة كبيرة كانت خلف ظهر ذلك الراعى وشربا الحليب سألوه ما إذا كانت هناك نواجع فى الطريق قال إنها كثيرة ولكن إلى أين أنتم متجهون؟

قالا إلى طبرق، فنظر باستغراب وتعجب، إلى طبرق! إلى طبرق وعلى رجليكما؟

أومأ أحدهما رأسه بالإيجاب.

قالا له كنت تغنى وقد سمعنا صوتا جميلا ولكننا لم نفهم الكلمات والحقيقة أن الصوت قد هدانا إليك. أجابهما بأنه يغنى مثله مثل أى رجل آخر يعيش فى هذه الفيافى، والراعى لابد أن يغنى، وبدأ يردد كلمات تلك الأغنية وهى تقول:

نظرنا رجعة يوم العيد   الفرق بعيد   جمالها عالنسوان تزيد

جمالها عالنسوان   اتفوت تززى عالشراب وعالقوت   لها عيون ايزرن عالموت

مع التمهيد مشارب حربى فيه قصيد

تركوا ذلك الراعى الفنان بعد أن نالوا قسطا من الراحة ونصيبا وافرا من الحليب وأحسوا كأنما ذلك الشعر الرقيق والجميل فى كلماته قد أمدهم بطاقة على السير وأمل فى الفوز بفرصة عمل، ساروا إلى وجهتهم شرقا وهم لا يخبرون الطريق وإنما كانوا يسيرون فى اتجاه الشرق ملتقين أحيانا بمسارب إبل ومتبعين أحيانا أخرى آثار سيارات ربما تكون قد مرت من هنا منذ زمن طويل، أما ما قيل عن طريق رومل فهى ليست طريقا بالمعنى الحقيقى وإنما تعارف الناس على تلك التسمية لأن جحافل قوات رومل كانت قد عبرت من هناك متجهة إلى طبرق بعد أن نزلت من البحر لتتقارع مع القوات الإنجليزية قرب الحدود الدولية الليبية المصرية أثناء الحرب العالمية الثانية، والليبيون معجبون بشجاعة الألمان ومعداتهم، وربما مرجع إعجابهم إنما يعنى نكاية فى الطليان الذين استعمروهم فيما سبق.

ولقد كان طريقا طويلا ومملا عبر مناطق مختلفة، صحراء وجبال ووديان وسهول وليس هناك من شجر يستظل به الإنسان إذا أراد أن يرتاح قليلا عدا نبات الرتم الكثير على الرغم من أنه فصل الخريف والشمس ليست حارقة كالصيف، كان عليهم أن يناموا كيفما تيسر ويأكلوا ما يتوفر ويجود به أهل الخير فى الطريق، ومن العادة أن تروى الحكايا والقصص حتى لو كانت مختلقة وخيالية قطعا للوقت وقد صار رفيق عبد الله يحاول إخراجه من ذلك الصمت المطبق فلا يليق بمن لا يهاب الصعاب أن يكون مكتئبا والواقع أنه لم يكن له من نصاب فى الحديث كأولئك الذين يحفظون قصصا طويلة عن الخفاجى عامر أو أبى زيد الهلالى يروونها خلال الليالى لمدد تطول وتصل أحيانا إلى شهور فى قريتهم، كان يحكى دائما عن الرابش وطبرق وبعض الكسب والرفاق الأحياء

والذين ماتوا هناك، يروى ما حدث له ولغيره وهى على أى حال تسلية لابد منها فى طريق طويل ربما تساعد على تحمل تلك المشاق وتلهى الواحد عن التفكير فى الأهل وهموم الدنيا التى تنصب على رؤوس الفقراء دائما، قال إنه قد راق له ذات يوم وقد كان عائدا دون رفيق من مكان ليس بعيدا عن سوق العجاج، انتبه عبد الله لكلمة سوق العجاج، راق له أن يأتى بلغم معه من النوع الألمانى الذى يعتبره الرباشة من أخطر الألغام إذ يوجد به صاعقان وليس واحد كبقية الألغام الإيطالية والإنجليزية وإذا لم يفطن الذى حاول تفكيكه فلابد أن ينفجر فيه ويقتله وذلك ما حدث لكثيرين، جاء بذلك اللغم وطفق يلعب به بين يديه مقللا ومهونا من خطورته إلا أن رفاقه فى الكشك أقسموا له أنه إذا لم يخرج ذلك اللغم فإنهم سوف لن يبقوا معه ولو ليوم واحد وهكذا خرج ليضع اللغم فى مكان بعيد من الكشك، ولم يكن يدرى أن هذا النوع من الألغام ينفجر تلقائيا إذا ما وضع مقلوبا ولقد وضعه فعلا مقلوبا ولحسن حظه أنه لم يقف بالقرب منه وصار عائدا إلى رفاقه وفى تلك اللحظة انفجر ذلك اللغم فغطاه الغبار والقش المتناثر من أثر الانفجار واعتقد رفاقه أن الانفجار قد أصابه وقد أسرعوا إليه فوجدوه واقفا بلا حراك وغير مصاب بسوء، ضحك وهو يقول: تلك واحدة من خدع الألمان فى المتفجرات ورغم أنه قد انتابه لأول مرة خوفا لازمه فترة طويلة، وأضاف يقول، إنهم استفادوا من الحادث إذ عرفوا تلك الخدعة الخبيثة من جانب الألمان.

تمتم عبد الله قائلا بينه وبين نفسه، لم يكن الألمان يعرفون أن هناك مجانين مثلنا يبحثون عن الموت، سأله صاحبه، فيم تفكر؟

قال: لا شيء.

وكان عبد الله هذا عنيدا كجمل هائج وصامتا كأبى الهول يتطلع بأمل ورجاء إلى ذلك اليوم الذى يصل فيه طبرق ويتمكن من جمع بضعة جنيهات يبعثها إلى خديجة وطفليها وهو لا يعرف عنهم شيئا منذ غادر قريته ولا يلتمس شيئا أكثر من ذلك، بضعة جنيهات ووسيلة اتصال كأن يجد أحد أقاربه أو معارفه أو أى إنسان يمكن أن يذهب إلى قريته أو حتى بالقرب منها ليبعث معه ولو جنيها واحدا حتى لو استلف ذلك الجنيه وهو الذى كاد أن يفقد الصبر، وما أحوجه إلى أن يسمع منهم وعنهم ويسمعوا عنه ليطمئن ويطمأنوا ولكن هيهات.. هى أمانى وهو كمن يراهن على الحوت فى البحر.

لقد سمع عن الرابش فى طبرق وها هى الأيام تمر سراعا ولم يصل بعد ولا يعلم متى يصل ومتى يحصل على مال وكيف يبعثه؟ همهم، ولأنه كان هائما فى عالم الخيال والتفكر فقد اصطدمت رجله بحجر كبير أدمى إصبعه وقطع عروة المداس فنظر إلى أعلى كأنما يريد أن يقول، لماذا يا ربى؟ الشىء الذى جعل رفيقه يخبط يدا بيد وهو يقهقه حتى مال على قفاه وأدمعت عيناه، نظر إليه عبد الله ليقول بصوت خفيض، أنت تضحك حتى بلا سبب ما بالك قد وجدت السبب.

توقفا قليلا وصار هذا يحاول إصلاح ما أفسد ذلك الحجر اللعين.

أما اللذين بقيا فى الطريق قرب أجدابيا وصار أحدهما راعيا للغنم والثانى زارعًا فقد باشر كل منهما ذلك العمل المتواضع وصارا يستقيان أخبار الناس والبلاد ووسيلتهما الوحيدة كانت بعض البدو الذين يذهبون إلى أجدابيا وأحيانا إلى بنغازى ومنهم صاحب الغنم والزرع مع أن كل منهما يعرف أنه لن يتمكن من توفير شىء يبعثه إلى أهله قبل مدة من الزمن، فالراعى يحتاج لستة شهور

حتى يحصل على بعض الخراف والحصاد يحتاج إلى ثلاثة أشهر حتى ينتهى من الحصاد والدرس بحيث يتوفر له جنيه واحد هو أجره وبضع مرطات من القمح والشعير، ولكن لا بأس من تسقط الأخبار فقد صار لكل منهما دخل متوقع ولو بعد حين، والمهم أنهما فى أمان من الشرطة وربما أمكنهما أن يلتحقا برفاقهما فى طبرق بعد فترة الرعى والحصاد.

★ ★ ★

الفصل الرابع

سوق العجاج وساحة الموت

"...... الخطر والجوع ومعاناة القذارة والقمل والبرد".

السيف أصدق أنباء من الكتب   فى حده الحد بين الجد واللعب

لقد صدق أبو تمام عندما أشار بهذا البيت إلى مواطن الخطر وخداع الروم ، وكانت تلك إشارة ونصيحة بعث بها إلى المعتصم.

هنا فى هذا الفصل ليس هناك خداع ولا جدا أو لعب وإنما هى حياة أو موت. لم يكن هناك من بديل أو خيار ، ولقد مات البعض وعاش البعض الآخر. وهذه قصتهم فى كلمات.

طبرق

هذا الاسم الذى دخل كل القواميس واللغات والصحف والدوريات العالمية، كانت أهم ساحة حرب بين جيوش تتقارع أثناء الحرب العالمية الثانية ، بين قوات المحور والحلفاء .

هذه البلدة الصغيرة التى يحتضنها أهم ميناء بحرى فى الأبيض المتوسط والتى اشتهرت فى الحرب وبالحرب مثلها مثل أماكن وبلدان وأشخاص شهرتهم حروب ومعارك، تناطح فيها قادة وجيوش منتصرين ومهزومين، وهى لا علاقة لها بالمنتصر أو المهزوم، ودفعت الثمن غاليا دون أن تكون سببا ولا طرفا فى ذلك النزاع وتلك الحروب، ارتبط اسم العلمين بها على الرغم من أنها فى ليبيا والعلمين فى مصر، ولكنهما جاران بالأرض والسكان بالتاريخ والجغرافيا، اقتحمها رومل عندما جاء لنجدة حليف ألمانيا المنهزم أمام الإنجليز، ورد الكرة فيها مونتوجوموى عندما عجز قادة كبار من جيش الإمبراطورية العجوز فى مواجهة ثعلب الصحراء الألمانى، قصفوها بمئات آلاف القنابل من الغرب والشرق والشمال، لكنهم جميعا انتهوا وبقيت هى شامخة، مدينة ليبية تذكر وتتذكر بأهلها تلك المآسى، أبقوا على أرضها جميع أنواع المتفجرات بغرض القتل، ألغام وقنابل وأجهزة مفخخة تتفجر عند اللمس أو التحريك، لكن الإنسان الليبى تغلب عليها رغم الثمن الباهظ فى الأرواح والممتلكات، وهذه قصتها وقصتهم، قصة أولئك الرجال الذين أجبرهم الفقر والعوز على أن يقتحموا الخطر وغالبا الموت دون أن يضعفوا ويمدوا أيديهم طلبا



لحاجة فى شكل مذلة، هى أحداث مؤلمة وأوقات عصيبة وحياة شقاء لكنها حقيقة لابد أن تروى كيلا يغيب عن الذاكرة جزء من التاريخ الوطنى ..

بعد أكثر من اثنى عشر يوما فى مسيرة طويلة شاقة من أجدابيا إلى طبرق وصل عبد الله ورفيقه، وصلا طبرق ولم يكن أمامهما إلا ذلك التجمع الذى يتكون من أكشاك مقامة من التنك وصفائح الساج الصدئة، إنه سوق العجاج الذى يقع غربى طبرق، وكلمة سوق لا تعنى أنه فعلا سوق تجارى كما يفهم من الكلمة، إنما ذلك يعنى أنه ساحة يتكدس فيها خليط من الناس فى وضع معيشى بالغ الصعوبة والتردى، سوق يعنى أن فيه كل شىء من الحيوانات إلى الناس إلى الحشرات وما إلى ذلك، كان اليوم مغبرا حتى أن الناظر إلى الشمس ذلك الصباح يرى هالة صفراء تكاد تغطى ذلك القرص الملتهب، تلك كانت رياح القبلى التى تهب فى زوابع ودوائر تحمل من الأتربة ما يغطى المنطقة بكاملها؛ ولأن ذلك السوق هو عبارة عن ساحة تراب رملى متحرك فإن العجاج هو الدائم والمشهود، ومن هنا جاءت التسمية، كانت الأكشاك (البراريك) متصلة بعضها ببعض مزدحمة بسكانها أرضها تراب متحرك لا تتوافر فيها أبسط وسائل الحياة، لا مياه ولا إضاءة من أى نوع، أول ما يشاهد القادم، وليس الزائر لأنه لا أحد يمكن أن يزور مثل ذلك المكان، تلك القذارة وأكداس القمامة التى ترعى فيها الكلاب الجائعة هى الأخرى، إذ ليس لدى هؤلاء الناس فائض من الطعام حتى يرمى مع القمامة، ويقع سوق العجاج هذا جنوب الطريق المعبد الذى يؤدى إلى البلدة وتفصله عنها الطريق المؤدية إلى القاعدة البريطانية المعروفة باسم العدم، عندما وصلوا ذلك السوق اتجه رفيق عبد الله وهو وراءه إلى واحد من تلك الأشكاك المزدحمة والمتزاحمة، إذ كان يقيم فى الكشك الواحد بين ثمانية إلى عشرة اشخاص ينامون ليلا خارجه فى وقت الخريف فى

الغالب أما فى الأوقات الأخرى فإنهم يتكدسون داخله، فى الشتاء تتسرب المياه من خلال الثقوب الموجودة فى سقف الساج؛ ولهذا فهم غالبا ما يضعون أحجارا ويصفون فوقها بعض الأخشاب حتى يمكن الجلوس أو النوم عليها، هذا فى غير أوقات العمل فى الرابش، أما فى أوقات العمل ذاك فإنهم ينامون تحت أى شجرة أو قرب أى رتمة، عندما وقفا أمام الكشك الذى قصدوه كان هناك ثلاثة من الرفاق القدامى، سلموا سلاما حارا مرحبين بالقدوم لكنهم لم يعرفوا عبد الله من قبل فى حين أن زميله كان رفيق عمل معهم لعدة سنوات، وقد رحبوا به إذ إنهم يتوقعون سماع أخبار أهلهم فقد كان فى تلك القرية الجبلية البعيدة المقطوعة عنهم، كانوا يجلسون على الأرض أمام ذلك الكشك منشغلين ببعض الاشياء، أحدهم كان يرتق ثوبه بينما نصفه الأعلى عاريا إذ ليس لديه بديل لذلك الثوب، فاذا رغب أن يغسله أو يرتقه بقى نصفه ذاك عاريا حتى يجف الثوب أو يرتق، آخر طرح على الأرض بالطو مصنوعًا من قماش الكاكى الغليظ وقد رش عليه مسحوقا أسود قال إنه رماد الرتم لقتل القمل، وثالثهم وقد وضع أمامه علبة دائرية مقطوع نصفها الفوقى بها ماء ونوع من الصابون يسمى سوسى، وهو صابون اخضر ردىء لكنه رخيص.

كانت تلك العلبة الدائرية موضوعة فوق حفرة تتقد فيها نار، وكان يؤجج تلك النار بين الفينة والأخرى بالنفخ من فمه لكنها تعود فتخبو إذ كانت عيدان حطب الرتم خضراء وليس من السهل أن تسرى فيها النار، وطريقة طبخ الملابس أيضا تتبع من أجل قتل القمل والبرغوث وغيرها من الحشرات الكثيرة، وعبد الله رغم أنه يعانى من مشاكل مشابهة هى الفقر وحتى الجوع إلا أنه لم يكن يتوقع أن هؤلاء الذين يعملون هنا يعيشون فى هذا المستوى المتردى والمزرى .

كان ينظر باستغراب فإذا كانوا يكسبون مالا فلماذا يعيشون فى هذا الوضع ؟ وقد صار قلبه يخفق بشدة وتتابع حتى لكأنه سينفجر، ويظهر أنهم لم يرتاحوا لوجود هذا الوافد الجديد، ربما لأنهم لاحظوا استغرابه أو حتى تأففه وقد سرت همهمات بينهم، وإذ عرف عبد الله عن الكلام بادر رفيقه بتقديمه على إنه صديق طريق طيب وأنه كان يعرف والده رحمه الله ولم ير منه طيلة الرحلة إلا كل خير، ولأنه لم يعمل فى الرابش من قبل فسوف يحتاج إلى مساعدتهم، وأنه ترك أسرته ولا يعلم عنها شيئا وهو أيضا من نفس القرية، ابتسم وقال: الغريب للغريب رحمة.

ومما لا شك فيه أن كلام رفيقهم القديم هذا قد وقع منهم موقعا طيبا فرحبوا مرة ثانية بذلك القادم الجديد وأبدوا كل الاستعداد لعونه إن شاء الله .

بعد ذلك راح صديقهم القديم يسأل : كيف حال محمد بن احمد ؟

قالوا: رحمه الله فقد (ناصت فيه تربانا) أى انفجر فيه لغم ومات، قال: وماذا عن شعبان؟

أجابوا: إنه فى المستشفى، فقد قطعت يده وأصيب بجروح بليغة وكان فى منطقة العدم مع جماعة من الرباشة فانفجرت فيهم قنبلة مات منهم على أثرها اثنان وجرح هو وشخص آخر، سألهم عن ثالث من معارفه وهو أحد الذين كانوا معه قبل أن يغادر إلى قريته وكان من المفترض أن يسافر معه إلا أنه فى آخر لحظة قال إنه ما زال فى حاجة لمبلغ يساعده على حفر سكن فى القرية (المساكن فى تلك القرية هى عبارة عن حفر تحت الأرض ولهذا فإن الواحد منهم لا يقول إنه سيبنى وإنما يقول سيحفر) فقالوا له إن صاحبك ذاك وضعه

كان غريبا فهو لا يكتفى بما يرزقه به الله يوم عمله، وقد طرأت عليه فكرة غريبة إذ اعتقد أنه إذا ما اشترى كروسة وحمارا أمكنه أن يحمل أكبر كمية من الرابش ليبيعها فى طبرق وشاء قدره أن يدخل بالكروسة والحمار فى حقل ألغام لتنفجر فيه ولم يجد رفاقه منه شيئا غير الرصن المثبت على رأس الحمار، وتكون أعضاؤه قد تناثرت بعيدا والتقطتها الطيور أو الذئاب .. صفعت هذه الأخبار صديقهم ذاك فقد فقد أحد أقاربه ومعارف آخرين أكل معهم عيش وملح وعملوا معا، كان الانصعاق بالغا حتى أن الحزن قد خيم على وجهه رغم أنه كان يقول دائما، إنه حتى إذا مات فسوف يموت وهو يضحك، أما عبد الله فكان مندهشا ولسان حاله يقول إنه الموت حقا، ولقد تعجب من طريقة الحديث عن الموت والأموات كأنما هو شىء عادى وصغير وغير ذى أهمية يحدث ! فلان مات وفلان قطعت يده أو رجله وعلان لم يجدوا إلا رأس حماره أما هو فقد تناثر مزقا فى الهواء لأنه دخل حقل ألغام ... إلخ .

كان حائرًا من هذا الامر فهل سيقال عنه ذات يوم أنه مات بفعل انفجار لغم أو قنبلة أو أن يده قطعت، يبحلق فى راحة يده اليمنى وما كاد يثوب إلى وعيه حتى سمع من يقول له أنهم سيخرجون غدا للتربيش، وربما يكون المكان فى بئر حكيم، هو لا يعرف المكان، وإذا حدث ذلك فسوف لا يعودون إلا بعد أسبوع أو عشرة أيام، تمتم عبد الله: وقد ندفن هناك، هم فى مثل هذه الحالة يعملون وينامون ويأكلون ويطبخون فى مناطق القنابل والألغام، إنهم يشعلون النار بين تلك المتفجرات .. سأله أحدهم، هل ستذهب معنا ؟

تمتم، ربما ...

فقال صاحبه الذى ترافق معه فى الطريق: كيف ربما ؟ لابد أن تذهب لكى تعرف كيف تربش أم تراك لا تريد العمل، خائف يعنى ؟

أجاب: أريد، نعم أريد سوف أرافقكم. بدا له أن الموت لا يعنى أى شىء لهؤلاء الناس وعليه أن يتلاءم مع هذا الوضع، وتصور أن ذلك إما شجاعة خارقة أو تهور مذهل .

بعد ذلك الحديث عن الرابش ويوم الغد عادوا ليسألوا عن البلاد والأهل مرة أخرى، وقد سمعوا لأول مرة عن قصة بيع الحلفا وكيف أنها مثلت انفراجة فى الرزق ولولا ذلك لمات الناس جوعا، وعن مشاكل السفر وإجراءات الشرطة فى الطريق وإبعاد الناس من بنغازى أو إرجاعهم من منتصف الرحلة إذا ما أوقعهم سوء الحظ فى شرطة متشددة ..

قبيل المغرب انشغل أولئك النفر فى إعداد العشاء، كان احدهم قد أحضر حزمة من الحطب يحملها على ظهره، وآخر أعد الدقيق وأشعل النار ووضع ماء وملحا ودقيقا فيما يشبه الطنجرة بعد أن حفر حفرة صغيرة دائرية فى الأرض أمام الكشك، وتلك الطنجرة هى عبارة عن تنكة من النوع المدهون بطبقة رقيقة لامعة من الداخل والخارج تأتى إلى معسكرات الجيش البريطانى معبأة بالشحم أو السمن، وعندما تفرغ يرمى بها فيأخذها هؤلاء، وعندما توضع على النار تحترق تلك الطبقة اللامعة التى تشبه الدهان، الخارجى منها يتحول إلى رماد أسود تلتهمه النار أما الداخلى فيختلط مع الماء والدقيق ولا يعيره هؤلاء أى اهتمام عندما يخبزون ذلك العيش ويأكلونه، وهكذا فقد خبزوا العيش وأكلوا ثم أعدوا الشاى الأحمر وبعد أن شرب كل منهم طاسته نام فى مكانه،

وهنا لا أحد يسأل عن وسادة أو فراش ولا حتى غطاء، وإذا أحس الواحد ببرد التف بجرده إذا كان لديه جرد.

تجهز عبد الله صباح أول يوم فى طبرق بعدة الشغل وهى عبارة عن قارض ويسمونه (سكاربيللوا) ومطرقة أى (قادومة) وما يشبه المخلاه وهى عبارة عن خيشة، وكان قد نام ليلته الأولى أمام ذلك الكشك مباشرة عندما خيم الليل، وهم ينامون مبكرا وعلى الرغم من هجوم الأعداد الهائلة من البراغيث وهذا أشد من القمل فى القرص وامتصاص الدم والتحرك السريع لأنه يتقافز بسرعة وغالبا ما يعجز الواحد إذا ما حاول أن يمسك به، رغم كل ذلك فقد نام نوما عميقا بسبب التعب الشديد وما كان قد قاساه خلال الأيام الماضية نفسيا وجسديا، ولابد أن رفيقه على نفس الحال، ومع انبلاج الفجر كانوا مستعدين لمشوار ذلك النهار، ولا يعرف الواحد منهم ما إذا كان سيعود حيا أم سيدفن تحت الأرض فى ذلك المكان البعيد، كانوا خمسة متجهين جنوبا مشيا على الأقدام، وكانوا قد شرحوا لهذا القادم الجديد الكيفية التى يجب أن يتبعها فى قطع حزام النحاس الذى يحيط بجسم القنبلة وهى عملية بسيطة وسهلة كما قالوا، وكان عليه أن يثبت أنه رابط الجأش ولا يقل عن أى واحد منهم، وعندما بدأ ذلك العمل كان قلقا منقبض الصدر ومتوتر الأعصاب حتى أن أصابعه كانت ترتعش ولم يقو على تثبيت المقرض على حزام أول قنبلة وضعها بين قدميه فقد علموه أن القنبلة لابد أن توضع بين القدمين، وأن يمسك بالمطرقة (القادومة) باليد اليمنى بينما يكون المقرض ممسوكا باليسرى من أعلاه ويكون رأسه الحاد على حزام النحاس ويجب أن يهوى عليه بقوة من الضربة الأولى

بحيث لا يضطر إلى الدق عدة مرات، الشىء الذى قد يؤدى إلى سريان الحرارة فى جسم القنبلة فتنفجر، والأهم فى البداية جمع النحاس ثم الألمنيوم ثم الحديد.

وعندما بدأت هذه التجارة وجاء اليهودى (بيو ناحوم) وهو يحمل الجنسية الإيطالية وقد أنشأ وكلاء ليبيون كانت مخلفات الحرب العالمية الثانية تتكون من طائرات ودبابات وعربات مصفحة وعادية ومدافع من مختلف الأنواع والأحجام، كانت جميعها كاملة ولا ينقصها غير الوقود، وهذه جمعها تجار كبار وهم الذين صاروا فيما بعد وكلاء لذلك اليهودى أى أنهم مرابون مثله استغلوا الفقراء وجمعوا ثروات كبيرة بمقياس ذلك الوقت، منهم من حاول بعد مرور عشرات السنين وتكديس كثير من الأموال فالقرش يأتى بقرش كما يقولون، منهم من حاول أن يغطى على ذلك الماضى بأن عمل وطنيا ودخل ميدان السياسة، لكن الماضى لا يموت.

ولأن تجارة النحاس والحديد تلك قد استمرت وكانت غالبا هى مورد الرزق الوحيد لعشرات الآلاف من الفقراء، وكانت البلاد فى الغالب فقيرة إذ لم تكن هناك صناعة ولا زراعة ولا موارد طبيعية أخرى، كان أولئك الناس الذين يبحثون عن مورد رزق قد بقى لهم منها تلك الأشياء الخطرة المتمثلة فى نحاس القنابل التى لم تنفجر أو التى تركت بعد أن انسحبت الجيوش المتحاربة، وكذلك تلك الألغام المدفونة تحت الأرض .

ومع نهاية اليوم الأول لم يتمكن عبد الله من جمع ما يمكن أن يباع من نحاس، بينما كان رفاقه قد جاء كل منهم بنصيب وافر حتى أن أحدهم باع نحاسا بمبلغ جنيهين وهذا مال كبير، كان بائسا تتجاذبه مختلف المشاعر والأفكار فهو

يمتعض وينقبض صدره عندما يفكر فى احتمال انفجار قنبلة وقطع اليد أو الرجل، أما الموت فذلك شىء لا محيد عنه إذا وقفت الساعة ﴿ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾[1]. ويجزم على المضى فى العمل عندما يفكر فى أهله ومقدار احتياجهم ولماذا جاء إلى هنا وذلك السفر الطويل والخوف الملازم له طيلة تلك الرحلة ..

إنه يخجل من نفسه عندما يرى رفاقه وقد جمعوا نحاسا وحصلوا على مال وربما هم يهزأون منه وبه وقد يعتقدون أنه جبان رعديد فى حين أنه قال ذات مرة أن فى صدره قلب أسد.

وعندما تجمعوا مساء فى مكان قريب اختاروه وسط وادٍ يرتفع فيه نبات الرتم صار كل منهم يتحدث عن طموحاته وآماله وما الذى سيفعله بعد أن يوفر مبلغا من المال ويعود إلى قريته، وأين سيتحول إذا بحثا عن ا لنحاس والقنابل، وكان احدهم قد ذكر انه جمع تسعة وثلاثين جنيها وإذا ما استطاع أن يحصل على جنيه آخر بحيث يكون المبلغ أربعين جنيها بالتمام والكمال فسوف يكتفى ويبدأ بالإعداد للعودة إلى قريته ويتمم نصف دينه بالزواج من ابنة عمه، وقد أسهب فى الحديث عنها، جمالها وقدها وعقلها وذلك الوشام الأزرق الذى يزين جبينها وعن رقتها وجمال صوتها ورقرقة ضحكتها التى تشبه رقرقة الماء العذب فى فم الباقولة، كان الحديث دائرا والنار مشتعلة بينما يضع أحدهم براد الشاهى فى جانب من الكانون الذى هو عبارة عن حفرة فى الأرض، وكانت السماء صافية والقمر يطل عليهم من الجانب الشرقى بدرا متكاملا يجعل الليل كأنه

---

(١) سورة الأعراف، الآية ٣٤ .

نهار، كانوا متحلقين حول ذلك البراد وكل منهم قد رمى حذاءه بالقرب منه ربما كى ترتاح رجله التى تنفخت أطرافها من أثر المشى، وتتواتر الأفكار وتنساب الكلمات وقد ظهر أنه حتى الفقراء رغم معاناتهم تراودهم الأحلام الوردية الجميلة ..

وبعد تناول طاسة الشاهى تمدد كل واحد فى مكانه، هدوء الصحراء والسماء الصافية المقمرة والنسيم الرطب العليل، جميعها تساعد على الاسترخاء والنوم العميق، لكن عبد الله أقلقه السهاد رغم كل ذلك وأحس بالضجر، ولقد قام من مكانه ليتمشى إلا أن أحد الرفاق وقد استيقظ ليقول: لا تستمر يا عبد الله فربما توجد ألغام فى المنطقة، وكان عليه أن يعود ليتمدد دون أن يغفو له جفن لمدة طويلة من تلك الليلة، وفى الصباح الباكر وكانت قطرات الندى لم تزل على أغصان الرتم الكثير فى المنطقة حتى أن الذى يمشى وتمس رجلاه أغصانها يشعر بنوع من البلل، باشروا ذلك العمل المخيف وهو تجميع القنابل وتكديسها ثم البدء بقطع الأحزمة النحاسية التى تحيط بقاعدة كل قنبلة، وهذا الحزام يزن حوالى مائتى غرام نحاس، وهذا يعنى أن الواحد من أجل أن يحصل على كيلو غرام واحد من ذلك النحاس لابد أن يفكك خمس قنابل وفى هذه الحالة إذا كان المقرض حادا سيدق على جسم القنبلة ثمانى مرات، أربع لقطع الحزام وأربع لإزالته من الدائرة المثبت فيها، أما إذا لم يكن المقرض حادا فسيكون الدق مستمرا لمدة أطول ودقات أكثر، الشىء الذى قد يؤدى إلى سريان الحرارة فى جسم تلك القنبلة فتنفجر بحيث تذهب اليد أو الرجل أو حتى الرأس، كل ذلك نظير مائتى غرام من النحاس، سبحان الله ما أرخص حياة الإنسان ولكنها قسوة الفقر والعوز وجوع الأهل صغارا وكبارا، ورغم هاجس الخوف من الانفجار وشبح الأيدى والأرجل

المقطوعة ورنين كلمات ذلك الذى كان يتحدث عن الذين قتلوا فقد أمكن لعبد الله أن جمع كمية لا بأس بها من النحاس، رزق من الله وعليه الاتكال ﴿هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾ [1] .

وكان كلما قطع حزاما أضافه إلى الأخريات وصار يوزن بيده ما تجمع لديه مقدار كم سيكون الثمن، وكان ثمن كيلو غرام النحاس قرشين وثمن كيلو الألومنيوم قرشا ونصف القرش وثمن كيلو الحديد نصف قرش، أى أن الواحد عندما يفكك خمس قنابل يحصل على قرشين، وإذا ما فكك خمسين قنبلة يحصل على عشرين قرشا ويقتضيه تفكيك خمسين قنبلة العمل من الصباح الباكر إلى ما بعد المغرب غالبا هذا إذا لم تنفجر إحداهما، وإذا ما انفجرت إحدى تلك القنابل قتلت من الناس كل من يقع فى دائرة قطرها عشرة امتار .

ولابد أن عبد الله وهو جديد على هذا العمل قد فكك فى ذلك اليوم حوالى ثلاثين قنبلة بمعنى أنه قد يحصل على مبلغ قدره اثنا عشر قرشا وهو مبلغ محترم بحساب ذلك الوقت .

وظروف المعيشة فى هذا الوقت خصوصا إذا عرفنا أن أجر يوم كامل لأى عامل قوى البنية هو أربعة عشر قرشا ومن يجد عملا بذلك المعاش يعتبر محظوظا، ولو أن عبد الله هذا قد بحث عن عمل فى غير الرابش ربما ما كان يجد عملا وإن وجد فبعد وقت طويل وهو لا يمكنه الانتظار حتى ليوم واحد إذ إنه حتى فى حالة سفره من طرابلس إلى أجدابيا كان قد استدان ثلاثة أرباع المبلغ الذى دفع كأجرة للعربة التى أقلته مع الآخرين وهى جنيه واحد إضافة إلى أنه

(١) سورة الملك، الآية ١٥ .

يعرف أن أهله يتضورون جوعا ولابد أن يبحث عن أى عمل بحيث يمكنه أن يبعث إليهم بمبلغ ما، وهذا ينطبق عليه المثل الشعبى مرة أخرى والقائل (الجرانه مسكينا والحنش جيعان) وتلك حقيقة تنطبق على حاله تماما فهو مسكين لأنه لا يملك ما يسد رمق أطفاله ولابد أن يخاطر، وليس هناك من فرصة غير الرابش وتفكيك القنابل من أجل الربح السريع أو الموت السريع، كان قد حصل على ما يأتى برزق وهو النحاس، وكذلك رفاقه وهم أكثر خبرة منه لكن ما كدر صفو ذلك اليوم وبدد فرحة الجميع وجعلهم يتوجعون هو انفجار قنبلة بين قدمى عبد الرحمن وهو أحد الثلاثة الذين كانوا فى استقبال عبد الله ورفيقه يوم وصولهم، وعبد الرحمن هذا هو الذى كان منذ ليلتين فقط يقول أنه كسب تسعة وثلاثين جنيها ويحتاج إلى جنيه واحد فقط ليتمم أربعين جنيها وبعدها سيتوقف نهائيا عن الرابش والخطر ثم يعود إلى بلاده ليقترن بابنة عمه، لقد كان الانفجار شديدا حتى أن إحدى رجليه قد طارت بعيدا بينما كسرت الأخرى وتهرى جسده من اثر الشظايا الكثيرة وصار الدم يتدفق من كل مكان فى جسمه وكان عليهم أن ينقلوه إلى الطريق العام الذى يبعد حوالى عشرة كيلو مترات وهناك ينتظرون أى سيارة لنقله إلى طبرق، والله وحده يعلم متى يمكن أن تأتى السيارة التى تتجه إلى طبرق وكيف يكون حال هذا الجريح ؟

تعاونوا على نقله وهو يصرخ ويتألم، ذلك أن الرجل المكسورة كانت أكثر إيلاما وكان الدم ينزف وهم يحاولون تضميد الجراح وإيقاف النزيف وقد استعملوا قمصانهم وما وجد على أجسادهم من قماش وهو قليل، وما كاد يصل إلى الطريق العام حتى فقد الوعى وقد أغمى عليه من أثر النزيف حتى أنهم اعتقدوا أنه قد مات، وبعد انتظار غير قليل جاءت عربة عسكرية من قاعدة

الجيش البريطانى وخوفا من أنها قد لا تقف فقد اصطفوا أمامها قاطعين الطريق بالعرض، وكانوا يلوحون بأيديهم مشيرين إلى الشخص الممدد على جانب الطريق غارقا فى دمه، وقد توقفت العربة حيث نظر الجندى إليهم بقلق، إذ إنه لم يكن يعرف لماذا سدوا الطريق إلا أنه بعد أن رأى ذلك الشخص الممدد على الارض وهو ينزف دما، نزل من العربة ووافق على نقله بشرط أن يرافقه شخص واحد، ولقد حاولوا إفهامه وهم لا يعرفون لغته أن الجريح قد يحتاج إلى دم وليس هناك من يعطيه الدم غير رفاقه لكنه رفض بإصرار، وهكذا نقل ذلك الجريح ومعه أحد رفاقه وبعد حوالى ثلاثة أرباع الساعة كان فى مستشفى طبرق المتواضع جدا، والذى يفتقر إلى الأخصائيين وحتى المعدات والأدوية، ولهذا فان فرص الشفاء غالبا ما تكون ضئيلة جدا فى مثل حال عبد الرحمن هذه، أولا لأنه نزف كثيرا قبل أن يصل وثانيا لأن خبرة الأطباء فى الجراحة أيضا متواضعة وكان هناك طبيب واحد ربما تعلم الجراحة فى مثل هذه الحالة وهو عربى مسيحى يدعى جورج وكان غالبا ما يقوم ببتر الرجل أو اليد المصابة وهى أسهل طريقة للعلاج، ولم تكن وسائل التخدير متوافرة مما يجعل العمليات الجراحية صعبة ومؤلمة .

قال ذلك الطبيب إن حالة عبد الرحمن شبه ميئوس منها لكنه على أى حال سوف يجرى العملية كمحاولة لإنقاذ حياته ولقد أجرى العملية ولم تفد شيئا فقد توفى الجريح فى الحال، توفى بعد أن وصل المستشفى وأجريت محاولة إنقاذه ودون أن يحصل على ذلك الجنيه المتمم لما معه بحيث يتوقف عن الرابش ويعود إلى قريته ليتزوج من ابنة عمه، ومع الأسف لم يكتب له أن يحقق تلك الامنية، كان يحلم بأربعين جنيها وفقد حياته من أجل الجنيه الأخير !!

لقد كان عبد الرحمن منذ ليلتين فقط يحلم بالعودة والزواج، كان متدفق الحيوية يرنو إلى اليوم الذى سيعود فيه بأربعين جنيها وها هو الآن ممدداً مسجًى فى انتظار أن يهال عليه التراب وينسى، إنا لله وإنا إليه راجعون، ما أكثر أحلامنا التى لا تتحقق وأمانينا التائهة، إن مبلغ الأربعين جنيها مال كثير ذلك الذى كان يود أن يعود به عبد الرحمن ليتمم نصف دينه وينجب بنين وبنات، ولكن تلك القنبلة اللعينة لم تترك للأحلام فرصة التحقق، واأسفاه.

جاء بقية الرفاق هؤلاء الذين صار الموت رفيقا ملازما لهم، دفنوا رفيقهم الميت بعد أن دفنوا رجله المقطوعة فى مكان الانفجار، لم يكن لديهم من الوقت غير دقيقة واحدة لإلقاء نظرة حزينة وترحما مشوبا بالقلق على رفيقهم، وفى اليوم الثانى عادوا إلى تلك القنابل ليقطعوها أو تقطعهم، يقول شاعرهم :

غير اغردوا يا عيون باللى كان   ولا تبطلو لا ترقدوا بالنوم

ويا قلب فارقنا تريس زمان   اللى وين تضايق عليه اتلوم

مريض خاطرى غيضان طرالى   كما البهلول غير نهوم

وقداش بنسمى فلان فلان اللى   استشهدوا مع بعضهم فى اليوم

ويقول آخر :

ملاويح قعدوا دوس للادياب   لا قبر لا تلحيد مندفنوش

لا غسل لا تكفين لا نداب   واللى موتوا والله ما هانوش

لهيب نارهم دارت معايا شهاب   وجرحاتهم فى القلب ما يبروش

حكيت راسى الصدغ منى شاب   عاللى مشوا واليوم ما عادوش

ولكى لا يلازمهم سوء الطالع أو الحظ والتشاؤم بسبب موت رفيقهم قرروا هذه المرة أن يذهبوا إلى مكان بعيد كأنما القنابل ليست هى القنابل أو أن الموت يمتنع إذا ما تغير المكان، والذى رغبوا أن يتجهواإليه هذه المرة هو بئر حكيم الواقع على بعد ثلاثين كيلومترا تقريبا جنوب شرق قاعدة العدم، وهذا المكان جرت فيه وحواليه أشرس معارك الدبابات خلال الحرب العالمية الثانية بين قوات المحور وقوات الحلفاء، وهو عبارة عن وادٍ يمتد طولا بين الغرب والشرق وينفتح جانباه على الجنوب والشمال أرضه مليئة بنبات الرتم والشوك وتتكدس فيه عظام الآدميين جنبا إلى جنب مع القنابل، وتحت أرضه دفنت آلاف الألغام المضادة للعربات والأشخاص، بل وفى المناطق كثيفة الشجيرات هناك ألغام الخداع التى تنفجر بالتتابع وخدعتها تتمثل فى خيط رفيع جدا يوصل بين أكثر من لغم ويمد فوق الأرض بين الشجيرات وعندما يكون الشخص ماشيا تتعلق قدمه فى ذلك الخيط الذى تصعب رؤيته فتنفجر عدة ألغام دفعة واحدة، وهذه يمكن أن تقتل كل من يكون فى دائرة انفجارها من إنسان أو حيوان أو حتى طيور، أما الذئاب فى هذه المنطقة فهى تهاجم الانسان فى وضح النهار أحيانا وإذا ما انفجر لغم أو قنبلة أسرعت إلى مكان الانفجار بأعداد كبيرة بحيث تكمل ما بقى من أثر الانفجار ..

هكذا قالوا لعبد الله لأن هؤلاء الرفاق كانو يعرفون المنطقة لأنهم عملوا فيها من قبل وأقاموا فى هذا الوادى عدة أسابيع قبل أن يحملوا كمية النحاس والحديد الذى تحصلوا عليه وقالوا إنهم فى تلك المرة كان نصيب الواحد منهم خمسة جنيهات، وذلك مبلغ قلما يحصل عليه الفرد الواحد خلال مدة قصيرة فى الرابش ..

وقبل السفر إلى المكان الجديد الذى قالوا إنه ملىء بمخلفات الحرب عادوا إلى ذلك الكشك الواقع فى ساحة سوق العجاج لقضاء ليلتهم بعد أن دفنوا رفيقهم عبد الرحمن فى مقبرة تقع بالسهل المقابل لطبرق من جهة الجنوب الغربى وهم يسمونها (جبانة طبرق) كان رفيقهم ذاك عندما أصيب وقبل أن يفقد الوعى صار وجهه يصفرُّ بسبب فقدان كمية كبيرة من الدم، ينظر إلى هذا وذاك مقلبا نظراته بينهم عندما يفتح عينيه ويشير بسبابته كأنما هو يريد أن يرشدهم إلى شىء ما، ولقد اعتقدوا أنه يتشهد برفع إصبعه، ذلك أن عادة المسلم أن يرفع سبابته فى مثل تلك الحالة وهو يتشهد استعدادا للموت، لكنه كرر ذلك كثيرا ولم يفهموا منه شيئا حتى فقد الوعى وما أدركوا أنه يوصى بشىء إذ إن الانفجار وحال المصاب يشل تفكيرهم، وكان همهم الوحيد هو أن يصلوا به الطريق العام حيا وأن يجدوا وسيلة نقل لإيصاله إلى المستشفى، وبعد أن مات ودفن تفكر أحدهم وقد ثاب إلى رشده ليقول إنه يعتقد أن عبد الرحمن كان يريد أن يصف لنا مكان نقوده ويوصينا بشىء ما، ولكن ما العمل الآن وهم لم يفطنوا لذلك فى وقته ؟

بالنسبة لوالدته سوف تعلم من أول عائد إلى البلاد ولابد أن نبحث عن نقوده لنبعثها إليها، والد عبد الرحمن كان قد توفى قبل أن يغادر قريته بمدة، قتله مرض السل وليس له إخوة أو أخوات أحياء غير والدته الطاعنة فى السن والتى ربما ستموت من هول الصدمة عندما تعلم بوفاة ابنها الوحيد الذى كانت تأمل وتنتظر عودته وعونه .

صاروا يبحثون فى كل مكان من الكشك إذ ربما يجدون ذلك المبلغ الذى قال رفيقهم أنه وفره بحيث يمكن أن يبعثوه إلى والدته إلا أنهم لم يجدوا شيئا، وكان المتوفى قد دفن ماله فى سوق العجاج فقد قدر له أن يدفن هو نفسه فى

جبانة طبرق بينما ردمت رجله المقطوعة قرب بئر حكيم، ومن المعروف أن مناطق تحرك الرباشة دائما كانت بين العدم وبئر حكيم وطبرق، وقد تعارفوا على تلك المناطق بالقول إنه مثلث العدم وحكيم والجبانة (الجبانة هى المقبرة المقابلة لطبرق) هذا المثلث الذى يشبه مثلث برمودا وقد قيل فيه كثير من الشعر الشعبى ..

جلبة سوق العجاج دائمة، وافدون جدد سمعوا بالغنيمة ومورد الرزق القاتل فجاءوا ليغنموا أو يموتوا ولا شىء غير ذلك إذ لا سبيل إلى رزق حلال أو حرام غير هذه الألغام والقنابل، وآخرون عادوا من الرابش يتحدثون عن المحصول والمقتول، ومن الذى انفجرت فيه قنبلة أو لغم، ومن الذى أدخل المستشفى بعد أن فقد يده أو رجله ومن الذى عاد، حديث عادى لا جديد فيه، فالموت كل يوم والأحداث تتكرر ولا رجوع عن اقتحام الخطر، غير هؤلاء وهو لا يستعد للذهاب إلى العدم أو بئر حكيم حيث يوجد النحاس والحديد بعد أن باع حصيلته السابقة وارتاح قليلا إن كانت هناك راحة فى سوق العجاج، هو فى الواقع سوق الفقر والقمل والبرغوث وما إلى ذلك، لكنه على أى حال مأوى الفقراء الباحثين عن رزق، وانظرا إلى أن تلك الأكشاك متلاصقة ومكتظة فهى تشبه خلية النحل أو عدانة النمل فى الحركة والصوت، طنين وغناء وصوت مقرونة ودق وهرج إذ إنه فى ما يسمى وقت الراحة تكون كل جماعة فى كشك تتلهى بشىء ما أو لعب الكارطة (الورق) أو الخربقة أو غسل ورتق الملابس وإعداد الشاهى وبعض الأكل، وكان دائما الشىء المشترك فى أى نقاش هو الرابش والانفجارات والأموات أو الجرحى، أما إذا كان هناك قادم جديد فإن أغلب هؤلاء يتجمعون حوله وكل منهم يسأل عن الأهل والأولاد والحال فى تلك القرية وما إذا كانت الفلوس قد وصلت وهل هناك جوابات ومن يكون قد

مات أو مريض إلخ، البعض يفرح والبعض الآخر يحزن ويتألم، الذى يصله جواب يبحث عن شخص يقرأ له الجواب ليعرف الحال والأحوال ومن لم يصله شىء يذهب أيضا إلى من يكتب له جوابا، هكذا هى حياة قلقة، القلق فى البحث عن الرزق، والقلق على الأهل، من يوفر بضعة جنيهات يبعثها ويكون قلقا مترقبا خبر وصولها لأن البطون جائعة والأولاد ينتظرون الفرج من الله، وذاك الذى سافر ليعمل ويوفر الرزق، ومن لم يحصل على مال يكون قلقا من أجل أن يعمل فى أى شىء ليحصل على بعض المال يأكل منه ويبعث للأهل ..

كان فى المستشفى الذى توفى فيه رفيقهم أعداد من الجرحى الذين أصيبوا فى الرابش وهؤلاء يوضعون على أسرة متقاربة فى قاعات واسعة والمتعارفون منهم عادة ما يتبادلون الأحاديث تضييعا للوقت .

كان هناك اثنان متجاوران فى الأسرة، أحدهم اسمه البدوى والآخر اسمه على، وعلى هذا شاعر يخاطب جاره فى كل صباح ببعض أبياض الشعر يقول:

ليام يا بدوى علينا دارو نقص جهدنا وأوجوهنا يصفارو

نقص جهدنا والصحة امنين انتفكر حاليتى نشبحها

ايجى دمع عينى منحدر قطارو

اللى مات وأخذ حصتها وربحها وشوق من عجائب يا رفيق اندارو

هؤلاء يواجهون الموت فى كل ساعة وهم يفككون القنابل والألغام نظير قروش قليلة ولسان حالهم يقول: إن الذى يموت أفضل حالا من الذى تقطع رجله أو يده أو كلاهما (اللى مات وأخذ حصتها وربحها) هذا الذى يرقد على

سرير العلاج أما أولئك الأصحاء فإنهم يتسابقون على مكان القنابل وليس فيهم من يعرف أنه قد يعود بكامل أطرافه إذا لم يمت .

ومع الصباح الباكر أخذ كل من الرفاق مخلاته وليس بها غير القادومة والمقرض وهى عدة الشغل بينما نقل أحدهم شوالا به عدة الشاهى، طاستين وبراد وفردات خبز ودقيق شعير ليخبزوا العيش وقليل من الملح والفلفل المسحوق وبضعة رؤوس من البصل الجاف، خرجوا يتتابعون مارين بين تلك البراريك المتراصة وهم دائما يمشون بالتتابع واحدا وراء الآخر وتلك عادة اكتسبوها من عملهم فى حقول الألغام حذر الانفجارات وأخذا لحيطة.

اتجهوا إلى الطريق العام الذى يمر بقرب شاطئ البحر جنوب غرب بلدة طبرق ويتجه إلى قاعدة العدم التى تبعد حوالي عشرين كيلومترا من طبرق وأجرة الركوب هى خمسة قروش للواحد إذا وجدت وسيلة النقل وهى قليلة، وعند التوقف قرب قاعدة العدم يتجهون شرقا مشيا على الأقدام إلى المكان المقصود، حيث توجد مخلفات الحرب وفى مشيهم لا بد أن يسيروا متعرجين فى مسالك الأرض تجنبا لحقول الألغام، ولا يوجد طريق عام ممهد وانما هى مسالك تمشى فيها الابل والأغنام والرعاة أحيانا وهذه ليست كثيرة فى تلك النواحى خوفا من الألغام والقنابل وحتى الذئاب، ولابد لهم من مسيرة يوم كامل حتى يصلوا منطقة بئر حكيم، وهى التى يقصدونها ويتوافر فيها النحاس والحديد وبقية المخلفات كالألغام والقنابل وقطع المدافع والعربات، وقد اشتهرت تلك المنطقة بالموت حتى أن الشعر الشعبى قد سجلها على النحو التالى:

بين العدم واحكيم والجبانا   الرباش روحا امعلقا افتربانا

فتت افشورى أنا والعكارى وسالم القزدورى

حتى الحر وين يخطر عليه البورى

يذهب ايذهب فى حديث لسانا

عاشرت فى برديه صقعان نتقوطه افبطانيا

وفى عقاب جبه امشركه حربيا   والفم يضحك والعضا عريانا

بين العدم واحكيم والجبانا   الرباش روحا امعلقا افتربانا

ولأن مورد الرزق الوحيد هو هذه القنابل والألغام فإن هؤلاء عندما يخرجون بحثا عن النحاس والحديد لا يتمنى الواحد منهم شيئا غير أن يجد أكبر كمية من القنابل التى يسمونها (بوصلى) وهذا ما يعبر عنه الشاعر بهذه الأبيات:

ناديت يا حاج موسى وينك   معاى يا جديدى ما توطئ عينك

نبى نندهك يا جد بينى وبينك   اومنهو نده جده وجده هانه

ناديت يا جد رأس الخربه   يا بجاه من قارئ الكتاب وسربه

انشا الله افحوكة هالشرف ندربه   انطيح فى طميرة بوصلى مليانه

ولا يخلوا الأمر من تأمل ورغبة أخرى فالإنسان كما يقال لا يعيش بالخبز وحده، ففى النهاية يقول الشاعر :

ريت شابه متحزمة تاجورى   اتخطر علينا أفوطنا وانسانا

وصلوا بئر حكيم مساء بعد مسيرة يوم كامل وكانت الشمس قد مالت غربا وغرقت تحت سحب خريفية كثيفة قبل أن تختفى تماما، المساء رطب وأصوات الطيور الآيبة إلى مباتاتها تطرق آذانهم، بعضها رقيق رنان والبعض الآخر صدوح متقطع وجميعها تهدأ مع هبوط الظلام رويدا رويدا إلا صوت ذلك الطائر الذى لا يصدح إلا فى الليل وهو الكروان حيث يكثر فى هذه المناطق على الرغم من أنه من الطيور التى تحصل على غذائها نهارا، أما طائر البوم، فهو صائد الليل الذى لا يهدأ والذى يتشاءم من صوته أغلب الناس ربما لأنه لا يعيش ويعشش إلا فى الخراب ويطلق صوتا مبحوحا من فوق الأطلال .

عندما وصلوا صاروا يبحثون عن مكان بين شجيرات الرتم ويتحسسون الأرض خوفا من الألغام أو القنابل فالمكان لابد أن يشعلوا فيه النار للطبخ والشاهى وإذا ما حدث ووجدت قنبلة تحت أرض الموقد فسوف تحدث كارثة ولقد اتسمت حركات هؤلاء الناس دائما بالحذر لما رأوا من أحداث ومصائب، وبعد أن اختاروا المكان صاروا يذكرون بعضهم من تلك الألغام المنصوبة بخدع فى شكل خيوط رقيقة جدا إذا ما علقت فيها رجل أى انسان أو حيوان انفجرت وقيل إنها كثيرة فى بئر حكيم وكان قد نصبها الألمان كفخاخ عندما كانوا منسحبين أمام تقدم قوات مونتوجمرى القائد الإنجليزى الذى قدر له أن يهزم الجنرال الذى عرف باسم ثعلب الصحراء، والاحتراس لم يكن من الألغام المفخخة تلك فقط وإنما أيضا من الأفاعى السامة والعقارب .

كانوا قبل أن يموت عبد الرحمن خمسة أشخاص والآن هم أربعة اثنان من المقيمين أصلا فى سوق العجاج والثالث هو ذلك الرجل الذى كان قد سافر إلى

أهله ورجع ومعه عبد الله وهو أيضا من أولئك الذين اشتغلوا فى الرابش وكثيرا ما شهد أحداث انفجارات وهو نفسه كما ذكر سابقا كان ذات مرة قد داس على لغم ونجا من انفجاره بأعجوبة، هو رجل فارع الطول كثيف شعر الرأس مما يجعل حلاقته صعبة، جسمه نحيف لكنه قوى ونشط دائم الابتسام والضحك حتى كأنه ليس فقيرا معدما يعمل فى الرابش وقد يموت فى أى لحظة. له أخوان مات أحدهما بمرض السل والثانى كان قد تطوع للجهاد فى فلسطين ولم يرجع بعدئذ منذ سنة ١٩٤٨م ولهذا فإن الرجل الضحوك ذاك يعيل ثلاث أسر ولا يظهر عليه أى هم أو تعاسة مثلما هو الحال مع عبد الله وآخرين، عبد الله هذا الذى لا يتكلم إلا نادرا ولا يضحك أبدا منذ غادر قريته، هذا الرجل يحب أن يترك لحيته تطول بينما يحلق شعر رأسه من الجذور، وفى تلك القرية هم جميعا يحلقون شعور رؤوسهم من الجذر، وليس من المعتاد أن يترك أحد منهم شعر رأسه يطول ولا حتى يخرج رأسه عاريه، والرجل له شنب معقوف على وجه عريض كما يطيب له أن يتحدث دائما عن الشعر والنساء ويحفظ الكثير من الشعر الغزلي الشعبى، ويقول لو كانت الأحوال حسنة لتزوجت أربع نساء فى وقت واحد، يحاول أن يكون نظيفا رغم تيبس أصابع يديه من أثر الحديد وتفكيك القنابل، عرقه يتصبب فى كل وقت على الرغم من نحافة جسده كما لو كان يحمل أثقالا وهو يحاول تجفيفه بقطعة قماش مسوّدة، أسنانه كبيرة وبارزة إلى الأمام، صوته عال إذا تحدث كأنما يخاطب شخصا بعيدا عنه يدندن غالبا بأغانى شعبية، نعله مصنوع من إطار سيارة مثله مثل جميع أولئك الذين يقيمون فى سوق العجاج وهذه يصنعونها بأنفسهم لعدم القدرة على شراء جزم أو صنادل أو حتى بلغ .

أما أحد الاثنين الآخرين فهو ذميم الخلقة وجهه محفور مبقع من أثر الجذرى هزيل الهيئة قصير القامة لكنه نشط وخدوم وفى العادة هو الذى يخبز العيش ويلهب النار ويأتى بالحطب، أما الثالث فهو كسول كثير التذمر والشكوى يكاد يكون ملحدا حتى أنه إذا قيل له لماذا لا تصلى يرد، وعلام أصلى؟ هل من أجل فقرى وتعاستى؟ فيقول الآخرون: أستغفر الله إننا يجب أن نحمد الله على كل شىء وأولها الصحة، يشيح بوجهه ماطا شفتيه دون اكتراث ..

بعد أن اختاروا المكان صار كل منهم يقوم بعمل ما، واحد بدأ يحفر مكان الكانون ويعد الدقيق ويقرّب القدر بينما آخر جاء بالماء وثالث بالحطب والرابع ذلك الكسول الذى بقى جالسا غمد يده فى المخلاة دون أن يتحرك ليخرج عدالة الشاهى، وهم من العادة يجلسون على الأرض متحلقين حول الكانون أو حول قصعة الأكل وعند النوم يتمدد كل منهم فى مكانه مفترشا الأرض التى كان يجلس عليها وغالبا ما يتركون النار مستعرة بحيث يكون محيطهم مضاء، أما عبد الله فهو ينكمش كالدودة متلفقا بجرده المهترى والذى لم يعد يغطى جسده كله، وهو يقضى وقت طويل قبل أن يغفو، وهكذا فإنه يقول إنه لم يحصل على كفايته من النوم وأنت دائم السهاد، وهنا يغمز أحدهم بعينه اليمنى ويقول، كيف تنام وأنت بعيد عن .... يضحكون، هم يأكلون معا ويعملون متعاونين وبالقرب من بعضهم بحيث إذا ما حدث طارئ يساعدون الذى يواجه أى صعوبة ولكن فى تحصيل الرابش وتفكيك القنابل أو غيرها فكل واحد ونصيبه، هكذا يقولون .

فى ذلك المساء كانت السماء اللانهائية تتبعثر فوق سطحها النجوم اللامعة بعضها يتلألأ بشدة والبعض الآخر خافت كأنه بعيد جدا أحيانا تغطيها

السحب السائرة والتى تدفعها الرياح فى اتجاهات غربا أو شرقا أو جنوبا، وسبحانه القائل فى محكم كتابه الكريم ﴿ الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون ﴾[1].

يتداعى إلى أسماعهم بين وقت وآخر عواء الذئاب وهى ربما تنادى بعضها بعضا للتجمع وعادة ما إذا عوى ذئب تجاوب له آخر وآخر بالعواء حيث يحدث التلاقى، وفى هذا الوقت لا يظهر القمر الذى ما زال هلالا إلا متأخرا، ومن يكون مسهدا وينظر إلى السماء وهو مستلقٍ على ظهره لا بد أن تدور فى رأسه خواطر كثيرة ويبعد به التفكير من مكان تواجده وذلك ما حدث لعبد الله الذى حاول عبثا وبغير طائل طرد تلك الأفكار من رأسه، يتعوذ من الشيطان ويغير مكانه وينكمش أكثر كأنما هو دودة أحست بخطر .

ومع انبلاج فجر اليوم الأول فى منطقة بئر حكيم خلال رحلتهم الثانية هذه وقد صارت العصافير تغرد بأصوات شجية حادة فى مختلف النغمات وهى تضرب بأجنحتها فى طيران خفيض على وجه الأرض تقريبا وربما لأنها تبحث عن رزق هى الأخرى متمثل فى ديدان أو حشرات قد تظهر مبكرا هى الأخرى، كل يبحث عن رزق وبعض الأرزاق فى قتل الآخرين، فى هذا الوقت وقبل شروق الشمس التى تنشر أشعتها كذلك فى وقت مبكر من هذا الفصل بدأوا البحث وتجميع القنابل فى أكداس قبل أن يباشروا فى التفكيك وكلما وجدوا حفرة ربما كانت مربضا لمدفع بحثوا فى جوانبها ووسطها طمعا فى العثور على ما يسمونه

(١) سورة الروم، الأية ٤٨.

(بوصلى) وهذا نوع من القنابل جسمها نحاس كله ويزن بين ثلاثة إلى خمسة كيلو غرام من النحاس الأصفر ومن يعثر على هذا النوع كأنما عثر على حق كنز حتى أن الشاعر الذى كان يطلب مساعدة جدة كان يقول:

ناديت يا جد رأس الخربة   يا بجاه من قارئ الكتاب وسربه

انشالله افحومة هالشرف ندربه   انطيح افطميرة بوصلى مليانه

وقبل أن ينتصف النهار كانوا قد جمعوا أكداسا من القنابل وصار كل منهم يفكك ويضرب بقادومه واضعا المقرض على ذلك الحزام النحاسى الذى يحيط بالجانب الأسفل من القذيفة ولقد تباعدوا عن بعضهم البعض بحيث إذا ما انفجرت قنبلة فى واحدة من تلك الأكداس لا تضير أكثر من الذى كان يفككها، ومع حلول ظهيرة ذلك اليوم كانت حصيلة كل واحد منهم لا بأس بها من النحاس الأصفر. وقد تنادوا من أجل التوقف عن العمل وإعداد الغداء وكان أحدهم قد جاء بكمية من البارود الذى استخرجه من إحدى القنابل لغرض إلهاب النار، وكان عبد الله قد أحظر الحطب وقد ظهر عليه الاغتباط والسرور لأول مرة حيث كان مرتابا مبتئسا خلال الفترة الماضية ربما لأنه تخلص من بعض الخوف أو ربما لأنه أحس بمزية هذا العمل وقدر أنه سوف يحصل على بعض المال ليبعث به إلى أهله فى أقرب فرصة ممكنة، وكان قد سمعهم ذات مرة يقولون إن الواحد يظل وجلا خائفا إلى أن تنفجر بالقرب منه قنبلة وها هو قد سمع ورأى انفجار القنبلة وتقطع الأعضاء وحتى الموت، حدث ذلك عندما قتل عبد الرحمن وهو أحد الرفاق، والذى كان يحلم بالحصول على الجنية الأخير والتوقف عن الرابش ولم يكن يعرف أنه سيتوقف إلى الأبد ..

استمر ذلك العمل الدؤوب لمدة أسبوع كانوا يبدأون فى تفكيك القنابل من الصباح الباكر حتى المساء، يتجمعون فى الغذاء بعد أن ينقضى منتصف النهار ثم فى المساء وهم يتوقعون أن ينقص عددهم كأن يقتل واحد منهم أو اثنان، هكذا هى الحالة لمدة أسبوع كامل بعده وعندما أرادوا بيع ذلك النحاس والحديد بحثوا عن عربة تنقل المحصول إلى (الكنتيرى) أى المكان الذى يباع فيه الحديد وغيره لدى وكيل اليهودى (بيو ناحوم) عندما وجدوا العربة اشترط عليهم صاحبها أن ينقلوا كل المحصول على الأكتاف إلى مكان العربة إذ ليس هناك من سبيل إلى إقناع أو إرغام السائق على تغيير رأيه ولو حاولوا لكان قد رفض نقل تلك الحمولة حتى ولو جاءوا بها إليه فى المكان الذى حدده .

وهؤلاء الذين يخرجون من سوق العجاج كل مجموعة متجهة إلى مكان لا أحد منهم يعلم عن الأخر أو الأخرين شيئا إلى أن يعودوا إلى ذلك السوق ليعرفوا أن فلانا قد قتل بانفجار لغم وفلانا قتل بانفجار قنبلة وآخر يوجد بالمستشفى لأن يده أو رجله قد قطعت وأصيب بجروح بالغة وليس من المعروف ما إذا كان سيعيش أم لا، وهم رغم فقرهم وظروفهم المعيشية متضامنون يزورون من يكون فى العلاج ويتبرعون بالدم لمن يحتاجه رغم أن فقر الدم ظاهر فى الجميع بسبب سوء التغذية بالطبع، كما أنهم يمشون فى جنازة الميت ويشاركون فى دفنه وأحيانا يجمعون بعض الأموال إذا كان المتوفى لا يملك مالا، وهم فى مكانهم هذا ووضعهم ذلك لا يعلمون شيئا عما يجرى فى بلادهم ولا خارجها فلا صحف أو أجهزة راديو ولا مواصلات أو اتصالات كل دنياهم لا تخرج عن سوق العجاج والعدم وبئر حكيم وتلك القنابل والألغام، وفى أوقات متباعدة تصلهم أخبار ذويهم وقريتهم عندما يأتى شخص جديد أو يسافر أحد منهم .

وتمر الأيام دون أن يهتموا بها وتنقضى الشهور والمناسبات من غير أن ينتبهوا إليها، لا يفرحون فى الأعياد والمناسبات مثل بقية الناس، بل إن الحزن هو الذى يعاشرهم دائما وديدنهم أحداث الموت والدفن، أطفال الناس الآخرين يفرحون بالجديد ويلعبون أما أطفالهم فلا يجدون حتى الأكل وبدلا من اللعب يبكون من الجوع وامهاتهم لا يجدن وسيلة لإسكاتهم غير الصبر والتمنى .

يقول شاعرهم عندما يسمع بشىء اسمه عيد:

يا عيد عيد الناس مانك عيدى ... احنا عيدنا بالكدر والتنكيدى

انت عيد يوم الفارح انت ... عيد من لابس لباس جديدى

عبد الله ورفاقه جاءوا بذلك النحاس والحديد الذى جمعوه إلى طبرق، وكان عليهم أن ينتظروا قرب (الكونتيرى) لأن الوكيل لم يكن موجودا وهم يلحون لأنهم فى عجلة من أمرهم، يريدون العودة إلى مكان سكناهم فى أسرع وقت ممكن إذ ربما هناك أخبار من الأهل أو أن يكون هناك من قرر السفر بحيث يمكنهم أن يبعثوا ما توفر من نقود إلى أولئك الجوعى الذين ينتظرون فرج الله والذين تغربوا من أجل الرزق، وبعد أن جاء صاحب الكونتيرى ووزن النحاس والحديد لكل منهم وصار يتشدد فى الثمن ونوعية النحاس بالذات غير مقدر لما عاناه هؤلاء من تعب ومشاق فى الرابش دفع ثمن المباع وقد انتقص الوزن إذ كانوا يتوقعون نسبة أكبر على أنهم مع ذلك قابلون لما يريد، المهم بيع النحاس والحديد فى أسرع وقت وربما العودة إلى نفس المكان لتفكيك القنابل فقد صار عدد الذين يقومون بهذا العمل كثيرا وبالتالي أصبح الشارى متحكما فى البائع المحتاج، توفر لكل منهم ثمن ما جاء به من نحاس وحديد وعادوا إلى سوق العجاج انتظارا لخبر

أو زائر من بلادهم ليسألوا عن الأهل والأولاد وحال الناس هناك ومن مات أو مرض إلخ .

وكلما عاد أحد أولئك الذين كانوا فى مناطق مخلفات الحرب انتشر خبر فرص العمل وكيف أن الذين يعملون هناك يكسبون كثيرا، ومع بعض الحقيقة تحدث المبالغة حتى أن البعض كان يقول إنهم يكسبون فى اليوم الواحد عشرة جنيهات فى حين أن ما يمكن أن يكسبه الرباش فى اليوم عادة لا يزيد على ثمانية عشر قرشا وهو يكد وفى مواجهة الخطر من الصباح إلى المساء .

ولكى لا يعتقد القارئ الكريم أننى ربما أبالغ فى تصوير حالة هؤلاء الناس وتلك الأهوال والظروف القاسية والأخطار التى واجهوها وعدد الأموات والذين أصيبوا وقطعت أرجلهم أو أيديهم أو فقئت عيونهم أقدم هنا شهادة أحد الأحياء ممن أصيبوا بانفجار لغم هناك وكتبت له الحياة غير مضيف على كلماته إلا الترتيب والصياغة، سجلت كلماته كما هى وهو يروى قصة سفره من قريته إلى تلك البلاد، وكيف قطعت رجله وهو يستخدم خشبة دائرية مخروطية تبدأ من نهاية فخذ الرجل اليمنى المقطوعة وتنتهى بطول محادى تقريبا لرجله الأخرى وجزئها الذى يصل الأرض دائرى صغير يشبه قاعدة طاسة الماء، وقال إنه يستعمل هذه الخشبة منذ قطعت رجله سنة ١٩٥٤م أى منذ خمس وأربعين سنة مضت، وهو يروى القصة حتى لكأنها قد حدثت منذ سنة أو أقل، يقول :

(طلعنا من طرابلس وعندنا خمسين فرنك أى ما يساوى عشرة قروش هالوقت، السلطة كانت عسكرية ساعتها، فى تاجورا كلمناهم ومشينا خطوة خطوة على رجلينا وإلى وين، بيتنا فى القربوللى ومن القربوللى جينا للخمس

قعدنا فيها دوره هيكى وطلعنا، بتنا فى غوط الشيخ عند زليطن عشونا تمر، الناس أهل الزاوية من وقف سيدى عبد السلام، جينا لواحد بالجمعة، زليطنى يعرف الحاج سعد مشينا الحقيقة عطانا نصف مرطه تمر تقريبا وطلعنا فبتنا فى الدافنية فى الفجر كان آخر شتاء وأول ربيع، الدنيا صقع، جت كرهبا معبية بالبقر فيها واحد مشينا قدامهم قالوا انهضوا معايا البقر انوصلكم إلى سرت، أنا وحياة مسعود قعدنا مقعمزين كان صقع واحنا لبسين هداريش وسعد لابس ملحفا أمتاعت مرا، ما عنداش ما يلبس، ورجلينا حفايا حاولنا نركب فى السيارة لكن صاحبها قال انزلوا والله ما كم راكبينها لكن عندما تحركت السيارة نقزت أنا والثانى بقى فى مكانه وما عادش ندرى عليه من هداك الوقت، وين وصلنا مصراته قال صاحب السيارة انزلوا وبعدين لاقونى فى المحطة متاعت الركاب لحقناه غادى ولقينا أمولع النار وداير الشاهى وجايب الخبزه، واسقدنا، أنا راكب ع البقر ومتخفى خايف اينزلنى السواق توا أنا عندى معرقا طارت رفعها الريح وقعدت راسى عريان والمهم وصلنا إلى سرت وفى سرت جينا لجامع وجدنا فى ناس كثيرا وساعتها المنتصر هو متصرف سرت عطونا كمشا كمشا تمر وسقدنا ظهرنا من سرت على رجلينا بعد فترة بتنا تحت عقاب سيارة قديما وقبل لا نوصلوا حوش التسعين ظهرنا هكى شويا بعيد عن الطريق لقينا الترفاس لقطنا منه ومشينا لحوش التسعين وبدينا نطبخوا فى الترفاس بالميا بس وحوالي الساعا احداش واللا هكى جت سيارات رافعا الداخان إلى بنغازى وفيها شرطا قعدنا اندور عليهم نلقوش ما ناخد منه كانوا من شرطة برقة، شرطة برقا ايديروا فى الهلال والنجمة المهم بعدهم جت سيارا ودخل علينا واحد مياه شاهى وكلا معانا الترفاس وقال أنوصلكم إلى أجادبيا لكن بعدها جت سيارات معبيا بالتمر وكان فيها زور من قريتنا قالوا لاش تركبو معاهم تعالو

معانا نوصلكم وتاكلوا التمر ، فى الطريق وبعد ما ركبنا معاهم جاء السوق وقال انزلوا والله إذا لم تنزلوا نسلمكم للبوليس فى الطريق قدامنا فى النوفلية ، الناس اللى من قريتنا وقالوا لنا اركبوا مساكين ما قدروش ايتكلموا المهم قبل أن تمشى السيارة أنا خشيت فى الريموك ورقدت بين البراميل تحت القيطون ، فى النوفلية شرطا طرابلسية شعارهم الحصان هناك كانت سيارات الدخان موجودة أنا نزلت وركبت معاهم وصلنا بنغازى ونزلنا فى السيلس معانا مخلا كان فيها شوية تمر وصلنا عاد بنغازى ، كنا خاشين بنغازى عمى ما نعرفوش حد وجينا لمكان ناحية سيدى حسين فيه زاوية نبى انبات فيها لكن جانا واحد وقال والله ما كم بايتين فيها لكن جاء واحد آخر صاحب خير وقال باتو فيها المهم بتنا فى الزاوية فى الصبح قعدنا نسأل عن حد من الأقارب وجدنا واحد فى البركا استقبالا كان بارد كاترا عليه الناس نشدنا على آخر ولم نجده سيبناه وظهرنا كنا أربعة أنفار مشينا للنواقيا كان ربيع فيه لبن ياسر وخيرات لقينا واحد عطانا لبن وكان معانا شوية تمر دار لنا الشاهى وقال نبى واحد يرعى قعد معاه واحد ابقداش قال جنيه واحد، ساعتها الجنيه مصرى والمدة إلى أن يطيب الزرع يعنى ثلاثة شهور مع أوكالك وشربك بعدها افترقنا نفرين نفرين وجينا لواحد عشانا وفى الصبح قدملنا قلية القمح هاديك كانت فى النواقيا شربنا الشاهى ومشينا ثم لقينا ناس ذابحين حولى ودايرين كسكسى كلينا أعماهم ، ناس كانوا أكرام ، مشينا وما عادش تلاقينا إحنا والآخرين ، الناس ماشيا هتايا ، جينا تانى قدا واحد فى الليل عشانا وفى الصبح اتجهنا قدا سلوق وهناك قعد واحد منا وأنا مشيت بروحى وفى كل ليلة كنت أنبات فى بيت ثم رجعت للنواقيه وجيت للسوق لقيت جماعة يشربوا فى الشاهى قعمزت امعاهم وشربت الشاهى واحد منهم قالى بالك ترعى قتلا

باهى وبعد الشاهى مشيت معاه لقينا بوه رجل كبير عرف قريتى وقال لى أنه حارب مع عبد الله الجرم تامسكت أيام الطليان وهكى جاء إلي نواحى طرابلس ايحارب مع الطليان فى ذلك الوقت ، وقعدت امعاهم ، قعدت امعاهم نحصد الزرع احسابى كان جنيه واحد مشيت من النواقية إلى بنغازى فى سيارة كان الركوب بخمسة قروش سيارات دوج قديما ، المهم روحت بقيت فى بنغازى ، بعد الحصاد الشعير حصتى ردمتا تحت الأرض عندهم والقمح بعتا بثلاثة جنيهات ، جاء شهر رمضان ، عندما جيت لبنغازى تلاقيت مع أحد الأقارب وعرف أن سيدى (والده) وجدى موجودين فى بنغازى سألته وين قالى فى شارع عبد المطلوب قلت وأين هذا الشارع أنا ما نعرفش بنغازى ، كانوا حصدوا الزرع فى البيضاء ورجعوا لبنغازى ، وصلتهم وقعدنا مدة فى بنغازى لقينا عمل مع الإنجليز باربعتاشر قرش فى اليوم بعدين سيدى والآخرين روّحو قعدت الخدما كانت عافنا اربعتاشر قرش شنى خدما ما يديرو شى سكنا فى نفس الشارع وبعدين انتقلنا إلى سيدى داوود كان إيجار الحوش ثمانين قرش فى الشهر وكنا حوالى ستاشر شخص فى حوش واحد ، صارت حملا على العمال قام بيها الإنجليز هيا قلنا نبو طبرق كنا مجموعة من الأقارب مشينا لطبرق وقعدنا فى سوق العجاج وليقنا كثير من أقاربنا قالوا لنا انتم أجدد ما تعرفوش التربيش لكن مشينا كل واحد عما مجموعة باهى تعلمت وقعدت انحصل فى الشهر بين ثلاثة وأربعة جنيهات ، فلوس باهيات المهم قعدنا مدا وبدا كل مرة ايموت واحد ، يا يموت يا تنقص يده أو رجله ، فلا قبلها جانا واحد وقال نبى ألغام عبينا زوز كراهب وكان الزبان قاعد بالصناديق جينا بينهم إلى طبرق لكن مسكونا الشرطة ، شدونا بعدها مشينا شرقا مشينا إلى امساعد وقعدنا نبيع النحاس ايدا مقصوصا فلان رجلا

وفلان ايديه الاثنين وبعدها خمسا انفجر فيهم لغم واحد اسما عبد الكريم مات افطراحا والآخرين صارت فيهم حالا واحد اسماه محمد عيونا نزلوا كذلك فى نفس المكان جيناه فى المستشفى لقيناه فى حالا بعدها توفى شقيقان فى وقت واحد ومع ذلك قعدنا لكن كل واحد كان خايف، بعدها مشينا إلى امساعد فيه معسكر ايقولو كامبو بوحلفايا قعدنا فيه مدا وكنا نبيع فى السلوم نبيع النحاس فى السلوم وهذا تابع للمصريا وساعتها حتى شهادة الميلاد ما عندناش ما نعرفوهاش، كنا مجموعا كبيرا، المهم مرا من المرات شدونا وجابونا للقسم وبعدين رفعونا إلى مرسى مطروح بالقطار وبعدين ردونا، المهم حبسونا واحد وعشرين يوم بعدها سلمونا فى البوابا الليبية فى امساعد، طلعنا من امساعد، ساعتها كانت حراسات الحدود مصريا هجانا والشبروق كان مقطوع، كان موجود لكن امقطع، كان فيهم واحد منا عندا سبعا جنيه ردمهم فى الأرض قبل ما تجى الحراسا المصرية وعندما رجعونا إلى امساعد قال إنه ردم المبلغ فى الأرض داخل الحدود المصريا مشينا فى الليل مرا ثانيا ودخلنا الحدود، فى هذه الليلة بتنا بلا عشا وفى الصبح وجد المبلغ ورجعنا إلى الأراضى الليبية، كانت أربعا وعشرين ساعة بلا أكل، بعدها رجعنا إلى طبرق كنا مجموعا كبيرا خسمطاشر أو ستطاشر نفر وكان فيه اثنين مطلوبين للشرطا منهم سعيد هذا وهو موجود وحى حتى هالوقت كانوا قرب العدم وجتهم الشرطا دخلوا حقل ألغام علشان يهربو من الشرطا لأن الشرطا لا تستطيع دخول الألغام، هادوك الاثنين دخلو حقل الألغام لكن يظهر أنهم كانوا يلعبوا بلغم فانفجر فيهم واحد منهم لقطناه طروف والثانى فتحت بطنا ودارتلا جروح أخرى ومات حتى هوا، جانا الخبر فى الليل قلنا من يمشى فى الليل لحقل ألغام خليناهم حتى الصبح مشينالهم فى الصبح

واحد منهم كان رافعا الانفجار حوالى ثلاثين خطوا دفناهم فى مطراحهم، كنا خايفين واحنا نجمع لحمهم لأننا فى حقل ألغام، المهم قعدنا كل مرا نمشو لمطراح، والمطراح التى انجرحت فيها أنا كان معاى عدد من الأقارب حوالى سبع أنفار شرينا عنز وذبحناها للغذاء كان ثمنها أربعين قرش جانا واحد شرقاوى قال هوينه فيه طيارا طايحا مشينالها، وجدنا المكان لكن لم نجد الطيارا وكان هناك حقل ألغام لابد أن نمر فيه ما فيش طريق آخر تفرقنا متباعدين عن بعضنا لأن الانفجار قد يقتل واحد أو اثنين إذا كنا متباعدين، أنا عفست على لغم فانفجر وجونى الجماعا قلتلهم اربطوا كراعى، كراعى الأيمنا كلها مشت، المهم جو الجماعا لكن حارو كيف ايطلعونى لأننا كنا فى وسط الحقل المهم رفعونى واتفقو أن كل واحد يعفس فى مكان قدم اللى قداما خوفا من الألغام، المهم طلعونى وكانت الساعا اطناش ظهرا وجدوا فى مكان اسمه بير الأهرامات سيارة لناس قالولهم عندنا واحد مجروح، جاءت السيارة ووصلونى للمستشفى الساعة اطناش فى الليل أى من الساعا اطناش فى النهار إلى الساعة اطناش فى الليل كانو رابطين الجرح لكن النزيف كان ياسر، فيه ممرضات ايطاليات راهبات وكان هناك دكتور اسمه قرى المهم ربطوا الرجل وفى الصبح جابونى لحجرة العمليات وقصوا كراعى من تحت الركبا، وبعد يومين أو ثلاث جاءنى الدكتور وأعطانى دواء مر وكانوا كل ما يضربولى ابر اتشفع منها، اثناء وجودى فى المستشفى ريت عدد كبير من الناس اللى مقطوعا ايدا واللى رجلا، بعد خرجت من المستشفى وبعد قطع كراعى رجعت للرابش شويا وبعدها رجعت إلى قريتى هنا، ومن سنة ٥٤ حتى الآن رجلى خشب كما تراها.

هذه عزيزى القارئ الكريم واحدة من القصص الفواجع التى أوردتها دون أن أضيف أو أغير حتى فى كلماتها وكما رواها لى السيد محمد بن أحمد الفكحال فى بيته، أقدمها كنموذج يوضّح مقدار تلك المعاناة، معاناة فى السفر وفى المعيشة وخوف وقلق فى ذلك المكان الذى اسمه بئر حكيم والعمل الذى عرف بالرابش أى مخلفات الحرب العالمية الثانية، هؤلاء الناس كان يدفعهم الفقر إلى تلك المخاطر وإن كانوا قد فقدوا أطرافا من أجسادهم وهى عزيزة كما فقدوا أقارب وإخوة أعزاء فقد أزالوا الكثير من الألغام والقنابل التى كان يمكن أن يتضرر منها عدد أكبر من الناس، هى واحدة من القصص المرعبة وأصحابها مازالوا على قيد الحياة.

تلك كانت شهادة أحد الذين عاصروا فترة الفقر تلك وعرفوا أهوال الانفجارات ومخلفات الحرب العالمية الثانية فى طبرق وهو ما زال على قد الحياة حتى وقت كتابة هذه السطور، وإذا أصبحت طبرق البلد المقصود والمعروف بمخلفات الحرب وهى كذلك كانت مقبرة أولئك الذين عرفوا بتعبير الرباشة ولا ذنب لطبرق فى كونها ساحة حرب أثناء ذلك الصراع بين قوى كبرى تسعى للسيطرة على العالم واستغلال موارده، لكن طبرق تلك كانت بالنسبة للرباشة هى بلاد الرزق والموت فى وقت واحد حتى أن أحد الشعراء قال:

عاشرتها ونسيت يا زنتانى ابلاد البلى والكدر والدفنانى
ابلاد البلى واهموما عاشرتها وانسيت حوش ارحوما
والحر كان والف ايولى بوما يقعد قتيل الباف فى الكيفانى
ابلاد البلى مبليا ما من سخايط فى الوطا مرميا

رجاجيل عددها الزمن الفانى افنفسك دعي شيطانى على ربع كيلو نحاس فى الميدانى
ابلاد البلى مسخوطا ما من مصايب فى اوطا مبلوطا كرينتو متخالفات اخيوطا
صناعة نصارى شغلها جوانى اوقبصونتا تضوى كما ياقوتا ...

ولقد قدمت قصة هذا الرجل كدليل على صحة ما أروى من أحداث وكيف أنها فعلا كانت هجرة بحثا عن الموت، وإذا كنت فى غير ما حاجة إلى أن أذكر أعداد الذين ماتوا ودفنوا هناك فإن أصدق شهادة تمشى على الأرض يجدها الباحث فى عدد الناس الموجودين الآن فى تلك القرية، أناس قطعت أرجلهم أو أيديهم من أثر الانفجارات، انفجارات القنابل والألغام فى طبرق وما زالوا يعيشون، ولكنها معيشة الإنسان الذى فقد جزءا غاليا ومهما من جسده، وربما مازال يعانى من آثارها فى عقله ووجدانه، وتلك رواية أخرى.

ودارت الحياة دورتها المعتادة وهى لا تتوقف عند أحد ولا على أحد ﴿إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسئلكم أموالكم﴾[1] صدق الله العظيم.

ومرت الأيام وقد اعتاد عبد الله مثل رفاقه على سوق العجاج والخروج إلى الرابش وتفكيك القنابل والألغام والانفجارات والموتى وأولئك الذين تتقطع أطرافهم ويبقوا يعانون العذابين، عذاب فقد الأطراف وعذاب العجز والعوز، وفى مثل هذا العمل هم يميزون بين فقد الأطراف فمثلا من يفقد إحدى رجليه يكون حاله أفضل من ذلك الذى يفقد إحدى يديه أو كليهما لأن العمل باليدين ومن يفقد واحدة من يديه لن يكون قادرا على تفكيك القنابل مرة

(١) سورة محمد، الآية ٣٦ .

أخرى وبالتالى سيفقد مورد الرزق، أما ذاك الذى يفقد رجلا فهو قادر على العمل لأنه بعد أن يشفى يربط تلك الرجل مع خشبة يتوكأ عليها وإن كان يتألم فى البداية لكنه بحكم التعود يألفها وتستمر معه (وقد رأينا من قصة المواطن الذى سردنا روايته كيف أنه بعد أن قطعت رجله باشر ذلك العمل مرة أخرى، أى أنه عاد إلى تفكيك القنابل والألغام رغم قطع رجله ومعاناة تلك) ولم تكن الأطراف الصناعية متوفرة أو حتى موجودة فى ذلك الوقت ولذلك فإن الذى يخرج من العلاج وإحدى رجليه مقطوعة بداية يستخدم ما يسمى (قيله) وهى تشبه العصا تعطى له مؤقتا ليتوكأ عليها وعليه بعد فترة أن يتدبر أمره بنفسه، ولقد ابتكر هؤلاء لأنفسهم أرجلا خشبية يستعملونها ويمشون عليها، منهم من بقيت معه حتى آخر أيام عمره.

كثر الوافدون على طبرق وهم يبحثون عن فرص رزق من عائد تلك المخلفات الحربية، وبالتالى صارت المواصلات مستمرة فهذا عائد إلى القرية وذاك آت منها ولقد حدث بعض الاطمئنان بالنسبة لما يبعث إلى الأهل إذ ليس مهما ما يحدث فى سوق العجاج أو بئر حكيم لأنه صار معتادا وهم يشيعون من ثلاثة إلى خمسة أشخاص فى الأسبوع الواحد قتلى غير أولئك الجرحى، إنما المهم أن تصل المبالغ التى تبعث إلى أولئك الجوعى فى القرية وهم ينتظرون ويتضورون جوعا، كما أن أهل القرية هذه أيضا اعتادوا على أن يروا العائدين وقد فقدوا بعض الأطراف، هذا فقد رجله وهو يتوكأ على أخرى من خشب وذاك يده قطعت إما من المعصم أو حتى من فوق المرفق وأصبح بيد واحدة، وكل شىء مقبول فى سبيل لقمة العيش.

وبرغم كثرة الوافدين وما يعانون فى طريق سفرهم وهم لا يملكون شيئا فى الجيوب ولا على الظهور لأن أحدا منهم لم يمد يده مستجديا أو طالبا منحة منتظرا بمذلة أن ينفحه أحد بضعة قروش بمنّة أو بغيرها، ولا بقى فى طرابلس أو بنغازى إلا من وجد عملا، أى عمل، وما عدا ذلك فإن الهدف والمشوار كان إلى طبرق ومخلفات الحرب والرابش، هى حياة أو موت ولا شىء آخر بينهما.

كان بعض الأشقاء يذهبون معا ولا يعود أحد منهم لأنهم فى الغالب يحاولون إنقاذ بعضهم فيموتون جميعا خصوصا إذا وقع أحدهم فى حقل ألغام، وآخرون يعود واحد أو اثنان بينما يموت الثالث وقد يأتون به ميتا أو يدفنونه فى مكانه. الذى يدفن فى نفس المكان عادة ما يكون جسده قد تقطع إربا ولم يتمكن أولئك الذين معه أن يلملموا شيئا منه إلا القليل، قطع بسيطة، أيدى أو أرجل أو أحيانا الرأس فقط وهكذا، وإن وجدوا معه بعض النقود وهى نادرة قد يبعثون بها إلى ذويه، لقد كانت حربا بلا حرب، وأسوأ أنواع الحروب هو الجوع.

وعبد الله يخالجه الخوف من أن يفقد أحد أعضائه، ولهذا فقد كان ينتوى الابتعاد عن هذا العمل الخطر ولكن كيف؟ يرفع يديه إلى السماء طالبا العون من الله.

يبتسم ابتسامة حزينة وجلة فهو لم يخلق لهكذا عمل إذ إنه كان الابن الوحيد المدلل، على أن الوقت لا يتسع للتفكر، فالرفاق يعدون العدة للخروج إلى مكان القنابل وهذه المرة ربما فى مكان بعيد، ولقد أرسلوا ما كانوا قد وفروه من مال ولابد من العمل، ولقد كان محزنا أن يفقدوا رفيقا كان منذ أيام يملأ السمع والبصر ولكنه على أى حال ليس الوحيد فقد قتل خلال الأيام الثلاثة التى أعقبت مقتله خمسة رجال كلهم فى مقتبل العمر.

كان أحد هؤلاء يجيد النفخ فى المقرونة وهى تسليتهم الوحيدة عندما يتحلقون حول كانون النار خلال الليل ووقت السهد، وهم عادة ما يطلبون منه أن يطربهم أو يحزنهم، هكذا يقولون، فصوت المقرونة شجى يطرب أحيانا ويحزن أحيانا أخرى، ذلك أن نغمتها تكون كمن يبكى وما أحوجهم إلى البكاء، لكن الرجال لا يبكون إلا نادرا، هكذا قال أحدهم وهو يرى أنه بكى مرة عندما كان ذاهبا مع رفيق آخر وعاد بدونه بعد أن انفجرت فيه قنبلة وقطعته إربا وكان عليه أن يدفن ما بقى منه فى نفس المكان، وعاد فقط ببعض حاجياته وتركه تحت الأرض وهو يعلم أن الذئب لابد أن يحفر قبره ليأكل ما تبقى منه فى نفس ذلك اليوم.

وهم عادة ما يخرجون من سوق العجاج فى مجموعات واحدة تعود وأخريات تذهب، والذين يذهبون عادة ما يكونون متحفزين جاهزين للعمل بينما أولئك الذين عادوا يحملون ما توفر لهم من نحاس وألومنيوم وحديد ليبيعوه ثم يخبروا عن أحداث وقعت إما بين جماعتهم أو فى جماعة أخرى كانت تعمل بالقرب منهم، فلان قتل وفلان جرح وقد قطعت يده أو رجله، كما يتحدثون عن أنواع جديدة من القنابل والألغام قد وجدت وكيف أنها مختلفة وهى التى كانت السبب فى تلك الأحداث؛ لأنهم لم يخبروها من قبل وبالتالى فهم يوصون هؤلاء الذين يتحفزون للعمل بالحيطة والحذر، ولكن المجموعة أو المجموعات الذاهبة لا يفت فى عضدها ما يقال عن الموت أو الإصابات كأنما الأمر عاد يوم توقع ذلك أن ما يلم بأحد يعتبرونه قضاء وقدرا كما أنه شر لابد منه، وكان يتفق غالبا للواحد منهم أن يقول إن فلانا الذى قتل قد ارتاح، رحمه الله.

وكانت مجموعة عبد الله واحدة من تلك المجموعات الذاهبة فقد تجهزوا بمعداتهم وبعض أكلهم منذ الليلة البارحة، وعلى الرغم من أن عبد الله

هذا وهو جديد على الرابش أى أنه جاء منذ شهر ونيف وقد بعث بعضا من مال لأهله الشىء الذى أسعده جدا فقد صار أكثر انكبابا على العمل وهو أسرعهم فى تجميع القنابل وتفكيكها حتى أن أحدهم كان يحذره من مغبة السرعة لأنه فى هذه الحالة يعرض نفسه للخطر وربما يعرض رفاقه أيضا لخطر الانفجار، خصوصا تلك التى تسمى (بوصلى) لأن الواحد لابد أن يزيل رأسها الصاعق قبل أن يتمكن من ازالة البارود الموجود بها، علما بأن الذى يعمل منذ شهرين أو ثلاثة أو حتى أكثر قليلا يعتبر جديدًا على ذلك العمل، وقد سارع بالتقاط قادومه والمقرض بمجرد أن وصلوا المكان الذى رأوا أنه مناسبا لعملهم فى ذلك اليوم، كان الغبار يتطاير عاليا بسبب رياح القبلى والسحب كثيفة حتى أنها تغطى عين الشمس، وكان الوقت ظهرا تقريبا وقد غادروا سوق العجاج قبل منتصف الليل حتى يصلوا فى ذلك الوقت المكان المقصود، وكانت ذرى جوانب الوادى تختفى حينا وتظهر حينا وتظهر أحيانًا أخرى بسبب ضباب الخريف كأنما الوقت ليس ظهرا، وهم غالبا ما يفرحون بوجود السحب لأنه لا يوجد مكان يستظلون فيه إلا شجيرات الرتم التى قد يستطيع الواحد منهم أن يدس رأسه تحتها بينما يبقى جسمه فى الشمس وهم أحيانا يقطعون العديد من تلك الشجيرات ويكدسونها فوق بعضها لكنها مع ذلك لا تقى من الشمس وسرعان ما تنقلها تلك الرياح التى تهب فى كل وقت، كما أن الغبار ورياح القبلى كثيرا ما تكون مقلقة خصوصا أن الماء لا يتوفر حتى أن الواحد لا يمكنه أن يشرب إلى أن يرتوى، لابد أن يبلل شفاهه فقط فى الغالب وهم يتقاسمون الماء القليل ويدركون أنهم لن يستطيعوا الاستمرار فى العمل إذا ما نفذ الماء وهكذا فكل واحد منهم يحرص على ذلك.

صار أحدهم يغنى بصوت رخيم تفاؤلا واستبشارا بأول يوم فى ذلك المكان، وفى هذه الأثناء سمعوا قرقعة وصريرا وغبارا مثارا يختلف عن غبار القبلى فإذا هى عربة قديمة تتحرك بمحاذاة المكان الذى يقيمون فيه وعبر نفس الوادى إلا أنها تأخذ الجانب الغربى، عندما بانت لهم على بعض البعد، صاروا ينظرون إليها إذ ليس من المعتاد أن تأتى العربات إلى هذه الأماكن، وما كادت تحادى مكانهم حتى تبينوا أن بها مجموعة من معارفهم سكان سوق العجاج أى أنهم رباشة مثلهم، وقد تنادوا من بعيد إلا أن السيارة لم تتوقف ربما لأنهم لم يكونوا على استعداد للحديث مع أحد وأنهم فى عجلة من أمرهم، وذلك كثيرا ما يحدث حيث تكون جماعة ما قد سمعت بمخلفات حرب فى مكان معين، وخصوصا إذا كانت طائرة أو طائرات وهذه يتوفر فيها الألمينيوم مع بعض النحاس، والسفر إليها عادة ما يكون مجديا، وقد اعتقد هؤلاء أنها فى طريقها إلى منطقة الجنوب التى سمعوا أن بها مخلفات كثيرة وصاروا يتناقشون فيما إذا كان من المستحسن أن ينتقلوا هم أيضا إلى قرب ذلك المكان وإذا ما قرروا الانتقال سيرا على الأقدام فسوف يقتضيهم ذلك يوما ونصف قبل أن يصلوا قرب الجغبوب، كما أن الطريق ربما غير مأمون لأنهم لم يسبق لهم أن عملوا هناك، كما أن وجود المخلفات من عدمه غير معروف وكثيرا ما تنقل أخبار غير صحيحة فى هذا الخصوص، اختلفوا بين موافق وبين رافض، عبد الله لم يكن لا موافقا ولا رافضا فقد ترك الرفاق يقررون وكان منشغلا بوضع عدة قنابل على الأرض قرب مكان مبيتهم، كان وجهه يطفح بنوع من السعادة وأساريره متهللة كما أن عينيه تضحكان وهو الشىء الذى لم يألفه منه رفاقه، وكان السبب فيما يظهر ذلك المبلغ الذى كان قد بعثه إلى خديجة وطفليه، وهو مبلغ كبير لم يتوفر له

منذ جاء إلا هذه المرة، أنه جنيهان وخمسون قرشا وليس المبلغ فقط بل أنه بعث برسالة يقول فيها أنه بخير وأنه يعمل وسوف يبعث بالمزيد من المال وقال أنه ينتظر الرد فى أول فرصة ليطمئن على الأولاد وعن أمه التى تركها منذ زمن طريحة الفراش، سأل عن خديجة وأولادها وهل بدأوا فى قراءة القرآن لدى الفقى التركى، ذكر اسم خديجة بصوت واطئ خجلا من اسم زوجته ذلك أن هؤلاء لا يذكرون عادة اسماء الزوجات ولا كلمات الحنان والعطف أو الأشواق وما إلى ذلك علنا مهما كانت شدة الشوق وتهيج المشاعر.

لقد كانت الذكريات تتداعى بعضها جميل والبعض الآخر مر كالعلقم وهى لا أول لها ولا آخر، تلك القرية والأهل والإخوان وفرحة الزواج وإنجاب الأطفال ثم تلك السنوات الكبيسة وقرار السفر والابتعاد عن الأحباب وما حدث له فى الطريق والبلاد التى لم يكن يعرفها، تتعاقب الصور وتختلط الأحداث ولم يفطن إلا على أثر وخزة من شوك اعتقد فى البداية أنها لدغة عقرب.

ويكثر فى هذا الوادى نبات ذو أشواك مسننة كأنها الإبر وهى نبتة تمتد ملتصقة بالأرض وشوكها يدمى الأقدام وهم ينتعلون مدايس صنعوها بأنفسهم من بقايا مطاط إطارات السيارات القديمة وهذه لا تحمى إلا باطن القدم؛ ولهذا فإن الشوك يجندل أطراف الأقدام والأصابع وتلك مشكلة أخرى ذلك أنهم عندما يعودون لا ينشغلون فقط بغسل ورتق الملابس وإنما فى قلع الشوك وقتل القمل وطرد البراغيث.

أما تلك العائلات التى بقيت فى القرية والتى تعانى الأمرين، الجوع وغياب العائل، وصارت أغلبها تعيش على ما يأتى من بيع نبات الحلفا، وهذه

أيضا صارت قليلة فإنها تنتظر العون من أولئك المغتربين، وكلما وصل عائد تجمعت لديه زوجات وأمهات وأطفال ذلك الغائب، فى البداية كانوا ينتظرون نقودا وأشياء صغيرة تفرح الأطفال ثم صاروا مرعوبين من أخبار الموت والانفجارات التى تحدث عندما عرفوا أن ذويهم يعملون فى تفكيك القنابل والألغام فى طبرق، ولم تعد النقود هى المنتظر فقط رغم الاحتياج الشديد وإنما صاروا يسألون عن الأموات والذين أضيروا فى الانفجارات وما إذا كانوا سيعودون أم لا، ولابد أن نتصور مقدار الفزع والهلع عندما تسمع العائلة أن عائلها الذى تنتظر منه القوت قد قتل فى انفجار وأنه دفن فى نفس المكان، وهكذا فقد كان الحزن غالبا على الفرح.

ولأن أخبار الكسب السريع صارت على كل لسان فإنه حتى أولئك الذين وجدوا بعض الموارد وإن كانت ضئيلة مثل حصاد الزرع ورعى الغنم تركوها وتوافدوا على طبرق وسوق العجاج، ولقد حدث مع ذينك الاثنين اللذين بقيا قرب أجدابيا أحدهما يحصد الزرع والآخر يرعى الغنم قد قررا الذهاب إلى طبرق فالأول الذى كان يحصد الزرع بجنيه وبضع مرطات من الشعير والقمح أتم الحصاد والدرس ووفر ما قيمته خمسة جنيهات بعث منها ثلاثة جنيهات لأهله وأبقى معه جنيهين عندما اتجه إلى طبرق مشيا على الأقدام وكانت مدته فى الحصاد والدرس ثلاثة أشهر أما الآخر فكان عليه أن ينتظر ثلاثة أشهر أخرى حسب اتفاقه مع صاحب الغنم وإلا فقد حقه فى الإيجار حتى يلتحق برفيقه، وكان يرى أن تلك الأشهر الثلاثة كأنها سنوات ثلاث فهو فى عجلة من الأمر وربما كان أجله يدفعه دفعا إلى حقول الألغام والقنابل، ورفيقه ذاك الذى سبقه كان حاله أفضل فقد كان يأكل ويشرب وينام على الدريس بعيدا عن خطر

القنابل لكن ذلك الجنيه لا يكفى وإذا كانت هناك فرص أفضل فليس على المرء أن ينتظر ويجب أن يستغلها، هكذا قال عندما توجه إلى طبرق فقد كان يسمع عن الكسب السريع، وربما لم يسمع عن الموت السريع والخطر، أو أنه لم يشأ أن يسمع عنها. ولم يمر وقت طويل حتى انضم إلى أولئك الناس فى سوق العجاج وتجهز بالقادومة والمقرض ووضع رأسه على أكفه (حياة أو موت) كانوا دائما يرددون هاتين الكلمتين.

ولكن كما يقال تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن، فلقد جاء الرد على رسالة عبد الله يبلغه أنه المبلغ قد وصل وأن أولاده بخير غير أن والدته قد قضت، عليها رحمة الله، ولقد نزل الخبر عليه كالصاعقة رغم اقتناعه بأن الموت حق وتلك إرادة الخالق إلا أنه كان أضعف من أن يحتمل ذلك الخبر المفاجئ، وقد اختفى ذلك البريق من عينيه وعبس فاغرا فاه حيث لفه صمت مطبق، وقد ركز عينيه على نقطة واحدة فى الأرض، لم يبك ولم يولول ولا حتى فارقت دمعة واحدة مآقيه وكان رفاقه فى حيرة من أمرهم شاخصين بأبصارهم محدقين فى رفيقهم الصامت المطأطئ الرأس فهم يريدونه أن يبكى، ذلك أن البكاء يخفف الألم لكنه لم يفعل، قال أحدهم، كلنا لها، إنا لله وإنا إليه راجعون.

اعترته رعشة حتى أنه لم يعد قادرا على الوقوف كأن شيئا ثقيلا جثم على كتفيه، جلس القرفصاء واضعا رأسه بين راحتيه مستعرضا شريطا طويلا من الأحداث، فقد كانت والدته تقول إنها لابد أن تلحق بزوجها خلال مدة قصيرة، وأنها توصيه بأن يقيم ختمة قرآنية على روحها كما فعل لأبيه، وها هى قد لحقت به دون أن يكون ابنها بجانبها ودون أن يستطيع إقامة الختمة على روحها.

يغالب الدموع فقد كان الخبر صاعقا قاسيا، هل يجب أن يعود إذ إن زوجته قد بقيت وحيدة؟ وإذا فعل سيكون مغالطا إذ ماذا سيجد وماذا سيفعل وكيف يطعم أطفاله؟ المثل يقول: العين بصيرة واليد قصيرة.

أضنته هذه التساؤلات والهواجس وأحس بأنه يختنق، وقد أظلمت الدنيا فى وجهه وانكمشت أمعاؤه كما سرت نار فى جسده وقد صار يرتعد ويختض وأغمى عليه ومافتئ يهذى ولم يسترد وعيه إلا فى المستشفى فكان إن وجد أحد رفاقه قريبا منه يطمئنه على أنه بخير وأنها أزمة وقد مرت وعلينا أن نقبل بإرادة الله التى لا راد لها، والحمد لله أن والدته قد توفيت على فراش الحلال ودفنت فى بلادها الشىء الذى قد لا يتوفر لأى منهم وهم يواجهون الخطر فى كل لحظة.

استعاد بعضا من عافيته وكان الطبيب قد قال له عندك فقر دم، همهم قائلا، ومن أين الدم؟ وكان يصر على الخروج فلا وقت للراحة ولكن الطبيب لم يوافق، عيناه كانتا غائرتين ويداه ترتعشان ووجهه يميل إلى الاصفرار وجسده مهزولا وكان يسعل سعالا متواصلا جافا وصوته واهن مبحوح، ومع ذلك كان عازما على ترك المستشفى لأنه لابد أن يعمل، لابد أن يلتحق برفاقه وإذا لم يعمل فلسوف يعجز عن دفع حتى نصيبه فى الأكل ناهيك عن إعانة أهله ولابد أن هناك من سيسافر إلى القرية وكيف سيكون حال خديجة وأطفاله عندما يجدون أنه لم يبعث شيئا، والمقلق جدا فى هذه المرحلة أن الذى لا يبعث مالا يعتقد أنه قد مات وأحيانا يقام العزاء فقط لمجرد الاعتقاد بأنه قد قتل، وخديجة لابد أنها قد توقفت عن اقتلاع وبيع الحلفا لأنها صارت تنتظر ما يبعث به زوجها إليها، وإذا لم يخرج فإنها وأطفاله سيجوعون فى وقت لم يعد فيه حتى الاستجداء

يطعم أحدا، ذلك أن الكل محتاج... بعد أيام مر عليه الطبيب وهو لا يمر إلا بعد عدة أيام، توسل إليه أن يوافق على خروجه وقال أنه بخير ولم يعد فى حاجة للعلاج.

وافق ذلك الطبيب لكنه أوصاه بأن يبتعد عن الانفعال وأن يأكل ويغتسل، تمتم، الذى يفك القنابل والألغام يموت عشر مرات فى اليوم، على أن تفكيك الألغام والقنابل ومواجهة الخطر هو الشىء الوحيد الذى يحول بين أطفاله والموت جوعا، لابد أن يعمل، وما أجمل أن تفرح خديجة ويضحك الأطفال، ما أعظم سعادته عندما يوفر لهم بضعة جنيهات بين الفينة والأخرى، لابد أن يحسّوا بأن والدهم يكسب وقادر على توفير لقمة العيش لهم فى وقت الشدة هذا، ذلك ما كان يفكر فيه وما يشغله، لا الانفعال ولا الأكل أو الاغتسال يعنى أى شىء ما لم يوفر الرزق لأهله ولو كان فى ذلك الموت، فهو يحس بأنه كما لو كان مع اسرته عندما يتلقون منه العون، عندما يشبع الأطفال وتهنأ الزوجة، كان يدمدم بهكذا كلمات وهو خارج من باب المستشفى العتيق، ينحدر وسط المدينة متجها ناحية الغرب إلى سوق العجاج، لم يعد يهرش كثيرا لأنهم فى المستشفى يرشونهم بدواء يقتل القمل، ليتهم يفعلون ذلك فى سوق العجاج الذى يعج بالبراغيث والقمل والبق، طافت على شفتيه ابتسامة هازئة وقال، لو جابوا دواء العالم كله ما قتل قمل وبراغيب وبق سوق العجاج.

عندما خرج من المستشفى وكان قد بقى هناك خمسة عشر يوما سمع أن كثيرين قد غابوا عن الدنيا فقد قتل من جماعة الكشك المحادى لجماعته ثلاثة رجال فى يوم واحد، اثنان قتلا بانفجار لغم والآخر قتل بانفجار قنبلة، آلمه ذلك رغم مسحة الفرح التى ظهرت على محياه عندما وجد رفاقه الثلاثة موجودين وبخير وإذ كان أحدهم قد زاره منذ أيام فى المستشفى بينما غاب عنه الآخران

بعض الوقت، وقد قال له ذلك الذى زاره أنهما بخير ولم يصدقه، طاف بذهنه الخوف من الموت والشك فى كل شىء، وقال فى نفسه، إذا كنت أنا هنا وقريب من رفاقى قد اعتقدت أن الاثنين اللذين لم أرهما لعدة أيام قد اعتقدت أنهما قتلا فكيف يكون الحال بالنسبة لأولئك الناس الذين لا يعلمون شيئا عن الذين يغيبون شهورا وربما سنوات؟

وفى تلك الليلة وهى الأولى بعد أن خرج من العلاج لم يستطع أن ينام بسبب قرص البراغيث ربما لأنه تنظف قليلا أثناء العلاج، قال له أحد رفاقه مازحا، دمك حلو ويظهر أن البراغيث تميز بين دماء الناس وتهجم على الحلو منها

صارت الحياة عادية مع الانفجارات والموت ولم يعد هناك إلا شيئان لا ثالث لهما عندما ينفجر لغم أو قنبلة، ميت يدفن ويقوم بذلك رفاقه حيث يجمعون شتات أعضائه ويردمونها فى نفس المكان ثم يباشرون عملهم، العمل ذاته الذى قتل رفيقهم، أو جريح ينقل إلى حيث العلاج فإذا وصل وضع على سرير أحيانًا بلا فراش وقطعت يده أو رجله إذا كانت أى منهما مكسورة أما إذا كانت مقطوعة أصلا فلا أكثر من شاش وقطن.

وكانت الانفجارات فى الفترة الأخيرة كثيرة بسبب من قنابل غير معروفة أو ألغام مخفية فى شكل خدع، يحدث الانفجار الذى يخطف السمع والبصر عندما يدوى، وكانت أغلب الانفجارات تحدث بسبب الاستخفاف بالخطر، وهذا يتمثل فى العناد والتنافس وبطبيعة الحال عدم معرفة النوع الجديد ذاك من القنابل، كأن يقول الواحد للآخر أنا استطيع أن أفكك مائة قنبلة فى صباح يوم واحد، ويقول الثانى أنا أقدر على ذلك ويمكن أن أفكك أكثر وفى وقت

أسرع، ومن هنا يحدث التنافس على تقبل الخطر وحتى الموت، به إن الاستخفاف وصل إلى حد إخفاء الألم وكظم المشاعر فى حالة الإصابة إذ إنهم صاروا يتحدثون عن الشجاعة، شجاعة هذا وخوف أو جبن ذاك، وأن فلانا قطعت يده أو رجله ولم يرف له جفن، يا الله ما أشجعه، وليس هناك فى الغالب من لا يحفل بمثل هذا الثناء فلأن تكون شجاعا أفضل مائة مرة من أن تكون أو يقال عنك جبانا رعديدا، وقد يفضل الواحد منهم أن يموت ولا يهزأ به أحد عندما يعود إلى قريته ويرى الناس يصفونه بالجبن.

ويظهر أن تلك العنترية والعناد أمور موروثة إذ إنه من المعروف أن العرب يفخرون ويعتزون بالشجاعة وهو ما يظهر فى الأدبيات والموروثات والحكايا والتراث، وهؤلاء كانوا يسهرون الليالى قبل أن يجبرهم الفقر على ترك بلادهم، يسهرون على سماع حكايا وقصص الهلالية وينقسمون بين مؤيد ومعارض، بين مناصر ومخالف، ويستمر السمر معَ من يقرأ تلك الحكايا لشهور ويرددها الناس فى مناسباتهم إعجابا بأبى زيد الهلالى والخفاجى عامر أو غيرهما، وليس اكتساب البندقية والفرس فى وقت مبكر لكل ذكر إلا عنوانا لتلك الفروسية المتأصلة والموروثة عن جد عن أب إلى ابن.. عبد الله ورفاقه كانوا قد خرجوا ثلاث مرات وقتما كان هو فى المستشفى، مرة كانت فى منطقة قريبة ولم يمكثوا هناك غير يوم واحد والأخريان فى منطقة العدم وبقوا خمسة أيام فى كل مرة وكانت حصيلتهم لا بأس بها والآن هم يفكرون فى رحلة قد تطول ويظهر أنه ربما لن يستطيع الخروج معهم ولهذا فإنه يمكن أن يبقى وهم يعفونه من نصيبه فى مصاريف الأكل.

كانت هذه الكلمات الأخيرة قد وقعت على سمعه مدوية، نعفيك من ثمن الأكل .. أى أنه أصبح عالة عليهم، لقد جعلته الكلمات التى اعتبرها نابية جدا كما لو أنها سوط سودانى مد بقوة مع ظهره كما كان الطليان يجلدون الناس فى الميدان وامام الحضور انتقاما وتشفيا وتحقيرا، إنه شىء كئيب أن يحقّر الإنسان، أن يجلس دون عمل أو يكون عالة على الغير ينتظر العون وهو يضع يده تحت حنكه يرفع ويواطئ عينيه مستجديا، ذلك لن يحدث له حتى لو كان سيموت ..

صوت بومة آت من بعيد وهى لا بد أنها تقبع فى هيكل سيارة قديم إذ لا توجد خرابات فى تلك المنطقة ولا أماكن خوالى يعشش فيها البوم، صوت يتشاءم منه الناس مما ضاعف كآبة عبد الله، رد بحزم ..

لا بد أن أخرج، لا بد أن أعمل ولا يمكن أن أكون عالة على أحد، حاول الرفيق الثانى أن يهدئ من التوتر الظاهر فقال، إن المقصود أن ترتاح إذ ربما تنتكس وخصوصا أن الطقس يميل إلى البرودة ونحن فى أواخر الخريف، أما الثالث فقد كان يتثاءب وقد تملل فى مكانه قليلا ثم راق له أن يغير جو المناقشة فقبض على المقرونة وبدأ يطربهم بصوت شجى رخيم وكان كأنه يتكلم بلسانه لا يضرب بأصابعه على تلك الآلة، هدأت تلك الزوبعة وطابت الجلسة رغم تقافز البراغيث هنا وهناك وزيادة الهرش، وقد كانوا جلوسا أمام ذلك الكشك الذى صار يهتز من أثر ريح مفاجئة وتبين أن السماء قد تلبدت مشبعة برائحة المطر، رفع أحدهم رأسه ناظرا إلى السماء وقال: إن الغيوم تجرى قطعا وصار القمر يختفى، اضاف الثانى، إنها تجرى كما تجرى الأيام سريعة ..

ومع الليل وذلك الضوء الخافت المنبعث من نار كادت تنطفئ تكاثر الباعوض محدثا طنينا حادا حولهم فى ذلك المكان كأنما هناك دماء غزيرة فى

تلك الهياكل المصابة أصلا بفقر الدم، ورأوا أن يدخلوا إلى الكشك إلا أن أحدهم قال إن الريح يبعد الباعوض ومن الأفضل أن نبقى هنا لأن دخولنا سوف لن يحمينا منه، علق آخر، طنين الباعوض أهون من ذلك الذى يقرص بلا طنين ولا صوت، البرغوث، ضحكوا .

عبد الله لم يكن مشاركا فى الضحك فلقد كان بعيدا وغير معنى بما قيل إذ لم يسمع تلك المزحة، فالباعوض يعض والبراغيث تقرص والأفكار تجلد وكلها هموم، لكنه كان بعيدا فى تلك القرية، كان يفكر فى تينك العينين السوداوين اللتين يراهما أجمل عينين فى الدنيا وذينك الطفلين الصغيرين اللذين لا بد إنهما يسألان عنه كل صباح ومساء، يشعر أنه يجب أن يعمل ويجب أن يعيش من أجلهما، انهما عصفوران صغيران فى عش يفتقد الأب، وحب الأبناء محفور فى القلوب يزهى الخاطر، وحقيقة أن الإنسان إذا ما قيل له فلان أحسن منك زعل أما إذا ما قيل له إن ابنك أحسن منك فرح، إنه يرى أن تلك حقيقة أبدية ..

تستبد به الأفكار والهواجس فيقرر أنه لابد أن يعمل، لا بد أن يوفر لتلك الأسرة الصغيرة عيشا كريما يتوقف قليلا، ثم يقول فى داخله بأسى، ولو من القنابل والألغام، إن لذة الحياة أن تحس بأنك قادر وأنك تقدم شيئا لأسرة أنت مسؤول عنها، يردد نفس العبارة، حياة أو موت ...

سمع ذات مرة من يقول إن الحياة فتيلة فى رأسها نار عندما ينتهى زيتها تنطفئ، وتلك حقيقة فهو لن يأسف إذا ما انطفأت لكن الأسف يكون شديدا إذا قعد وصار عالة على الغير ﴿ يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾[1] صدق الله العظيم.

(١) سورة آل عمران، الآية ٢٠٠ .

يتهيأ للنوم ولكن البرغوث اللعين . . .

فى الصباح الباكر يرتفع الأذان إذ إن فقيها كان قد جاء منذ أسبوعين وصار يؤم الناس للصلاة، وقد اختار ساحة قريبة من تلك الاكشاك وجمع مبلغا صغيرًا من المال اشترى به ثلاث حصران ليفرشها على تلك الأرض، يقول المؤذن، الصلاة خير من النوم، يتململ أغلب هؤلاء فى أماكنهم، منهم من لا يقوى على النهوض فى ذلك الصباح الباكر وبعضهم صار يهرش جسده عندما بدأ يتهيأ للصلاة، أحدهم عاد للنوم وهو يقول، الصلاة خير من النوم فعلا، ولكن النوم أيضا يريح الجسد المهدود، لكنه ما يلبث أن يتعوّذ من الشيطان وينهض ليؤدى الصلاة مع الجماعة ويدعو الله أن يفتح عليه بالخير والسلامة من الخطر ..

خرجت جماعات كل منها فى اتجاه رغم أن الغيوم قد تكثفت فى السماء فى ذلك اليوم، ومنهم عبد الله ورفاقه، وهؤلاء بدلا من أن يتجهوا بعيد رأوا أن الوقت غير مناسب للابتعاد ولأن الشتاء على الأبواب وهذا الفصل عادة ما يأخذ من الفصل الذى سبقه واللاحق له، وهكذا بدأت بوادر البرد والمطر وليس لديهم ما يقيهم لا من البرد ولا من المطر، ولا يمكنهم شراء ملابس أو أغطية، وقد اندلعت رياح عاتية كأنها تتحداهم وهى تصفر حتى لكأنها لن تهدأ أو تتوقف، ينتظرون قرب الطريق المؤدية إلى القاعدة الإنجليزية تحت شجرة تين تقع على يمين الطريق، ولقد كان هدفهم فى ذلك اليوم منطقة العدم، وهى تبعد حوالي ساعة إذا ما وجدوا وسيلة نقل، كان النهار قصيرا وسيكون أقصر بحلول الشتاء ولن يكون هنالك متسع من الوقت، ولربما يعجز الواحد منهم حتى عن تحصيل ما يكفى لأكله، وما كادوا يصلون المكان حتى سمعوا نداءات محمومة وأنينا متواصلا كان يخبو رويدا رويدا ولما اقتربوا وجدوا أن اثنين قد انفجر فيهما لغم

أحدهما مات على الفور والآخر أصيب بجروح وصار ينزف وهو الذى كان يئن ويتألم، ولدى هؤلاء قانون غير مكتوب أنهم لابد أن يقوموا باسعاف الجريح ودفن الميت متى وجدوه وسواء كانوا يعرفونه أم لا، هذا القانون غير المكتوب يلتزم به كل أولئك الذين يمارسون عملية البحث عن القنابل والألغام، تلك على اعتبار أن أيا منهم يكون معرضا لنفس الشىء ويحتاج لمن يسعفه، والمشكلة مع القتيل والجريح هذين أنهما فى وسط حقل من الألغام، وما كان لهؤلاء أن يتركوا الجريح بالذات وهو ينزف وقد يموت، وبحذر شديد دخل اثنان منهم وسط ذلك الحقل بينما انتظر الآخران بالقرب منهما لعل وعسى، خرجا بالجريح ولم يستطيعا جمع أشلاء ذلك القتيل لأنها تناثرت فى حقل الألغام ولو حاولوا لكانوا ربما تعرضوا جميعا لخطر انفجار أو انفجارات أخرى، خرجوا بالجريح لكنه توفى بعد تلك المخاطرة وقد دفنوا فى نفس المكان، وهكذا فقد ضاع الوقت وكان عليهم أن يعودوا ادراجهم قبل حلول الظلام واشتداد البرد، وكانت تلك بداية سيئة فى نهار غائم، إنهم يقتنعون بالقليل ولكن حتى هذا القليل أحيانا لا يتوفر وكل منهم يفكر فى أولئك الذين ينتظرون العون ولابد أنهم يبيتون على الطوى، وقد يقتسم المرء رغيف الخبز مع واحد أو اثنين لكنه لا يستطيع أن يفعل ذلك مع من يكون بعيدا فى بلد آخر..

فى المدن الشرقية، بنغازى وأجدابيا ودرنة استمرت حملة الشرطة وطرد عرب الغرب من تلك النواحى، وكالعادة تتم المطاردة والقبض والتحقيق ثم الطرد خارج الحدود وإن قد تطورت الإجراءات تلك فصار كل من لا يحمل تعريفا يقبض عليه وبعض هؤلاء لا يملكون حتى شهادة الميلاد ناهيك عن البطاقة أو الجواز وهى التى لا يسمعون بها من قبل، وفى كل أزمنة بطبيعة الحال يظهر

حذالقة يستغلونها فقد ظهرت مكاتب تصدر بطاقات عمل أو بطاقات تعريف مقابل دفع جنيه واحد عن كل بطاقة، والبطاقة يوضع عليها الاسم، أى اسم، ومكان العمل أو مكان الإقامة، وكذلك اسم الكفيل الوطنى، كأنما هؤلاء ليسوا وطنيين! ولكن صارت المشكلة فى دفع جنيه اذ من أين لهؤلاء أن يجدوا ذلك الجنيه السحرى الذى يعفيهم من الطرد والتحقيق وحتى الضرب والإهانة؟ مع أن أولئك الذين يتم طردهم ليس لهم مكان يذهبون إليه، ترميهم الشرطة خارج الحدود أى بعد القوس وتتركهم هناك، وهؤلاء لابد أن يعودوا مرة ثانية وقد يقبض عليهم مرة أخرى وهكذا دواليك، فلا يمكن لأحد منهم أن يعود إلى أهله خالي الوفاض، وحتى لو أراد أن يعود فهو لا يمكن أن يدفع أجرة الركوب ولا حتى ثمن رغيف خبز يأكله فى الطريق، لا يمكن لجائع أن ينضم إلى جوعى كى يموتوا جميعا، لا بد أن يبحث عن رزق مهما كانت وسائل القمع، أما الذين يمكن أن يعودوا فهم أولئك الذين نجوا من هول القنابل والألغام وتوفر لديهم بعض المال، وهؤلاء الذين يعودون إلى تلك القرية التى كانوا قد تركوها هم ثلاثة أنواع من الناس، شخص قطعت يده أو يداه ولم يعد فى إمكانه البقاء لأنه لا يستطيع تفكيك القنابل والألغام ولم يجد أى عمل يقوم به وغالبا ما يكون لا يملك شيئا من المال، وهكذا فإن رفاقه لأسباب إنسانية يجمعون له بضعة جنيهات ليعود بها، مساعدة إنسانية من أناس هم أنفسهم فى حاجة للمساعدة ولكن فى قلوب الفقراء يبقى هناك مخزون من الرحمة (لا يعرف الصبابة إلا من يعانيها) وهذا يعود ليواجه البؤس مع أوائلك الذين عاشوا أشد أنواع البؤس وهم يواجهون حتمية الموت جوعا ما لم يرحم العزيز الكريم، ونوع آخر هو الثانى يكون قد وفر

بعض المال ورغب أن يزور أهله لبعض الوقت ثم يعود إلى طبرق ويباشر نفس العمل، فإذا قتل يكون قد ودع أهله وذلك قدره وإن عاش وفر مبلغا آخر وقام بزيارة أخرى وهكذا، أما النوع الثالث فهو ذلك الأعزب الذى جاء إلى تلك البلاد قبل أن يتزوج ليجمع ما يمكن أن يساعده على إتمام نصف دينه، وهناك فى تلك القرية تنتظره شريكة المستقبل وهى غالبا ما تكون ابنة عمه (زواج الأقارب هو السائد فى مجتمع القرية) يعود ليتزوج ويقيم فرحا متواضعا إذ إن تلك القرية قد فقدت مظاهر الأفراح والمزارات التى كانت تقيمها منذ وقت طويل، لا أفراح مع الفقر، وكيف يكون الفرح والبطون جائعة ؟

لقد كانت الأفراح فى السنوات الغابرة بهجة ورونقًا، كانت النساء الشابات يتخضبن بالحناء ويرتدين أجمل ما لديهن من ثياب ويتعطرن بالبخور ويضعن حليهن، وتنشغل العجائز فى تسريح الشعر وتضخينه بزيت الزيتون بحيث تتهيأ البنيات للهد وعرض ذلك الشعر الطويل، والزغاريد تلعلع ويرتفع الغناء الغزلي الشجى بالغ الدلالة، ويتبارى الشعراء فى تقديم أبلغ ما نظموه من شعر يتناول جمال الشعر والقد والبشرة والعيون السود والوشام الأزرق على الجبين، ويرتدى الشباب كيطان الملف الطرابلسية والجرود البيضاء ليشاركوا فى الفرح، وربما يختارون شريكة العمر من تلك المناسبة، كما أن المتفننون فى المقرونة يتناوبون على تقديم اللحن الذى يدغدغ مشاعر النساء والرجال الكبار والصغار ويظهر فيها الأطفال بثياب جديدة، وتلمع حلى النساء من خواتم فضية فى الأصابع وصوالح معلقة قرب مفرق الرأس وفوق شعر أسود يتدلي فى شكل ضفائر كحزم السنابل، والأساور فى المعاصم المدهونة اللامعة والأقراط البيضاء تتدلي من الآذان وذلك الخرز الملون الذى تشريه النسوة من التجار اليهود

المتجولين يهتز متشابكا مع ضفائر الشعر الذى عادة ما يصل إلى الخصر، أما الشعرية فهى تتوزع فى شكل أفقى على الصدور الناهدة، ويأتى دور الطعام فيقدم اللحم المقطوع على المفاصل مع البازين أو الكسكسى، وبعدئذ تظهر الخيول بسروجها المطهمة بالفضة والملهاد فى الشارف، حيث يتمنطق الفرسان ببنادق إيطالية أم حريبا واللابس والطويلة مع الحلاط المصنوع من الجلد الطبيعى الأحمر وأمشاط الذخيرة اللامعة تصطف فيه من الكتف إلى الكتف، ويستمر الفرح سبعة أيام وسبع ليالي، هكذا كانت الأفراح والحياة، فأين هى الآن ؟

ونفس الشىء ينطبق على المزارات أيضا فقد اختفى الحصان الذى كان يربى فقط من أجل السباق والاستعراض فى هكذا مناسبات واختفى معه السرج المرصّع بالفضة ذلك أنه إذا كان الإنسان لم يعد يجد ما يأكل فكيف يكون الحال بالنسبة للحيوان، ولقد كان من العادة أثناء تلك الأيام الزاهية والسنوات السعيدة أن يقام السباق فى الشارف أثناء كل مزار ويحدث التنافس بين الفرسان فى استعراض أناقة ولياقة خيولهم وجمال سروجهم بينما تتجمع النسوة والأطفال والرجال على المرتفعات المحيطة بمكان السباق وتتعالي الزغاريد والهتاف والتصفيق لهذا الفارس أو ذلك، ويحصل عادة أحد الفرسان مع فرسه على شهرة وتمجيد يبقيان حديث الناس فى تلك القرية إلى أن تأتى مناسبة أخرى قد يبرز فيها فارس آخر تطغى شهرته على الأول وهكذا من مزار إلى مزار فى تنافس أخوى فروسى تظهر فيه القبيلة قوتها وقدرتها ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وءاخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون﴾[1] صدق الله العظيم .

---

(١) سورة الأنفال، الآية ٦٠ .

أما كاط الملف والجرد الأبيض والكبوس التونسى الداكن والبلغة المغزولة فقد حلت محلها اسمال بالية لا تقى من برد ولا تحمى من حر، ولقد كانت دورة حياتية حادة فى الاتجاه المعاكس ضاع فيها الشىء الكثير، وعلى الرغم من أن المال قد ضاع فإن وقفة العز والأنفة باقيان وهو ما يدفع الإنسان إلى مواجهة الموت بدلا من الاستجداء والمذلة إذ إنه أفضل للمرء أن يموت بدلا من أن يستعطى أو يتسوَّل هؤلاء لا يستعطون وإنما يقتحمون الخطر من أجل لقمة شريفة ..

ولم يكن الناس فى المناطق الأخرى بأفضل حالا من هؤلاء من حيث المعيشة وإن كانوا فى مأمن من أخطار القنابل والألغام، وفى المجمل فقد كانت ليبيا من أفقر البلدان العربية على أن سكان المدن والبلدان الكبيرة كانوا أوفر حظًّا فى التعليم إذ كانت هناك بعض المدارس. أما فى القرى، فلم يكن هناك تعليم بالمعنى المفهوم غير تعليم القرآن الكريم الذى يقوم به بعض الفقهاء فى الخلاوى وهى قليلة أيضا، ذلك أن هؤلاء الفقهاء صاروا يهاجرون بحثا عن الرزق، وقد اتجهوا شرقا هم أيضا، كما أن الأطفال لا يستمرون فى تعلم القرآن الكريم نظرا لفقر ذويهم الذين يكلفونهم ببعض المناشط الأخرى أو يتركونهم يلعبون دون أن يذهبوا إلى الفقيه، حيث لم يعد هناك ما يقدمه الطفل وقت الختمة ..

وفى مدارس المدن كان يقوم بالتعليم مدرسون غالبا يأتون من مصر فى شكل منح تقدمها مصر الشقيقة مع الكتب والكراسات الشىء الذى لا ينساه الليبيون والذى يجب أن يعيه أولئك الذين لم يعاصروا تلك الحقبة من الزمن، ومصر أيضا كانت فقيرة ولكن هبة النيل تجود دائما وقد حماها الله ﴿ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين﴾[1] .

---

(١) سورة يوسف، الآية ٩٩ .

ورغم كل الظروف ومغريات الهجرة فإن ذلك الفقيه الصالح الذى تعلم القرآن على يديه أغلب أهل القرية رحمه الله رحمة واسعة صمد ولم يغادر مسجده الذى قضى عمره يؤذن ويؤم الناس فيه، ولا تأخر أو تغيب عن خلوة تعليم القرآن حتى توفاه الله، وكان ابنا عبد الله الاثنان قد التحقا بخلوة ذلك الفقيه يتعلمون مبادئ القراءة والكتابة، ويحفظون القرآن الكريم الشىء الذى أسعده عندما علم به، ولقد أدرك هؤلاء الناس رغم فقرهم وظروف حياتهم المعيشية الصعبة وأمية أغلبهم، أدركوا أن المستقبل للعلم والثقافة حتى أن ذلك الرجل الذى استقر فى بنغازى وظل يعمل بأجر قدره أربعة عشر قرشا لمدة اثنتى عشرة ساعة فى اليوم كان يرفض أن يسمح لابنه الوحيد بأن ينشغل فى أى شىء غير الدراسة على الرغم من أن بعض أقاربه كانوا يقولون له لا بد أن يساعدك ابنك، فلو اشتغل مثل بقية الأطفال لجاءك بعشرة قروش فى اليوم على الأقل الشىء الذى يساعد فى مواجهة صعاب الحياة فى هذا البلد، كان يقول أنا أريده أن يدرس فقط وعندما كان يختلى بابنه يقول له لن أسامحك إذا تركت التعليم فى أى وقت من مراحل حياتك، وأنا أتعب طول النهار من أجل أن تدرس وتتعلم، وإذا وفقك الله تكون عالما يفيد ويستفيد (اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد).

وفد فصل الشتاء على تلك المنطقة وكان سوق العجاج يغمره التراب صيفا والرطوبة والذباب خريفا والمياه شتاًء كما تلفه العتمة والظلام ليلا وقانونه غير المكتوب والمتعارف عليه فى الإقامة والتعامل بين هؤلاء الناس أن يهجعوا إلى الراحة مبكرا ويستيقظوا أيضا مبكرا، على أن صقيع هذه المنطقة يصل إلى العظام خصوصا وهم يواجهونه بهدوم مهلهلة وبطون خاوية وقلق دائم .

وفى فصل الشتاء كما هى العادة يخيم ظلام الليل سريعا ويقصر النهار وغالبا ما تكون السماء مغطاة بالسحب وتغرق تلك الأكواخ فى قذارة ووحل ومستنقعات آسنة، ولا يتوقف المطر ليلا ولابد للواحد من هؤلاء أن ينتقل بين ركن وآخر فى الكوخ إذا وجد متسعا فى المكان، ذلك أن سقف الساج الصدئ لا يقيهم من الرشح، وكان عبد الله فى تلك الليلة الشتوية يقف أمام الكوخ متلفعا بجرد قديم أجرد كأنه ينتظر زائرًا مهما على الرغم من أن أسنانه كانت تصطك من البرد، برد من الخارج وبرد من الداخل فالبطن خاوية، وكان يرفع رأسه إلى السماء بين الفينة والأخرى فيرى القمر يتوق بخجل ويعود فيختفى اذ تغمره السحب بسرعة وهى تتحرك فى اتجاه الشرق، ولم يكن وحده الذى صار يواجه الصعاب وينتابه القلق إذ إن ذلك الطقس يحول بينهم وبين الكسب الشىء الذى يجعلهم غير قادرين على توفير ما يمكن أن يبعث إلى أسرهم، لكنه كان مع ذلك أكثرهم قلقا حتى أنه لم يعد يجلس إلا على رؤوس أصابع رجليه وحتى أثناء الأكل، كما أنه يصر ويحض رفاقه على الخروج للعمل مهما كانت حالة الطقس، لكنهم يتمنعون إذ لا سبيل إلى ذلك، لأن الخطر يكون محدقا بهم فى كل مكان حيث إن المطر يخفى مواقع الأقدام وأماكن الألغام وهم أدرى بذلك العمل لأنهم أقدم منه وأكثر خبرة وإذا أراد أن يخرج منفردا فله أن يفعل وإن كان لا أحد ينصحه إلا إذا أراد أن ينتحر فعلا، أما ذلك الفقيه الذى وفد منذ فترة ليست بالطويلة على سوق العجاج والذى أقام الصلاة فى الساحة وحافظ عليها فى البداية فقد صار يكتب الأحجبة والتعاويذ ويظهر أنه من أتباع الطريقة التيجانية وأنشأ جماعة للذكر تستعمل الدف والبنادير كل ليلة جمعة، ويقومون بالذكر فى تلحين إيقاعى جماعى لأذكار موزونة ملحنة، والتيجانى الذى

يتبعه الفقيه هو يوسف بن بشير التيجانى السودانى صاحب الدعوة الرومانسية صاحب الشعر التأملى الذى يصور الشك واليقين، كان هذا الفقيه كلما رأى جماعة تتهيأ للخروج والعمل يقول، مهلا أيها الناس فإنكم لا يمكن أن تخدموا سيدين (الدين والدنيا) وقد أضاف فسحة للطرب مجىء أحد شعرائهم وهو رجل كفيف البصر يصحبه ابنه الصغير الذى كان يقوده فى حله وترحاله، وهذا يتعيش من شعره ويتنقل بين أقاربه الذين يعملون فى تلك المناطق يطلب العون منهم وينشدهم أشعاره الغزلية أحيانا والهجائية أحيانا أخرى، وهم يقولون عن أى شاعر أنه (فم سوء) أى أنه هجاء ولابد من مجاملته لأنه إذا عاد إلى القرية وهجا أحدا فإن شعره يتناقله الجميع ويصبح الشخص مذغة فى الأفواه، وهذا الشاعر لا يفعل شيئا فهو نائم آكل لدى هذه الجماعة وتلك، وعلى أى حال فهو موضع ترحيب دائما ففى الشدائد يحتاج الإنسان إلى من يعزيه وأحيانا يطربه على الرغم من أن الطرب بعيد عنهم فى غالب الأيام.

★ ★ ★

الفصل الخامس

طريق العودة ... معاناة ما بعد المعاناة
من ساحة الموت إلى ساحة العجز ...
.. .إنسان ميت أو نصف ميت

رجعت من الأمصار من بعد واصل
وكنت شريدا فى التهائم والنجد

صفوان الأنصاري

الواقع أن الشريد فى حالة هؤلاء كان شريدا بين العدم الحكيم والجبانا ...

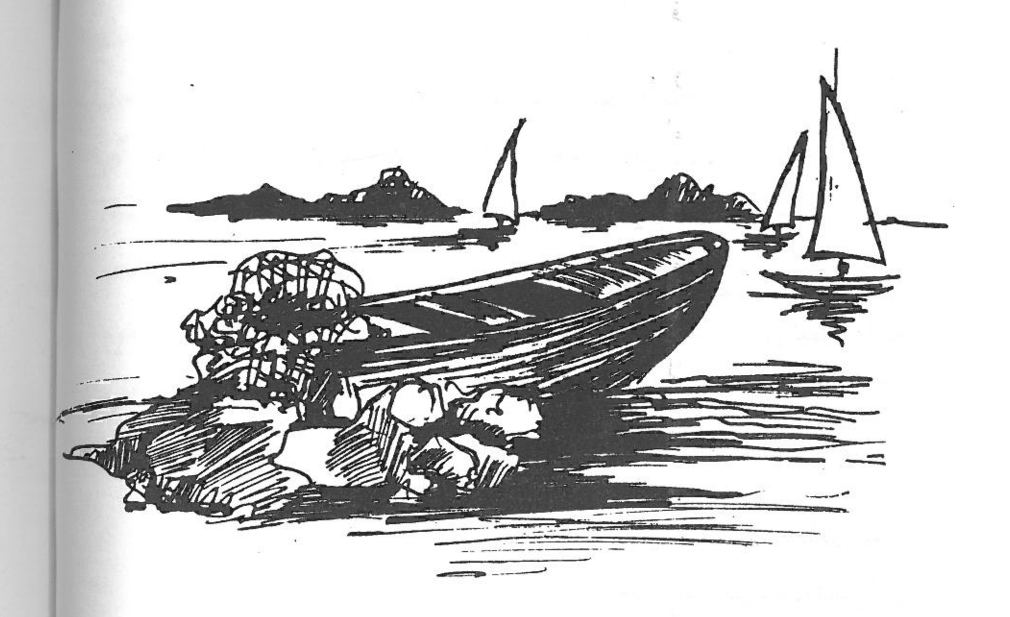
وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه:

احتج إلى من شئت تكن أسيره
واستغن عمن شئت تكن نظيره
وأحسن إلى من شئت تكن أميره

لقد صدق أمير المؤمنين فيما قال وإن كانت قولته (والله لو كان الفقر رجلا لقتلته بسيفى) أبلغ بالنسبة لهؤلاء ...

اشتهر سوق العجاج وصار يكبر وقد تناثرت الأكواخ فى تلك الأرض الترابية المنبسطة فأصبح الزوار الباحثون عن رزق يتوافدون وصار لكل مجموعة جديدة كوخها، وحتى براميل القطران أصبح لها سوق تباع فيه ويرتزق منها بعض الناس، وهؤلاء يقومون بشق جوانب البراميل مستعملين فؤوسا حادة ذات شفرة فى جانب واحد بحيث يمكن مد الواحد منها ليكون شريحة ساج تصلح لسقف الكوخ إذا وضعت فى شكل أفقى مع غيرها، كما تصلح لجوانب الكوخ إذا وضعت فى شكل رأسى، كما صارت عملية تفكيك القنابل والألغام حرفة يتقنها أولئك الناس الذين قضوا فترات طويلة فى ممارسة هذا العمل، كما امتدت الخبرة إلى أماكن العمل التى يوجد أو يتوقع أن يوجد بها كثير من مخلفات الحرب وتقل فيها الخطورة من الألغام وخصوصا تلك المفخخة والمموهة، وبكثرة وازدياد أولئك الذين يتهافتون على مكان مخلفات الحرب ويمارسون عملية تفكيك القنابل والألغام تزايد عدد الذين يعودون إلى تلك القرية التى كانوا قد غادروها وقد فقدوا أطرافا من أجسادهم، هذا قطعت رجله وذاك يده وآخر فقد العين واليد أو اليد والرجل وصار مألوفا أن يرى أناس يهكعون على خشبة وذوو أكمام ضامرة لا يد فيها.

أما أولئك القادمون الجدد فقد اعتقدوا أن الغنائم متوفرة وسهلة وخصوصا فى العدم وبئر حكيم وإن كل ما يحتاجه الواحد منهم هو القادومة والمقرض وقليل من الصبر والشجاعة، ولقد طغت حالة الفقر وشهوة الحصول على بعض



النقـود من بيع الحـديد والنحـاس والألومنيـوم على حـاسـة الخوف والحـذر؛ ذلك أنه إذا كانت الدنيا قد قلبت لهم ظهر المجن فى تلك القرية أو غيرها فتغيير السروج فيه راحة كما يقول المثل الشعبى، أما ذلك الفقيه الذى وفد على تلك الساحة وهو أيضا يسترزق وإن بطريقة أخرى فقد كان يقول، إن الدنيا على قرن ثور فإذا حرك رأسه اهتزت ولولا لطف الله بعباده لصار عاليها واطيها، فامشوا فى الأرض وكلوا من رزقه، ﴿ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفا وطمعا إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾[١] صدق الله العظيم.

ولقد ظهرت فى تلك الأثناء فرص أخرى لتجميع مخلفات الحرب من حديد ونحاس وغيره، وكانت هذه المرة فى البحر وليس فى البر، والشواطئ طويلة كما أن المعارك الحربية البحرية أيضا كانت كثيرة، وليس من السهل العمل فى البحر إلا لمن أتقن العوم والسباحة والغطس، وتكونت مجموعات تبحث وتنقب فى البحر عن الذخائر المردومة تحت المياه، ومن الغريب أن يتجه هؤلاء الى البحر الذى لم يألفوه ولا هم من رواده فى السابق حتى أن بعضهم لم يعرف البحر على الإطلاق لكن روح التحدى والمغامرة وقبول التعامل مع الأخطار كانت تدفعهم دائما الى المجهول.

فالمجموعة الأولى التى بدأت فى تلك المغامرة كانت تتكون من ثمانية رجال تعاونوا على الحصول على قارب قديم، وكان أحدهم فقط يعرف السباحة والقارب كان عبارة عن مجموعة ألواح خشبية مقوسة تشبه أضلاع الصدر مدقوقة مع بعضها حول قاعدة وقوائم، ومعه مجدافان، وعندما أدخل الى البحر

---

(١) سورة الأعراف، الآية ٥٦.

كانت المياه تتسرب الى داخله وكان عليهم من وقت الى آخر نضح تلك المياه، وليروا ما تحت الماء احتاجوا لمرآة ولا يتوفر المال لشراء مرآة ولهذا جاءوا بعلبة دائرية قطر قاعدتها حوالى عشرة سنتيمترات وأزالوا القعر والغطاء الدائريين ووضعوا لوحا من الزجاج دائريا مكان القعر وقد ثبتوه بمادة لاصقة ودخلوا البحر بتلك العدة وتكفل كل منهم بعمل محدد حسب رغبة ذلك الوحيد الذى يعرف السباحة ويقولون عنه أنه الريس.

اثنان للتجديف وواحد يمسك بالجوانب العليا للمرآة التى صنعوها بينما يضع قعرها الزجاجى على سطح الماء ويكون مصلوبا نصفه الأعلى على حافة القارب، وهذا لا بد أن يكون الريس الذى يصلب رأسه على تلك المرآة ليرى ما تحت البحر ويأمر بما يجب، كما تزودوا بحبال لاستعمالها فى الغطس أى أن الذى يطلب منه الغطس يربط حبلا فى وسطه ويمسك بحبل ثان فى يده ثم يرمى بنفسه الى الماء ليستعمل الحبل الذى فى يده لنقل الحديد أو النحاس الذى يجده، وبينما يستعين بالحبل المربوط فى وسطه بالعودة الى القارب على اعتبار أنه لا يعرف السباحة، هكذا بالضبط، رجل لا يعرف السباحة يقفز فى البحر العميق معتمدا على حبل مربوط فى أحد جوانب القارب لو انفك الحبل لسبب من الأسباب بقى تحت الماء الى الأبد، كـان الريس هو الذى يأمر ويقرر على الآخرين الصمت والقبول برأيه لا يناقشه أحد منهم فهو الذى يعرف البحر، وكان حظهم وافرا منذ البداية، وكان الريس يعتمد على صبر وشجاعة كل واحد من جماعته، والشجاعة هى القفز فى البحر والوصول الى الحديد المردوم فى الأعماق وربطه فى الحبل بحيث يقوم آخرون بجره الى أعلى، كانوا يعملون فى أيام وليالى الشتاء يهبط ويصعد الواحد فى ماء بارد وليس لديه ما يقيه من البرد

القارس.. يخرجون من رحلة البحر منهكين من البرد والجوع ويعودون إليه وهم فى نفس الحال فلا سكن يقى ولا لباس يدفئ ولا أكل ينشط ويحمى، ولكنها ظروف الحياة التى لا بد أن يواجهوها، وعندما تتجمع الصعاب الثلاث وهى الأساسية فى حياة الإنسان غالبا، السكن والملبس والطعام وكلها أقل من القليل لحياة الإنسان يحدث المكروه.

كان البرد القارس فى مياه عميقة يجمد أطراف ذلك الذى يغطس فتراه يرتعش ويختص عندما يصعد الى القارب وينكمش كدودة الوحل، يضم يديه وركبتيه الى صدره وهو يحاول التلفع بما يجد، قطعة قماش أو جزء من بطانية قديمة أو شوال خيش الى أن يطلب منه الرايس القفز مرة أخرى، وغالبا ما يقفز الريس نفسه مع كل واحد منهم إذا وجد أن مخلفات الحرب تحت الماء كثيرة وهو لا يحتاج الى حبل يربط به، كانوا يضربون به المثل فى سرعة الغطس والنزول الى أعماق البحر كأنما هو لا يتنفس أو ربما لديه القدرة على التنفس تحت الماء، هكذا يقولون عنه إعجابا، إنه الريس.

وعندما يعود الريس الى داره وهى عبارة عن حجرة واحدة محاطة بسور على أرض سبخة ليس فيها ماء ولا إضاءة وأكثر ما استطاع الرايس أن يوفره فنارة كاز ظهرت حديثا فى البلاد يسمونها (فنارة ريح) ووابور كاز وطنجرة وقصعة وحصير وبطانية قديمة وجرد قديم جاء به على ظهره عندما غادر القرية متجها الى بنغازى، أما امرأته فكانت تتلفع بملحفة فقط وكان معهم براد للشاى وعدة طاسات صغيرة أيضا جاءوا بها من القرية، كان عندما يعود يقول لزوجه دهنينى بزيت الشيح، وهو عبارة عن قارورة صغيرة يشتريها بثلاثة قروش من عطار تخصص فى بيع أنواع من الأعشاب.

بقية الذين يعملون مع الرايس جميعهم بلا عائلات، وكان يحلو له أحيانا وخصوصا فى أيام الجمع أن يعزمهم على أكلة بازين، والرايس لا يتحدث إلا عن البحر إنه يحب البحر لأنه ربما يجيد الغطس، يقول لقد رهنا مصيرنا للبحر وفيه لا ينافسنا أحد وليس هناك فى الوقت الحاضر من يوليه أى اهتمام وتلك فرصة لنا، فى اليوم الذى يعزم فيه رفاقه على البازين يذهب الى دكان متواضع فى المنطقة يشترى منه احتياجاته بالدين ويدفع عندما يتيسر الحال، فى تلك المناسبة يطلب مائة غرام زيت تريبيا (لا أحد يعرف مما يستخرج ذلك النوع من الزيت) لكنه رخيص وهو المتوفر، وثلاث ملاعق معجون طماطم ونصف قرش مسحوق فلفل أحمر وأربع رؤوس بصل جاف وبمبلغ أربعة قروش سكر وشاى أما دقيق الشعير وهو اللازم للبازين فإنه موجود لديه إذ اعتاد أن يشترى الشعير وهو المأكول الرئيسى أو ربما الوحيد، يشترى عادة مرطة شعير فى الشهر وبعد أن يتم تنظيفه تقوم زوجته برحيه وغربلته، أما اللحم فهو لا يتوفر إلا كل عدة شهور وأحيانا بعض السمك رغم أنهم لا يحبونه فالبدوى لم يألف لحوم البحر، والفاكهة ترف لا يحلم به أمثال هؤلاء الناس.

استمر الرايس الغطاس مع جماعته وكان محصول الحديد والنحاس وفيرا وكثيرا لكن وكيل اليهودى (بيو ناحوم) كان يخصم ربع الوزن لأنه يقول أن حديد البحر كثير الصدأ، إلا أن الوفر صار قليلا بعد أن أصيب الرايس ببرد شديد فى رجليه ويديه من أثر الغطس المتكرر وبرودة مياه البحر، وبعد مدة لم تطل عجز عن الحركة وصارت رجلاه متصلبة كقرون الكباش ثم حدث انكماش فى أصابع الرجلين، التوت الأصابع فزاد التدهين بزيت الشيح، انكمشت أصابع اليدين وصارت مثل الكاوتش المحروق بالنار وعجز تماما عن العمل ثم عن الحركة

وهو الآن ومنذ ثلاثين سنة على كرسى متحرك، لكنه يقول الحمد لله الأولاد كبروا وتعلموا وصاروا يعملون وأنا لا أحرص على شىء غير أداء فرائض الصلاة منتظرا لقاء خالقى راضيا هانئا، ﴿ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شىء عليم﴾[1] صدق الله مولانا العظيم.

وكان ذلك اليهودى (بيو ناحوم) الذى يشترى مخلفات الحرب العالمية الثانية فى ليبيا يهودياً متحمسا، ولأنه إيطالى الجنسية فقد استطاع أن يحصل على موافقة من الإدارة البريطانية بشراء وتصدير مخلفات تلك الحرب الى إيطاليا، وحقيقة الأمر أنها كانت تذهب الى فلسطين أى الى حكومة بلاده، وهو يدير أعماله من روما عن طريق وكلاء ليبيين فى كلِّ المدن الليبية ولم يقتصر عمله على تلك المخلفات وإنما كانت فيما يظهر مهمة سياسية غير تلك التجارية إذ إنه كان يبث الإشاعات عن طريق أولئك الوكلاء من أجل تهجير يهود ليبيا، فقد كان يقول إن هؤلاء اليهود جواسيس وإن أقاربهم هناك فى فلسطين يعتدون بل يقتلون العرب المسلمين ولهذا يجب قتلهم وحرق محالهم وانهاء وجودهم فى هذه البلاد الطيبة، وبحسن النوايا وتلك الحمية العربية الإسلامية كان الشباب يقومون بما أراده ذلك اليهودى فحدث تهجير أولئك اليهود، ولا يعتقد أن الإدارة البريطانية كانت بعيدة عن ذلك العمل وهى صاحبة الحول والطول فى البلاد.

تفرق البحارة الذين كانوا يرتزقون من وراء هذا الغواص الذى عجز تماما عن الحركة، وكل الذى فعلوه أنهم التحقوا بأولئك الذين يعملون فى تفكيك القنابل والألغام بمنطقة طبرق وبئر حكيم والعدم، بينما تحول ذلك القارب الذى يمثل أملا لجميعهم فى الرزق من مخلفات الحرب القابعة فى قاع البحر إلى كومة

(١) سورة الأعراف، الآية ١١ .

خشب أسود مرمية على الشاطئ، واجه ذلك البحار المسكين وأهله الفاجعة إذ تحول الرجل الذى كان مثالا يحتذى فى الغوص والسباحة الى أقل من نصف إنسان بسبب عجزه الأبدى ولربما كانت نبوءته السابقة قد تلبسته عندما قال إننا نرهن مصائرنا للبحر.

وفى تلك القرية بساحة الشارف التى كانت أشهر مكان يتنافس فيه الفرسان بخيول السباق صار الأطفال يلعبون الكعب وكانوا جميعا حفاة تغطى أجسادهم ملابس بسيطة وهى عبارة عن سورية وسروال من كتان أبيض مهلهلة وأغلب السراويل ممزقة من عند الركب، الكعب بعضه ملون وقد أصبح نادرا إذ إنه كان يؤخذ من كعوب الأغنام عندما تذبح وهذه فقدت منذ حل الجفاف والتصحر بالبلاد، ولهذا السبب صارت عزيزة بالنسبة للاعبيها، هذه مجموعة أما المجموعة الأخرى فى نفس المكان فقد كانت تلعب ويتدافع أفرادها بالمناكب ويتصايحون فى تنافس على تسديد الأهداف، من يستطيع أن يوصل تلك الكرة الصغيرة المصنوعة من بضع خرق مصرورة مع بعضها، واللعبة تسمى (شاش) وهى مشابهة للعبة كرة اليد، وحدث أن تشاجر اثنان من الأطفال عاير أحدهما الثانى هازئا منه لأن والده عندما انقطعت يده بينما كان يفك قنبلة فى طبرق (يقولون تبرك) لا ينطقون الطاء ويجىء القاف بدلا من الكاف، أن أباه كان يصرخ وذلك عار ما بعده عار، أيصرخ الرجل من قطع يده؟

فيرد الثانى ناكرا مستنكرا هذا الهراء مقسما أن والده ليس فقط يده وإنما لو قطعت حتى رجله معها ما صرخ ولا حتى تألم.

يشتد النقاش والتلاسن ويحدث العراك والتشابك بالأيدى هذا يهاجم وذاك يدافع فلا أحد يقبل العار، يتجمع الآخرون ليفصلوا بين الاثنين لكن

التلاسن ظل مستمرا والصراخ عاليا وحتى البكاء فقد أهين هذا الطرف وتحدى الطرف الأخر، قال واحد من الأطفال، إن الخبر لن يخفى طويلا وسيأتى أحد من هناك ونسمع الحقيقة، وبعد انتهاء التلاسن والهزء قرر الوسطاء انتظار الخبر الأكيد من أول عائد تراهنوا على (حارة دحى) فإذا تحقق وكان الخبر صحيحا وأن والد أحمد فعلا كان يصرخ عندما انقطعت يده اعتبر (دلالا) ووسم ابنه بذلك أما إذا جاء الخبر عكس ما قيل حصل أحمد على حارة الدحى من خميس وصار ابن الشجاع ووقع العيب على خصمه، انتهى الخلاف الى أن يأتى الخبر اليقين.

بعد أن عاد أحمد الى أمه قبيل الظهيرة ذكر لها ما حدث بينه وبين خميس ذلك الولد الذى عيره بأن والده دلال بسبب من أنه قد صرخ عندما قطعت يده، وأضاف بحماس، إنه تعارك معه رافضا أن يتهم والده بشىء من ذلك الجبن، وأن والده لا يمكن أن يصرخ حتى ولو قطع رأسه !

انفجعت الأم وهى تقول، بعيد السوء يا أحمد، إذا انقطع الرأس انقطع الرزق وأبوك ليس جبانا، لا يمكن أن يكون دلالا.

أجاب الطفل، موش مهم قطع الرأس المهم أن لا يكون دلالا وإلا قالوا عنى ابن الدلال، وقبل أن ينفصل الاشتباك كانت شجة العراك قد وصلت الى فريق الكرة فتجمعوا ليعرفوا ما الذى يجرى وعندما عرفوا الخبر انقسموا الى فريقين، هذا مع أحمد وذاك مع خميس، هذا يؤكد وذاك ينفى أن يحدث شىء من ذلك، وكاد الأمر أن يصل الى التشابك بالأيدى والعراك بين الفريقين لولا أن تدخل أحمد الذى أكد أن والده ليس دلالا ولكن (الميه تكذب الغطاس) سيأتى الخبر وتعرفوا الحقيقة وهكذا فقد تراهن الفريقان على خمسين كعبة يقدمها الفريق الخاسر، انتقل الخبر الى الأهل فى تلك الدواميس وصار حديثا

شاغلا تتسامر به النساء، ماذا قال خميس وكيف رد أحمد ومن كان على حق وهل يعقل أن رجلا قطعت يده يمكن أن يصرخ؟ والله إن فلانا قطعت رجله وتهرأ جسده من الشظايا وما سمع له أحد أنينا ولا حتى رفت عينيه، وفلان كسرت رجله ولأنه كان يزحف متجها الى الطريق العام وأعاقته تلك الرجل المكسورة فما كان منه الا أن تناول من مخلاته موسا وقطع بقية أسلاك الرجل المقطوعة والتى كان يجرها جرا ثم ربط فخذه بعمامته واستمر يزحف، وحتى أنه لم يرض أن يترك ذلك الجزء الذى قطعه من رجله بحيث يأكله الذئب فحفر حفرة فى الأرض بذلك الموس ودفنها، ورغم نزيف الدم فقد صبر الى أن قرأ سورة الفاتحة على رجله التى دفنها ثم واصل الزحف الى أن وصل الطريق العام ونقلته سيارة الى المستشفى وقد عولج وعاش بعد ذلك.

هكذا تبادلت النسوة أحاديث الشجاعة والصبر وما أكثر كلام النساء فى هذه الحالة وغيرها، لكن عجوزا طاعنة فى السن كانت تستمع ولم تشارك فى الحديث وإنما كانت دموعها منهالة فى بكاء صامت إذ قتل منذ ثلاثة شهور أحد أبنائها إثر انفجار قنبلة لعينة هناك فى (تبرك) لم تنطق الطاء، وهى خائفة على ابنها الثانى الذى مازال هناك ويقوم بتفكيك القنابل رغم مقتل شقيقه، تنهدت وقالت، أيه اللى إيدا فى النار موش زى اللى إيدا فى الميه ردت واحدة، منوا اللى موش إيديه فى النار يا خالتى سدينا ؟

عندما نام أحمد فى تلك الليلة بعد العراك صار يحلم متخوفا وهو يتقلب على الأرض الخشنة فى الداموس، إن أباه لا يمكن أن يكون جبانا ولا يستطيع خميس أن يسميه ابن الدلال، كيف يكون أبوه جبانا وهو يفكك القنابل

والألغام منذ مدة ويبعث من وقت لآخر نقودا، يتململ ويشهق وهو نائم، ماذا يكون عليه حاله إذا ما جاء الخبر مؤكدا لما قال خميس؟

سوف لن يلعب الكعب ولا الكرة فى الشارف ولا فى أى مكان مع أقرانه لأنهم سينادونه باسم ابن الدلال أو حتى أحمد الدلال، لأن من يكون أبوه دلالا لابد أن يكون دلالا رعديدا، يصرخ: لن ألعب الكعب بعد ذلك، تستيقظ أمه، تسمى باسم الله خيرك يا أحمد؟ ينهض ويسألها: هل جاء أبى ؟

تسمى مرة ثانية باسم الله، نام يا بنى ولا تخف سوف تربح الرهان، يتمدد كما كان على أرض الداموس التى صارت مبللة من أثر العرق، وينام، لن يكون ابن دلال.

ولم يكن هناك من حديث خلال أيام إلا أولئك الرجال ومن منهم كان شجاعا ومن لم يكنه، وكلما شغل الناس حدث ما نسجت الحكايا وتطورت الروايات كما لو كان قطع اليد أو الرجل أو حتى الانفجار شيئا طبيعيا بينما غير الطبيعى هو الجبن فمن تقطع يده أو رجله لا يجب أن يظهر منه حتى مجرد التألم، وبطبيعة الحال فإن مثل هذا المجتمع الصغير والذى تأثر أفراده بقصص الهلالية وتعودوا على الفروسية متمثلة فى الفرس والبندقية وهما أول ما يفكر فيه الإنسان هنا لا يمكن لأحد منه أن يقبل بأن ينسب إليه الخوف كأن يقال ان فلان دلال، وحتى أولئك النساء اللواتى يلتقين عند عين الماء فى مسلغين فإنهن فى ذهابهن وإيابهن لا حديث لهن إلا عن الألغام والقنابل وشجاعة الرجال وماذا حدث مع فلان وفلان وعلان.

وهذا الذى يجرى على ألسنة الناس فى تلك القرية القابعة فى قمة جبل نفوسه على بعد قرابة ألفى كيلومترا عن طبرق، حتى بين أولئك الأطفال فى لعبهم، يكون له صداه وتفاعلاته بين هؤلاء الذين يواجهون العمل لأن أخباره تترى وتتواتر وذلك الشاعر الكفيف تجود قريحته بأشعار تتناقلها الألسن وترددها الشفاه وهو الذى صار له نصيب كأنما هو فرض من كل مجموعة تعود الى سوق العجاج وهو لا ينفك يسأل عمن خرج ومن عاد وكيف كانت حصيلتهم وكم كان ثمن النحاس أو الحديد وهل هناك إصابات ومن قتل ومن جرح كأنه أصبح مشاركا معهم أو مسؤولا عنهم ، لكن لا أحد يقول شيئا فهو (فم سوء).

كان عبد السلام وهو ذلك الرجل الذى حصد الزرع فى منطقة قرب أجدابيا وما كاد ينتهى من الحصاد والدرس حتى سارع الى طبرق وانضم الى جماعة عبد الله وقد رحبوا به لأنهم كانوا أربعة وصار خامسهم ذلك أنه كلما زادت الجماعة فى الكوخ الواحد قل المصروف، وكان وهو فى طريقه الى طبرق قد مر على بلدة اسمها درنة لأنه سمع بأن أحد أقاربه كان يعلم القرآن بالقرب منها فى قرية اسمها التميمى، ودرنة تلك هى بلدة البساتين الجميلة والحارات الهادئة والورود الفواحة، وكانت هى البلدة الوحيدة فى ذلك الوقت التى تنتج العطور الطبيعية، وهى بحق عروس البحر الأبيض المتوسط، هادئة جميلة من يدخلها لا يتمنى الخروج منها، تنام على شاطئ البحر حيث يبلل جوانبها بماء رطب كل صباح وتتكئ على حافة الجبل الأخضر من الغرب يقيها من تقلب الرياح والقبلى بشكل خاص، ترطب أجواءها شلالات رأس الهلال وتحيط بها وديان صغيرة يسمع فيها على مدار الساعة خرير مياه جارية، مر بها الرجل لكنه لم يتوقف فالجائع أنفه لا يستنشق إلا رائحة الطعام، والطعام كان فى طبرق

أو هكذا اعتقد وسمع، صار يعمل فى تفكيك القنابل والألغام كغيره لكنه كثير الإلحاح قلوق لا يكتفى بما يحصل عليه أو ما يتيسر كأنه يرغب فى تفكيك القنابل دفعة واحدة، على أنه كان شديد الإعجاب بصوت المقرونة، حتى أنه كان يصاحبها بغناء شجى ولأنها كانت رفيقهم وتسليتهم الوحيدة فقد كان صاحبها المفضل لديهم والمقبول دائما، وها هو قد عمل على تطويرها بحيث ركب فى نهايتها قرنين معقوفين، وهكذا صار صوتها عاليا منغما وقد زركشها بسيور جلدية ملونة تتدلى على صدره وتلامس وسطه عندما يضعها بين شفتيه، ولأن عبد السلام رفيقهم الجديد معجبا بالمقرونة فقد كان يقول لرفيقه ذاك الذى يجيد استعمالها، والله إن أناملك ما خلقت إلا للمقرونة فقط وليس لتفكيك القنابل والألغام اللعينة والدق عليها بالقادومة التى تدمى كف يدك، لكن هذا يرد قائلا: ومن أين يأكل الأهل والأولاد؟ فالمقرونة تطرب ولكنها لا تطعم، يقلبها بين يديه ويضعها جانبا، إيه يا أخى لقد انتهى وقت الفرح والطرب، يباشر تفكيك القنابل المكدسة بجانبه وما انفك يدق ويقطع أحزمة النحاس وما كاد يبتعد عنه ذلك الرفيق عدة أمتار ويبدأ هو الآخر فى التفكيك حتى صم آذانهم دوى انفجار وقد رأى الى صاحبه الذى كان يتحدث إليه منذ دقائق مبديا الإعجاب بالمقرونة مهللا للفرح ممنيا النفس بيوم سعيد، إذا به غارق فى دمائه.

تنادى بقية الرفاق لإسعاف عبد السلام لكنهم لم يجدوا ما يسعفون فقد تقطع جسده كله فى لحظات وصار قطع لحم متناثر محروق، تبادلوا نظرات الاستغراب والإحساس بالهلع والحيرة، هذا منذ دقائق كان هنا رجل يهد الحائط كما يقول المثل، لكن أحدهم قال: هيا يا إخوة إن كرامة الميت دفنه، تناوبا على حفر القبر دون دمعة واحدة فقد جفت الدموع فى المآقى ليس على الأموات

ولكن على نصف الأحياء، على الجوعى الذين ينتظرون، على أهلهم وأهل القتيل، كان الرجل قويا وشجاعا وذا هيكل ضخم وكان منذ دقائق ملء السمع والبصر وصار الآن تحت التراب.

صارت الأفكار تترى مقلقة محزنة، إنه أمر يستثير الخوف والقلق والألم فى وقت واحد، خوف من الموت وقلق على الأهل وألم للحادث والقتيل، فالموت على بعد خطوات والرفيق كان يمزح ويضحك منذ دقائق صار تحت التراب، وأنت تمسك بالقادومة والمقرض وتحتضن قنبلة مثل التى قتلته، أمر عجيب وحياة بائسة ولكن... قد يتذكرون أمازيح رفيقهم لبعض الوقت لكن النسيان رحمة.

لم يكن فى مقدورهم عمل أى شىء أكثر من حفرة فى الأرض ولا حتى تكفين القتيل فقد تقطع ولملموه فى جرده المهلهل وما استطاعوا أن يصلوا عليه، لا شىء أكثر من ترحم وحسرة لبعض الوقت وقطرات ماء ضنين من زمزمية صدئة ثم العودة الى نفس العمل، قنابل وألغام وربما انفجارات وموت وليس كأى موت إنه تقطيع وحرق، وفى تلك الأثناء نزلت قطرات مطر شفافة قصيرة كأنها دموع الرحمة من حبيب مجهول، أو كأنها هى دموع السماء على كادح كان يبحث عن رزق من أجل أطفال جوعى ينتظرون الرحمة من الله والعون من هذا الإنسان.

ولقد كان القتيل هو ذلك الرجل الذى حصد ودرس الزرع فى منطقة قرب أجدابيا وسارع الى طبرق بعد الدرس، وقد بعث حصيلة درسه الى أهله وسعى الى مخلفات الحرب فى تلك البلدان ليبعث بأكثر ففاضت روحه هناك بينما كان رفيقه الآخر الذى بقى يرعى الغنم يتحسر كل يوم ويعد الأيام الباقية ليلتحق بأولئك الناس فى طبرق إذ هناك الكسب الوفير والسريع

ولم يكن يعلم أن الذى ذهب للكسب السريع قد قتلته قنبلة بشكل سريع بل قطعته قنبلة بشكل سريع.

دفن فى ذلك الوادى المهيب والمخيف ولابد أن مياه مطر الخريف ستغرقه قريبا إذا أبقى الذئب على شىء من لحمه قبل المطر، بعد أن دفنوا بقايا القتيل وكان بعض لحمه مشويا وذا رائحة كريهة ويظهر أن لحم الإنسان يتحول بسرعة إلى ذلك الوضع إذا مسته النار وخصوصا نار البارود، بدأوا العمل وإن قد خيم عليهم حزن وتشاؤم ولهذا اتفقوا على التوقف لساعة أو اثنتين، توجهوا إلى بئر ماء يقع فى سفح الوادى وقد رأوا أن يقوموا بالصلاة ترحما على رفيقهم الذى دفنوه.

كان صاحب المقرونة متشائما وقال إنه يحس بالموت فى حلقه وفى قلبه، ألم كشهاب نار متقد.

فقال أحدهم: يا أخى الأعمار بيد الله دعنا نصلى ترحما على الفقيد ثم نعود الى العمل.

وقال آخر بعد الصلاة: لابد أن نشرب الشاهى وربما يكون ذلك وداعا لأحد منا فهذا اليوم يوم شؤم من أوله.

قال ثالث: الشؤم بدأ من اليوم الذى غادرنا فيه قريتنا.

فتساءل عبد الله، وهو رابعهم إذ كان خامس هذه الجماعة هو ذاك الذى دفن منذ دقائق، يا إخوان هل هناك أكثر من الجوع، الشؤم هو أن لا تجد ما يسد رمق عيالك وأنت عاجز، دعونا نشرب الشاهى ونتوكل على الله.

عاد الأول يقول: من كان يخطر على باله أن عبد السلام سيموت ويدفن بعد خمس دقائق من الوقت الذى كان يبدى فيه إعجابه بالمقرونة، وكان يطلب

منى أن أسمعه شيئا من ألحانها ؟ ليتنى فعلت وكنت قد أخرته قليلا عن تفكيك تلك القنبلة اللعينة.

يرد عبد الله: سبحان الله يا أخى، هل يمكنك أن تؤخر موته ومن ذا الذى يستطيع أن يؤخر الأجل المحتوم، أستغفر الله.

قال: نعم ذلك صحيح، ولكن يجب أن نحاذر فى هذا اليوم النحس فإذا كان الموت حقا علينا فإن قطع اليد أو الرجل أو حدوث أى ضرر ليس كذلك إنه ليس من القدر، ليس من قدر الله وإنما من أنفسنا هذه حقيقة نعرفها جميعا، ﴿من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد﴾[1] ثم قال: كأنما هذه المنطقة مسكونة بالعفاريت وليس القنابل والألغام فقط، هذه عظام الموتى متناثرة هنا وهى تكاد تكون أكثر من شجيرات الرتم والشوك، كلهم بشر وان كانوا نصارى، إنجليز أو ألمان أو طليان وأفارقة وربما حتى ليبيون عربا فقد كان هناك عدد منهم يساعدون الإنجليز فى الحرب قيل أنهم أفراد من الجيش السنوسى جندوا فى مصر عندما كان السنوسى يقيم هناك حيث إنه اتفق مع الإنجليز على مشاركتهم فى الحرب مقابل مساعدة ليبيا فى نيل استقلالها بعد انتهاء الحرب، ذلك الشىء المعلن أما إذا كان هناك شىء آخر فعلمه عندهم وعند الله، المعروف أنهم كانوا مع الإنجليز.

ولابد أنه كان لكل هؤلاء الذين ينامون تحت هذا التراب آمال وطموحات ورغبات وأهل، أولاد أو زوجات أو خطيبات، كانوا يأملون فى العودة إليهم ويتمنون رؤيتهم كما هى حالنا الآن، لكنهم قتلوا فى حرب ساقتهم إليها الرغبة فى

(١) سورة فصلت، الآية ٤٦ .

السيطرة والاستحواذ كما يسوقنا الى الموت الأن الفقر والاحتياج، من كان منهم قد جاء طلبا للموت ؟

من منهم كان قد جاء برغبته ؟

نحن جئنا للموت وليس برغبتنا، جئنا من العوز.

صاحب المقرونة كان يتحدث هكذا وأمامه جماجم وعظام وعلى جانبه الأيمن كدس من القنابل التى يعتزم القيام بتفكيكها لكنه لم يفعل، وظل يتحدث ويرد على نفسه حيث إن رفاقه خشوا عليه من أن يكون قد أصيب باختلال وفقد عقله.

وضع أحدهم يده على كتفه لكنه لم يأبه ولم يلتفت فقد كان كل شىء قد تعرى أمام عينيه، إنه الموت والنهاية الفاجعة.

حبس ذلك الذى وضع يده على كتفه أنفاسه وبدأ يقرأ ﴿الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يئوده حفظهما وهو العلى العظيم﴾[1] صدق الله مولانا العظيم.

ومع ذلك فقد ظل محزونا وتوقف تماما عن تفكيك القنابل فى ذلك اليوم.

لم يفارقه صوت عبد السلام عاشق المقرونة الذى طلب منه أن يسمعه نغما قبل أن تقتله القنبلة اللعينة ليته أسمعه ذلك النغم الذى طلبه، ما زال يرى

(١) سورة البقرة، الآية ٢٥٥ .

لحمه متناثرا على شجيرات الرتم والشوك، وسبحان الله كيف يبقى لحم الإنسان وهو محروق ينتفض لعدة دقائق كالديك المذبوح، ربما من حرارة الانفجار وأثر البارود ؟

هل انتفض أصحاب هذه الجماجم والعظام مثل عبد السلام عندما قتلوا؟

أم أن الموت يختلف ؟

توارت الشمس خلف الغيوم ثم صار الشفق الأحمر يتلاشى رويدا رويدا وانسحبت على المنطقة غلالة من ظلام، وكان عليهم أن يتركوا مكان اقامتهم فى النهار الذى يقع فى وسط الوادى وأن يتجهوا الى السفح، فالسيل غدار كما يقولون، والوقت خريف، ولهذا فالمطر متوقع وقد يغمرهم السيل إذا ما بقوا فى وسط الوادى وهم نيام، والنائم ميت أو شبه ميت.

اتجه اثنان الى سفح الوادى لاختيار المكان بينما بقى عبد الله مع رفيقهم الرابع الذى ظل جاثيا على ركبتيه وأمامه جماجم وعظام وعلى جانبه قنابل وبالقرب منه تلك المقرونة التى صار يحدق إليها بين وقت وآخر كأنما هى التى قتلت عبد السلام، نقلوا حاجياتهم البسيطة، أرغفة خبز يابس وقدر من دقيق الشعير وبراد الشاى والطاسات التى صار شكل زجاجها أسود من أثر الشاى الثقيل، والقدر والقصعة، أوقدوا النار بعد أن جمعوا الحطب وتأكدوا من خلو المكان من الألغام ثم عادوا الى رفيقهم لينقلوه الى المكان الجديد، فى البداية لم يتحرك وصار لا ينطق كأنما أصيب بصمم وبكم مفاجئ لكنهم أوقفوه على رجليه وساروا به متأبطينه من الجانبين، وقد لاحظوا أنه للمرة الأولى لم يحرص على أخذ تلك المقرونة وهى رفيقه الدائم، وقد كانت موضوعة بالقرب منه، التقطها أحدهم، أجلسوه بالقرب من النار وظل صامتا ولا يبدى أى حركة أو يتفوه بكلمة.

وبعد أن جلسوا حول النار التى أوقدوها تذكروا أنهم منذ أيام عادوا بأرنب برى كانوا قد اصطادوه وتصادف أن كان هناك رجل ينتظر، وكان يسأل عن أحدهم، وبعد العشاء اقتسموا لحم ذلك الأرنب وقدموا للضيف لحمة كتف فصار يتفحص فى العظمة بعد أن أكل اللحم وكان لا بد أن يسألوه فاتضح أنه من أولئك الذين يخبرون قراءة كتف الصيد، لكنه تردد وتمنع عن الكلام إلا أنهم ألحوا عليه فقال، أرى دما والموت قريب منكم.

ضحكوا جميعا فى وقت واحد وبصوت أيضا واحد قالوا إن الموت ليس قريبا منا وانما هو معنا ليلا ونهارا وأنت لم تقل جديدا، هزءوا بالأمر لكن قارئ الكتف لم يضف شيئا، إنه ضيف وله حاجة عند أحدهم وليس من اللياقة أن يزعجهم طالما أنهم كما قالوا يعيشون مع الموت، سكت الرجل.

حدث ذلك منذ أيام وهاهم الآن فعلا فى مواجهة الموت فقد قتل رفيقهم عبد السلام ومن يعلم ماذا سيحدث غدا؟ وكان عبد السلام ذاك وهو الذى قتل فى الانفجار قد ضحك من نبوءة ذلك الذى قرأ الكتف حتى وقع على قفاه وهو بطبعه كان عنيدا مكابرا هازئا.

ران القلق على الجميع، والقلق يولد الخوف، والخائف يفقد القدرة على التركيز والتفكير السليم، وتفكيك القنابل يحتاج إلى الحذر الشديد كذلك المشى فى أرض مزروعة بالألغام المردومة والمفخخة والمموهة.

قرب ذلك المكان الذى اختاروه صاحت بومة لعلها كانت تنادى رفيقا لها وهى لابد جائعة واصطيادها غالبا أثناء الليل، سمعوا الصوت ولم يخطر ببال أحد منهم أن هناك كهفا قريبا ذلك أن البوم لا يعشش ويقيم إلا فى الخرابات

والكهوف الخالية، وهم يتشاءمون من صوت البوم أينما كان رغم جمال وجهه بتلك الهالة الذهبية من الريش التى تحيط بعينيه، وهو طائر رشيق، إلا أن التشاؤم لابد آت من كونه يصيح غالبا من على الأطلال والخرابات إضافة الى أن يومهم ذاك لم يكن سعيدا فقد قتل أحد الرفاق وهذا آخر قد يكون أصيب بخبل من أثر الفاجعة.

تحلقوا حول كانون الشاى وكان أحدهم يخبز البازين للعشاء على كانون آخر وصاروا يتدبرون الأمر كيف يكون الحال فى العمل غدا إذا بقى رفيقهم على حاله ذلك؟ هل يتركونه حتى يعود الى صوابه وربما يحدث ذلك بعد أن ينام هذه الليلة وإذا لم يحدث فما العمل؟

قال أحدهم وهو يرتشف الشاى من الطاسة بصوت عال، لابد من العودة به الى سوق العجاج لأن الفقى هناك وسوف يكتب له حجابا، ولكن إذا ما عادوا به فى حاله ذاك فسوف يتوزع الخبر وقد يلازمه المرض الذى ألم به وسيكون ذلك عارا وفضيحة، وترويج الإشاعات فى المجتمع الصغير شىء مألوف ومعروف إذ ما تكاد تظهر شائعة حتى تطوف على كل الشفاه فى سوق العجاج، وربما خلال فترة قصيرة فى القرية هناك، وتحدث بين الأهل فزعا وانشغالا وربما يقيمون عزاء أو مأتما هناك.

قال آخر: فلننتظر الى الغد ونرى ولا داعى للقلق واستباق ما هو مقدر ومكتوب.

عادت تلك البومة الى الصياح المتقطع وتجاوبت معها أخريات من بعيد إلا أن كلا منهم كان قد غرق فى نوم عميق متلفعا بجرده ولم يطفئوا النار لأن حطب الرتم يبقى مدة طويلة متأججا، وربما بقى الجمر تحت الرماد الى الصباح بحيث

لا يحتاجون الى أن يوقدوا نارا أخرى حيث يكفيهم لعمل الشاى، هم لا يعملون شيئا فى الصباح غير الشاى فلا إفطار ولا غيره، وكان صاحبهم ذاك قد استمرت معه رؤيا مزعجة الى فجر تلك الليلة حتى أنه كان يصرخ بين الفينة والأخرى مرددا كلمات: ليتنى أسمعته النغم ليتنى أسمعته النغم، ولكن ذلك الصراخ الذى ربما لم يكن عاليا لم يثر قلق أى منهم، وما أن أشرقت الشمس حتى كان قد عاد الى حالته الطبيعة وبدأ يعمل كالمعتاد، وقد أفلح فى تجاوز المحنة وعاد الى ركوب الخطر على الرغم من أن كلمات رفيقه ذاك الذى تقطع إربا لم تفارق أذنيه قط وكلما فكر فى الحادث ارتجت أطرافه وأحس بقشعريرة تسرى فى جسده.

وبعد كل عدة أيام كانوا يعودون محملين بالنحاس والحديد الى مكان التجميع، وترى الواحد منهم يقطر عرقا رغم أن الوقت خريف والطقس يميل الى البرودة والاعتدال، وترى العرق على الظهر والأكتاف فى شكل دوائر وخطوط مختلطا بالتراب والصدأ، وكلما جف العرق تيبست الخطوط والدوائر وصارت سوداء وجوانبها شهباء بينما تكون أيديهم الخشنة كأنها محروقة من أثر الشمس باطنها يابس كخف الجمل من أثر الدق بالقادومة والمقرض ووجوههم سمراء مغبرة، كما أن عيونهم تغطيها طبقة من الاحمرار بسبب التراب ودخان البارود الذى عادة ما يؤججون به النار وركبهم مسلوخة من أثر الزحف والحركة على أرض حرشاء يابسة فى الغالب، ومكان التجميع يقع بالقرب من بئر قديم فيه بعض الماء وليس على فمه غطاء ورقبته مقامة من الأسمنت الأسود وهى ملساء وعليها كتابات بالأحرف الأفرنجية ربما تمثل اسماء كتبت بالحروف الأولى لعدد من الناس الذين حفروا البئر وبنوا رقبته بذلك الأسمنت، وربما أنهم رقدوا الى الأبد فى مكان ما بهذا الوادى الذى شهد معارك طاحنة، وعلى مقربة من البئر

توجد شجرة طلح وحيدة تقاوم الظمأ والرياح العاتية، كانت بعض أغصانها يابسة ومتفرقة حتى أنها لا تحجبَ الشمس، عروقها ظاهرة فوق الأرض كأنها تبحث عن قطرة من ماء ذلك الذى لا يتجمع فى السفح حتى إذا ما هطلت المطر، ويظهر أنه لم يحدث أن تطوع أحد ليعمل لها حوض وساقية ترويها، وليس من المعروف كيف جاءت تلك النبتة هناك اذ لا يوجد فى المكان أشجار غير الرتم والشوك وهذه شجيرات لا ترتفع كثيرا عن سطح الأرض.

ينتظرون العربة التى ستقل الحديد كما ينتظرون العودة الى ذلك المخيم، الى سوق العجاج لتلقف الأخبار، أخبار الموتى من هذه الجماعة أو تلك، وأخبار البلاد من هذا القادم أو ذاك، وسماع قصائد ذلك الشاعر الكفيف الذى ينتظر هو بدوره كل مجموعة عائدة وأخبار النحاس والحديد وهو لابد أن يتلقى العطايا من هذا وذاك، عطايا اتقاء للسانه فهو (فم سوء كما يقولون دائما عن كل شاعر) إضافة الى أنه كفيف ولا يستطيع القيام بأى عمل كغيره من الناس.

ونفس الشىء بالنسبة للفقيه فهو لا يألو جهدا فى جمع ما يمكن جمعه من قروش لأن الشتاء قادم وهذا فصل الخريف ولا بد أن يهطل المطر ولا يمكن لأحد أن يصلى فى العراء، فالان مطر وقريبا سيكون بردا ومطرا، وصار يقول إن ما يطلبه ليس لنفسه انما لله فلابد أن يرتفع الآذان وأن تؤدى الفرائض لكى يبارك الله فى المسعى وفى المجهود والكسب الحلال، إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا، وقال تعالى كذلك ﴿إنما يعمر مساجد الله من ءامن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وءاتى الزكوة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين﴾[1] ولقد عرف ذلك الفقيه طريقه الى النواجع القريبة وصار يكسب

(١) سورة التوبة، الآية ١٨ .

من كتابة الأحجبة بل إنه حتى اتفق مع بعض أولئك الناس على أن يقوم بتعليم أبنائهم القرآن الكريم مقابل ما يجودون به كل حفظة (أى كل أسبوع) بيض أو دقيق أو حتى قمح أو شعير أو أى شىء، المهم أن يتعلم الأطفال مبادئ الكتابة والقراءة وحفظ القرآن الكريم، كتاب دينهم الحنيف ﴿أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم﴾[1] صدق الله العظيم.

ولم تكن هناك مدارس فى تلك المنطقة ولهذا فإن مساهمة الفقيه فى تعليم الأطفال القرآن الكريم عمل مشكور، وهو يعرف أنه حتى لو وجدت المدارس فيما بعد فان هؤلاء الناس يفضلون أن يتعلم أبناؤهم كتاب الله وهم أصحاب عقيدة وإيمان، الشىء الذى يجعلهم يجلون حملة وحفظة القرآن الكريم، وللدعوة السنوسية فضل السبق فى ذلك، قبل أن تتحول الى حركة سياسية وتحكم حيث جمعت بين الدين والدولة الشىء الذى أدخلها فى صعاب ومشاكل وتعقيدات قضت عليها.

وقرب المصلى جعل ذلك الفقيه ضريحا لمرابط قال إنه كان قد زاره فى المنام وصار يوقد النار فى كوانين صغيرة كل ليلة جمعة يتصاعد منها دخان البخور، وأصبح من العادة أن يزور ذلك الضريح رجال ونساء حتى أن الفقيه جعل يوما خاصا للنساء، وكل زائر لابد أن يقرأ سورة الفاتحة ويضع بخورا أو يعلق بعض الأحجبة وحتى قطع قماش خضراء ربما تبركا أو تفاؤلا، لم يكتف الفقيه بضريح المرابط وفرقة البنادير وإنما أصر على بناء مئذنة ليقف عليها وقت كل آذان بحيث يسمع النواجع القريبة الأذان وربما جعلهم يأتون للصلاة فى تلك الساحة ويساعدون فيما بعد على بناء مسجد يخدم المنطقة كلها. كذلك فان

(١) سورة محمد، الآية ١٤.

هؤلاء الناس خلال شهر رمضان الذى هو على الأبواب يحتاجون الى أذان الإفطار والإمساك وهو يشدد على القول إن الحيوانات إذا ما سمعت الأذان هدأت وانصتت، وبعد أيام جاء بجذوع نخل بمساعدة آخرين من شباب النواجع استخارهم كما أحضر براميل مستديرة بحيث يمدد عليها جذوع النخل كل جذع منها مقصوص طوليا على نصفين وهكذا أقام مئذنة يقف عليها وقت الأذان، ورحب بذلك المصلون، بعض الناس وخصوصا الشباب منهم لا يحرصون على أداء الفرائض الشىء الذى كان يقلق الفقيه ويجعله يشدد على عقاب تارك الصلاة من الخالق العظيم، ويقول إن الصلاة بركة، ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾[1] إسلامكم ناقص أيها النائمون، هكذا يردد فى كل أذان يشدد أيضا على القول (الصلاة خير من النوم) والحقيقة أنه كان داعية خير وصلاح وقد أفاد واستفاد، درس القرآن الكريم وصلى بالناس وخدم المنطقة.

وبعد فترة ظهر فى السوق رجل أنشأ ما يشبه المقهى فقد أقام لنفسه كوخا صغيرا يفرش أمامه كل صباح حصيرة ويجلس ليعد الشاى، كان يقول شاهى بالرغوة ثلاثة ملاليم بينما الشاهى بالكاكوية ثمنه نصف قرش، ولم يكن فى ذلك الوقت الشاى الصينى الأخضر معروفا.

ثم ظهر آخر أنشأ دكانا يبيع بعض قطع الصابون السوسى الأخضر والشاى والسكر ودقيق القمح والشعير والزيت التريبيا والطماطم المعلب والأرز المصرى الذى يأتى مهربا من مصر، وورق البافرا والتبغ والكبريت، وأغلب تلك الأشياء تأتى مهربة عدا التبغ الذى يأتى من طرابلس وهو بضاعة تهرب أيضا الى مصر مع حجر صغير يسمى عنبرة قيل إنه يستعمل مع مادة مخدرة يتعاطاها بعض

(١) سورة العنكبوت، الآية ٤٥ .

الناس فى مصر آنئذ وهو الشىء الذى كان يستنكره بشدة الفقيه ويقول إن التبغ شجر شيطانى ربما هو الذى أخرج آدم وزوجه من الجنة، كذلك كان السكر من نوع غريب إذ إن هؤلاء الناس عرفوا نوعا من السكر فى شكل قوالب بيضاء وكان المعروف لديهم هو ذلك السكر الأحمر الفاتح.

يتفق للفقيه أن يمر على ذلك الدكان الصغير ليسأل، وهو رجل طويل القامة متناسق التقاطيع ذو أنف معقوف تزين وجهه لحية كان يحرص على تقصيرها، أسنانه ناصعة البياض لأنه لا يدخن ولا يشرب الشاهى كما يقول، القهوة لم تكن معروفة وقتذاك، مظهره مقبول جرده أبيض يرتدى سورية وسرولا أزرقين وكلما ابيضا وضعهما فى ماء مخلوط بمادة تسمى زرقينا ليعيد إليهما شكلهما الأزرق الفاتح، ينتعل حذاء من الجلد الأحمر، وفى العموم فهو الوحيد فى سوق العجاج الذى يحرص على مظهره نظيفا لأنه رجل دين والنظافة من الإيمان، يقيم منفردا فى كوخ قريب من ساحة المسجد يرش الكوخ أحيانا بالجير ليبعد البراغيث، لديه بعض الكتب الدينية يضعها على تكة فى زاوية من الكوخ، صوته جهورى يجيد قراءة القرآن الكريم بصوت جميل ملحن، يقبض فى العادة على مسبحة بين أصابع يده اليمنى يحركها بينما ترى شفتيه تتحركان سواء أكان جالسا أو واقفا أو ماشيا.

عاد أولئك الجماعة الذين كانوا قد فقدوا رفيقا ودفنوه هناك فى نفس مكان الانفجار، عادوا بعد أن باعوا ما جمعوا من حديد ونحاس وعلم كل الناس فى سوق العجاج بالحادث المفجع المتكرر فى كل يوم حيث كانت مجموعة أخرى قد عادت فى اليوم السابق تنقل أحد أفرادها مصابا بجروح بالغة على إثر انفجار قتل رفيقه الذى كان يفكك قنبلة وعندما نقلوه الى المستشفى اتضح أنه

أصيب بارتجاج فى الدماغ وكسور فى الرجلين مع توزيع شظايا فى بقية جسده وأن حالته سيئة للغاية أى أن اثنين قد قتلا وآخر على وشك الموت من بين هاتين المجموعتين فى رحلة واحدة.

وكان الفقيه يلح فى كل مرة على ضرورة نقل القتلى الى سوق العجاج ليصلى عليهم ودفنهم فى مقبرة قريبة إذ إنه ليس مقبولا أن يدفن المسلم دون صلاة وتغسيل وتكفين، وكان هؤلاء يحتجون بأن الحوادث تحصل وهم بعاد عن طبرق ولا يمكنهم غالبا نقل القتيل أولا لعدم توفر وسائل النقل وثانيا لأنهم محتاجون لأن يبقوا للعمل فى نفس المكان وإذا ما عادوا بالقتيل ضاع عليهم يوم أو يومان ولن يجدوا ما يقيهم من الجوع والبرد ولا ما يبعثون لأهلهم، لكن الفقيه كان يحضهم على التطوع بنقل القتيل مهما كان الأمر، أى قتيل الى مكان الصلاة والدفن لأن فى ذلك أجرًا من الله الذى يرزق ويرحم، ولم تمر عدة أيام حتى كانت الأخبار قد وصلت تلك القرية التى جاء منها هؤلاء الرجال، وكالعادة أخبار فرح وأخبار حزن، وان كانت أخبار الحزن تطغى على ما عداها لأن أهل تلك القرية مترابطون بالدم والقرب والمصاهرة لذلك هم يشربون من نبع واحد ويعيشون على أرض واحدة وينتمون الى أصل واحد غالبا، وهكذا فهم يشتركون فى الأفراح وفى الأتراح.

وصلت الأخبار وقد تحرك قرص الشمس مسافرا الى الغرب دون انتظار أو تغيير فى المسار، ويكون بذلك قد انقضى يوم آخر على وصول الأخبار الى القرية وباتت كل عائلة متوجعة متألمة وحتى التى تلقت أموالا ولم تفقد عائلها أصابها التوجع ما عدا أولئك الأطفال الذين يلعبون الكعب والكرة ولا يدركون قسوة الحياة وسياط العذاب التى تجلد المجتمع الصغير ذاك كلما فقد فردا منه،

وكان أحمد قد ربح الرهان إذ جاء الخبر اليقين أن والده لم يصرخ عندما قطعت يده بل كان يبتسم ربما هازئا من أولئك الذين صنعوا تلك القنبلة وصار يفاخر بوالده الشجاع، أما خميس الذى خسر الرهان ولم يعد قادرا على اللعب مع أقرانه فى الشارف لأنه لابد أن يأتى بحارة الدحى التى راهن بها وهى غير متوفرة وقد لا يستطيع توفيرها على الإطلاق، ولم تكن هزيمة خميس وخسارة الرهان فقط إنما كانت الهزيمة أكبر وأمر وأقسى إذ كان ذلك الرجل الذى قتل وقطعته قنبلة هو والده: اشتكى خميس من ظلم الزمان لأمه فنظرت إليه بعينين دامعتين ووجه حزين وقلب يعتصره الألم وقالت، يوم لك ويوم عليك يا بنى، والده قطعته قنبلة ألمانية فى بئر حكيم وصار يتيما مقهورا، رآه الأطفال يبكى بعد وصول الأخبار فتجمعوا حوله لكنه قال بانكسار شديد: لم يعد فى إمكانى أن ألعب معكم، ثم وضع يده على جبهته واختفى، لقد صار رجلا فى ثوب طفل، لابد أن يعمل، سامحه أحمد فى الرهان لكن ذلك لا يعوض من انكسر قلبه بفقد الأب والعائل الوحيد وقت العوز والشدة، عندما تركهم يمم فى اتجاه الداموس على الناحية الأخرى من الشارف، وداعا أيها اللعب وأيتها الكرة لقد انطفأ كل شىء فاليتيم منكسر والفقير جائع وقد اجتمعا فى خميس، عمت الكآبة أسرة تتكون من ستة أفواه مفتوحة مات عائلها ودفن فى أرض بعيدة.

امتد غسق اليوم الثانى ولف تلك العائلة حزن شديد، من يعيلهم بعد موت عائلهم الوحيد، من يراعيهم بعد موت عبد السلام ؟ من يأتيهم بالرزق ؟

يأتى صوت من بعيد :

الله باق، يخلق ويرحم ويرزق...

ترد المرأة وهى ترفع رأسها الى السماء: الحمد لله رب العالمين عليه الاتكال ومنه الرزق.

وتمر الأيام والشهور والسنوات بينما الفقر يعض الناس بأسنان حادة وسياط لاذعة، يتساقط كثير من الرجال، تحصدهم القنابل والألغام، ما فوق الأرض وما تحتها حتى إن مقبرة كاملة فى طبرق صارت تعرف باسم مقبرة (قتلى البومب) ومع تزايد القتلى ونضوب المورد بقرب انتهاء مخلفات الحرب من نحاس وحديد وألومنيوم بدأت مسيرة العودة إلى ساحة العجز، ولم يكن فى الواقع العوز بسبب أن الأمطار ما زالت منحبسة ولا الأرض لم تعد معطاءة ولكنه عجز أولئك الذين فقدوا أطرافهم، عندما يفقد الإنسان عضوا من أعضائه لابد أن يحس بالعجز الدائم الذى يقلل من جهده وفى داخله شعور بالنقص يعصف به نفسيا وتكون أى محاولة للتغلب على ذلك النقص شيئا من العبث لأنه لن يتخلص من ذكريات وأحداث كلها آلام وحسرات، جسد ناقص وعقل مشوش ومستقبل غامض.

يعودون الى تلك المنطقة ببضعة جنيهات توفرت من فترة عمل طويلة وخطر محدق بكل منهم ذلك أن الموت يرفرف على رؤوسهم ليلا ونهارا فلا تذهب مجموعة الى العدم أو بئر حكيم وتعود إلا وهى قد فقدت واحدا أو اثنين موتى أو جرحى، ومع ذلك يعودون الى نفس مكان القنابل والألغام يفككونها ربما حتى قبل أن تجف دماء رفاقهم الذين قتلوا، وحتى أولئك الذين يدفنون هناك فى مكان الحادث عادة ما يحفر قبورهم الذئب ويأكل ما تبقى من أجسادهم التى قطعها الانفجار وهكذا فالإنسان فى مثل هذه الحالة يموت مرتين.

يعودون بجنيهات قليلة على أمل أن يبدأوا بها عملا ما ولكن كيف لمن فقد أحد أعضائه أن يعمل ؟ وما هو العمل الذى يستطيعه ويجده؟ والعمل جميعه عضلى وصعب.

من أراد أن يباشر ما عرف من عمل سابق كالحرث والحصاد وجد أنه لا يملك وسيلة لذلك العمل، فإذا وجد المحراث لا يجد الدابة (جمل أو حمار) كذلك لا يجد البذار متوفرا، قمح أو شعير، وحتى المضاربون الذين جاءوا ببعض البذار صاروا يبيعونه بثمن باهظ خصوصا عندما هطلت الأمطار ورغبة الناس فى الحرث، ولأنه لابد من الحرث إذ لا يوجد شىء آخر يمكن أن يحول دون حدوث مجاعات أخرى غير الزرع والحصاد طالما أن الله قد أفاء على البلاد بالغيث.

وحدث أن الذين عادوا ببعض المال (عشرون أو ثلاثون جنيها) غامروا بشراء القمح والشعير بالثمن الذى فرضه المحتكرون وصاروا يحرثون، ولأن الحيوانات مثل الإبل أو الحمير تكاد تكون قد انعدمت أو انقرضت فقد حرثوا على ظهورهم كأن يشترك اثنان أحدهما يمسك بالمحراث والثانى يجره أو أن يستخدم الواحد منهم امرأته فى جر المحراث إذا لم يجد شريكا حيث يربط حبل الليف على كتفيها وبدأب تستمر فى جر المحراث الى أن تنتهى الغلة التى يريدون زرعها، وقد يمتد ذلك لشهر أو أكثر، وعلى الرغم من أنهم بتلك الوسائل قد حاولوا التغلب على مشاكل وظروف الحياة القاسية إلا أن هاوية الفقر التى نشأت لم يكن من الممكن ردمها بسهولة ذلك أن الناس كانوا قد أكلوا كل شىء، القمح والشعير والعشب وصغار الحيوانات كالجرذان وغيرها كما أنهم بعد ذاك قد عاشوا لبعض الوقت على أكل الفيتورا وعندما قلت أو انتهت لأن الزيتون لم

يعد يثمر بسبب العطش أكلوا ما وجد على وجه الأرض بما فى ذلك الأفاعى والجراد، وتلك المرأة التى تجر المحراث مجبرة، عادة ما تكون حافيةالقدمين متلفعة بملحفة فقط خاوية البطن على أكتافها حبل المحراث الذى كان ربما يصعب جره على جمل ضعيف، امرأة خلقت رقيقة مكانها البيت وتربية الأطفال يدايها الملساوان اللتان كانتا للحناء صارتا تمسكان بحبل ليف خشن لتجر محراثا! امرأة قيل فيها أجمل الشعر الغزلى وكانت ملهمة الكلمة الحاذقة المقفاة تحولت مع المحراث والجهد المبذول والعرق النازف الى هيكل عظمى وصارت من الشمس مثل العود المحروق وكان يجب أن تزغرد فى الأفراح لا أن تتعفر بالتراب، وهى كانت كذلك قبل أن تحل سنوات الجفاف ويعرف الرجال طبرق وتفكيك القنابل والألغام اللعينة، وقبل أن يدفن الكثير منهم فى تلك الوديان ويفقد آخرون بعض أعضائهم ويصبحوا فى عداد العجزة كأنهم نصف رجال فى المظهر ونصف إنسان فى الإحساس.

المرأة فى هذه الظروف لم تعد تطبخ وترد الماء وترحى القمح والشعير وتأتى بالحطب وتنجب الأطفال فقط، فقد دفعتها هاوية الفقر الى أن تحل محل الجمل تجر محراثا بحيث تكمل الجزء المفقود من ذلك الرجل الذى زفه القدر الى أن يحتضن قنبلة من أجل لقمة العيش فتقطع رجله ويده وتجعله نصف انسان، تلك مأساة وهذه كارثة، ترى المرأة وجنتاها بارزتان وشعرها أشعث وكان فيما سبق ملفوفا فى جدائل طويلة يلفت الانتباه ويثير الإعجاب كلما هدت به فى عرس من تلك الأعراس التى كانت كثيرة أيام الخير، صارت عيناها حمراوين فقدتا الكحل الذى كان يزينهما، شفاهها مقشرة ووجهها ضامرا تملؤه التجاعيد

قبل الأوان، عندما تقف فى نهاية خط المحراث محاولة أن ترتشف قليلا من ماء ساخن وضع فى اناء قرب قربة مطروحة على الأرض بمحاذاة سدرة عجوز، ثم تدور بعد تلك الرشفة فى محاذاة خط المحراث الذى يشق الأرض وهى تئن بصوت مسموع فيحاول زوجها أن لا يغرس المحراث عميقا فى الأرض لكى يخفف عليها مؤونة الجر وألم الأنين فلا بد أن حبل الليف ذلك وثقل المحراث فى الأرض قد أدميا كتفيها وعصرا قلبها وأدميا يديها.

هكذا كان حال أولئك الذين عادوا مهزومين فاقدى الأطراف الى تلك القرية التى تتربع على قمة جبل أشم، الجبل الذى شهد معارك الفداء ورباطات المجاهدين الذين عاندوا تلك القوة الأوروبية الغاشمة الجبارة التى جاءتهم زاحفة من وراء البحر بجيوشها الجرارة، منها ما هو زاحف ومنها الطائر وهو شىء لم يألفوه ولا خبروه رغم حروبهم الكثيرة فى السابق لكن إيمانهم كان أقوى ورباطة جأشهم كانت أمتن وعزائمهم أصدق، الإيمان بالله والجهاد فى سبيل الوطن والكرامة، عدتهم كانت بندقية وفرسا أو جملا ولباسا بسيطا متواضع ومعرفة بالسهول والوديان والجبال والصحراء وإيمان راسخ قوى، لكنهم الآن وبسبب الفقر والعوز وانحباس المطر وبكاء العيال وندرة أو انعدام كل شىء أصبحوا مهزومين أمام عدو مجهول جاءوه طوعا متمثلا فى قنابل وألغام مردومة تحت الأرض ومطروحة على ظهرها، وكان هناك أناس أكل الجذرى وجوههم ومن لم يفقأ عيونهم جعل تلك الوجوه محفورة بشعة لكنهم مقتنعون أن ذلك من عند الله أما أن ترى رجلا شوه وجهه وقطعت رجله أو يده فى انفجار فذلك أبشع وهؤلاء يحسون بأن ما حدث إنما هو عمل أيديهم وإن لم يكن لديهم خيار آخر،

وذلك يمثل غصة فى الحلق ووجعا فى القلب وعقدة فى النفس، أما أجدادهم فقد قاتلوا عدوًا جاءهم معتديا هدفه قهرهم وتدنيس أرضهم، أرضهم التى تغنى بها الشعراء وسارت عليها كحيلا ورقصت فيها الغزلان ونبت فيها الترفاس وتسمّت باسمها قارة، أرادها أن تكون شاطئه الرابع ومفتاح القارة السمراء أمام جنوده وتحقيقا لمصالحه الاستعمارية التوسعية.

ولقد قارعوا ذلك العدو على مدى العقدين من الزمان، لم يفقدوا عضوا من أعضائهم البدنية انما استشهد البعض منهم ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾[1].

عاد بعض أولئك الناس الى القرية ببضعة جنيهات وأيدى مقطوعة أو أرجل مبتورة فوجدوا أناسها كأنهم قد خرجوا من القبور فى تلك الساعة، هياكل عظمية وعيون غائرة وضلوع بارزة تحت ملابس مهلهلة وبطون مدورة منتفخة كأنها قرب مملوءة بماء وذلك بسبب ما أكلوا من أعشاب، وحتى تلك الزيتونة التى تطل على الشارف من الجانب الغربى كانت أغصانها يابسة كأنما هى حرقت بالنار، وكانت جميع الحيوانات قد هلكت وحتى الكلاب التى كانت تنبح لم يعد لها وجود، ولم يبق شامخًا إلا ذلك المسجد العتيق الذى ينظر الى القرية من مرتفع عال ويتنافس فى الطول مع ذلك المبنى الذى أقامه الإيطاليون على ربوة عالية مقابلة له ليتحصن فيه جنودهم وأعوانهم، كما أن تلك النخلات العقيمة التى لم يتدلى منها عرجون بلح على الإطلاق لم تزل حانية على عين مسلغين الغائصة بين جبلين يحتضنانها من الغرب والشرق والجنوب، أما سهل الجفارة الذى يتربع

(١) سورة آل عمران، الآية ١٦٩ .

على طرفه الجنوبى جبل نفوسه فقد صار كالنطع الأجرب ليس فيه غير سدر يابس وأتل يعاند الظمأ والرياح ووديان صغيرة تشققت أراضيها من أثر الجفاف، الجفارة التى كان يرويها تدفق المياه من فوق قمم تل الجبال السوداء لم تعد تأتيها قطرة ماء فصارت قاحلة موحشة.

وكان دكان كرغول الحداد فى الطرف الشمالى من الشارف يسن سكك المحاريث وأمواس الذبح فى الأعياد والمناسبات، وحدوات نعال الخيل وحلقات أرصنة الإبل والأقفال العربية فى أبواب الدواميس، وهذه اختفت ولأنه لا يستطيع الهجرة أو حتى السفر فقد قفل ذلك الدكان وتحول الى قطع وتجميع الحلفاء وبيع الحبال التى صار يفتلها بين وقت وآخر وهو الذى كان أحسن من يصنع الأقفال والخناجر والأمواس، ولأن لهيب النار فى الحدادة كان قد أضعف بصره فقد كان عندما يحاول قطع الحلفاء يخلط بينها وبين الرتم وأحيانا نبات الشوك حتى أن يمناه صارت تتر بالدم والصديد.

أما ذلك الفقيه والرجل الصالح فقد استمر فى جامعه المهيب يعلم القرآن الكريم لمن يأتيه وهو الذى علّم أغلب رجالات القرية منذ كانوا صغارا وقد صار معمّرا، وعلى الرغم من أنه لم ينفك يعلم القرآن الكريم إلا أنه بعد أن حدث الجفاف وجرت هجرة الرجال الأصحاء ولم يبق إلا الأطفال والعجزة والنساء اتخذ نهجا جديدا مع تعليم القرآن الكريم حيث صار يحدّث الأطفال عن تاريخ أهلهم منذ جاءوا خلال النصف الأول من القرن الحادى عشر الميلادى الى هذه البلاد، وذلك من أجل أن يغرس فى أذهان هؤلاء الأطفال حقيقة تاريخهم العربى الإسلامى، يقول، إن جدنا الأول هو الحسن بن المحسن الحجازى النجدى من قبيلة بنى سليم فخذ عوف من منطقة فى نجد تسمى وادى دواشر.

وقد جاءت تلك القبيلة العربية مهاجرة فى مسيرة مع قبيلة أخرى هى قبيلة بنى هلال، والقبيلتان جاءتا من الجزيرة العربية واستقرتا فى صعيد مصر ابان الحكم الفاطمى فى ذلك القطر، وكانت الدولة العربية الواحدة قد تفككت فى أواخر العهد العباسى وظهرت العديد من الدويلات فى الأندلس والشمال الأفريقى ومصر إذ فى الأندلس نفسها ظهرت ٢٣ إمارة بها ٢٣ أميرا وكان بعض الزعماء والأمراء هناك قد تآمروا فى الشمال الشرقى من الأندلس واتفقوا مع عدو الإسلام الملك شارلمان، ولقد حدث الانهيار منذ سقوط طليطلة سنة ١٠٨٥م وبعدها بالتتابع سقطت المدن العربية فى الأندلس وحلت أكبر كارثة فى التاريخ بالعرب والمسلمين عندما أصدر الملك فرديناند قرارا بطردهم، ذلك القرار الذى نص على طرد كل ذكر بلغ سن الرابعة عشرة وكل أنثى بلغت الثانية عشرة من العمر ويقول القرار أنه لا يسمح لأحد من المطرودين بحمل أو بيع أو إهداء أى شىء ما عدا ما كان الظهر وفى مدة قصيرة جدا.

ولأن الحاكم الفاطمى فى مصر أراد أن يتخلص من تينك القبيلتين العربيتين لأنه لم يستطع السيطرة عليهما وإخضاعهما فقد طلب من زعماء القبيلتين الزحف على شمال أفريقيا والاستيلاء على ما يريدون من أرض فيها، وقد زودهم ببعض المؤن والمواشى وكان غرضه فى ذلك أن يخلص منهما وأن يؤدب أمراء الشمال الأفريقى الذين كانوا يدينون بالولاء للحكم العباسى فى بغداد وليس الفاطمى فى مصر، وهكذا زحفت القبيلتان وسيطرتا على كل الشمال الأفريقى وحدث أن بنى سليم لم يتجاوزوا حدود تونس الغربية بينما واصل الهلاليون الزحف ولم يتوقفوا إلا عند المحيط الأطلسى.

وكان جدنا، هكذا يقول الفقيه التركى، يصحبه أولاده الأربعة وهم، أبو الهول وأبو القاسم وسليم ومحمد، ومن أبنائه هؤلاء وأحفاده وأبناء أحفاده تكونت قبيلتنا الحالية واستوطنت ببلدة تاغرمين هذه، هذا ما دأب على تدريسه وقوله الفقيه التركى للأطفال وغير الأطفال، حتى أولئك العجزة الذين كان يلتقيهم أحيانا عندما يعود أحد منهم، وبذلك ربما كان الفقيه هذا يعتقد أو أدرك أن هؤلاء الأطفال قد لا يرون آباءهم مرة أخرى، آباؤهم أولئك الذين ذهبوا فى هجرة الموت، ولهذا أراد أن يغرس فى أذهانهم تاريخ بلادهم وأهلهم، كان الفقيه المعمّر يمسك فى يده بعكاز من شجرة الزيتون المباركة يستند عليه فى الوقوف ويتوكأ عليه فى المشى، كان يمشى ببطء لكنه ظل يعود المرضى ويواسى المأسورين والمأزومين ويطمئن المفجوعين بقراءة آيات من كتاب الله ويردد دائما إن الله مع الصابرين، إذا صبرتم أجرتم، وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها، رجل صالح ولا يأتى منه إلا الصلاح، قلبه عامر بالايمان وفى عينيه هدوء المطمئنين المؤمنين، يتحدث فى الدين والتاريخ والتقاليد والعادات ويوصى بالتوادد والاتفاق.

ويضيف أحيانا بتوجع شديد قائلا: ان ما حدث فى الأندلس أثبت أن جهود موسى بن نصير وعبقرية طارق بن زياد ووفاء المجاهدين فى الإسلام ووصايا الخليفة أو كل الخلفاء من مكة الى دمشق وبغداد والقاهرة والقيروان قد ضاعت، فلقد تحرك الدم الخليط من بغداد فأفسد ما تحقق فى الأندلس إذ تسلل أبناء المحضيات والعلجيات فى ليلة ظلماء ليصرعوا أشجع الرجال بين طليطة وقصر الحمراء، بين سنة ١٠٨٥م زحفا الى سنة ١٤٩٢م حتى صار فى إمكان فرديناند النصرانى أن يطرد جميع العرب المسلمين وحتى غير المسلمين من الأندلس بعد قرابة ثمانمائة سنة من الحكم العربى المثمر الذى أنشأ حضارة وثقافة

فاقتا كل ما عداهما، فمن الرشيد الى المأمون الى المعتصم كانت خيزران وهى حبشية ومراجل وهى فارسية وماردة وهى تركية، وبذلك ضاعت الأندلس.

وقد غفا ذات يوم فكانت تلك هى غفوة المؤمن الذى يلحق بالصالحين الى دار الآخرة، رحمه الله رحمة واسعة مع الصديقين الموعودين بالجنة، ﴿وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين﴾[1] صدق الله العظيم.

ظل ذلك الفقيه فى سوق العجاج محافظا على الأذان وإقامة الصلاة والدعوة الى المساعدة والتبرع بالقليل الممكن لبناء الجامع كما ثابر على الاتصال بالناس وكتابة الأحجبة التى يطلب أن توضع فى جلد أحمر وأن تعلق فى شعر الرأس بالنسبة للنساء الكبيرات فى السن وحول الرقبة بالنسبة للشابات والرجال، وقد أنشأ علاقات واسعة اجتماعية وكانت تراه دائم التنقل وهو يحرك حبات مسبحة طويلة فى يده اليمنى وتلاحظ شفتيه تنفرجان وتنطبقان بذكر الله فى كل وقت وكلما تحدث يقول ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾[1].

وكان كالآخرين فى ذلك السوق يلاحق أخبار القرية ويسعى الى كل مسافر ليبعث نقودا وجوابات ويسمع الحواديت والقصص، على أن الأحزان فى تلك القرية صارت دائمة والنساء صرن مجدولات على الألم والبكاء الصامت لأن الحناجر بحت من كثرة العياط وبدت كأنها مقبرة، أغانى، الناس فيها حزينة وأشعارهم بكائيات ولقاءاتهم تعازى ولياليهم طويلة لأن الجائع لا ينام بشكل طبيعى فإذا كانت الهواجس والهموم تذهب النوم وتأتى بالسهد لبعض الوقت فإن الجوع لا يذهب النوم فقط وإنما يحطم الصحة ويقعد أقوى الرجال.

---

(١) سورة الرعد، الآية ٢٨ .

وكان أولئك الذين ينشغلون بتفكيك القنابل والألغام فى منطقة طبرق قد استمر البعض منهم فى ذلك العمل على الرغم من أن المخلفات الباقية هناك هى الخطيرة جدا ولهذا السبب تضاعف عدد القتلى من أثر انفجارات تلك القنابل والألغام الباقية، ولأنه كانت هناك فرص عمل كرعى الغنم والحرث والحصاد عندما يحل ذلك الفصل فإن أولئك الناس قد ألفوا ركوب الخطر مع الكسب السريع والأوفر فى الغالب ولذلك فإن قليلين منهم بشكل خاص الذين جاءوا متأخرين ولم يتقنوا حرفة تفكيك القنابل بشكل جيد قد اتجهوا الى رعى الغنم والقيام ببعض الأعمال الأخرى كباعة متجولين انتظارا لموسم الزرع والحصاد والدرس.

كان فصل الشتاء قد بدأت طلائعه إذ تغيرت مظاهر الطبيعة وصار كل شىء معتما وكانت الأشجار وهى قليلة قد تعرت، وفقدت وريقاتها، وما بقى عالقا من تلك الوريقات كان رامضا أصفر اللون والسماء ملبدة تغشاها الغيوم، ولأن تلك المناطق مفتوحة فإن الرياح غالبا ما تكون عاتية تصفر والبرد يلسع كالسياط، وكانت تلك الأكواخ سقوفها ترشح كلما هطل المطر ولو كان قليلا، ولابد للانسان أن يحصل على الدفء اللازم ليقاوم البرد لكن ذلك لا يتوفر لهؤلاء لا فى السكن ولا فى الملبس ولا فى الطعام، وكان عبد الله ورفاقه من ضمن أولئك الذين بقوا يمارسون نفس العمل، البحث عن مخلفات الحرب من قنابل وألغام أينما وجدت لأنها المورد الوحيد للرزق بالنسبة لهم، كذلك فإن ذلك العمل هو الوحيد الذى خبروه كما خبروا تلك الفيافى من صحارى ووديان وسهول وجبال، وكانت متعتهم فى هذا العمل رغم خطورته هى تلك الحرية المتمثلة فى مد البصر دون أى حواجز وتحت سماء فسيحة نهارا والتحلق ليلا حول كانون نار

يستعر فيه حطب عيدان الرتم تلك النار التى ما تكاد تخبأ جذوتها حتى يكون كل واحد منهم قد انام بعد أن تدفأ.

وبعد عدة رحلات بين سوق العجاج وبئر حكيم وتفكيك العديد من القنابل والألغام ومواجهة مخاطر كثيرة توفر لعبد الله مبلغ لا بأس به، وكذلك الحال بالنسبة لرفاقه الثلاثة كما أنه قد اتفق مع أحدهم على أن يقوما بزيارة للأهل فى قريتهما والاطلاع على الأحوال هناك وربما ترتيب وضع أسرتيهما بحيث يعود فيما بعد بشكل نهائى، وما كان يدعو الى هذا التفكيرهو قلة مخلفات الحرب وتزايد خطر الانفجارات فى الفترة الأخيرة، وبدءا يعدان لذلك بينما قرر رفيقاهما الأخران البقاء فى طبرق ريثما تتضح الأوضاع وقد عادوا جميعا الى سوق العجاج وذلك الكوخ ذى الواجهه الصدئة والهيكل الحقير، أبلغ عبد الله بقية الرفاق فى الأكواخ المجاورة وأولئك الذين يعرف أهلهم فى القرية بما انتوى بحيث يعد من يريد إرسال جوابات أو نقود، ولقد اعتاد كل من ينتوى السفر أن يفعل نفس الشىء إذ إن تلك هى الوسيلة الوحيدة للاتصال بالأهل وإرسال ما يتوفر من مال أو جوابات.

جلسوا بعد العشاء لتناول الشاى وجاء أحدهم ببعض الكاكوية احتفاء بتلك المناسبة، فها هم هؤلاء الأربعة يفترقون مرة أخرى، اثنان يغادران الى أهلهما والأخران يبقيان مع القنابل والألغام، ولا أحد يعلم ما إذا كانوا سيلتقون مرة أخرى أم لا، ولقد كانوا ستة من الرفاق فقتل اثنان منهم وهؤلاء الباقون يفترقون غدا.

لقد كثرت التوصيات والأفكار والهمهمات والعديد من الجوابات التى عادة ما يكتبها الفقيه الذى صار فى تلك الليلة يتنقل بين هذا الكوخ وذاك

حاملا الدواية والقرطاس والقلم، وكلما كتب جوابا ثنى القرطاس فى شكل مربع وشبك جوانبه معا وكتب على ظهره اسم المرسل إليه وعلى واجهته اسم الراسل وعبارته المعهودة دائما هى (يوصل ويتسلم بيد العبد المغفور له فلان) وهم لا يكتبون الجوابات باسم المرأة أبدا، زوجة كانت أو أما، وإنما بأسماء الذكور حتى لو كانوا أطفالا ولم تكن هناك أظرف توضع فيها الرسائل وذلك ما يدعو الفقيه الى ثنيها وشبكها من أطرافها.

وكان عبد الله ورفيقه قد ذهبا الى الجنسية لمعرفة وسيلة النقل وقد اتفق لهما أن يتوقفا فى بنغازى عدة أيام لزيارة بعض المعارف وربما شراء ما يفرح العيال ولحسن حظهما كانت هناك عربة جاهزة للسفر خلال اليوم التالى مباشرة وقد دفعا أجرة السفر مقدما، كان ذلك اليوم على غير العادة يوما دافئا تتهادى فيه أشعة الشمس من خلال سحب خفيفة تتخللها نسمات مرطبة بقطرات متقطعة من مطر ندية نظيفة ذلك أن الأجواء لم تكن ملوثة بالغبار أو الدخان لأن المصانع غير موجودة والسيارات قليلة، وكان صفاء ذلك النهار يمثل بشرى طيبة لرحلة سعيدة، كان يوما صافيا أجادت به السماء وقد أضاف فرحة على فرح الإحساس بالعودة الى الأهل، إحساس سعادة لنفوس ارهقها الحزن والخوف والقلق.

سألوا كم يوما ستأخذ الرحلة من طبرق الى بنغازى؟ فقيل لهم هى يوم وليلة، سبحانه مغير الأحوال، عندما جاءوا قضوا خمسة عشر يوما تقريبا حتى وصلوا ولم يكن مع أى منهم مال غير أحدهم ربما كان يملك ثمانية وأربعين قرشا حسب ما قال بعدئذ ولولا أهل الخير لماتوا جوعا قبل أن يصلوا أما الآن فإن الرحلة تستغرق يوما وليلة واحدة ولدى كل منهما قرابة ثلاثين جنيها، ما أجمل أن يكون لدى الإنسان مال، تراودهم أحلام الوصول ولقاء الأحباء وتحقيق بعض

الرغبات وتفريح العيال ولشد ما كان كل منهما يتوق الى بلد ما كان يؤثر مغادرته فى يوم من الأيام، وأهل لهم فى القلب مكان فسيح، وأقران لهم من الذكريات طيباتها ودوامها، وما أروع أن يعود الإنسان غانما، أوليس غنيمة أن تحصل على ثلاثين جنيها نقدا وما حلمت بها فى أى يوم من حياتك وسالما من أكداس القنابل والألغام كنت تحتضنها كل صباح ؟

وفى المدينة مكثوا أربعة أيام زاروا خلالها بعض المعارف وبطبيعة الحال فإن للمدينة بهرتها ومغرياتها ورونقها ومظهرها الخلاب خصوصا إذا كان المرء يملك مالا، وعلى الرغم من أن يوم وصولهم كان الجو عاصفا نوعا ما وكان ممطرًا وباردا وهم لا بد أن يمشوا من طرف المدينة الشرقى الى منطقة البركة من ناحية جنوبها وهى مسافة لا تقل عن ثمانية كيلومترات ولم يكونا قد عرفا الطريق المباشر الى المكان الذى يريدانه وكان عليهما أن يتوقفا بين وقت وآخر ليسألا عن البركة وهل هى فى الاتجاه الذى يسيرون فيه أم لا، وهذا يأخذ وقتًا طويلا ومسافة أبعد وقد كان المطر يبللهما مع صفعات ريح بارد على الوجوه، ولقد كانوا يمشون بسرعة كمن يركض مندهشين من حركة الناس وعربات الكارو والباعة المتجولين خصوصا فى منطقة الفندق البلدى القريب من مكان توقف عربات النقل والجنسية التى توقف فيها السيارة التى أقلتهما من طبرق، ومع التحديق والالتفاف هنا وهناك كان كل منهما يقبض بحرص شديد على مخلاته التى لا تحوى شيئا غير حاجيات قليلة كموس الحلاقة وقطعة الصابون السوسى الأخضر وغيرها، أما النقود فقد كانت داخل حزام القماش الذى شده كل واحد منهما على وسطه تحت القميص بعناية فائقة وهو الذى لا يفك حتى وقت النوم إذ لا يليق بامرئ عاش تلك المخاطر فى تكفيك القنابل والألغام وواجه الموت

عديد المرات أن يفرط فى مال وفره بشق الأنفس وبعد مدة طويلة من المعاناة، ولو حدث وسرقت تلك النقود لأصبحت طامة كبرى وما كان الواحد منهم رغم ربط الحزام بعناية شديدة ليطمئن ولهـذا لابد أن يتحسس وسطه فى كل مرة وكل وقت ليتأكد من أن الحزام مشدودا بشكل جيد وكما يجب وإذا ما كسبت مالا أضنتك رعايته والمحافظة عليه، ولئن كان هناك ما يثير القلق بالنسبة لكل منهما أثناء تلك الرحلة فهو كيفية المحافظة على تلك النقود الى أن يصل الواحد إلى أهله وقريته.

وفى بنغازى كان هناك فيما سبق اثنان مقيمان من أقاربهما قيل لهما أنهما يقيمان فى منطقة البركة هما ذلك البقال والخياط، والبركة التى هى الجزء الجنوبى من بنغازى، وصار هناك اثنان آخران فى منطقة تسمى الكيش عرفا عنهما بعض المعرفة قبل أن يغادرا طبرق وهما أيضا من نفس القبيلة، أحدهما بقال والآخر وكيل تاجر مخلفات الحرب، وكان عليهما وقد بقيا فى بنغازى أن يزورا هذين وذينك أولا لأنهما سيبقيان ثلاثة أيام وربما أكثر الى أن يجدا وسيلة نقل الى طرابلس، ومعنى هذا أنهما سينامان ثلاث ليال، ليلة عند هذا وأخرى عند ذاك وهكذا، وهم لا يعرفون الفنادق ولا حتى المطاعم، ولهذا فإن من يعرف أحد يذهب إليه لينام ويأكل الى أن يسهل الله السفر أو غيره ومن لا يعرف أحدا يبقى فى الجنسية الى أن يسافر.

زارا أحد الأقارب بعد فترة من المشى والسؤال واللف بين هذا الشارع وذاك حتى وصلا البركة، عندما وصلاه سلما عليه بتحية الإسلام وما لبثا أن ذكرا له أنهما فلان وفلان من أهله ولكنه لسبب غير واضح لم يبد ترحيبا وقد طافت بين شفتيه ابتسامة صفراء باهتة عندما قالا له أنهما من أهله وإنهما جاءا

من طبرق وسيبقيان فى بنغازى عدة أيام، سلم بفتور وسأل عن الحال ولكنه لم يزد على أن قال حمد الله على السلامة، ونظر شزرا الى كل منهما وقد كانت ملابسهما رثة مهلهلة بما لا يوحى بأنهما يملكان مالا أو أنهما عملا فى طبرق كما قالا وقد غادراه دون أن يدعوهما حتى على طاسة شاى بل انشغل بترتيب بضاعته فى ذلك الدكان الصغير، وقد سألاه قبل أن يغادرا عن الطريق إلى الكيش فوصفهما قائلا، الطريق الذى يمر أمام مركز الشرطة فى اتجاه الغرب عبر مقطع الزيتون تقابلون عددا من الأكواخ وبعدها مباشرة بعض بيوت مبنية بالحجارة، ذلك هو الكيش، والحقيقة أن هؤلاء الذين يقيمون فى بنى غازى كانوا قد قدموا يد العون والمساعدة لكثير من الناس فى الإقامة والسفر والبحث عن السكن والعمل، ولكن كما يقول المثل (الكثرة تحرم الود) وبينما كانا فى طريقهما الى الكيش رأيا امرأة تجلس على الأرض وقد وضعت أمامها قطعة قماش وحولها بعض الناس وهى تتحدث الى رجل فى مقتبل العمر وتحرك مجموعة من الحجيرات والفحمات وبعض الخرز، ولم يكن الكلام الذى تتفوه به واضحا لكن عبد الله أراد أن يجرب فجلس أمامها وراح يسألها لكنها لم ترد وقد أعطته ثلاث حجرات وفحمة وقالت له أقبض عليها وقل فى سرك ما تريد ثم أعيدها الى، وهكذا فعل تناولت تلكم الحجرات بيدها اليمنى وبعد أن خضتها رمت بها على قطعة القماش المطروحة على الأرض وحركتها مع بقية الحجارة والخرز والفحم وحدقت فيه لبرهة ثم نظرت مرة أخرى الى تلك الحجارة والفحمات وقالت بعد أن تمتمت ونظرت الى أعلى مائلة برأسها الى الجانب الأيمن من جسمها، قالت أنت قاصد طريقا طويلا وهناك من ينتظرك وسيفرح بعودتك ربما زوج أو أم، همهم، أم؟ لقد ماتت ولم أحضرها أو أراها، قالت دون أن تهتم بما تمتم به، طريق أبيض

ومفتوح، مدت يدها، ادفع نصف قرش، نقدها نصف القرش كما قالت ورفع مخلته التى كان قد وضعها بجانبه وغادر مع رفيقه، كان سعيدا بما سمع وقال إنها حتى لو لم تصدق فقد تفاءلت والفأل حسن وذلك يكفى مقابل نصف القرش وصار راضى الخاطر يحث الخطى فى اتجاه الغرب الى الكبش أما صاحبه فما رغب أن يصرف نصف القرش ذاك الذى يتوجب عليه أن يدفعه لو أراد أن يسأل تلك التقازة.

وصلا الكيش ووجدا أحد الأقارب الذى رحب بهما بحرارة وقد أدخلهما الدكان وأعد الشاى كما تبادل الحديث معهما لغرض التعارف وقد بادراه بالسؤال عن من جاء ومن غادر الى القرية فى المدة القريبة الماضية ومن مات أو مرض وكيف حال العمل والعيشة فى بنغازى كما سألهما عن أحوال الناس وتلك المخاطر الكثيرة التى سمع عنها وموت الناس هناك وهل ما زالت مخلفات الحرب موجودة بعد تلك المدة الطويلة منذ بدأ ذلك اليهودى مشروع شراء مخلفات الحرب، حتى أنه قد أنشأ لنفسه وكلاء فى بنغازى أيضا، وإذ دخل مضيفهما ليطلب من أهله اعداد الطعام، قال عبد الله لرفيقه، هذا أول الطريق الأبيض الذى قالت عنه التقازة، قلب رفيقه شفتيه وهز رأسه دون أن يتكلم، لعله كان يريد أن يقول فلننتظر.

عندما رجع صاحب الدكان حدثاه عن أولئك الذين قتلوا فى الفترة الماضية وبالاسم إذ ربما كان يعرف أحدا منهم، كما ذكروا بعض أسماء أولئك الذين أصيبوا ومن عولج منهم ومن ما زال فى المستشفى وعن مقبرة طبرق وعدد أولئك الذين قطعت أيديهم أو أرجلهم، ومع أن الألم يعتصر قلب المستمع والمتحدث فقد كان لزاما عليهما أن يذكرا تلك الحقائق ولقد كانت الخسارة كبيرة

سواء فى أولئك الذين قتلوا أو الذين تضرروا، ولكن ليس هناك من حيلة ولا محيد، ذلك أن الناس لم تجد عملا ولا مورد رزق غير القنابل والألغام، وفى مساء ذلك اليوم اقترح عليهما مضيفهما شراء بعض الملابس وقال إن الملابس فى سوق الرويسات رخيصة ولا يجب أن يعودا الى قريتهما فى ملابس مهلهلة بعد مدة طويلة من الغياب، لكنهما رفضا الاقتراح أو الفكرة لأن تكسية العيال والأهل هى الأولى وقد يشتريان شيئا من طرابلس.

وبعد أن التقيا أقاربهما المقيمين فى الكيش غادرا الى طرابلس وهذه المرة ركبا عربة كارو من الكيش الى قرب الفندق البلدى إذ كانت معهما بعض الحاجيات التى كانوا قد اشتروها ووضعوها معا فى شوال أبيض كان يستعمل للدقيق، دفع كل منهما قرشا واحدا مقابل ركوبهما إلى الجنسية وقد فرحا إذ هيأ الله سبحانه وتعالى كل شىء كما يتمنيان وكانت تعترى كلا منهما أفكار لايعرف لها تفسيرا، هى الخوف والسعادة والتوتر والهواجس، هل سيصلون بخير؟ وهل الأهل هناك أيضا بخير ؟

وماذا سيحدث لو لا قدر الله سرقت من أحدهما أو منهما الاثنين النقود التى شقيا من أجلها؟

هل المبلغ المربوط على البطن سليم ؟ يتحسس الواحد باصبعه الحزام ؟

هل سينامون ليلة فى طرابلس وهم لا يعرفون أحدا وما كانوا قد سألوا عن أحد؟

أفكار كثيرة ولكن الاتكال على الله ﴿ توكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرا ﴾[1] صدق الله العظيم.

(١) سورة الفرقان، الآية ٥٨ .

غادرا بنغازى بعد ظهر يوم بارد ممطر فى عربة نقل وان كانت قديمة إلا أن صندوقها مغطى بشكل جيد يقى من المطر والبرد وقد وصلا طرابلس بعد يومين من المغادرة وقصدا مباشرة الجنسية التى كان يعرفها عبد الله إذ كان قد سافر منها عندما اتجه الى الشرق فى المرة الأولى ولم يبقيا طويلا حيث وجدا عربة أقلتهما الى منطقة الجبل الغربى.

وما أجمل دفء الوطن وقرب الأهل والأحباب كما ما أصعب الأيام التى يعيشها الإنسان بعيدا، أيام الكد والتعب والخوف، وما أروع الاصباح فى موقع الرأس وأرض الأجداد وما أسعد الأيام والليالى بعد الشقاء والخطر.

وكما هى العادة إذ كلما كان هناك عائد من تلك البلاد البعيدة والتى فيها كثير من الأخطار تقاطر الناس نساء وأطفالا ورجالا كبار السن يسألون عن ذويهم وما إذا كان هناك جوابات أو أموال أو أى خبر، هذه تسأل عن زوج وأخرى عن ابن وثالثة عن أخ ورابعة وخامسة إلخ. كذلك عمن ينوى العودة ومن مات أو جرح، يأتون ويذهبون منهم السعيد ومنهم الحزين، وكلهم يساورهم القلق فى كل وقت، بعض الأطفال سعداء يضحكون أما أولئك الرجال كبار السن فإنهم غالبا ما يخيم على وجوههم الوجوم مع تلك الخطوط والكراميش التى حفرتها السنون والأيام ولا ترى دمعة فى عينى أى من هؤلاء حتى ولو كان قد فقد عزيزا على نفسه إلا ربما إذا اختلى بنفسه فى الداموس أو الغابة، أما النساء فهن دائما صاحبات الدموع الغزيرة سهلة الانهمار وكن خارجات من لدى ذلك العائد باكيات مولولات متشنجات على الرغم من أنه فى الغالب لا يبلغ عن المتضررين من الانفجارات وإن كان بطبيعة الحال يترحم على الذين قتلوا كأن

يقول، فلان رحمه الله لأنه لا يستطيع أن يخفى على هؤلاء المتلهفين على أخبار أزواجهن أو أبنائهن أو آبائهم.

ومن تلك الأشياء التى يأتى بها العائد ليقدم منها هدايا لهذه الجارة أو تلك الزائرة بعض أنواع البخور والعلك واللوبان والحناء وذلك أن هذه الأشياء قد اختفت من القرية منذ زمن طويل؛ لأن من لا يجد طعاما لبطنه وأطفاله لا يهتم بالروائح أو الزينة، وعادة ما تكون هدية العجوز بعض الحناء إذ إنهن يصبغن بها شعورهن البيضاء أما النساء المتزوجات فهديتهن عادة ما تكون بخورا وللشابات علكا أو لوبانا وللأطفال قطعة حلوى علاكى من تلك التى اشتهرت بها مدينة بنغازى، وللأهل بعض الملابس، سورية وملحفه وبلغة طرابلسية للزوجة وملحفة للأم إذا كانت على قيد الحياة وقميص وسروال للطفل وجرد وعكاز خيرزانى للأب، هكذا حسب عدد أفراد العائلة، وكما يقول (غاب وايش جاب) لا بد من بعض الهدايا.

ولم يطل المكوث فى القرية بالنسبة لعبد الله لأنه كان قد صرف المبلغ الذى جاء به فى شراء جمل ومحراث وأشياء أخرى، وهكذا قرر العودة الى طبرق لتوفير مبلغ آخر بحيث يمكنه أن يستقر نهائيا فى العودة القادمة ويرتاح، أما رفيقه الذى جاء معه فقد مكث ورأى ألا يعود مرة أخرى للخطر فلا يمكن أن يسلم المرء مرتين من بين فكى أسنان الأسد كما قال.

ولم تنفع عبد الله كل توسلات ودموع زوجته وأطفاله لأنه كما قال لابد أن يوفر مبلغا آخر قبل أن تنفذ مخلفات الحرب من طبرق وبعد ذلك سوف يكون قادرا على الزرع والحرث والحصاد والاستقرار، فالجمل موجود الآن وكذلك المحراث ولا يحتاج إلا الى مبلغ آخر مثل الذى جاء به هذه المرة.

ترك بعض النقود لزوجه وحمل تلك المخلاة وقد غادر القرية صباح يوم غائم واثقا هذه المرة لأنه خبر السفر وأحواله إذ سوف يذهب مباشرة الى تلك الجنسية فى طرابلس ومنها الى بنغازى ثم الى طبرق وهناك سيجد الكوخ ورفيقيه اللذين بقيا هناك ولديه فى ذلك الكوخ عدته للعمل، قادومة ومقرض، ولكن نوازل القدر تأبى أن تترك عبد الله الطموح يهنأ بما حقق ما يمكن جمعه فى أسرع وقت ممكن والعودة قبل فصل الحرث القادم، وكان قد حمل العديد من الجوابات والسلامات الى أولئك الذين يقيمون فى سوق العجاج، وحدث رفيقه بما فعل فى القرية وكيف رأى الناس وأنه اشترى جملا ومحراثا وسوف يعود للاستقرار مع أهله.. ذلك ما كان قد قرره وهو لا يعلم بالغيب ولكن لم يمهله القدر أو ربما سوء التصرف وعدم القناعة إذ أصيب بجروح بالغة فى جسده وقطعت يده اليمنى وتشوه وجهه إثر انفجار قنبلة كان يفككها خلال اليوم الثالث من عودته الى ذلك العمل القاتل، وقد نقله رفاقه الى المستشفى حيث عولج وظل طريح الفراش لمدة طويلة، وقد صار مشوه الوجه قطيع اليد اليمنى، تسكن فى جسده شظايا من الحديد، لم يبق له شىء، وبدا كل شىء أمام عينيه لا يساوى شروى نقير.. وتبخر الأمل كما أظلمت الدنيا.

بقى تحت العلاج مدة طويلة زاره خلالها أولئك الرفاق عدة مرات، وكان كثير التذمر والشكوى مما هو فيه كما الندم على العودة الى هذه المخاطر، وكانوا يواسونه بكلمات كالقول إنه قدر ومكتوب إلخ. كان يوصيهم بعدم إبلاغ أهله حتى يعود إليهم بنفسه، زاره ذلك الفقيه الذى يؤم الناس فى سوق العجاج وهو الذى كان يعرف عبد الله كشاب نشيط، طموح نقى، تحدث إليه كثيرا مطمئنا، ومواسيا، حامدا الله على أن عبد الله فقد يدا واحدة فقط وإذا كان الوجه

قد تشوه فنعمة الله باقية وهى العينان إذ لو فقد عينيه لكانت الدنيا قد أظلمت فعلا فى وجهه، وقبل أن يودعه قال: ﴿وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين﴾[1] صدق الله العظيم، شد على يد عبد الله اليسرى وغادر المكان مرددا، لا حول ولا قوة إلا بالله.

غادر عبد الله المستشفى بعد شهور من المعاناة والتألم، معاناة الجروح وتألم النفس وقد أضناه الندم والتفكير، أقام عدة أيام مع رفاقه فى سوق العجاج انتظارا لمن يريد إرسال جواب أو نقود ثم اتجه الى بنغازى وهناك لم يزر أحدًا ومنها الى طرابلس ثم الى قريته، أثناء السفر كان يحس بالعجز حتى فى ربط أو شد جرده، كان يحرك الجزء الأيمن من كتفه متخيلا أن يده اليمنى ما تزال هناك ولكن ويا خيبة الأمل فإن الجانب الأيمن من الكتف هو الذى يتحرك فقط، وحتى فى ركوب السيارة كان يتعثر ويقع قبل أن يتمكن من الصعود.

كان يوم وصوله تلك القرية ورؤية أهله وهو على ذلك الحال يوم حزن عميق بدلا من أن يكون يوم فرح كما حدث فى السابق عندما عاد فى المرة الأولى رجلا متكامل قوى البنية يحمل مالا وفى وجدانه أمل وفى قلبه سعادة، جاء هذه المرة بوجه مشوه بشع ويد يمنى مقطوعة ونفس جريحة كسيرة، ولم يكن معه من المال غير ثلاثة جنيهات هى ثمن وجه مشوه ويد مقطوعة وألم دائم. هى حصيلة أيام عمل فى تفكيك القنابل قبل أن تقع الواقعة وتقطع اليد، ومن كبر المصائب أن يفقد الإنسان يمناه ذلك أن المسلمين غالبا ما يعملون كل شىء باليد اليمنى، العمل، أى عمل، والأكل والسلام وحتى التسبيح وقت الصلاة والكتابة لمن تعلم القراءة والكتابة؛ ولذلك فإن من يفقدها يكون قد فقد أكثر من

(١) سورة هود، الآية ٦ .

نصفه، وهكذا فعبد الله لن يستطيع الزرع والحرث أو الحصاد وهو العمل الذى كان يأمل أن يقوم به عندما يستقر فى قريته.

كان الألم النفسى يزداد كلما زاره أحد من الرجال أو النساء وكان لابد أن يزوره أولا لأنه مصاب وثانيا لأنه قادم من طبرق وهؤلاء يريدون السؤال عن ذويهم وما إذا كان قد أحضر معه جوابات أو نقودا، هؤلاء كانوا ينظرون إليه بأسف وتوجع وخوف، أسف عليه وتوجع لحاله وخوف على أولئك الذين ما زالوا يعملون فى تفكيك القنابل والألغام فى منطقة طبرق، والذين قد يحدث لهم ما حدث لعبد الله أو أكثر حيث يصيرون إما عجزة أو أمواتا، ومن جانبه هو أيضا يود أن لا يلتقى أحدا ولا يزوره الناس بحيث يرونه على ما هو عليه من عجز وألم وتحرق، وإذا كانت زوجة قد رأت أن تلك مشيئة الله وهى راضية بما أراد الله سبحانه وتعالى فإن الحال ليس كذلك مع طفليه إذ انهما يسألانه عما حدث له وما الذى شوه وجهه ولماذا انقطعت يده؟

فإذا قال إنها قنبلة كنت أفككها فانفجرت وفعلت هذا الذى ترونه، قالوا: ولماذا تفكك القنابل وتعرض نفسك لهذا الخطر ؟

يحاول أن يشرح لماذا فعل ذلك ولماذا تحدى الخطر، انه الجفاف ونقص الغذاء والفقر الشديد وعدم وجود عمل أو أى فرص للعيش. وكان لزاما عليه أن يوفر لهما ما يحتاجانه من طعام ولباس وغيره، وقد ذهب إلى طرابلس ولم يجد عملا كذلك بحث فى بنغازى وكانت فرص العيش مسدودة وإجراءات الشرطة قاسية وأهل البلاد يشتكون من وجود الاجانب عرب الغرب، وهكذا لم يكن هناك من بد إلا أن يتركهما لمصير نتيجته الموت جوعا أو ركوب الخطر والموت لتوفير ما يبقيهما على قيد الحياة. ومن مسؤليته الاجتماعية أن يرعاهما

ويحميهما وهو الشىء الذى لابد أن يفعله أى أب، وقد حدثهما عن مشاق السفر وكيف أنه كان يمشى لمدد طويلة على رجليه وبطنه خاوية كما أنه لولا أصحاب الخير من قريته ما كان يمكن أن يجد ثمن ركوب العربة التى أقلته إلى أجدابيا وكيف أنه مع آخرين ساروا مشيا على الأقدام لمدة تقارب الاربعة عشر يوما وليس معهم أى نوع من الطعام أو الشراب، وأيضا لولا رحمة الله واصحاب الخير من أهل تلك البلاد ما كان يمكنهم أن يعيشوا وأن يصلوا مكان العمل هناك فى طبرق، وكيف أنه سافر وهو لا يعرف طريق السفر وما حدث له فى طرابلس .. إلخ.

لكنهما مع ذلك يستمران فى أسئلتهما الساذجة الصغيرة مثل عقليهما، وماذا ستفعل الآن ؟ يدك اليمنى مقطوعة وصحتك متدهورة ؟ بل وحتى كيف يمكن أن تأكل أو تغتسل ؟

الزوجة كانت تستمع وتنظر متحسرة فهو فى الواقع نصف رجل بائس وقلق يتشاجر لأتفه الأسباب وصار منطويا عابسا حتى أنه لم يعد حريصا على أداء الصلاة فى الجامع؟! ربما لاعتقاده بأن شكله غير مستحب ويدعو إلى الدهشة والرثاء وهو حزين شاحب ولايحتمل أن يرى ذلك فى عيون الناس، كما أنه صار بلا رغبة أو هدف أو حتى امل فى الحياة وإن كانت عيناه ما تزالان سليمتين وفيهما بريق ذكاء لكن مسحة الحزن لاتخفى على الناظر إليهما، عندما كانت زوجه تنظر إليه بينما أطفاله يسألونه كان يعرف ما يدور بخلدها لكنه لم يقل لها شيئا وإنما رد على أطفاله قائلا، لنا الله الذى لا ينسى أحدا من رحمته.

ومع نساء القرية اللواتى يأتين لزيارة خديجة عادة ما يتجاهلن الكلام عن حالة عبد الله لكنها كانت تدرك ما يعنيه ذلك، وكانت تتنهد وتهم أحيانا بالبكاء

فيقلن هذا ما أراده الله ولا راد لمشيئته، وعندما يخرجن من عندها يصرن متندرات هازئات مما آل اليه حال عبد الله وتلك الأسرة، هذه تقول إنه يستأهل لأنه كان يريد أن يستغنى فى يوم واحد ولم يكتف بما حصل فى المرة الأولى، وثانية تقول أن وجهه صار أبشع من أولئك الذين حفر وجوههم الجذرى ومسكينة خديجة التى تصبح وتمسى على هذا الوجه، وهلم جرا.

أما هو فقد كان يحاول جاهدا أن يعود نفسه على الاعتماد على يده اليسرى حتى أنه فى مبدأ الأمر لم يكن قادرا على وضع اللقمة فى فمه أما طاسة الشاى فلابد أن يندلق شىء منها خارج فمه فى كل مرة ويصعب عليه مد تلك اليد عندما يسلم عليه أحد ما، ولا يستطيع الوضوء للصلاة إلا إذا ساعدته زوجه أو أحد أطفاله، ويقول فى كل مرة أن نصفه ميت، وكل ذلك كان يحدث فى نفسه غما وألما فهو لا يقبل أن يكون عاجزا أو عالة على أحد، ولابد أن يحاول عمل كل شىء دون الاعتماد على أحد، وحدث أنه رويدا رويدا استعاد بعض الثقة فى نفسه ورباطة جأشه وصار يشارك الناس فى لقاءاتهم ويصعد إلى الجامع فى أوقات الصلاة ويناقش ولديه فيما حفظ من سور القرآن الكريم.. وبعد أن خرج عبد الله من المستشفى وعاد إلى قريته حيث واجه ما واجه من الصعاب الاجتماعية والتعقيدات والعواصف النفسية وقد بقى اثنان من رفاقه مقيمين فى سوق العجاج يمارسان نفس العمل الذى ألفوه والذى أودى بحياة الاثنين الآخرين من رفاقهما وأصاب عبد الله بأضرار بالغة، وبعد أن قل الدخل من مخلفات الحرب بسبب قلة تلك المخلفات وتكرر حوادث الانفجارات إذ إن الألغام والقنابل الباقية كانت من نوع تلك المعقدة التصميم صار أولئك الناس الذين يقيمون هناك يفكرون فى الانصراف عن ذلك العمل الخطر وربما العودة

إلى بلدانهم ليلتحقوا بأولئك العجزة الذين عادوا بعد أن تركوا بعض أطرافهم مدفونة هناك فى طبرق مثل عبد الله الذى فقد يده اليمنى إثر انفجار قنبلة تركت فى جسده الكثير من شظاياها والذى صار يهذى كلما نام ليلا أو نهارا بل ويصرخ عندما يطوف به وهو نائم شبح ذلك الحادث وإذا ما تفكره يصاب بقشعريرة تهز جسده هزا عنيفا ويعاوده الشعور بالتشاؤم حتى أنه يقول ليتنى لم أعد إلى طبرق ليتنى اقتنعت بالرزق الذى أتيت به فى المرة الأولى (والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا ترد إلى قليل تقنع) ولكن ما فائدة الندم بعد أن فات الأوان، هل هو القدر الذى جعله يعود ؟ هل هو عقاب الله على عدم القناعة؟

أسئلة كثيرة تدور فى ذهنه دون أن تنتهى أو تتوقف وذلك شىء يؤرقه وقد صار يعيش فى حزن دائم، وكان يصطنع الابتسامة وينتزع مشاعر الفرح عندما يكون مع طفليه أما زوجه فقد كانت ترى فى انطفاء بريق عينيه ما يعانيه بداخله، وتدرك عندما يصطنع الابتسامة ما يدور بخلده وهى ابتسامة مع حسرة وألم يعتصر القلب ويدميه، فى وقت يمتلى الصدر فيه حزنا والفؤاد تضطرم فيه نار حامية، إنه الشىء الذى لم تشهده فى زوجها حتى إبان أيام الضنك والفقر قبل أن يسافر إلى منطقة طبرق ويعرف مخلفات الحرب وتفكيك القنابل والالغام، لكنها صابرة وهى تحاول التخفيف من ألمه بالقول إنها إرادة الله التى لا راد لها.

وبعد الكثير من التردد والتفكير أيضا وافق عبد الله على رأى زوجه إذ لابد أن يجد عملا، أى عمل، كأن يقيم نوعا من التجارة أو الحرفة، وهو لا يعرف أى حرفة ولهذا قرر أن يفتتح لنفسه دكانا صغيرًا لبيع بعض الحاجيات اليومية كالسكر والشاى وما إلى ذلك وفى السوق القديم الذى يتكون من محلات صغيرة متقابلة مقامة بالحجر والجير وهى المحاذية لمركز الشرطة الذى أقامه

الإيطاليون على ربوة تشرف على البلدة من كل الجهات، وهو مبنى مربع حوافه العليا مسننة وبها فجوات معدة لإطلاق النار فيما إذا حدث وتجرأ أى إنسان على الاقتراب منه أو مهاجمته.

وفى داخل المبنى بئر ماء يقع فى الوسط رغبة فى الاكتفاء بالماء عند اللزوم اضافة إلى مخازن التموين التى قيل أنها تكفى لمدة شهور لعدد لا يقل عن خمسين شخصا وإسطبلا للخيول وهى وسيلة التنقل فى ذلك الوقت، لكن المجاهدين الليبيين أثناء فترة الجهاد ضد الطليان التى دامت قرابة عقدين من الزمان ابتداء من شهر نوفمبر سنة ١٩١١ م استطاعوا محاصرة المبنى لعدة أيام مما اضطر الضباط والجنود الإيطاليين إلى التسليم وقد سيقوا أسرى إلى مخيم للمجاهدين، وعلى الرغم من المعاملة الحسنة التى لاقوها من جانب المجاهدين عملا بتقاليد العرب وسماحة الاسلام فإن الجنرال (غراتسيانى) وهو قائد القوات الإيطالية فى ليبيا أثناء الحملة الثانية والتى عرفت بحملة الإبادة قال فى كتابه المعنون (نحو فزان) إن تلك البلدة هى قرية حقيرة جاثمة فوق الجبال. كما قال عن أولئك المجاهدين بأنهم حفنة من اللصوص وقطاع الطرق.

ليس غريبا عليه أن يقول ذلك على أى حال وهو السفاح الذى كان يقتل وينكل.. أنشأ عبد الله فى ذلك السوق دكانا لكنه واجه الكثير من المشاكل القديمة الجديدة إذ وجد نفسه عاجزا حتى عن القيام بذلك العمل الذى لا يحتاج إلى جهد كبير، أى وضع السكر والشاى فى قراطيس الورق لأنه بيد واحدة وهى اليسرى التى ما تعود أن يؤدى بها أى عمل، المسلمون عادة ما يستخدمون اليد اليمنى فى اغلب الأشياء والأعمال، وكان كلما باع شيئا تحير فى كيفية إعداد القرطاس وكان يطلب أحيانا من الشارى مساعدته لكن الحالة

تختلف وتتعقد إذا ما كان الشارى طفلا أو امرأة، وفى محاولة التغلب على هذه المشكلة جعل طفليه وزوجه أثناء الليل يجهزون الورق ويلفونه بحيث لا يحتاج إلا إلى ضغط الجانب الأعلى من القرطاس ليغلق الفتحة وصار الأطفال يسمون ذلك طربوشا، ولا أحد يعرف من أين جاءوا بتلك الكلمة، ولم يمض وقت طويل حتى صاروا يسمونه بصاحب ورق الطربوش، وكان رأسماله فى الدكان يساوى ما قيمته خمسة جنيهات وهو مبلغ يكفى لمثل تلك التجارة البسيطة.

ولقد كان هذا العمل على نحو ما جديدا على حياته إذ انه لم يألف الجلوس بين أربع حيطان منتظرا ومعلقا عينيه على مدخل تلك الحجرة الصغيرة التى هى الدكان، كان يصعد فى الصباح من سكناه متجها إلى السوق الذى يقع هو الآخر على ربوة حيث يسلك ممرا متربا متعرجا وصغيرا يؤدى إلى ذلك السوق وكذلك إلى المركز حيث يقع المفترق بينهما ومن يريد السوق يتجه إلى الشمال أما من يريد المركز فيتجه إلى اليمين والمسافة بينهما متساوية تقريبا. فى طريقه كان يمر بعجوز يجلس القرفصاء على الكندورة أغلب ساعات النهار ينظر إلى هذا المار أو ذاك فإذا كان الشخص متجها إلى السوق يقول له، قل يا مسهل، أما إذا كان المار متجها إلى الجانب الآخر فيقول له، قل يا ساتر، ولا يتحرك من مكانه إلا بعد أن يؤدى صلاة المغرب ثم يتوكأ على عصا معقوفة من طرفها الأعلى ليقف ويتجه متمهلا إلى حفرة تقع أسفل الكندورة يسميها داموسا وهى بلا باب أو حواجز، ولا يخرج إلا صباح اليوم الثانى ليجلس فى نفس المكان ويردد نفس العبارات على أسماع المارة، ولا يعرف أحد كيف يعيش هذا الرجل حتى أن كثيرين يقولون أنه مسكون بجنية تزوجها منذ زمن وهى التى تأتيه بالطعام، لكنه ذات يوم لم يظهر فى تلك الكندورة ولأن الناس قد اعتادوا أن يروه على ذلك الحال منذ زمن فقد افتقدوه وعندما بحثوا عنه

وجدوه ميتا فى تلك الحفرة وقد وضع عصاه تحت رأسه ووجهه فى اتجاه القبلة، وإذ قاموا بتغسيله ودفنه فى المقبرة الواقعة قرب المسجد من الجانب الشمالى صارت الروايات تنسج حول وضع هذا الرجل العجوز، فمن قائل أنه مرابط وقد تنبأ بأمور كثيرة تحقق أغلبها ومن قائل أنه درويش ساذج كان يستعطى الناس أحيانا، أما عن تلك الحفرة أو الداموس فقيل إنه كان نظيفا معطرا وأن تلك الجنية ربما كانت مسلمة ولذلك فهى لم تظهر لأحد، إلا أنهم سرعان ما نسوا ذلك العجوز وزموره كما ينسى الناس عادة أمثاله بعد الموت مباشرة فهو مقطوع من شجرة كما يقولون وقد اختفى كما ظهر.

وفى هذه الأثناء ظهرت احزاب ليبية وصار أعضاؤها يزورون مختلف المناطق والقرى يتحدثون عن الاستقلال والحرية وكيف يجب أن تكون ليبيا دولة عربية مسلمة ومستقلة، كما يجب أن تكون عضوا فى الجامعة العربية، وهؤلاء الناس لم يكونوا قد سمعوا بتلك الجامعة العربية، وإن كانوا قد سمعوا أن هناك دولا عربية مسلمة وأنها جميعا شاركت فى الجهاد ضد اليهود فى فلسطين، وكانت تلك الاخبار قد تسربت إليهم من خلال أولئك الذين كانوا قد تطوعوا للجهاد فى فلسطين ضد اليهود، وكانوا قد ذهبوا من ليبيا إلى مصر مشيا على الأقدام ومن هناك نقلوا إلى الساحة الحربية فى سيارات الجيش المصرى وعندما عادوا صاروا يحدثون الناس عن تلك المآسى التى حدثت هناك، وكيف كان اليهود ينكلون بالعرب المسلمين ثم كيف كان وضع القوات العربية التابعة لنظم عربية مختلفة ومتخلفة وكان ذلك هو السبب الرئيسى فى هزيمة العرب وانتصار اليهود.

ومع ظهور تلك الأحزاب وكالعادة عندما يحدث شىء جديد فى حياة الناس تظهر اشياء وامور واحداث وتتبلور قيم وعادات جديدة، وإذ كان هؤلاء يجوبون القرى ويتحدثون عن الدولة العربية المسلمة والجمهورية، ويتحدث آخرون من أعضاء تلك الأحزاب عن الشورى والنظام الملكى الإسلامى الوراثى، كان هناك من ينادى بالاستقلال التام وطرد الاجانب من البلاد بما فى ذلك الإنجليز ومن يتحدث عن التحالف والمصالح والحماية، وعن الرأسمالية والاشتراكية، عن التحالف أو الحياد وأمة الإسلام والعروبة إلخ، وهذه كلها نتج عنها لغط وأحاديث ومناقشات فى مختلف التجمعات واللقاءات، وكان الله سبحانه وتعالى قد أنعم على البلاد بالأمطار الغزيرة خلال تلك الفترة وصار الناس يتجهزون للحرث وقد اخضرت الارض وأينع الزيتون وارتدت المنطقة حلة قشيبة مزركشة بأنواع الزهور والورود، وذلك فصل الإخصاب فى كل شىء، ويحدث فى الربيع أن تجدد السماء شباب الأرض وتكسوها خضرة لتبث السعادة فى قلوب الناس، وتتفتح الورود تفاعلا مع أشعة شمس الربيع الدافئة وتتمايل أغصان الزيتون مع النسيم الخفيف الرطب وتغرد الاطيار وهى تعمل جاهدة فى بناء اعشاشها استعدادا للإخصاب.

إنها دورة جديدة للحياة فى سنة جديدة تبشر بالخير والنماء والرزق الوفير، يتفاءل الناس ويجدون، ترى جداول مياه المطر الصغيرة تنساب آخذة طريقها إلى المنحدرات القريبة وغالبا ما تتجمع فى الشارف، تلك الساحة التى خلت من روادها لمدة طويلة إذ كانت مكان تنافس فى سباق الخيل بمناسبات المزارات السنوية التى تدوم لعدة شهور لكنها لم تعد كذلك.

يشرف عبد الله على ساحة الشارف من فوق كدوة الحوش الأوطى فى الكراكيم متذكرا تلك الأيام الخوالى الزاهية وما انفك يتنهد وهو يقول، الله كريم، وكان صدره ينقبض وأساريره تعبس لأن ساحة الشارف لم تعد ساحة لسباق الخيل والمزارات وإنما لتنافس خطباء الأحزاب وبعض الشخصيات الوطنية التى ربما كانت مكلفة بذلك العمل خدمة لجهات أخرى ورعاية لمصالحها ومصالح تلك الجهات، وحتى مباريات كرة الشاش لم تعد تقام فى تلك الساحة التى شهدت زحامها وتدافع لاعبيها بالمناكب قديما، أما الآن فلا وقت لدى الناس لأنهم يلهثون وراء لقمة العيش التى لم تعد سهلة ميسرة كما كانت بسبب تغير ظروف الحياة وفقدان القناعة، لكن الأذان ما زال يرتفع من منارة ذلك المسجد العتيق الذى يطل على جهة الشارف من الجنوب وتفصله عنها مقبرة كانت تستقبل الموتى منذ عهد أنور باشا مرورا بالسنيور غراتسيانى والمستر برايس إلى الملك السنوسى ادريس، ومن الواضح أنه لا سبيل إلى العودة إلى حياة ذلك الزمان كما لا سبيل إلى تغيير هذا الواقع الجديد. ذلك أن الحياة تتغير وبتغيرها تنتج قيم جديدة قد لا نقبلها فى تعاملنا اليومى مع الناس ومع أهلنا لكنها بالضرورة تفرض نفسها علينا عاجلا أم آجلا وهو ما يحدث فى كل مجتمع.

ورغم ظروف الناس الصعبة بسبب سنوات الجفاف الماضية وافتقارهم إلى وسائل الحرث والإنتاج فقد تعاونوا على حل مشاكلهم خصوصا أولئك الذين عادوا أخيرا من طبرق ومعهم بعض المال الذى استعانوا وأعانوا به الآخرين فى شراء البذور والدواب إن وجدت، وكذلك المحاريث والمدر والمناجل.. ولقد كانوا قبل أن تحل بهم مأساة السنوات العجاف يملكون الخيل

والإبل والسلاح وكانوا يزرعون ويحصدون، كانت لهم الأرض الفسيحة وخيول السباق العربية وسلاحهم الذى لا يتخلون عنه والمكمل لرجولة الرجل، كما يعتقدون فى مجتمعهم، وكانوا ينامون ملء الجفون فى سلام ومحبة وتواد ماؤهم من السماء وأكلهم من الحقول وأفقهم كامتداد الأرض وضوءهم قنديل زيت من زيتونة مباركة والقمر فى السماء، تمر بهم الأيام والسنون دون قلق أو توتر وخوف.

ومع الاحزاب الوطنية الليبية جاءت بعثة الامم المتحدة التى قيل أن مهمتها استطلاع رأى الشعب الليبى فى الاستقلال والحرية وما إذا كان مهيأ لأن ينعم بالاستقلال أم أنه يحتاج إلى وصاية، والوصاية لابد أن تكون من طرف ما يعتقد أنهم اصحاب المصالح فى البلاد وتلك هى بريطانيا وفرنسا وامريكا وحتى ايطاليا، وكانت هذه القوى لها مواقع اقدام فى البلاد ولها اعوان مستفيدون.

كانت فرنسا فى جنوب البلاد والأمريكيون والإيطاليون فى طرابلس، أما دهاة الاستعمار الإنجليز فهم فى برقة وتلك ذات أهمية خاصة لقربها من الشرق الأوسط ومصر والسويس وما عرف وقتئذ بالطريق إلى الهند كما كان يتوقع أن تكون فى برقة تلك أغلب الثروات الطبيعية وكانت لها حكومتها وأميرها السنوسى ومجالسها ومؤسساتها كما ارتباطاتها ومصالحها الوطنية الخاصة.

أما الشعب الذى تريد بعثة الأمم المتحدة استطلاع رأيه فى الاستقلال والحرية أو الوصاية فهو لا يعرف شيئا عن ذلك ولا هو أدرك حقيقة اللعبة السياسية الدولية أو المحلية، ومع ما أفاء الله به على البلاد من غيث صارت الأحزاب وربما أعوان القوى صاحبة المصلحة تلك تصرف الأموال رغبة فى كسب التأييد لمطلب الجمهورية والوحدة والاستقلال، أو التعاون مع الغرب

مع الاستقلال والنظام الملكى الوراثى، وكانت أطراف اخرى ترى أن الوقت لم يحن بعد للاستقلال وتريد الوصاية والحماية ولقد خلق هذا التنافس فرص عيش لبعض الناس ذلك أنه عندما يدفع المال لأغراض سياسية تتوزع الفوائد وتكثر الحصص بعضها قليل لكنه مفيد والبعض الآخر كثير وهو بالضرورة ينعش الحالة الاقتصادية والمعيشية وكانت البلادعطشى وتفتقر لكل شىء ومتقبلة لأى شىء.

كان أمير برقة إدريس السنوسى ينتظر ويراقب إذ إن رجليه تقفان على أرض مستقرة ويديه مع الإنجليز ولكن قلبه على البلاد، ولقد تعاون مع الإنجليز أثناء الحرب وأنشأ الجيش السنوسى فى المنفى وفى المقابل حقق له الإنجليز ما أراده حسب اتفاقه السابق مع الطليان أى أمارة برقة المستقلة، وكان يريد الحكم ولكى يحكم لابد أن يجد وسيلة لتثبيت حكمه وتلك كانت القوات البريطانية (ومرغما أخاك لا بطلا).

وبذلك تكون البلاد قد دخلت حياة جديدة فى ظروف مستجدة، معسكرات الإنجليز فى برقة وقواعد الأمريكان فى طرابلس والقوات الفرنسية فى فزان والإيطاليون يمسكون بمفاصل الاقتصاد فى طرابلس، وهذه القواعد والمعسكرات والقوات أوجدت فرص عمل فى المدن وجاءت ببعض أدوات الحضارة الغربية كالمواقد وأجهزة الراديو والسيارات والدراجات الهوائية والبخارية وبعض أنواع المأكولات وهذا أحدث تغييرا فى الحياة وتطورا فى فهم أساليب الحياة الغربية ونظرة جديدة للأمور، وهذه اختلفت بين من يعيش فى المدينة وأولئك الذين يعيشون فى القرى والنجوع والصحارى، فإذا كان أهل المدن يتقبلون ما يستجد بشره وترحاب فإن أهل البوادى دائما ينظرون نظرة

شك وتوجس لكل جديد وخصوصا إذا كان قد جاء من جهة غير إسلامية كالحال مع الإنجليز والطليان وغيرهم إذ إن مسألة البدع مترسخة فى أذهانهم وقد عرفوا من شيوخهم أن أغلب الجديد بدع (وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار) ومن أبدع البدع تلك الظاهرة التى استنكرها فى البداية الناس ومع ذلك كانوا يقبلون عليها صغارا وكبارا ويولونها اهتماما بالغا حتى أنهم ما ينفكون يتحدثون عنها طيلة الفترات بين مواعيد مجيئها وكانت تأتى كل أسبوعين مرة واحدة، تلك هى السينما المتنقلة والتى كانت تعرض أفلاما دعائية فى الغالب عن الحياة فى أمريكا وأحيانا أفلام رعاة البقر، وهذه كانت تجذب الأطفال بشكل خاص وهم الذين صاروا يقلدون راعى البقر فى قفزاته وسرعة حركة مسدسه، كانت السينما فى البداية ناطقة بلغة لا يفهمونها ولذلك فهم ينظرون إلى الصور والحركات دون أن يفهموا شيئا من الكلام الدائر بين الممثلين، وكانت تثير إعجابهم واستغرابهم فى وقت واحد، وسرعان ما أدرك المشرفون عليها أهمية ذلك الإقبال الكبير من أناس ليس لهم من وسائل التسلية والترفيه شىء فصاروا يقدمون أفلاما ناطقة باللغة العربية الشىء الذى أثرى خيال الناس فى الكلام عن هذه البدعة الغريبة وكيف كأن الأمريكان يتحدثون اللغة العربية بطلاقة.

لم تكن هناك مقاعد وكان العرض فى الهواء الطلق وأغلب الناس يتفرجون وهم وقوف أو جالسون على الأرض كما أنه لم يكن مهما عرض الفيلم الواحد أكثر من مرة وحتى عشر مرات فالإقبال دائما كبير والأحاديث أكبر وأكثر عن أمريكا والأمريكان والتحدث باللغة العربية، وهل هم يتعلمونها أم أنها لغتهم اليومية كما هو الحال بالنسبة لهم، وفى هذه الحالة أيضا نسج الخيال كثير من الروايات والاقوال.

وكان يشرف على هذا العمل اثنان أحدهما وطنى وهو سائق العربة وهو رجل قصير القامة ذو جبهة بارزة وكتفين ضيقين وعينين بيضاوين صغيرتين وأسنان صفراء من أثر التدخين، أذناه صغيرتان وشعره أكرت بينما بشرته سمراء يداه قصيرتان وأصابعه منتفخة، أما الثانى فهو طويل القامة أبيض البشرة صدره واسع ورأسه مدور كبير ذو رقبة قصيرة تظهر الرأس وكأنه انغرس فى الكتفين، شعر رأسه طويل أملس يشبه شعور النساء، وإن كان لونه أصفر ولحيته كثيفة الشعر تتخللها شعيرات بيضاء وعيناه غائرتان لونهما كعيون القطط، وهو الذى يدير آلة السنما تلك، وكلاهما يرتدى ملابس أفرنجية مضغوطة على الجسد الشىء الذى ينظر إليه القرويون باشمئزاز لأنه يظهر مفاتن وتقاطيع الجسد، وكان هذا الرجل الطويل القامة أمريكيا أرمنيا يتحدث اللغة العربية وإذ كان يرى أعدادا كبيرة من أولئك الناس الذين كانوا يتجمعون ليتفرجوا على السينما ذوى أرجل أو أيدى مقطوعة فقد صار يسأل عن السبب فى قطع الأيدى أو الأرجل بشكل خاص بين أهل هذه القرية الشىء الذى لم يلحظه فى القرى الأخرى وكان قد لاحظ أن اثنين من كل خمسة أشخاص فاقدا الايدى أو الأرجل، هذا يلف بقية يده المقطوعة من فوق المرفق بقطعة قماش وذاك يجر خشبة مستطيلة ثبتها فى نهاية فخذه من الأسفل ويمشى مائلا على الجانب الأيمن أو الأيسر حسب الرجل المقطوعة، فإذا كانت اليمنى هى المقطوعة كان يميل على الجانب الأيسر عندما يمشى وإذا كانت اليسرى هى المقطوعة فإنه يميل إلى اليمين فى مشية وحركته وهذا الذى كان يراه أمر عجب وقد اعتقد فى بادئ الأمر أن هؤلاء يخلقون على هذه الصفة كأنما ذلك يمثل تشوهات خلقية تظهر معهم منذ الولادة لكن مع السؤال وبحث الأمر وحتى لمس تلك الأطراف عند

الشخص أو ذاك عرف هذا الأرمنى الأمريكى المتعجب، وقد قيل له أن هؤلاء كانوا يفككون القنابل والألغام فى منطقة تسمى طبرق تقع قرب الحدود الدولية المصرية الليبية وجرت فيها أعنف وأشرس المعارك أثناء الحرب العالمية الثانية، وبالتالى صارت مليئة بمخلفات الحرب من مدافع ودبابات وطائرات وقنابل وألغام، وكان هؤلاء بسبب الفقر لا يجدون عملا يقتاتون منه ولهذا اتجهوا إلى تفكيك القنابل لبيع النحاس وهم بلا سابق خبرة فى شأن تلك القنابل والألغام، ولهذا كانت تنفجر فيهم إما القنابل أو الألغام وقد قتلت العديد منهم غير هؤلاء الذين فقدوا بعض أطرافهم وسعيد الحظ من كان قد فقد يدا أو رجلا فقط، وكان الأمر محيرا بالنسبة للرجل فكيف يمكن لإنسان أن يفعل ذلك مخاطرا بحياته فى عمل لابد أنه قاتل، وكان من الصعب عليه أن يفهم الأسباب أو يقتنع بها، ولكن الحال كما قال شاعرهم :

بين العدم واحكيم والجبانا   الرباش روحا أمعلقا افتربانا

ومن خلال تلك الأفلام عرفوا كيف كانت الحرب تدور واحدة اسمها العالمية الأولى وأخرى اسمها العالمية الثانية وكيف أن امريكا لعبت دورا هاما فى الحرب الثانية وبها انتصر الحلفاء، وهؤلاء لم يعرفوا شيئا عن أمريكا هذه قبل الأن، أما الحرب عندهم فهى حرب الطليان والإنجليز والألمان أو الأتراك العثمانيين الذين كانوا قد جاءوا باسم الخلافة الإسلامية قبل هؤلاء الأفرنجة.

وكانت بعثة الأمم المتحدة التى قيل أنها قد استطلعت آراء الناس وتكونت لدى أعضائها افكار عن الليبيين فى بلادهم فقد عادت إلى نيويورك لتقدم تقريرها إلى الأمين العام للهيئة الدولية ولا أحد يعرف ما هى تلك الافكار

التى تكونت لدى أعضاء البعثة والتى كانت قد استمعت إلى مطالب الاحزاب والهيئات والشخصيات الوطنية فى طرابلس، وتلك الآراء المتناقضة المختلفة والمتضاربة ربما تكون ضارة بالصالح الوطنى إلا أن ما كان يبعث الاطمئنان هو وجود عضوين فى البعثة يمثلان بلدين مسلمين هما مصر والباكستان، أما الشعب فى الداخل الذى كان الفقر قد سحقه فيما سبق وقد انشغل بترتيب أمور حياته من جديد فهو لم يعرف شيئا ولا عرف عنه شىء وربما لو سئل عما يهمه لأجمع على كلمة واحدة هى كيف يعيش وما الذى يأتى به هذا أو ذاك، الإنجليز والأمريكان والطليان والأحزاب والجمهورية أو الملكية والاستقلال، ولا شىء غير كلمة إسلام ومسلمين كانت دائما ذات وقع وتأثير بالغين ولابد أن أهل ليبيا يريدون لقمة العيش مع الإسلام، وكما قيل قديما: الصلاة وراء على أقوم والأكل على مائدة معاوية أدسم.

وربما لم يكن هناك من سبيل لإيصال خبر الصلاة أو المائدة إلى بعثة الأمم المتحدة وإن كان أعضاء الأحزاب الليبية المتزاحمة على الأبواب يعلمون بما يعتمل فى أذهان الناس كما يعرفون خوى بطونهم ويرون عرى أجسادهم على الرغم من انشغالهم بملاحقة ما يجرى هناك خلف بحر الأطلنطى ليتبين كل منهم مكان وضع قدميه ورأسه فى حين أن أصحاب جزيرة الخبثاء كما سماهم نابليون بونابرت يعلمون علم اليقين أنهم باقون فى البلاد طالما أرادوا وقد ثبتوا أقدامهم فى المنطقة الشرقية من البلاد ولن يخرجوا رغم زعيق خطباء بعض الأحزاب، ذلك أن الأمير معهم ومصالحهم تفرض البقاء بأى ثمن ولو كان رؤوس كل الليبيين.

وإذ اجتمعت الجمعية العامة للأمم المتحدة لتناقش وضع ليبيا صباح ذات يوم ولعله كان من أحرج الأصباح فى تاريخ هذا البلد، كان الوقت فى ليبيا ليلا وكانت ضياء قمر يميل إلى الغرب تتسلل عبر الغيوم الخفيفة إلى الأرض لتضيئها حينا وتغيب عنها أحيانا، وفى البيوت كانت أضواء الشموع أو فنارات الكاز بائنة من النوافذ، وكان الأمير إدريس السنوسى يقيم فى بيته بالبيضاء منتظرا الأخبار وهو يذرع صالة الجلوس ذهابا وايابا ممسكا بيده اليمنى عصا خيزرانية منقطة من أسفلها، رأسها معقوف وهو يرتدى برنسا أسود تحته قفطان أبيض وعلى غير العادة لم يكن على رأسه غطاء، يظهر عليه القلق حتى أنه لم يبق طويلا فى الصالون وقد انتقل إلى غرفة المكتب حيث يوجد جهاز هاتف اسود اللون موصول بقاعدة القوات البريطانية الواقعة قرب طبرق وهاتف آخر أبيض متصلا بمكتب رئيس ديوانه، وعلى الطاولة زر جرس للخدم، وما يكاد يجلس على المقعد حتى ينهض لينظر من النافذة التى تطل على فضاء به أشجار خضراء وبعض الحراس الذين تتواتر خطوات أرجلهم على أرض الفناء مثيرة حفيفا يسمع من بعد خطوات، يفتح النافذة من أجل هواء بارد شعر بأنه فى حاجة إليه وكانت قطرات مطر خفيف تسيل على زجاج النافذة التى أعاد الأمير إغلاقها بعد دقائق من الفتح ذلك كان فى برقة أما فى طرابلس فقد كان قادة الأحزاب وأبرز أعضائها يتناقشون كل فى مكانه بيتا أو مزرعة أو مكتبا، وهكذا الحال بالنسبة لرؤوس الفكر والمهتمين بالشأن السياسى فى البلاد وكل منهم له رأيه وآماله وتوقعاته وحساباته، من يجنى الفائدة ومن يدفع الثمن، من قد يكون له مكان فى الدولة الجديدة إذا ما ظهرت ومن لا يكون له شيئا، من يبقى ومن يختفى إذ لابد من تسوية بعض الحسابات التى تراكمت والتى برزت أثناء

لقاءات بعثة الأمم المتحدة وتلك التى يريدها أصحاب الشأن والمصالح فى البلاد سواء أكانوا من الداخل أو من الخارج، ومن المتوقع أن تكون تصفية الحسابات بطريقة مهذبة وسليمة ذلك أن الليبيين لم يكن من عاداتهم القتل أو الحقد والتصفيات الجسدية، وليس هناك تبعا لذلك خوف من مشاكل مثل الحرب الأهلية وغيرها.

وفى نيويورك بذلك المبنى المهيب وقد كانت الساعة تدق العاشرة والنصف صباحا، عشر دقات متتاليات مع رنين خفيف يصحب كل دقة، وكان الثلج يغطى الممرات حول المبنى الذى يعانق السماء فى شموخ، والمطر ينهمر مصاحبا الثلج وقلما يحدث ذلك، قطرات المطر الكبيرة المتسارعة تضرب زجاج النوافذ الواسعة ذات الأضواء الباهرة، ومياه المطر تندفع من المزاريب العليا فى المبنى كأنما هى مياه مضخات بالغة القوة، أعلام الدول الأعضاء فى المنظمة الدولية معلقة على أعمدة مصفوفة بالتساوى ترفرف مبلله بماء المطر وهى بمختلف الالوان وإن كانت متساوية الحجم فى الطول والعرض والارتفاع، وذلك ما يقتضيه نظام الهيئة التى تتوخى المساواة بين الدول خلافا للواقع والحقيقة إذ إن الأعضاء متساوون فقط فى فرص الكلام أما القرارات فإن أمورها مختلفة، وأرصنتها بيد الكبار. المبنى كخلية النحل فى الحركة ورنين الهراتف ولمعان أضواء آلات التصوير فى ايدى الصحفيين والمصورين.

وبعد مناقشات ومداولات يطرح موضوع استقلال بلد للتصويت، وقد اشتد الثلج وقصف الرياح وتتابع انهمار المطر خارج المبنى الذى يضم ممثلى دول العالم والذين سيقررون بالتصويت مصير بلد ربما اغلبهم لا يعرفونه، وكأنما كانت الطبيعة قد شاءت أن تعطى هذا الحدث مظهرا خاصا به فى الوقت الذى

كان فيه رئيس جلسة الجمعية العامة للأمم المتحدة فى القاعة الكبرى يعلن فوز التصويت باستقلال بلد أفريقى اسمه ليبيا دولة مستقلة ذات سيادة، وهذا يعنى أن جهود الليبيين لم تضع بددا ولا خاب أمل أهل الفكر فى هذا البلد الذى عانى كثيرا وضحى وتفتح أبواب المستقبل إذ لا شىء أجمل وأعظم من أن تحكم نفسك بنفسك وتقرر مصير بلادك، وما على تقاة القوم أهل الفكر فى البلاد بعد الآن إلا أن يقرروا فيما بعد نوع النظام الذى يريدونه ويرضيهم، وأثناء مناقشات الجمعية العامة لموضوع استقلال ليبيا كان اعضاء الوفد الليبى يرين عليهم الهدوء والتفاؤل وقد تعانقوا بحرارة - بعد إعلان نتيجة التصويت وصاروا يتلقون التهانى من أعضاء الوفود وممثلى المجتمع الدولى، ولقد اعتبرت تلك الليلة فى ليبيا من أهم مراحل تاريخ البلاد لما يتوقعه الناس من الحكم الوطنى، إنها ليلة تحمل معنى عميقا والأيام القادمة لابد أن تكون مثقلة بالمسؤوليات ذلك أن كل الأطراف لابد أن تتفق على خط سير واحد فى العمل السياسى ولو مؤقتا رغم اختلاف اغراضها ونواياها ومصالحها إذ كانت البلاد مقسمة إلى ثلاث بلدان وليس بلد واحد، وبها قوى اجنبية تدعم ذلك التقسيم وترغبه وهى إذا لم تعرقل الاستقلال فإنها لابد أن تحاول لعب دور إما فى اتجاه التخريب أو التطويع.

ولما كان الناس فى المدن وأهل المدن سريعو التفاعل مع الأحداث، ما كادوا ينهضون من نومهم حتى بدأوا التجمع فى الميادين للتعبير عن فرحتهم بالحدث الكبير، منهم من جاء راجلا وأغلبهم جاؤوا إما على صهوات الخيول التى كانت تصهل فى ذلك الضحى أو على دراجات هوائية قديمة فى الغالب، أما قيادات الأحزاب الوطنية فقد جاءت فى شكل طوابير منظمة وهى تحمل بعض اليفط التى كتبت عليها عبارات الترحيب بالاستقلال والدولة العربية

المسلمة، ورفعت شعارات تعبر عن اتجاهاتها وغاياتها ومبادئها يتقدمها القادة والبارزون فى صفوفها من الخطباء، وكذلك ظهر أطفال المدارس وأساتذتهم فى طوابير صغيرة يحملون أيضا لافتات بأسماء المدارس وهى فى الواقع قليلة خصوصا فى طرابلس إذ كانت السلطات الإيطالية قد حاولت عرقلة التعليم العربى أثناء فترة الحكم الاستعمارى الايطالى، وجاء الدراويش والمرابطون وأصحاب الطرق الصوفية كل يحمل ادواته من بنادير وطبول ومزامير، كما جاءت الفرق الرياضية وأعضاء الجمعيات الأهلية الخيرية، حدث ذلك فى المدن الرئيسية مثل طرابلس وبنغازى وسبها، فى حين توافد شيوخ القبائل ووجوه المجتمع على سكن الأمير إدريس السنوسى قرب بلدة البيضاء مهللين ومهنئين بالحدث السعيد، وكانوا جميعا يرتدون اللباس العربى التقليدى، وكان أولئك الذين جاءوا على صهوات الخيول قد أقاموا مهرجانا للفروسية والسباق أمام بيت الامير وكانوا يطلقون النار بالتتابع من بنادق إيطالية قديمة.

كان ذلك الصباح حافلا وكانت الشمس قد ارتفعت وهى تبرز وتختفى من بين الغيوم والسحب، وفى الطرقات بلل من أثر مطر خفيف تساقط خلال الليل، وفى استقباله للمهنئين كان الأمير يرتدى لباسه المعهود، قفطان أبيض كماه طويلان يغطيان المعصمين، فوقه برنس أسود مقفول من الأمام يتدلى منه غطاء الرأس بين الكتفين من الخلف وفوق البرنس جرد أبيض خفيف وعلى رأسه كبوس أحمر فاتح وتحته طاقية بيضاء وينتعل حذاء أحمر مفتوحا من الخلف، وفى لباسه ذلك يجمع بين لباس أهل ليبيا فى الشرق والغرب وقد داوم على ذلك المظهر طيلة حياته، وفى يده اليمنى عصاه الخيزرانية التى يقبض

عليها بشدة ولا ينقلها إلى يده اليسرى إلا إذا صافح أحد زواره ثم يعيدها بسرعة إلى اليمنى ليتوكأ عليها دون سبب ظاهر، وكان يجلس دائما متصدرا الضيوف على مقعد مذهب بمسندين كما كان التقليد المتبع فى حالة الزيارات تلك أن تولم الولائم ويقدم الطعام للزوار سواء أكان الوقت ليلا أم نهارا، ومن عادة السنوسيين أن يكون فى خدمتهم عدد من العبيد وهؤلاء يرتدون دائما جلابيات كحلية فاتحة طويلة بها زراكيش طولية تبدأ من تحت الرقبة إلى أسفل الرداء ويربطون حزاما عند الوسط يكون من نفس لون الجلابية كما يضعون على رؤوسهم قبعات محاطة بشريط أبيض يشبه العمامة الصغيرة وهم يؤدون جميع الخدمات مثل الطبخ وتقديم الطعام والشاى والقهوة أو أى نوع من المشروبات الغازية.

أهل بادية برقة كان من عاداتهم الثابتة تقبيل أيادى السنوسيين ويعتبرون ذلك نوعا من التبرك والتقدير، كانت أعلام السنوسية مرفوعة ترفرف على بعض المبانى وقد اتخذ الأمير إدريس اللون الأسود الذى يتوسطه هلال بين رأسيه نجمة خماسية لعلمه وربما يكون ذلك أخذا بالروايات المتواترة التى تقول ان علم الرسول محمد ﷺ كان أسود.

وكان زعماء الأحزاب ورؤوس الفكر والبارزون فى مجتمع المدن منهم من يرتدى اللباس الأفرنجى ويعتمر على رأسه طربوشا أحمر وهذه عادة مكتسبة من الأتراك العثمانيين والبعض الآخر يرتدى اللباس الوطنى مع كبوس أحمر فاتح أو أسود فاتح حسب المكان، ولم يكن للمرأة ظهور أو حتى وجود فى الحياة العامة مثل التعليم والتطبيب والسياسة أو الثقافة والرياضة وغيرها.

أما فى القرى والدواخل فإن الحياة لم يطرأ عليها أى تغيير، وإن كانت بعض الأخبار قد تواترت عن شيء اسمه استقلال وأمم متحدة وما جرى فى المدن الليبية، إما ما الذى سيحدث بعدئذ فهو مبهم بالنسبة لهم، جمهورية مملكة سلطنة وصاية إلخ والمثل الشعبى يقول (اللى يركبها يعرف كيف يلهدها) وفى قرية عبد الله وأغلب سكانها من أهل الصحراء وهم لا يأبهون لكثير من الأحداث كما أنهم يعتقدون أن أى حكومة لا تعنى إلا سلطة وسيطرة وقهرًا رغم كل الكلام الذى سمعوه من خطباء الأحزاب وغيرهم عن الحكم الوطنى وعن الجمهورية أو المملكة أو غير ذلك، وكانت الحكومة التركية وبعدها الإيطالية قد اعتبرتهم عصاة متمردين وحاربتهم بكل الوسائل، بما فى ذلك العسكرية وبعودة بقية أولئك الرجال الذين كانوا يعملون فى تفكيك القنابل والألغام فى منطقة طبرق وصاروا يجترون الأحاديث متناولين تلك الأحداث والمآسى التى واجهتهم وأولئك الذين قتلوا هناك وكيف قطعت أجسادهم والآخرون الذين أصيبوا فى انفجارات وكتبت لهم بقية من حياة وقد فقدوا بعض أطرافهم وكيف كان العلاج فى ذلك المستشفى الوحيد ذى المبنى المتهالك والأجهزة القديمة الواقع بالناحية الجنوبية من بلدة طبرق لم يكن يشغلهم إلا تلك الأحداث أولئك الناس.

يقول أحد الجلوس فلان كان يفكك قنبلة من نوع كذا وكان كل منا يجلس فى موضع بعيد نسبيا بحيث لا نصاب جميعا فى حالة انفجار قنبلة فى أحدنا وإذ كان يهوى على حزام القنبلة النحاسى بالقادومة انفجرت وقد غطانا الغبار الذى أثاره الانفجار وعندما انقشع الغبار كان هذا الفلان جسده مبعثرا بعضه على الأرض والبعض الآخر كان معلقا فوق اغصان شجيرات الرتم، وقد

طارت القادومة والمقرض فى الهواء ثم سقطتا بعيدا عن المكان، وقد انتظرنا بعض الوقت إلى أن ينتهى تساقط الشظايا على الأرض بحيث لا تسقط على رؤوسنا وهى ملتهبة ثم قمنا بجمع تلك القطع من اللحم المحروق وردمناها فى نفس المكان ولم نفعل شيا غير قراءة سورة الفاتحة ترحما على القتيل ثم باشرنا عملنا فى تفكيك القنابل التى كانت مكدسة بالقرب من كل واحد منا وبقينا هناك عدة أيام بحيث لا يأكل الذئب لحم رفيقنا المقتول على أننا لم نتوقف عن عمل تفكيك القنابل والألغام بعد مقتله، ويقول آخر، كنا ذات مرة فى بئر حكيم وكنا ثمانية أشخاص وحدث ان انفجرت قنبلة بين رجلى فلان بينما كان يقوم بتفكيكها وقد قطعت رجليه الاثنتين واحدة من عند الفخذ والأخرى من عند الركبة لأنه كان يضغط على القنبلة بالجانب الأيمن عندما كان يفككها ولهذا قطعت رجله اليمنى من حد الفخذ ولم تكن لدينا وسيلة مواصلات ولا أحد قريب منا فى تلك المنطقة وكان المكان بعيدا عن الطريق العام والوقت عصرا وقد قمنا بتضميد الرجلين المقطوعتين وربط مكان قطع كل منهما بقطع قماش عمامة أحد الرفاق لكن الدم لم يتوقف وحدث له نزيف شديد وقد خفنا أن يموت الرجل بين أيدينا فبذلنا عديدا من المحاولات لإيقاف النزيف وكانت كلها فاشلة وقد يئسنا وكدنا أن نتركه لقدره ومصيره المحتوم، لكن أحد الرفاق اهتدى إلى فكرة أوقفت لحسن الحظ نزيف الدم فقد كانت هناك حفرة أوقدنا بها نار الشاى فى الصباح ولم يبق منها إلا الرماد وهكذا جعل ذلك الرفيق يغرف من رماد نار الرتم ويضعه على الجروح فاوقف التزيف وبقى الجريح على ذلك الحال يومين كاملين وكنا ننقله من مكان إلى آخر حتى وصلنا الطريق العام ووجدنا عربة كانت فى طريقها إلى طبرق وهكذا نقلناه إلى المستشفى

حيث عولج وبقى هناك مدة طويلة وعاش بعد ذلك الحادث عدة سنوات وقد رجع إلى قريته حيث مات ودفن بها.

هكذا كانوا فى أغلب لقاءاتهم يتحدثون عن أشياء مشابهة، الانفجارات والموت وتقطع الأطراف وفقدان البصر والجروح البليغة وصعوبة الوصول إلى مكان العلاج لعدم توفر وسائل النقل وبعد المناطق التى يتوفر بها الحديد والقنابل والألغام وبقية مخلفات الحرب، وهكذا حياة كلها مآسى وآلام.. والحقيقة أنه لو كان مثل ذلك العمل يحتذى به لعد مثالا رائعا على البطولة والشجاعة والإقدام وكان مأثرة يتحدث بها الناس إلى وقت طويل، ومما لا شك فيه إنها شجاعة نادرة لكنها فى نفس الوقت مخاطرة غير محسوبة العواقب، وليتصور معى القارئ الكريم إحساس وشعور إنسان جمع قطع لحم رفيقه المبعثرة نتيجة انفجار قنبلة ليدفنه فى نفس المكان ويباشر نفس ذلك العمل فتراه قابضا على قنبلة بين رجليه ليهوى عليها بالقادومة فى ضربات متتاليات وهو يتوقع أن تنفجر فى أى لحظة فيحدث له ما كان قد حدث لزميله فى التو والذى دفن بجانبه !

ترى كم تكون هذه الحالة مفجعة ومفعمة بالقلق والآسى، وربما اليأس وتوقع الموت؟

ولابد أن نتساءل:

ترى ما هى انفعالاته النفسية عند فكرة الموت هذه فى لحظتها ؟ وكيف يكون شعوره وهو يلقى نظرة على مثوى رفيقه المدفون بجانبه، وقد كان لحم جسده مبعثرا منذ لحظات فى الوقت الذى يدق فيه هو على قنبلة مماثلة ؟

هل هو ازدراء واحتقار للحياة بسبب الفقر ؟

هل هو تهور ولا مبالاة ؟

هل هو شجاعة ومقدرة وإقدام ؟

اجزم فى الجواب على هذه التساؤلات بالرد، ان هذه كلها تجتمع فى هذا الوقت وهذا الحال.

وسبحان الله كم هى بشاعة الفقر ولقد صدق سيدنا على كرم الله وجهه حين قال (والله لو كان الفقر رجلا لقتلته بسيفى).

ولكن الإنسان ربما هو المخلوق الوحيد الذى يستطيع أن يخلق ما يناسب ظروف حياته والدفاع عنها فى أى مكان وكل وقت، وهكذا هناك فى كل مجتمع إنسانى مهما كان صغيرا أو متخلفا اناس لديهم ملكات يبرزونها فى الوقت المناسب بذكاء وحنكة ومقدرة، وهناك كثيرون ممن يفرضون قيما جديدة بما يكمن لديهم من مواهب وقدرات يسخرونها عادة لخدمة أغراض معينة سياسية أو اجتماعية أو معيشية، ولأن ظهور الأحزاب الوطنية وتحرك خطبائها وقادتها بين الناس فى مختلف المواقع واحتياجاتهم إلى أصحاب تلك الحنكة والمقدرة والمواهب فقد دفعوا الاموال لاستخدامهم، ومن هؤلاء الشعراء الشعبيون اصحاب التأثير الكبير على الناس والمقدرة على تصوير ظروف الحياة الاجتماعية والاحداث الطارئة و المقيمة، كما عادت لقاءات الأحاديث عن أبى زيد الهلالى والخفاجى عامر وتلك البطولات العربية الإسلامية، وهذه خلقت جوا عاما اجتماعيا أعاد إلى الناس بعض ذكريات أيام زمان، ولقد سلك هؤلاء الشعراء فى هذه المرحلة منحى جديدا إذ لم يعد غالب

شعرهم ذلك الغزلى ذا النكهة التى تدخل على النفس البهجة والسرور إلا أنه مع ذلك كان الحافظون يتناولونه ويكررونه دون ضجر أو ملل لأنه يمثل وصفا مستفيضًا لأحداث عاشوها وترسخت فى نفوسم آلامها واختلجت بها أفئدتهم، وإذا كان خطباء الأحزاب والحركة السياسية المنبعثة حديثا قد أرادوا أن تكون تلك المرحلة بداية لحركة سياسية ناشطة لتوعية الناس من اجل مستقبل بلادهم فإن هؤلاء الشعراء ربما أرادوا أن تكون هذه المرحلة فاصلة بين الأمس والغد بذلك النوع من الشعر، ويا لها من عودة وهى لابد أن تثرى الحياة الاجتماعية وتعيد الأمل للناس وربما البسمة إلى الشفاه التى كانت لا تتلقى إلا قطرات الدموع الساخنة منحدرة من المآقى، وسماع الشعر الشعبى كيفما كان الموضوع يحمل للناس بعض المتعة لا يدانيه فيها إلا صوت المقرونة.

ولقد برز ثلاثة فى هذا الميدان كشعراء فحول شدوا انتباه وإعجاب الناس، أولهم كان فى العقد الرابع من العمر، أسود الشعر متوسط القامة ذا وجنتين عريضتين وبشرة قمحية وعينين صغيرتين، لديه حصيلة طيبة من التعليم والثقافة والمعرفة وبذلك يجىء شعره الشعبى البليغ التعبير صادق التوصيف ومباشر النعوت كأنما هو يصور او يرسم بالقلم والريشة، أما الثانى فكان فى بداية العقد السادس من العمر ذا شنب معقوف تتخلله شعيرات بيضاء صدره واسع معتدل القامة وجنتاه ضيقتان وبياض عينيه يغلب على سوادهما يجيد المراوغة واللعب بالكلام يحفظ الكثير من شعر الهلالية أما قرضه للشعر فتغلب عليه الناحية الفكاهية تجهض عينيه أحيانا وهو يلقى الشعر ويرتجف بدنه، غالبا ما يجعل مستمعيه يغرقون فى الضحك لعدة دقائق، أما الثالث فهو فى نهاية العقد السابع من العمر متوسط القامة ترتكز على أنفه نظارة طبية شعره

قصير كثيف أبيض وشنبه قصير وكذلك لحيته عيناه دامعتان فى الغالب ربما لأسباب صحية يفرك يديه المعروقتين عندما يلقى شعرا ويمط شفتيه ثم ينظر يمنة ويسرة نظرات تساؤل ويرفع بحركة آلية تلقائية حاجبيه الكثيفين ثم يتناول ورقة عادة ما تكون مطوية من جيب فرملة قديمة يرتديها دائما لكنه ما يكاد يبدأ فى إلقاء شعره حتى يثير حماسا فائقا بين سامعيه ويحظى بالتصفيق الحار والاحترام، كان هؤلاء الثلاثة هم فرسان الكلمة فى هذا الوقت.

وفى ذات مساء دافئ على غير العادة فى هذا الموسم لم تصفر فيه الرياح وكان القمر يطل من بعيد بين سحب سيارة خفيفة وفى جمع كبير من الناس يتبارى هؤلاء الشعراء الفحول الثلاثة، ولابد من القول أن الأول كان الأذكى والثانى كان الأطرف والثالث كان الاعقل، وللعمر شأن فى ذلك، لكن أحدا منهم لم يخرج عن جو الحزن الذى كان يخيم على الناس أثر تلك الأحداث والمآسى التى واجهت ذويهم وقد مات منهم من مات وعاد عاجزا فاقد الأطراف من عاد حاملا معه عاهة إلى آخر أيام حياته التى قد تطول وقد تقصر، رغم الرغبة والمحاولة فى الخروج من جو الحزن إذ حاول هؤلاء الشعراء تصوير تلك الأحداث على أنها معركة ضد الفقر، وهى حقيقة، كانت معركة ليس فيها سبايا ولا أسرى وليس فيها منتصر ولا مهزوم بالمعنى الحقيقى للمعارك والحروب، وربما يمكن القول أن المنتصر فيها كان تلك القنابل والألغام التى تركها المتحاربون فى منطقتى طبرق والعلمين، ومن العادة أن المعارك تنتهى ويسقط غبارها على الأرض بعد أن تصل إلى آخرها ولكن غبار هذه المعركة ما زال عالقا وباقيا فى الأيدى والأرجل المقطوعة والعيون المفقوءة والندوب على أجساد

جنودها غير المدربين على خوض حرب أجبروا عليها، وهنا لابد من السؤال، ترى هل سيكافئهم أحد على ذلك ؟ وما المكافأة يا ترى ؟

الذين قتلوا فى تلك الحرب الحقيقية وكانوا جنودا من الطليان والإنجليز والألمان وغيرهم دفنوا هناك فى مقابر تحمل أسماء هؤلاء وهؤلاء وصار ذووهم يزورونهم وربما حتى نقلوا رفاة بعضهم إلى بلادهم بعد أن انتهت تلك الحرب وبقيت القنابل والالغام التى حاربها هؤلاء الفقراء والذين أرغمهم تضور عيالهم على المخاطرة بحياتهم، هؤلاء قتلوا وتمزقت اجسادهم ولم تعرف لهم قبور ولا مقابر ولم يعرف ذووهم إلا أن فلانا كان قد مات فى طبرق، وكان الواحد منهم عندما يذهب إلى طبرق بحثا عن عيش متمثل فى قنبلة أو لغم يودع الأهل ويودع الدنيا مقتنعا بأنه مقبل على الموت، ولم يكن الزمن يعنى شيئا بالنسبة له ولا الحياة، ويمكن للإنسان أن يتصور حالة هذا المودع المقبل على الموت، كيف تكون دقات قلبه وما الذى يتفاعل فى جوفه وهو يغادر أطفاله ربما للمرة الأخيرة وكيف هى حالة حواسه كلها ؟

الأطفال يتباكون والأم تولول والزوجة تتضرع والأب الذى يتمدد على حصير فى الأرض وهو عاجز عن الحركة صامت طاوى الألم بين جوانحه مدركا لماذا البحث عن الموت، يخرج الأب قبل أن تضعف عزيمته فهو لا يطيق البكاء وليس أمامه من خيار، يتوجه إلى الولى الذويب المدفون فى ناحية قبلية بعيدة نسبيا عن الداموس ويقع بالقرب من الدار التى بناها الإيطاليون هناك منذ زمن وهى تقف وحيدة دون أن يعرف أحد لماذا أقيمت هناك بعيدا عن السوق ومركز الشرطة، بعض الذين عاصروا تلك الفترة يقولون إنها كانت نقطة تبادل الرسائل البريدية بين طرابلس والجبل الغربى وقد بناها الإيطاليون لذلك

الغرض، أما هذا الولى الذويب فهو جد واحدة من القبائل هنا تلك التى تتسمى باسمه وله مبنى صغير مقام بالجبس وحوله عدد من القبور، اعتاد الناس أن يدفنوا موتاهم قرب هذا الولى وعرفت المقبرة باسمه أيضا، ذهب الرجل لزيارة جده فقط للتبرك وربما أيضا للوداع وشحذ العزيمة، وقف أمام المبنى الصغير منكسا الرأس وهو يتصبب عرقا غارقا فى تفكير مشوش، قرأ سورة الفاتحة وانصرف، إلى مصيره المحتوم.

هذا ما كان يرويه محمد عن والده الذى دفن فى منطقة بئر حكيم قرب طبرق وقد عرف ذلك من خلال عدة رسائل بعث بها والده قبل أن يموت، كان وجه محمد مكفهرا كئيبًا متجهما وعيناه شبه مغمضتين بينما يده اليمنى ترتعش واعتورت صوته رجفة خفيفة وارتجفت اهداب عينيه بسرعة وهو يتحدث عن مقتل والده، أما أم محمد هذا فهى تروى كيف ان ابا محمد عندما قرر السفر إلى طبرق كان يدرك أنه لن يعود ولهذا فقد ودعهم جميعا الوداع النهائى كما أن جواباته التى كان يبعثها كلما جاء أحد الأقارب من هناك أيضا توحى بذلك لأنه لم يذكر ولو مرة واحدة أنه عائد على الإطلاق، وكان يوصى بأولاده وأمه خيرا ويؤكد على تعليمهم القرآن الكريم لأن الاسلام هو الحافظ والقرآن هو زاد المسلم فى حياته الدنيا، هذا ما كان يؤكد عليه رحمه الله، تغمر عينيها دموع ويكتسى وجهها بكآبة فتمد يدها إلى حافة اللحاف الذى يغطى رأسها وتجره حتى يشمل نصف وجهها مواربة عينيها لكن عبرة محشرجة وزفرات شديدة كانت تسمع من تحت ذلك الغطاء، وهنا تقول إحدى جليساتها، الدوام يا أختى لله، فى طبرق مقبرة من قتلى القنابل والألغام جميعهم من خيرة التريس وجميعهم أقارب، وها أنت ترى وتسمعى عن هؤلاء الذين قطعت أيديهم

أو أرجلهم، والبركة فى أولادك ها هم توا بدوا تريس، وعلى كل حال فالنسيان سلوى الإنسان إذ يحدث الصبر وتعاقب الأيام والليالى على الرغم من أن العواطف تكون مفعمة بمشاعر الألم والأسى.

وما انفك الناس يتحدثون عن طبرق وبئر حكيم والقنابل وتلك الألغام اللعينة التى كانت سببا فى قتل العديد من الأحباء والأقارب وتلك الأحاديث كانت بين النسوة بشكل خاص أما الرجال فقد انشغلوا مع حركة الأحزاب وندوات الشعر التى جاءت بعدها أشياء أخرى كالحضارى التى تدق فيها الطبول والبنادير وتقيمها عديد من الطرق الصوفية مثل القادرية والشاذلية والأسمرية وغيرها وقد صارت كل واحدة من هذه الطرق تقيم حضرة فى ليلة كل جمعة وتقيمها أحيانا فى غير ليلة الجمعة فى مناسبة ذكرى وفاة أحد المواطنين عندما تطلب عائلته ذلك، بعض أفراد تلك الفرق عندما يجذبون يغرسون الخناجر فى بطونهم والأسياخ فى أشداقهم ويأكلون الزجاج ويأتون بأشياء يتعجب لها الناس ويقولون (كل عود ودخانه).

وينطبق ذلك على كل المناطق والقرى فى الغرب وفى الجنوب والشرق من البلاد، أولا لأن حركة الأحزاب قد شملت أغلب تلك النواحى وهى التى نبهت الناس وجعلتهم يعرفون معنى الاستقلال الوطنى وإن كانت بعض الشخصيات الوطنية المرتبطة ببعض الجهات والأجهزة الأجنبية قد أثارت كثيرا من الشكوك حول مطلب الاستقلال الكامل وربما كان موقفها ذاك يهدف إلى ضمان مستقبلها، فلابد أن يكون للفرنسيين رجالهم فى الجنوب وللأمريكيين كذلك رجالهم فى طرابلس وللإيطاليين أصحاب المصالح التجارية والاقتصادية والصناعية فى طرابلس مثلما للإنجليز فى برقة حيث صار منذ زمن الحرب الأمير إدريس ينسق معهم وله فى ذلك مآرب وأغراض، والواقع أن موقفه كان

قويا أولا بالإنجليز الذين ساعدهم أثناء الحرب العالمية الثانية وثانيا بالشعب البرقاوى الذى كان يعتقد اعتقادا ربما لا نقاش فيه فى الدعوة السنوسية، ويعلمنا التاريخ الوطنى أن السنوسى الكبير بدأ دعوته فى برقة ومنها خلال أواخر القرن التاسع عشر وقبل أى مكان آخر، ولذلك فقد التف حوله أهل برقة ثم انتقل تأييدهم بعده للأمير السنوسى بدءا من وقت تأسيس الجيش السنوسى فى المنفى أثناء الحرب العالمية الثانية مرورا بالجهاد الوطنى ضد الطليان ومفاوضات الاستقلال لامارة برقة إلى فترة بداية طرح القضية الليبية للمناقشة فى الأمم المتحدة، وبقية المحافل الدولية ثم مجىء بعثة الأمم المتحدة إلى ليبيا وفى هذه الفترة الحبلى بالأحداث والتطورات السياسية فى بلد مثقل بالمشاكل والتخلف والأمية وفقر الموارد على الرغم من حنكته السياسية وتجربته الإنسانية وتربيته الدينية والاجتماعية وهو إذا ما اختير ملكا على البلاد سيدخل مع ليبيا رابع تجربة فى الحكم الوطنى وإقامة نظام الدولة وإن كانت هذه التجربة الرابعة قد جاءت باعتراف دولى بينما كانت الثلاث الأول محلية، أولاها كانت حكومة مصراته سنة ١٩١٥م، وثانيتها كانت حكومة الجمهورية سنة ١٩١٨م وثالثتها كانت هيئة الاصلاح المركزية سنة ١٩٢١ م وفى هذه الحالات الثلاث الأول لم تنشأ إدارة منظمة ولا مؤسسات تساعد الدولة فى بلورة الفكر السياسى والاقتصادى والإدارى مثل الأحزاب أو النقابات والهيئات، ومن المؤكد أن هؤلاء الذين رحبوا واحتفلوا بالحكم الوطنى يتوقعون الشىء الكثير لحل مشاكلهم، وربما حسبوا أنهم سيودعون الفقر والبؤس والشقاء إلى الأبد لأن تلك الموارد الطبيعية التى تحدث عنها خطباء الأحزاب والتى كان يستغلها الأجنبى سوف تستخدم فى ظل الحكم الوطنى لصالح البلاد وأهلها.

★ ★ ★

الفصل السادس

الاستقلال ومرحلة بداية النفط

أمل وتفاؤل - ترهل وتخبط - الموت البطىء

أمل وتفاؤل – ترهل وتخبط – الموت البطىء

قال الرافعى قالت العلماء ..

إن كنت حاكما تشنق من يخالفك فى الرأى ، فليس فى رأسك إلا عقل اسمه الحبل ، وإن كنت تقتل من ينكر عليك الخطأ ، فليس لك إلا عقل اسمه الحديد ، وإن كنت تحبس من يعارضك بالنظر ، ففيك عقل اسمه الجدار .

أما إن كنت تناظر وتجادل وتقنع وتقتنع ، وتدعو الناس على بصيرة ولا تأخذهم بالعمى ، ففيك العقل الذى اسمه العقل..

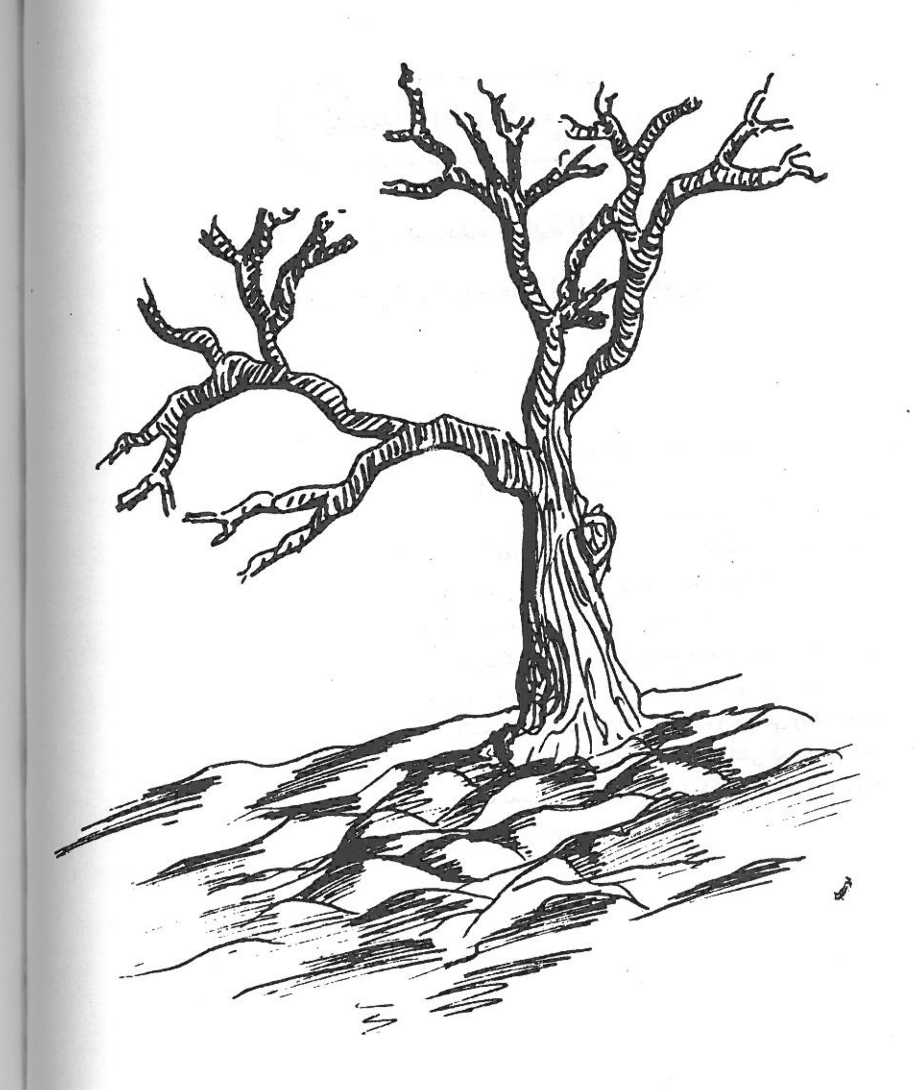
ذلك ما أورده الرافعى عن العلماء ، ولكن فى وطننا العربى غالبا ما لا يتفق القلم والسيف ، وغالبا ما لا يلتقى العقل والحكم..

وتلك لعمرى ، مأساة نعانى منها وقد عانينا كثيرا ولن نتقدم بلا عقل كما لن نتحضر بل علم ..

الأشجار

تعرّت من أوراقها وصارت الطبيعة فى فصل الشتاء قاتمة الألوان، ليلها مظلم وطويل وغالبا ما يغيب تماما القمر تحت سحب الليل وأحيانا ينبجس فجأة بين سحابة مسرعة وأخرى متباطئة، أصوات الطبول والموسيقى العسكرية التى تسمى موسيقى (القِرَبْ) المأخوذة من تقاليد الانجليز والتابعة للشرطة تصدح وجلبة أصوات الناس تتداخل، وطقطقات جزم الجند المنتظمة على أرض الشارع المسفلت تسمع من بعيد وهدير محركات بضعة عربات قديمة مهداة من الجيش البريطانى تطرق الآذان وقطرات مطر خفيف كانت تبل الأرض وبعض الشوارع المبلطة وتتجمع على جوانبها حيث لا توجد مجارى، وبعض الناس الذين يقفون متفرجين فى صفوف على جوانب ذلك الشارع يتقونها بورق جرائد يمسكون بها فوق رؤوسهم.

لم يكن الجو باردا رغم أنه شتاء وكانت شمس صباح يوم الرابع والعشرين من شهر ديسمبر تطل من جهة الشرق وحولها هالات السحب الخفيفة وهى تسير مسرعة وما تكاد الشمس تصعد كأنها ياقوتة تضىء وتتلألأ فى عيون بعض الناس تشمل المنطقة كلها بضوء أبيض حتى يتجمع الناس فى ساحة أمام مبنى شامخ قياسا بمبانى تلك المنطقة وطلاءه كان أحمرًا فاتحًا يسكنه الأمير السنوسى فى المدينة، المبنى كان مخصصا للحاكم الانجليزى وقبله للحاكم الايطالى وأهداه فيما بعد إدريس السنوسى عندما صار ملكا ليكون



مقرا لأول جامعة ليبية تأسست بعد الاستقلال، وهنا نسوة يزغردن خجولات ولا تظهر إلا رؤوسهن من شرفات البيوت المطلة على الشارع الرئيس الذى عرف فيما بعد باسم شارع الاستقلال فى وقت كانت تمر فيه طوابير شرطة ورجال نواة الجيش السنوسى، النسوة كن مسدلات أرديتهن على رؤوسهن والبعض منهن كن يضعن الخمار على وجوههن رغم أنهن يطلن من شرفات البيوت ولسن فى الشارع إذ لم يكن هناك سفور فى ذلك الوقت وقليل ما كانت المرأة تخرج من البيت ذلك كان فى مدينة بنغازى وقد احتفلت كل المدن الليبية بذلك الحدث.

الأطفال فى كل المدن جاؤوا إلى أماكن الاحتفالات، أغلبهم كانوا حفاة وبأسمال بالية تبللها رشات ماء المطر الخفيف الذى عم البلاد، وقد جاؤوا من مختلف المناطق سيرا على الأقدام فى الغالب، تراهم متشبثين بأعمدة الكهرباء وهى قليلة أو متسلقين بعض الأشجار ينظرون بانتباه إلى الاستعراض، كذلك انتظم طلبة المدارس بمختلف ألوان الملابس يحملون يفطا بأسماء مدارسهم ولافتات الترحيب بالاستقلال والدولة التى صارت مملكة وقد أطلق عليهاه اسم (المملكة الليبية المتحدة) ربما رغبة فى التأكيد على انها تتكون من ثلاثة أقاليم مختلفة عرفت فيما بعد باسم الولايات (ولاية برقة - ولاية طرابلس - ولاية فزان).

كان إعلان المملكة قد مثل تحولا كبيرا فى اتجاه سياسة البلاد إذ كان هناك من يريدها جمهورية ولكن (تأتي الرياح بما لا تشتهى السفن أحيانا) وقد شعر أصحاب المطالب المتشددة بأنهم هزموا فى أول معركة خاضوها ربما لأنهم لم يدركوا حقيقة الوضع وما هو قائم وواقع على الأرض وأهمية أدوار القوى ذات المصلحة فى هذه البلاد، وعند ذلك الإعلان أحس البعض وكأن الدنيا قد أطبقت عليهم أو كأن سقوف بيوتهم قد وقعت فجأة على رؤوسهم وهم غير

ملامين فى ذلك الإحساس ومن المعروف أن فى السياسة ما ليس فى غيرها، ولقد كان ذلك العجوز الانجليزى السير وينستون تشارتشل يقول إنك لكى تمرر حقيقة واحدة تحتاج إلى كتيبة من الأكاذيب وقد قال ذلك وهو واقفًا عاقدًا يديه خلف ظهره يخاطب شعبه أثناء الحرب العالمية الثانية وكان يتحدث بصوت خفيض جدا حتى إنهم لم يتبينوا بوضوح آخر كلمة قالها وهى (النصر لنا) وكان يمدغ سيجارا ضخما بين شفتيه ويلوّح بقبعته الدائرية الشكل سوداء اللون مائلا إلى الأمام كأنه سيقع على وجهه، وبعد انتهاء الحرب العالمية تلك وقد انتصرت فيه بريطانيا على قوات المحور بقيادة ادولف هتلر الذى كان يقول إن نظامه النازى سيعيش ألف سنة عندما كان يخطب بهيستيرية ويضرب بقبضته على صدره بشدة، قال هذا العجوز الانجليزى لقد انتصرنا بالديمقراطية لأن المواطن البريطانى كان عندما يطرق باب بيته فى الصباح الباكر ينهض مطمئنا لأنه يتوقع مجيء موزع الحليب بينما كان المواطن الألمانى عندما يطرق باب بيته فى الصباح الباكر ينهض مفجوعا خائفا لأنه يتوقع وجود قوات الجستابو على باب بيته لتعتقله، ولقد كانت حكومة هذا العجوز الداهية إلى جانب الأمير إدريس السنوسى ومطلب المملكة والتعاون مع الغرب وضد أى شىء آخر وما كان يمكن أن يحدث فى ذلك الوقت أى شىء يخالف ما أراده العجوز ذاك، تلك حقيقة تاريخية غفلها أو تغافل عنها الآخرون ولذلك راحت آمالهم قبض الريح وفضلوا.

ويالتناقضات الحياة وظروف السياسة فقد اعتقد أولئك الذين ضحوا كثيرا وجاهدوا أكثر أن أماكنهم شاغرة فى سلم الحكم الوطنى وما عليهم إلا أن يتقدموا لشغلها ومن ثم تقديم العون والمشورة والمشاركة لكنهم وجدوا أن

ذلك واحدا من أحلام ليل الشتاء ينساه النائم لطول الليل وقيل لهم أو هم سمعوا من يقول (إن ما فات مات) ولابد أن يبدأ التاريخ من هنا، من نقطة البداية هذه.. ومع هذه البداية انطوت أوراقا كثيرة وفتحت أخرى واحترقت مراحل من التاريخ الوطنى أو أريد لها أن تحترق..

والواقع أنه لم يكن فى البلاد شيئا ذا نفع وكان من اللازم أن يعاد بناء الحياة على شكل جديد، شكل من يريد أن يخدم نفسه ويبنى مستقبله بعد عهود من السيطرة الاجنبية والاستعمار والقهر والتنكيل، بناء الوطن وبناء النفس واستعادة الثقة فى كلما يمكن أن يكون محليا، أى الوطن والمواطن، أو كان هذا هو المحتمل والمتخيل، فقد تشكلت الحكومات والمجالس ورفع العلم الوطنى ذو الألوان الثلاث واعتمد النشيد الوطنى وصدر الدستور ثم تلاحق إصدار القوانين واللوائح التنظيمية وتقررت الميزانية ويا لها من ميزانية ! هى فقط ميزانية إدارية اعتمدت أساس على دخل الجمارك والضرائب المحلية، ثلاثة ملايين جنيه فى السنة بالتمام والكمال ! أما التنمية فلا شىء ولابد من الاعتماد على الهبات والمساعدات الإنسانية والخيرية والدولية إن وجدت، وتلك هى حالة الذى لا يملك شيئا من المال أو الصناعة أو الزراعة والتجارة، حدث شىء مفاجىء، انبجس من الظلام ليرى النور المبهر وكان عليه أن يفتح عينيه ما وسعه ذلك، جعلت بعض المسكنات الوقتية أمام مصاعب المعيشة الضاغطة والمشاكل التى لا تعد ولا تحصى ناهيك عن أن تحل ولم تكن الصعوبات محلية فقط تعلق بالأرض والناس والمعيشة إنما وجود قوات اجنبية وقواعد وجنود لثلاثة دول غربية كبيرة كما وجود قاعدى اقتصادى زراعى لدولة

اخرى هى إيطاليا ولها ما لها من نفوذ وتأثير نفسى ولغوى بسبب استعمارها فى السابق للبلاد.

كانت ليبيا تقع فى منتصف الطريق بين المغرب والمشرق العربيين وفى مواجهة دول أوربية على البحر الأبيض المتوسط وهذا يجعلها دائما طريق ومعبر وطرف فى أى خلاف أو صراع، وقد حدثت ثورة ٢٣ يوليو فى مصر بعيد قرار الأمم المتحدة باستقلال ليبيا بعدة شهور وقبيل إعلان استقلالها أيضا بعدة شهور وإذ كانت الثورة المصرية قد رفعت شعارات اعتبرها الغرب معادية لمصالحه ووجوده فى المنطقة كلها فقد شددت بريطانيا من قبضتها الشديدة أصلا على شرق ليبيا وصارت تتدخل فى كل شىء من الأرض إلى الناس وذلك رغبة فى التأثير على ثورة مصر سياسيا إن أمكن وعسكريا إذا اقتضى الامر وهو الشىء الذى حدث فيما بعد، وكانت وقتئذ طريق السويس على رأس استراتيجية الإمبراطورية العجوز ولا ريب أن النظام الجديد فى ليبيا كان راغبا فى الوجود البريطانى أو ربما هو محب للانجليز حماية أو اعترافا بالجميل، وكما يقال فان (من الحب ما قتل) وهذا انطبق فيما بعد على هذاالنظام فقد كان الوجود الأجنبى فى البداية مفيدا، أولا لحماية نظام الحكم من مطامع الآخرين المحيطين به، وثانيا لفتح باب العيش لكثير من الناس الذين التحقوا بالعمل فى المعسكرات البريطانية والأمريكية والفرنسية فى كل من برقة وطرابلس وفزان فى وقت لم تكن فيه سبل العيش ميسرة كما أنه أى نظام الحكم قد حصل على مساعدات مادية وفرت له فرص مواجهة أعباء وميزانيات الإدارة، ولقد وقعت اتفاقيات تأجير أراض ليبية لتلك الدول وكانت حجة الحكومة الليبية أن هذه القواعد والقوات طالما هى باقية شئنا أم كرهنا

فيجب أن تستأجر الأراضى التى تستخدمها على أن شروط التأجير كانت مجحفة فى حق البلاد، ولكن ما حيلة المضطر ؟

وقد حدث إنه كلما اشتد ساعد الثورة فى مصر كلما أحكمت قبضة بريطانيا وأمريكا وفرنسا على ليبيا وبالتالى زادت نقمة الشعب الليبى على نظام حكمه الوطنى وكراهيته للقوى الأجنبية ولأن أجهزة الشرطة والمخابرات وبقية الأجهزة من مهامها المحافظة على النظام الذى أقامها مهما كان فقد صارت تقاوم كل تذمر أو حركة أو إضراب مهما كان صغيرا ومسالما وذلك إرضاء للأجنبى صاحب المصالح سواء كانت تدرى أو لا تدرى ولأنها إن لم تقم بذلك تدخل هذا الاجنبى بما له من قوة وسيطرة ليقمع ويضرب ويدمر، على أن عمليات تلك الأجهزة فى حقيقة الأمر فى بدايتها كانت بوجل وتهيب ذلك إنه لم يكن للدولة ذلك الهيلمان ومن المنطق أن لا تقوم بأعمال شديدة فى وسط مجتمع صغير متماسك يحس فورا بما يحدث ويتذمر منه كما أن الملك كان قريبا من الناس كما كان يلتقى أولئك الذين يتهافتون عليه من زعماء القبائل والعشائر ونظرا لترابط الأواصر الاجتماعية فى البلاد فقد كانت الاجراءات التى تتخذ من طرف الأجهزة تقابل دائما بالاستهجان والمعارضة، كما أن الجراح لم تكن قد اندملت بعد من آثار الحكم الإيطالى الذى نكل بالناس أثناء سيطرة الفاشيست ولا يعقل أن تقفل سجون ومعتقلات الطليان وتفتح سجون ومعتقلات الحكم الوطنى الجديد على الفور لكن البساط الأحمر الطويل عندما يفرش تحت أقدام الحاكم وكرسى الحكم عندما يطيب المقام عليه تتغير الأمور والمواقف والأفكار والسياسات، مملكة متحدة بأربع حكومات وأربع قوات شرطة وجيش من بقايا الجيش السنوسى وأربعة مجالس تمثيلية، وكان

على الحكومة والملك مراعاة ما يريده الإنجليز أولا، وثانيا الأمريكان ثم دخلت على الساحة شركات النفط الأمريكية والإنجليزية والإيطالية والهولندية والفرنسية وهذه مثلت حكومات أخرى بإمكانيات وصلاحيات فوق كل الحكومات، ومع المصالح ظهر طابور المنافقين والمنتفعين والمستشارين ﴿وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هى حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم﴾[1] صدق الله العظيم.

وغالبا ما تكون مصيبة الحاكم فيمن يحيط به وهؤلاء يأتون إما من خلال علاقة القربى أو المرافقة أو الصداقة، وكان أقرب المحيطين بالملك إدريس رجل أسود البشرة كبير الرأس معتدل القامة عيناه يغشاهما البياض أذناه صغيرتان تكادان تكونان مستديرتين أسنانه بيضاء أفطس الأنف أكرت شعر الرأس يداه طويلتان حتى كأنهما متساويتان مع قامته عندما يمدهما على جانبيه قدماه كبيرتان حتى إنه كان يوصى على أحذيته لعدم وجود مقاسهما فى الأسواق، وكان ملازما للملك كظله، وهذا قرّب اصهاره أو معارفه إذ كان صاحب نفوذ لا حدود له وقد أعطى منصبا خاصا استحدث له فى الديوان، ولأهمية أجهزة الأمن خصوصا تلك التى تكونت منذ كانت برقة امارة قبل الاستقلال فقد تم تعيين مديرًا لها. (أصبح فيما بعد مديرًا عامًا فى كل البلاد) وكانت صلاحياته شبه مطلقة وكان رجلا قصير القامة ضيق الكتفين بارز الجبهة عيناه صغيرتان عسليتان أوداجه منتفخة دائما رقبته قصيرة ورأسه يغرق بين كتفيه يداه قصيرتان صغيرتان تعليمه متواضع جدا وقد شيع أنه تعلم القرآن فى زاوية الجغبوب انتماءه قبلى يتمتع بسمعة طيبة وأخلاقه حسنة لم يعرف عنه أى فساد

(١) سورة التوبة، الآية ٦٨.

خصوصا فى ذمته، أما وزراء الحكومة الاتحادية فكان تعيينهم يتم بحسابات وتوازنات خاصة بالقبائل التى كان الملك يرى فيها سنده وتأييده وهو لم يكن يرتاح لحياة المدن وأهل المدن ربما لأنه كان يكره المعارضين وأصحاب الرأى الشىء الذى دفعه فيما بعد إلى منع الأحزاب والجمعيات ذات الاتجاه السياسي وربما كان بذلك يسلك مسلك جده السنوسى الكبير الذى اعتمد فى دعوته على أهل البادية أصحاب الاعتقاد فى الدعوات الإصلاحية الدينية.

ولأنه لم يكن محبا لأهل المدن فقد صار يصدق كلما يقال عن هؤلاء المتحذلقين كما كان يقول عنهم أو يسميهم واعتبر أى احتجاج أو نقد إنما هو عمل مضاد له شخصيا، وهكذا فقد كان ينأى بنفسه عن أهل المدن وكما يقال فإن (حبل الباطل قعيد) ولقد تفنن أولئك الذين يلازمونه فى إذكاء ذلك الإحساس إذ كانوا يوسوسون فى أذنيه ليل نهار، وعلى الرغم من ذلك وبسبب تربيته الدينية فقد كان من المتوقع أو المأمول أن يقوم حكمه على العدل والقانون والعقل والفضيلة وليس الوقاحة والظلم الاجتماعى والوساطة ولابد أن نذكر أنه كان بين وقت وآخر يلمّح إلى ضرورة الحد من الفساد إذ أعلن أكثر من مرة أن (السيل قد بلغ الزبى).

وما أسوأ أن يعتمد الحاكم على قبيلة معينة و نوع خاص من الناس ليس بالثقافة والخبرة والتعليم أو النزاهة وإنما بسبب الولاء الشخصى فقط، وبذلك يبتعد عن الناس متناسيا القانون والعدل فى التعامل مع الرعية (كلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته).

وبعد أن ادخلت الولايات المتحدة الأمريكية شركاتها للتنقيب عن النفط الذى كان معروفا بجودته ووفرته فى هذه البلاد منذ ما قبل الحرب العالمية الثانية وبالتحديد منذ سنة ١٩١٤م حيث كانت شركة ستاندارد الأمريكية قد أرسلت خبراء فى النفط منذ ذلك الوقت، وكانت أمريكا تخطط للحلول محل دول الاستعمار القديم ولذلك بادرت بتقديم المساعدات المالية والفنية وحتي العسكرية والإدارية وكانت هناك بعثة عسكرية بريطانية لتأهيل وتدريب وتنظيم الجيش الليبى وهكذا عملت أمريكا على إدخال بعثتها العسكرية هى الأخرى فلا يجوز إحضار السلاح بدون الخبراء وقد سمت بعثتها العسكرية باسم البعثة العسكرية الاستشارية فى ليبيا، وأنشأت مؤسسة أطلق عليها اسم النقطة الرابعة وقد قدمت من خلالها الكثير من المساعدات فى شكل أغذية وقمح ودقيق وزيوت وأدوية كما رعت أطفال المدارس أيضا بالأدوية والغذاء وكان يمكن أن يذكر ويتذكر ذلك الشعب الليبى بكل التقدير والثناء لولا أن غطرسة وتعنت جنود أمريكا واعتداءاتهم على المواطنين وتعاليهم قد افقد كل شىء فقد كان أولئك الجنود أغبياء يتصرفون على طريقة راعى البقر فى التعامل مع الناس مما أجج مشاعر العداء لكل ما هو أمريكى رغم كل المساعدات الخيرية والإنسانية ورغم أن علامة الأيدى المتشابكة والمطبوعة على كل صندوق أو شوال ترى فى كل مكان فى ليبيا بل حتى على الملابس أحيانا وهى تدل بالضرورة على التعاون والمساعدات.

وتحولت النقطة الرابعة فيما بعد إلى ما عرف بمجلس الأعمار وكان الغرض من تغيير التسمية أن يقوم المجلس بالمشاركة فى أعمار البلاد كبناء لمدارس والبحث عن المياه وحفر الآبار إلخ وهذا بالفعل ما كانت البلاد فى

حاجة إليه، ولكن فى السياسة ما ليس فى غيرها كما يقولون فقد تأجج الخلاف وتصاعد التراشق الإعلامى بين الثورة المصرية والغرب وعلى رأسه الولايات المتحدة الأمريكية وكانت إذاعة صوت العرب من القاهرة قد ركزت برامجها السياسية على خط الوجود الأجنبى واستغلال الغرب لثروات البلاد العربية ومنها ليبيا بالطبع وصارت بريطانيا بتأييد أمريكى تعد العدة لضرب الثورة المصرية وقد ظهر ذلك فى شكل مناورات برية وجوية قامت وتقوم بها قواتها قرب الحدود المصرية، وحدث الانقسام بين الحكومة والشعب كما حدثت لأول مرة مظاهرات عمالية وطلابية سارت فى شوارع طرابلس وبنغازى وغيرهما من المدن الليبية احتجاجا على الوجود الأجنبى والقواعد العسكرية فى ليبيا ورفعت شعارات مؤيدة لثورة مصر مما دفع الحكومة إلى تشديد قبضتها وإجراءاتها البوليسية ورقابتها علي كل نشاط عمالى أو طلابى أو حتى ثقافى خوفا وتحوطا وأصبحت البعثتان العسكريتان البريطانية والأمريكية لدى الجيش الليبى تتدخلان فى كل حركة وتحيان كل نفس وتحللان كل كلمة وحتى فى اجهزة الشرطة كان هناك مستشارون ومدربون عسكريون بريطانيـون، ونظراً لما ظهر من تأثير سياسى بواسطة الدعاية والإعلام وخوفا من لهيب الثورات أو الانقلابات تقرر إنشاء كلية عسكرية بحيث يتم تدريب الضباط الليبيين محليا وكانوا فيما سبق يبعثون إلى العراق بحجة أن العقيدة العسكرية الواحدة والتدريب انجليزى بينما الحقيقة أن النظامين ملكيين ومتفقين فى التعامل مع بريطانيا، وتأسست أول جامعة ليبية (الكلية العسكرية والجامعة كانتا فى بنغازى) وكانت البعثات الدراسية أغلبها إلى مصر فصار العمل على تحويلها إلى الغرب مثل بريطانيا وأمريكا وألمانيا وحتى إيطاليا وإن حدث ذلك بكثير من

الحذر إذ كان النظام رغم ميوله الغربية لا يظهر العداء السافر للدول العربية ومنها مصر وربما كان مرد ذلك أن الملك قد عاش فى مصر ووجد منها كل مساعدة ولهذا احتفظ بها ببعض الود والمجاملة، وقد أشيع أن الرغبة فى التحول بالبعثات الدراسية إلى الغرب هو الرغبة فى الحصول على التعليم التقنى المتقدم ولعل ذلك كان صحيحا، وإحقاقا للحق فقد حدث بعض التقدم فى حياة الناس وبذلت جهود طيبة فى مجالات التعليم والصحة والرعاية الاجتماعية ولكن (ليس بالخبز وحده يعيش الإنسان) مع أنه خبز مغموس بالعرق، ولقد كانت هناك مطالب أخرى ربما لم يدركها النظام أو إنه أراد التغاضى عنها وتلك خطيئة قاتلة لأى نظام وطنى وهى الكرامة الوطنية متمثلة فى الدين والعادات والتقاليد وأسلوب الحياة.

ولقد كان أولئك المصلوبون أمام مكاتب العمل فى أغلب المدن الليبية وأولئك الذين عانوا من عوادى الدهر وواجهوا أحزان السنين الطوال لم يشهدوا شيئا من خير كانوا يتوقعونه من حكم وطنى فالفقراء الباحثون عن عمل، أى عمل، ظلوا يتهافتون على المعسكرات والقواعد الأجنبية ومكاتب العمل فى المدن وأولئك الذين قطعت أيديهم أو أرجلهم أو ماتوا فى عمليات تفكيك القنابل والألغام فى طبرق عجزوا حتى عن تشذيب اغصان زيتونهم ناهيك عن الحرث والحصاد ومعهم أولئك الذين هتفوا حتى بحت حناجرهم ترحيبا وتأييدا للاستقلال والحكم الوطنى ظلت حياتهم يكتنفها البؤس والخيبات والمآسى وانتظار المجهول.

ولقد كانت تلك بداية سيئة وصعبة فقد انشغل الناس بالبحث عن لقمة العيش وهى غير متيسرة وانشغل الحكم بنفسه محاولا التوفيق بين متناقضات لا يمكن التوفيق بينها وصار كمن يضرب جِرَار الفخار ببعضها، تلك هى المرحلة الأولى وقد خاب فيها الأمل.

جاء فى الدستور الليبى نص يقول أن النظام الملكى وراثى وكانت زوجة الملك من نفس العائلة السنوسية، وعلى الرغم من أن رجال البيت السنوسى يطبقون (قاعدة ما ملكت أيمانهم) فى قوله تعالى ﴿إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين﴾[1] فإن الملك إدريس كانت زوجه واحدة قبل أن يكون ملكا أو حتى أميرا على برقة وكانت سيدة محترمة بشرتها سمراء فاتحة جسمها هزيل قامتها ممدودة تقاطيعها متناسقة مريحة لم يعرف عنها التدخل فى شئون الدولة ولا ظهرت فى المناسبات الرسمية عينيها رماديتين تطرفان كثيرا ابتسامتها رقيقة ودودة وكانت علاقتها مع زوجها قائمة على الاحترام والتفاهم إلا أنهما لم ينجبا طفلا الشىء الذى كان يلقى ببعض الظلال على الوضع العائلى ولهذا فان أولئك الذين كانوا مقربين من الملك ويقدمون المشورة أحيانا والأفكار والاقتراحات أحيان أخرى ما انفكوا يوشوشون ويلمحون إلى ضرورة أن يكون له ولى عهد من صلبه حتى استطاعوا ذات مرة إقناعه بالزواج من سيدة تعيش مع عائلتها فى مصر قالوا إنها من أصل ليبى، ومن أجل إقناعه جاؤوا بتاريخ أسرتها ليؤكدوا أنها ليبية الجد والأب والأم حتى إنهم قد بالغوا فى الإطراء وذكر محاسن تلك الأسرة وواسعوها قصصا وحكايا.

---

(١) سورة المؤمنون، الآية ٦.

وقد وافق الملك بعد تردد لكنه اشترط فى البداية بحث الأمر مع عائلتها قبل إعلان أى شىء، وقيل انه ناقش الأمر مع زوجه مبديا رغبته فى إنجاب أطفال وأن الاطباء قد أكدوا له قدرته على الإنجاب وقيل إنها كانت تستمع شاردة اللب ذاهله ثم حدقت فى وجهه وعادت مطرقة تنظر إلى لا شىء إلا أنها لم تعتب ولا هى احتجت الشىء الذى اعتبر موافقة وإن على مضض ولشىء ما كان تواقا إلى أن يسمع منها الموافق ولكنها لم تلفظ ببنت شفة.

ولقد تم الاتصال بعائلة الزوجة المقترحة وبحث الأمر معهم ومع الزوجة نفسها فى سرية تامة حيث حصلت الموافقة وأعلن رسميا زواج الملك، وقد جرت الاستعدادات وتقرر أن يصطحب العروس شقيقها الأكبر فى طائرة خاصة وكذلك ناظر الخاصة الملكية وتمت الدخلة فى قصر الملك بمدينة درنة، ولابد أن اختيار تلك المدينة الصغيرة الجميلة كان يتناسب مع الزواج الجديد من شابة قيل إنها كانت صاحبة نظرة سحرية وبسمة مشرقة دائما، والحقيقة إنها كانت دقيقة القوام معدولة القد واسعة العينين الخضرأوين طويلة الشعر الذى كان متدليا من تحت البرقع الأبيض الذى كان يغطى رأسها، رقبتها طويلة بيضاء البشرة وكانت تمسك باليد اليسرى باقة ورد أبيض صغيرة لعلها تتكون من ثلاث أو أربع قرنفلات، هبطت من الطائرة وهى خافضة النظر تحاذر بخطواتها كأنها تخاف أن تتعثر رجليها على السلم وخلفها شقيقها الذى ظهر طويلا نحيفا حاجباه غزيران وعيناه غائرتان عميقتان ترتكز على قنبرة أنفه نظارة طبية ذات إطار ذهبى، وعندما هبطت الطائرة فى مطار درنة كانت هناك خيمة صغيرة قد أعدت لجلوس الملك وبها بسط عجمى فاخر ومقعد واحد لكنه لم يبق فيها فوضعوا المقعد بالقرب منها وقد جلس عليه لفترة قصيرة عندما كانت الطائرة تستعد

للهبوط واضعا ساقا على ساق وكان يرتدى ملابس بيضاء بهية ولم يلبث طويلا فى مكانه وكان كلما تحول من مكانه نقلوا المقعد بالقرب منه وعندما حطت الطائرة استقبل العروس على عتبات السلم السفلى واصطحبها بلا ضجة ولا شىء غير سيارات المرافقة وكان يلوح بيده اليمنى للناس الذين اصطفوا على جنبات الطريق وهو يضع نظارته الطبية ذات الإطار الدائرى الأبيض على عينيه والتى يلاحظ أنها لم تتغير من حيث الشكل منذ ظهر بها أول مرة ولابد أن قلبه كان يخفق ومشاعره كانت متأججة لأنه يريد ولدا يخلفه ويكون وليا لعهده إذ كان مقتنعا بأنه قادر على الإنجاب، ولم يجرى أى احتفال بالزواج وكانت العروس تنظر من خلال نافذة السيارة المسرعة ولعلها أرادت أن تتمتع بمنظر تلك الشوارع ذات الأشجار والورود الجميلة، وكانت مدينة درنة تشتهر بشجر الموز ومختلف أشجار الورود وتصنع بها أشهر العطور الليبية.

كان طقس ذلك اليوم معتدلا مشمسا وكان البيت الذى تقرر أن يكون مقرا للزوجين مكونا من طابقين يعلوه الأجر الأحمر وهو محاط بالبنفسج المزهر والقرنفل وشجر الموز ذى الأوراق الخضراء العريضة يلامس النوافذ من كل جانب وفى الصباح الباكر عادة ما يلف ذلك البيت ضباب خفيف ربما نتيجة القرب من البحر وما يلبث أن ينقشع.

لقد كان كاتب هذه السطور أحد الوقوف فى طابور الشرف أى أنه شاهد عيان، أقول هذا لكى لا يستغرب القارئ الكريم ويتساءل من أين جئت بمعلومات الوصف هذه للعروسين والمشهد، لقد كانت السيدة رقيقة ناعمة والمدينة جميلة زاهية يغسل وجهها ماء البحر وتعطرها الورود الفواحة والياسمين البهيج بينما يحميها من الخلف ذلك المرتفع الشامخ، الجبل الأخضر، ويرطب

أجوائها الشلال المتدفق عبر التلال مندفعا فى اتجاه البحر الأبيض المتوسط عبر وادى درنة العميق والذى يفصلها إلى جزئين، لكن الملك لم يبق طويلا مع عروسه رغم كل تلك المغريات (الماء والخضرة والوجه الحسن) ولا أحد عرف أو يعرف شيئا عن الأسباب كما أن العروس لم تستمر طويلا فقد أرادت أن تعود إلى أهلها ربما لأنها أحست بأن الملك قد هجرها، ولقد وافق الملك على أن تعود دون ضجة ولا مراسم، وأذكر هنا للتاريخ أن مجلس الوزراء قد اجتمع بموافقة الملك واتخذ قرارا بإجراء الكشف على الزوجة قبل أن تغادر البلاد للتأكد من أنها ليست حاملا، وهكذا حدث وبعد أن تأكدوا غادرت البلاد ولم يسمع عنها شيئا منذ ذلك الوقت، وربما يتصور المرء أنها غارقة فى تأمل ذلك الذى حدث، وكما قال أحد الحكماء، لقد تحطمت السفينة على صخور الحياة اليومية..

ومن المؤكد أن المقربين هؤلاء مثلما أقنعوا الملك بالزواج مؤكدين له القدرة على الإنجاب وهو فى مثل تلك المرحلة من العمر أقنعوه بأشياء أخرى كثيرة منها تشديد قبضة الامن على البلاد ومنها التعاون الاكثر والأوثق مع الإنجليز والأمريكان ومنها ضرب كل القوى المعارضة وإسكات كل صوت ينتقد أو يحتج، ولابد أنهم أفهموه أن كل شىء جيد وممتاز وعلى خير وجه وأن ألسنة الناس تلهج بالدعاء له بطول العمر وأن الذين ينتقدون أو يعارضون انما هم أعداء الملك والشعب وأعداء الاصلاح والتقدم وأنهم حفنة من الملحدين الشيوعيين والمتطرفين الذين تمولهم المخابرات الأجنبية ومنها المخابرات المصرية، وإذ كانت شركات النفط قد صارت تنتج كميات من النفط تجاريا وأن البلاد مقبلة على تنمية ومشاريع واستثمارات وهذه تحتاج إلى كثير من الأمن والاستقرار (حق أريد به باطل) وكان الملك نفسه قد افتتح خط تصدير النفط من مرسى

البريقة واطلع على كمية الإنتاج وما ينتظر البلاد تبعا لذلك من خير وتقدم، يذكر أنه بحلول سنة ١٩٦١ م كانت آبار النفط المنتجة عددها ١٠٩ بئرا وكمية إنتاجها الإجمالى اليومى قد بلغت ١٨٤٨٢٠ مائة وأربعة وثمانين ألفا وثمانمائة وعشرين برميلا وعدد شركات النفط العاملة فى البلاد كان أكثر من عشرين شركة حصلت على اثنين وثمانين امتياز للتنقيب.

وكانت الحركة السياسية والفكرية والإعلامية فى البلاد مشدودة بين خمس جهات هى الصحافة والبرلمان والنقابات والتجمعات الطلابية والحكومة، ورغم كل الضغوطات ومحاولات تزوير الانتخابات وندرة المساعدات للصحف فقد نشأت صحافة وطنية فرضت وجودها واستحوذت على نصيب الأسد من القراء وخلقت رأيا عاما فى مقابل صحافة الحكومة التى كانت تحظى بالتمويل الهائل، كذلك ظهرت معارضة وطنية فى البرلمان صار يحسب لا كل حساب، وعلى الرغم من أن الحكم قد منع منذ البداية تكوين الاحزاب السياسية ولاحق أعضاء الأحزاب السابقة ولم يبق إلا على جميعة عمر المختار فى بنغازى ربما لارتباط اسمها بذلك المجاهد لكنها ما لبثت أن أغلقت وقد انقلب عليها الحكم ونفى رئيسها وأعضائها إلى دواخل البلاد فى برقة، ومع كل التشديد والمنع فقد كانت هناك ديمقراطية خجولة ربما كانت من أجل تزيين وجه الحكم أو تقليدا للغرب وأن بوجل وبعض التضييق، الشىء الذى نتج عنه بروز قيادات برلمانية ناطحت الحكومة بقوة وقد حدث تجمعا ضم عددا من أعضاء البرلمان مثل كتلة معارضة برلمانية نشطة وهؤلاء الأعضاء فى البرلمان خدموا القضية الوطنية ولو أمكن لنظام الحكم أن يصبر عليهم لكانوا قد أفادوا وربما أفاد ذلك القضية الوطنية وأحدث نوعا من الوفاق الوطنى يقلل من الاحتجاج والتذمر ذلك إن

الديمقراطية كنظام مدنى تستوجب القبول بأنه لا أحد يملك الحقيقة السياسية الكاملة ولكن تلك الحقيقة لابد أن تتكون عن طريق البحث والمناقشة المستمرين ومحاولات إقناع البعض الآخر وصولا إلى اقتراع عام لخلق وقف توافقى بين الناس على إساس سلمى.

وكان النفط قد استخرج وبدأ تصديره ومن ثم صار يدفع منه النصيب المقرر للخزانة الليبية، ويحدث دائما وغالبا فى البلدان المتخلفة عندما تهبط عليها الثروات أن تفقد توازنهما ذلك أن شعوبها لا تدرك بشكل جيد ومنظم ومبرمج الطرق والسبل والمناهج التى تستخدم فيها تلك الثروات بحيث تأتى بفائدة على المدى البعيد وإذا لم يكن قادتها وأولى الأمر فيها متقدمين عنها فكريا وسياسيا وحضاريا - بحيث يقودونها إلى التقدم بددوا تلك الثروة فى أعمال طائشة وسفيهة وهؤلاء ينطبق عليهم قول الله سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم ﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا﴾[١] صدق الله العظيم ولكن من كان يمكنه أن يقول لهم ذلك القول المعروف؟

وهكذا حدث فى البلاد فقد اكتشف النفط بكميات وفيرة ممتازة تجارية وصار دخل الخزانة كذلك وافر فطارت العقول وانتفخت الأوداج وفتحت الجيوب وحدث السفه والتبديد، فقد صاروا يبنون الأضرحة بدلا من البيوت وكانت الناس ما تزال تعيش فى الاكواخ والعشش، والمثل الشعبى يقول، الحى أفضل من الميت، ولقد أقنعوا الملك (ربما) بأن أحياء السنوسية الدينية فى ظل

(١) سورة النساء، الآية ٥.

السنوسية السياسية يدعم الحكم ولهذا وجب الاهتمام بموتى السنوسية، وكان وقتئذ قد انتقل إلى منطقة قرب البيضاء وهذه كانت بلدة صغيرة، وإذ كان ناظر خاصته الملكية قد اغتيل في بنغازى نتيجة صراع عائلى بين السنوسية أنفسهم فقد عاقب الملك المدينة كلها واعتبرها مسؤولة عن جرم لم ترتكبه فأقسم أنه لن يدخلها بعد ذلك اليوم ولأنه يتنقل أحيانا بين الغرب والشرق فقد شقوا طريقا خاصا يسلكه ركبه دون أن يمر بالمدينة.

وكما عاقب المدينة عاقب أهله فقد أصدر أمرا يمنع كل الامتيازات التى كان يتمتع بها كل فرد من الأسرة السنوسية، امرأة أو طفل أو رجل، بل إنه أمر بنفى أغلبهم حيث نقلوا إلى مناطق بعيدة فى البلاد، وقد اعتل مزاجه وصحته وكان يعتريه فى الغالب، كما قيل، القلق والغضب ولذلك قرر أصحاب المخالب الطويلة إن الطقس المناسب له هو ذلك الذى يسود منطقة البيضاء أى الجبل الأخضر وهكذا بدوا فى بناء مدينة كاملة هناك واعتبروها المقر الإدارى الصيفى للحكومة التى يجب أن تكون قريبة من الملك دائما، حتى يحين الوقت المناسب لإعلانها عاصمة البلاد، وانشغلت جميع الأجهزة فى الإعداد والاستعداد، وبدأ العمل على قدم وساق فى بناء الفيلات والعمارات والمكاتب الإدارية والمراكز ومقار المؤسسات العسكرية وغيرها كما انشئت جامعة هناك تسمت باسم السنوسى الكبير (جامعة محمد بن على السنوسى الإسلامية) ومع انتقال الحكومة من العاصمة طرابلس إلى المدينة الجديدة انتقل كل جهاز الدولة، وإذ ارتفعت أصوات الاحتجاج وظهر التذمر اعتقدوا أنهم يمكن أن يتغلبوا على ذلك بالمال فقرروا استحداث علاوة تضاف إلى مرتبات الموظفين والمستخدمين عرفت باسم المدينة (علاوة البيضاء).

ومع اشتداد أصوات المعارضة وتكاثر الشكاوى والاحتجاجات حتى داخل قاعة البرلمان الذى نقل إلى البيضاء هو الآخر، وكانت جميع الأصوات تذهب أدراج الرياح كمن يتحدث إلى ميت فى قبر، وقد راحت كل المساعى بددا وانتشر الفساد وعجز الملك عن فعل أى شىء غير الأمر بتغيير الوزارات أحيانا على أنه لم يبق فى البيضاء هو نفسه دون سبب معروف وهى التى قيل إن هواءها مناسب لصحته وإنما انتقل إلى طبرق ليقيم بشكل دائم هناك ولقد تواترت أخبارا تقول إنه أصيب بمرض النعاس الطويل وتعتريه إغماءات أحيانا.

وكان يحدث فى كل دورة برلمانية أن يتلى خطاب العرش الذى تعده الحكومة ويتردد فيه نفس الكلام كل مرة، قامت حكومتى، فعلت حكومتى، وستفعل حكومتى إلخ ولا أحد يعرف ما إذا كان الملك قد اطلع أو حتى سمع بفحوى الخطاب الذى يقدم إلى البرلمان باسمه، وبعد ذلك يغرق أعضاء البرلمان فى جدل ونقاش مع الحكومة وعليهم أن يردوا على خطاب العرش بالموافقة والشكر، وكما يقول المثل الانجليزى (المشكلة أن الطعام ينزل من نفس المكان الذى يخرج منه الصوت) فقد صارت الحكومة تملأ بطون أغلب النواب وهكذا فالصوت لا يخرج إلا بالموافقة حتى إن حدوتة كان يتناقلها الظرفاء تقول إن رئيس مجلس النواب أى البرلمان كان يضع على رأسه طربوشا ويقول لأولئك النواب إنهم يجب أن ينظروا إلى طربوشه عندما تقدم الحكومة أى مشروع أو مقترح فإذا مال بالطربوش إلى جهة اليمين عليهم أن يوافقوا وإذا مال به إلى جهة اليسار عليهم أن يرفضوا، ومثل هؤلاء النواب قال فيهم الشاعر الكبير رفيق المهدوى (نائب من نواب الأمة فاتح فمه نائم شكلا إيجيب الغمه) الشطر الأخير من بيت الشعر هذا غيرناه من عندنا لأن نصه السابق لا يمكن أن يكتب.

على أن التاريخ الوطنى قد سجل مواقف مشرفة لعدد من أعضاء البرلمان الذين أدركوا مصلحة البلاد وصدقوا فى مواقفهم رغم أن ما كان يكلفهم ذلك من عناء ومصاعب فالنائب المعارض لا يمكنه أن يحقق مصلحة المواطن أو المنطقة التى انتخب بها إلا إذا قدم الثمن، والثمن عادة هو الخضوع للحكومة والإقلاع عن المعارض مهما كانت أخطاء الحكومة تلك..

ومن الطبيعى أنه عندما يتفشى الفساد وتكمم الأفواه وتستأسد الأجهزة الأمنية يلجأ الناس إلى العمل السرى، وهكذا حدث فقد تكونت أحزابا تحت الأرض وتنظيمات بين أفراد القوات المسلحة وظهرت منشورات تهاجم الفساد وتحض الناس على الرفض والمعارضة وحتى التغيير ولم تتعرض تلك المنشورات فى البداية للملك أو تعرض به وإنما أشارت إلى الفساد والتجاوزات والتبذير والقبلية وكان الاعتقاد السائد أن ذمة الرجل (الملك) كانت نقية وهى فعلا كذلك وكانت المآخذ عليه سياسية بحتة فهو بالنسبة للمال كان زاهدا..

ولقد كبر أولئك الناس فى المناصب ولم يكبروا فى الإدراك والعقول، وتبعا لتلك المناصب والنياشين والرتب كبرت الهوة بينهم وبين الناس وصار كل تصرف يأتونه منافيا للتقاليد فى مجتمعهم وعندما يحدث ذلك فهو بلا ريب يؤدى إلى تقويض نظام الحكم لأن(الناس ما يزالون مستقيمين ما استقامت لهم أئمتهم وهداتهم).

حدث البذخ والثراء بغير وجه حق (وإذا أراد الله نزع ولاية عمى البصير بها وصم السامع) ولقد صدق الشاعر العربى حين قال :

(مالى اراك مددت للمال الربى ... جسرا وفى القرآن عنه قوارع ؟

أنسيت حرب الله وهى رهيبة ... أو ما لديك من العقيدة رادع ؟)

ولم يتخلف الشعر الشعبى وهو المعبر فى الغالب عن الرأى العام ونبض الناس، لم يتأخر عن خوض المعركة والدفاع عن حقوق وأموال الناس كما التنبيه إلى ما يجرى من فساد وكيف أن أولى الأمر يبددون الثروة فيما لا طائل وراءه وقد صاروا لصوصا، وكانت واحدة من أهم القصائد الشعبية التى كان الناس يرددونها هى قصيدة (وين ثرة البترول يا سراقا؟)

لكن لا حياة لمن تنادى، ولقد قال الله فى كتابه الكريم : ﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا * الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا﴾[١] صدق الله العظيم.

تداخلت وتشابكت الأمور والأحداث والتطورات السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية وصار النظام كأنما هو فى خذر وكأنه لا يعى ما يجرى ويحدث حواليه وتحته وفى العالم، ولقد كان هزيلا ومضحكا ما يجرى فى البلاد.

ملك اعتكف بعيدا عن الناس والأحداث، ورجال حكومة يتصارعون فيما بينهم لا يرجعون إلى القانون وإنما إلى القبائل والشلل عيونهم على المناصب وآذانهم مع الانجليز، وبرلمان أصبح مشلولا لتغيب أعضائه بعذر وبلا عذر وسبب، وشعب متذمر يتلقى أخبار بلاده من إذاعات خارجية، يسيطر عليه مد قومى يؤجه صوت العرب من القاهرة ويشد انتباهه إلى مصير الأمة العربية ومصير بلاده جمال عبد الناصر، يسهر مع حفلات أم كلثوم ويتابع خطب عبد الناصر، ينتفض متفاعلا مع ما يجرى فى الوطن العربى، من ثورة الجزائر إلى حرب سنة ٥٦ إلى المشاريع الأمريكية لملء الفراغ فى الشرق الأوسط

---

(١) سورة الكهف، الأيتان ١٠٣، ١٠٤ .

إلى الوحدة الأولى فى تاريخ العرب الحديث إلى الانفصال السورى إلى حرب سنة ٦٧ وهزيمة العرب المدمرة، وقبلئذ وبعدئذ معركة الوجود الأجنبى على أرضه وتلك القواعد العسكرية التى تقلع منها طائرات العدوان على العرب.

وما أسوأ أن يتخلف النظام السياسي عن مواطنيه وأن يفقد الإحساس بنبض الشارع وآلام الناس، ولا يواكب التطور والوعى السياسى فى بلاده وبذلك يصير كمن يركب دابة ووجهه إلى الخلف ليقع فى أول عثرة.

صارت الأجهزة أشد قمعا وتلك هى القشة التى قسمت ظهر البعير، وصارت الحكومة كحالة الحمل الذى يأكل تبن الحوية، وصار الملك لا يسمع إلا الإطراء والتبجيل حتى أنهم كانوا يقولون له أن الشعب لا يدعو لك إلا بطول العمر، وحاولوا أن يرسّخوا فى عقول وأذهان الناس كأنما هم أطفال أخبارًا تقول إن البلاد ستخرب إذا ما حدث أى مكروه للملك إذ ليس هناك من يخلفه ويوقد البلاد إلى بر الأمان.

وصار كثيرون لا يحلفون بالله وإنما باسم الملك، ولقد ساهم إعلامهم الغبى الجاهل فى تضليل ذلك الملك ببث برقيات التأييد ولقاءات الهرج والتطبيل وندوات شعر النفاق والكذب وتجمعات المنتفعين التى ترتفع فيها أصوات تشبه خوار البهائم.

ولقد تكاثرت المشاكل وتعددت المظاهرات والاحتجاجات والاعتصامات وتتابعت المنشورات التى تدين وتهاجم ذلك الوضع وتشير إلى العيوب كما تنبه إلى الأخطاء، وردت الحكومة على ذلك بمزيد من الاعتقالات والمحاكمات وسرحت بعض الضباط الذين حامت حولهم مجرد شبهات يشم

منها رائحة التذمر أو القيام بأى نشاط وصارت ضرباتها كحاطب الليل، فهى تتهم الشيوعيين أحيانا والبعثيون فى أحيان أخرى وحزب التحرير الإسلامى فى مرة ثالثة ثم عبد الناصر وصوت العرب، وصار كل من يستمع لصوت العرب أو يتحدث عن عبد الناصر والقومية العربية عدوا للحكومة وخائنا للبلاد وعميلا للمخابرات أما إذا ما نظر بين يدى أحد المواطنين كتاب أو مجلة أو جريدة فيها صورة لعبد الناصر أو كلمة عن الثورة والقومية فهذا يصنف على أنه مشاغب وتتوجب مراقبته ليلا ونهارا وفى كل حركة أو خطوة يخطوها، وفرضت الرقابة على الصحف وعلى جميع أنواع المطبوعات وصار مقص الرقيب وقلمه الأسود الثخين شعار المرحلة وأداة الطمس، وإذا ما أقيمت ندوة أو ملتقى فإن الأجهزة تستنفر وتقف على رجل واحدة استعدادا للقفر إذ لابد أن يكون هناك حزبيون وعملاء ومخابرات مصرية، ولقد فرضوا مقولة على كل من يريد أن يتحدث ولو كان الحديث فى حفل ختان أو عرس أو تلك هى الدعاء بطول العمر للملك المعظم وولى عهده المحبوب، أما خطب صلوات الجمعة فعلى الإمام أن يقول مولانا الملك المعظم نصرة ومسحق بسيفه رقاب الطائفة الكافرة.

أما الصحف المحلية فلابد أن تنشر صور الملك فى الصفحة الأولى وتكون الصورة طولية كاملة أى أن يكون الملك واقفا وحدث أنه مثلما يقال فى الامثال (ما زاد عن حده انقلب إلى ضده) فقد صار حتى أولئك الذين ينتفعون من النظام يتأففون من هذه الفروض.

ولقد صدرت تعليمات الحكومة إلى ممثليها فى كل اللقاءات أو الندوات أو المحافل الدولية بالتزام الصمت حتى إن وزير خارجية ليبيا كانت الصحف العربية تنعته بالوزير الصامت، وتندر المواطنون على ولى العهد رحمه

الله الذى كان قد حضر مؤتمر قمة الخرطوم نيابة عن الملك بعد هزيمة سنة ٦٧ م واتخذ قرارات اللاءات الثلاث (لا صلح لا اعتراف لا تفاوض) تندروا على ولى العهد بالقول (لا كلا لا سمع لا بصر) على الرغم من أن ليبيا ساهمت بالدعم المادى لدول المواجهة العربية وهو القرار الذى اتخذه ذلك المؤتمر.

ولقد كانت المطالب الأساسية التى ينادى بها الشعب ويتبناها مجلس النواب هى جلاء القواعد والقوات الأجنبية من البلاد وانتهاج سياسة مؤيدة للاتجاه العربى التحررى، واجتمع مجلس النواب فى جلسة طارئة فى يوم كان هواؤه رطبا وسماؤه زرقاء صافية ورياحه بحرية هادئة وشمسه تبعث أشعتها على تلك التلال الخضراء فى الجبل الأخضر، اجتمعوا تحت قبة المقر الجديد للبرلمان الذى كان يفترض أن يتخذ فيه قرار تغيير عاصمة ا لدولة من طرابلس إلى البيضاء، اتخذ هذا البرلمان قرارا بإلغاء الاتفاقيات المعقودة مع كل من بريطانيا وأمريكا وإجلاء القواعد والقوات الاجنبية من البلاد ولم يستطع حتى أولئك النواب الموالون للحكومة أن يعترضوا على ذلك القرار لانهم خافوا نقمة الشعب ولو حدث وعارض أى نائب منهم ما كان يمكن له أن يعود إلى منطقته، ولقد مثل القرار زلزالا هز كيان الدولة المحتضرة وأجهزتها الخاوية، وفيما سبق حدث زلزالان فى عهد هذه الدولة، زلزال هدم هذه المبانى فى بلدة المرج منذ قرابة خمس سنوات مضت وزلزال قرار مجلس النواب الذى ساعد على هدم أعمدة دولة كانت آيلة للسقوط، لقد ترنحت وفزع من فيها كالفئران فى الباخرة الغارقة وصار الحكم كما قال شكسبير فى رواية الملك، أضعف من دمعة امرأة وأبلد من النعاس وأحط من الجهل وأقل جرأة من العذراء التى تلفها عتمة الليل.

ولشد ما كان الأمر عجبا أنهم لم يدركوا بشكل واضح وفى وقت مناسب أن جميع أجهزة النظام صارت تجذف ضد التيار وهو تيار قوى جارف، تيار القومية العربية والتحرر الوطنى ونبذ الاستعمار ولم تكن أجهزتهم تلك تملك القدرة على المقاومة أو حتى الوقوف فى وجه ذلك التيار، وكان لابد أن يجرفه ويرمى بها على شاطئ لا عودة منه، ولو كانوا قد استمعوا إلى صوت العقل وأدركوا حقيقة ما يجرى وأحسوا أنين الناس لكانوا يمكنهم أن يقيلوا بلادهم من عثراتها.

ولقد تمثل تيار القومية العربية، الذى تجاهلوه عن عمد وغفلة، فى عمق إيمان الناس بالمصير العربى الواحد فى ذلك الحماس الشعبى لنصرة الثورة الجزائرية وتقديم كل ما يمكن أن يساعد تلك الثورة العربية فى نضالها ضد الاستعمار الفرنسى، لقد كان الليبيون يقدمون من البندقية والذخيرة إلى المال والغذاء والكساء إلى تجميع جلود الأضاحى، وكان أطفال المدارس يتبرعون بتلك القريشات القليلة وهى ثمن إفطارهم كما كانت النساء تتبع باقراط فى اذنيها وكانت فى عجلة ومتحمسة فانتزعت أحد القرطين بعنف من إحدى أذنيها فانخرم مكانه وسال الدم من تلك الأذن لكنها ما اهتمت ولا انزعجت وإنما قدمت القرط وهى تزغد.

كما تمثل تيار القومية العربية فى تلك المظاهرات التى طافت شوارع أغلب المدن الليبية احتجاجا وإدانة للعدوان الثلاثى على مصر سنة ٥٦ م، وتمثل فى أولئك الرجال والنساء والشباب الذين اجهشوا بالبكاء المر على الملإ إثر هزيمة حرب سنة ٦٧ م وقبلها تلك الندوات والمسيرات المؤيدة للوحدة العربية بين مصر وسوريا.

كل هذه الأحداث لم يدرك مغزاها النظام المتداعى المترهل إلى أن انكسرت العصاة المتسوسة والتى كان يتكىء عليها، ولقد حدث التغيير بضربة واحدة وطوى التاريخ الوطنى صفحة وفتح أخرى.. ويبقى هؤلاء الناس، الشعب هو الباقى دائما، كما هم مرتبطون بتراب بلادهم التى رواها الآباء والأجداد بالدماء الذكية ذودا عن حياضها وكرامتها وعروبتها وإسلامها.

يبقى هؤلاء ينتظرون من يضمد جراحهم ويوليهم العناية ويدفعهم إلى التقدم والرخاء..

ولقد كان وكما يحدث عادة فى حالات التروح أو الهجرة لعديد من الأسباب واختلاف المشارب والمآرب، بقى البعض فى المدن ومنهم محمد بن أحمد راضين بالقليل من الطعام وربما كثير من العلم أو التعليم مثلما ذهب أولئك إلى الكسب السريع أو ما كان يقال عنه فرصة العمل الوحيدة، ولقد صدق رسولنا الكريم حين قال «خيار أمتى فى المدن» وقالوا اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد، وقلنا إن صاحبنا ذاك (محمد بن احمد رغم أنه امى لا يكتب ولا يقرأ) كان هاجسه الدائم أن يعلّم ابنه الوحيد، وتبعا لذلك أو تحقيقا لتلك الرغبة تدرّج الابن بتشجيع وإلحاح من الأب فى مجال التعليم رغم كل الظروف العيشية الصعبة التى كانت تحيط بتلك العائلة الصغيرة إلى أن أتيحت له الفرصة مثلما أتيحت لغيره من شباب ذلك الوقت فى الدراسة والتحصيل العلمى بالخارج ليحقق أمنية والده وإذ كان شغوفا بمجالات التقنية والعلوم حيث كان متفوقا بشكل خاص فى الرياضيات وهو ما يحتاجه من يريد أن يولج ذلك الميدان، ولذلك لم يكتف بالدراسة والبحث والتحصيل فى بلد واحد فتابع مجاله فى أغلب بلدان أوربا ثم فى الولايات المتحدة وغيرها، ومثلما فى

التنقل ومعايشة الناس فى مختلف البلدان الكثير من الفوائد والمزايا والعيوب، ولقد تمثلت الفوائد فى التحصيل العلمى التقنى المتقدم جدا، والمزايا لاحت فى الاطلاع الأوسع على تطورات العصر والأخذ بقيم الحياة الفكرية والحضارية الجديدة والمعرفة القائمة على البحث والتدقيق فى الغرب، أما العيوب فهى تلك الأساليب التى تظهر فى طرق المعيشة هناك والتى لا تتناسب مع قيم وعادات وتقاليد الشرق والتى يرفضها منهج الدين الإسلامى الحنيف تلك التى تبهر الإنسان الآتى من مجتمع مغلق متخلف دون إعداد أو استعداد عقلى ونفسى وهو لما يبلغ العشرين من العمر بعد.

ولقد أخذ صاحبنا الشاب هذا من الفوائد والمزايا والعيوب الكثير، فقد نهل من العلم التقنى والتكنولوجى بشغفه ذاك ما كان يمكن أن يؤهله لأن يكون فى طليعة علماء عصره فى ذلك المجال، ومن المزايا ما جعله يقتنع بأن الحياة وقفة عز فعاش لنفسه وجعل مبدأه الحرية والكرامة ذلك إن أعظم شىء فى الحياة إذا مسّ كرامة الإنسان لا يساوى هباءة من رماد وبسبب ذلك صار قليل الرغبات عاملا بقول الشاعر العربى (أنام ملء جفونى عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصموا) ومن العيوب الكثيرة وهى سوءات حيث كاد أن يدمن ذلك الذى قال عنه بحق علماء الاسلام إنه (سلطان المعاصى) وصار يدعو الله أن يبرأ منه ولقد استجاب العلى القدير لدعائه.

ومن أسباب تلك الدراسات والبعثات حدثت تلك النقلة الكبيرة من عصر كان يعيش فيه إلى عصر بدأ يشهده ولابد له أن يولجه بالضرورة والحتم، ولقد تتابعت الأيام والسنون بعد أن عاد إلى وطنه، وكما يحدث التحول فى حياة الإنسان خلال مراحلها بين اتجاه واتجاه آخر، فقد كانت مجالات البحث واسعة

وفرصة وفيرة هناك وراء البحر لكنه كان قد تشبع من الصغر بحب الوطن واعتقد أنه حقيقة (حب الوطن من الإيمان) ووالده عندما كان يحصد الزرع كان (يهاجى دائمًا) والمهاجاة هو نوع من الغناء الشجى الملّحن ولكن كلماته تدور حول الجهاد والفروسية والدفاع عن الأرض والعرض، ولقد انحفرت كلماته فى وجدان صاحبنا وصارت هى البوصلة التى يتجه مؤشرها دائما إلى بلاده وأرضه وأهله، واذ عاد فقد حدث له ما حدث مع غيره (اضرب الطوب تلقى التراب) دراسات عليا فى مجالات علمية تقنية تكنولوجية ولا مجال لتطبيقها، ولأن بلاده جزء من العالم الثالث، وفى هذا العالم فإن السياسة هى الطعام والشراب والهواء، وإذ لم يجد نفسه فى العلوم فقد اعتقد أنه قد يجدها فى السياسة حتى أدرك وإن متأخرا أن سياسة هذا العالم تسير فى اتجاه واحد (الحكم أو الموت) فأنت لا يمكنك أن تقول رأيك وتذهب.

وحدث الصراع العنيف وربما الندم فى وجدانه، العلم أم السياسة، الحق أم الباطل، الكرامة أم الوظيف؟

وإذ كانت الحياة وقفة عز كان عليه أن ينتحى جانبا محتفظا بذكرى طيبة (حب الوطن من الايمان) ورضى الله والوالدين... قال تعالت قدرته فى كتابه الكريم:

بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهم قولا كريما﴾[1] صدق الله العظيم.

---

(١) سورة الاسراء، الآية ٢٣.

مسافر يبحث عن الموت

رواية سياسية اجتماعية أحداثها واقعية

الجزء الثانى

قال الإمام على رضى الله عنه :

والله لو كان الفقر رجلاً لقتلته بسيفى .

وقال : احتج لمن شئت تكن أسيره

واستغن عمن شئت تكن نظيره

وأحسن إلى من شئت تكن أميره .

ولقد صدق هذا الأمير المصلح ..

الفصل السابع

الوضع العام ، بداية عهد الاستقلال والحكم الوطنى

بلد فقير لا زراعة ولا صناعة ولا تعليم خاض أهله أشرس المعارك القتالية لثلاثة عقود ضد دولة أوروبية غازية هى (إيطاليا) وذلك من سنة ١٩١١م إلى ١٩٣٣م وناله النصيب الأكبر من دمار حربين عالميتين ، ودارت على أرضه أكبر معارك الدبابات والجيوش المتناحرة أثناء الحرب العالمية الثانية وتناوبته سلطات احتلال مختلفة خلال قرون ، كان أسوأها وأشرسها الاستعمار العسكرى الاستيطانى الإيطالى وآخرها الاستعمار الإنجليزى ، نال استقلاله كَمنّةٍ من دول هى عمليًا تستعمره بوجودها العسكرى وسيطرتها الاقتصادية وتملكها لمختلف مناشط الحياة فيه ، ولقد صارت ليبيا مملكة اتحادية وراثية تقوم على ثلاث ولايات حسب الدستور وكل ولاية تمثل دولة داخل الدولة .

هى مملكة بحدودها وقوانينها وكل أجهزتها ، يشغل إداراتها أجانب إيطاليون وإنجليز وفرنسيون ، يمرح فيها دون ضوابط الإنجليز



والأمريكان والفرنسيين والإيطاليين واليهود وغيرهم ممن يتعاملون مع الوجود الأجنبى فى البلاد ، ولاية برقة كانت مستقلة حيث كان الأمير السنوسى قد اتفق بمساعدة الإنجليز مع إيطاليا على أن تكون برقة إمارة مستقلة ويكون هو أميرها نظير ما كان قد قدمه من مساعدة خلال الحرب للحلفاء عندما أمر بتكوين الجيش السنوسى من الليبيين المهاجرين وقد لعب ذلك الجيش دورًا مساعدًا فى تلك الحرب على الرغم من ضآلة إمكانياته ، والحقيقة أن أغلب أعضائه كانوا من البرقاويين ذلك أن أهل برقة كان قد لجأ عدد كبير منهم إلى الشرق (مصر وسوريا وتركيا) أثناء الحكم الإيطالى إضافة إلى أنهم أكثر قناعة من غيرهم بالدعوة السنوسية منذ بدأت ، صارت برقة إمارة مستقلة قبل أن تمنح ليبيا استقلالها وكان فى هذه الإمارة إدارات حكومية ومجالس تنفيذية وتشريعية وقوة شرطة كان مديرها العام من برقة ومديرها الفعلى إنجليزيًا يدعى (مستر برايس) وإذ كان الليبيون فقراء يبحثون عن أى فرصة عمل فقد كانوا يتزاحمون على مركز تجنيد أفراد الشرطة تلك الذى يشرف عليه هذا الإنجليزى وعندما يتجمعون أمام المركز يخرج عليهم لاختيار عدد من الأفراد وهو فى هذه الحالة يقول أريد (برسى لايت أريف) بمعنى (برعصى لعائلة عريف) وجدير بالذكر أن المدير الليبى كان من قبيلة البراعصة وهو بالتأكيد براء من تصرف هذا الإنجليزى ولكنها

سياسة الإنجليز الدائمة (فرق تسد) وكان لبرقة الإمارة علم أسود يتوسطه هلال ونجمة قيل إنه علم السنوسية ، كذلك كان رئيس المجلس التنفيذى البرقاوى إنجليزيًا يصطحب معه غالبًا كلبًا صغيرًا يجلسه بجانبه أثناء إدارة الجلسات ، وكان مقر الأمير السنوسى فى بداية الأمر باجدابيا ثم انتقل إلى الكفرة ثم إلى مرتوبة بالجبل الأخضر ، أما الولايتين الأخريين فكانتا تحت إدارات أجنبية (طرابلس تحت الإدارة البريطانية وفزان تحت الإدارة الفرنسية) .

كان الليبيون الذين هلّلوا وفرحوا بالاستقلال يحملون على أكتافهم وفى قلوبهم هموم حروب وأهوال وكوارث فقد حاربوا ضد الأتراك وحاربوا ضد الطليان فى بلادهم وحاربوا ضد اليهود فى فلسطين وكانت أقسى حروبهم ضد مخلفات الحرب العالمية الثانية ثم المعاناة من أثر الزلازل والجفاف والتصحر وهجرة الوطن وبذلك كانوا ينتظرون الشىء الكثير من الحكم الوطنى أولّه أن يحسوا بأنهم مواطنون فى وطن واحد ولكن الإدارة الإنجليزية والإنجليز المتمفصلين فى مرافق البلد أرادوا غير ذلك ، وكان سير الأحداث بعد إعلان الاستقلال متداخلاً تشوبه شبهات ونوايا ذلك أن كل شىء كان ملبدًا بالغيوم كحالة شهر يناير وبداية فصل الشتاء ، فلقد كان رجال السياسة يتهيأون للجلوس على كراسى الحكم بعد أن

كافحوا طويلاً من أجل الاستقلال وكان رجال الأحزاب يتطلعون إلى مساحة أوسع من الحرية تفوق كثيرًا ما كان متاحًا فى عهد الاستعمار كذلك كان زعماء القبائل وأولئك الذين حملوا الدعوة السنوسية فى قلوبهم وقد قامت دولتها يأملون أن يحصلوا على النصيب الأكبر من الرعاية والعناية والامتياز وكان المثقفون وهم قلّة يعدّون لإصدار الصحف والمجلات التى يمكن أن تنير الطريق إلى مستقبل واعد فى دولة فتية وشعب صغير ناضل طويلاً من أجل هذا اليوم ، أما أولئك الذين مازالوا يعيشون تحت تأثير ذكريات مؤلمة وأحداث عانوا منها كثيرًا فقد انشغلوا فى شئون عيشهم اليومى حرثًا أو زراعة وتربية أغنام وأولئك المصلوبون أمام مكاتب العمل باحثين عن عمل ، أى عمل ، ظلوا مصلوبين بلا أمل فى تغيير لأن الوجوه هى ذات الوجوه إلخ .

ولقد قلنا إن إعلان المملكة قد مثّل تحولاً كبيرًا فى اتجاه سياسة البلاد إذ كان هناك من يريدها جمهورية ولكن (تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن أحيانًا) وقد شعر أصحاب المطالب المتشددة بأنهم هزموا فى أول معركة خاضوها لأنهم لم يدركوا حقيقة الوضع وما هو قائم وواقع على الأرض وأهمية أدوار القوى ذات المصلحة فى هذه البلاد ، وعند ذلك الإعلان أحس البعض وكأن الدنيا قد أطبقت عليهم أو كأن

سقوف بيوتهم قد وقعت فجأة على رؤوسهم ، وهم غير ملامين فى ذلك الإحساس ، ومن المعروف أن في السياسة ما ليس فى غيرها .

أما الملك فقد كانت تنتابه حالات قلق ويعيش نهب مشاعر مختلفة تنتهى إلى إعلان يقول (لقد بلغ السيل الزُّبى) فهو كان قد ألغى الأحزاب منذ البداية وحتى جمعية عمر المختار ذلك المجاهد الكبير لم يطق نشاطها الاجتماعى والتثقيفى فأغلقها ونفى رئيسها وأعضائها بعيدًا عن مدينة بنغازى وكانت أجهزة إعلامه قد روّجت لمقولة فحواها أن الملك كان قد قال (إن المحافظة على الاستقلال أصعب من نيله) وعلى هذا الأساس قضى على أى نشاط يشتّم منه مخالفة الرأى والاتجاه السائدين وكان المستهدف والمتوقع بناء النفس وبناء الوطن واستعادة الثقة فى كل ما يمكن أن يكون محليًا ، أى الوطن والمواطن ، فقد تشكلت الحكومات والمجالس ورفع العلم ذى الألوان الثلاثة واعتمد النشيد الوطنى وصدر الدستور ثم تلاحق إصدار القوانين واللوائح التنظيمية وتقررت الميزانيات وكانت تعتمد أساسًا على دخل الجمارك والضرائب المحلية ، أول ميزانية كانت تبلغ ثلاثة ملايين جنيه فى السنة بالتمام والكمال !! أما التنمية فلا شىء ، وكان لابد من البحث عن المساعدات والهبات الإنسانية والخيرية والدولية إن أمكن

وتلك هى حالة الذى لا يملك شيئًا من المال أو الصناعة أو الزراعة والتجارة يعنى محاولة الحصول على مسكنات وقتية أمام مصاعب المعيشة الضاغطة والمشاكل التى لا تعد ولا تحصى ناهيك عن أن تحل ولم تكن الصعوبات محلية فقط تتعلق بالأرض والناس والمعيشة ولكنها فى ذلك الوجود الأجنبى من قواعد وقوات وخبراء وأجهزة تجسس واستخبار إلخ وإذ كانت المساعدات والهبات غير ميسرة فقد كان النظام مدفوعًا بسبب من تلك المشاكل إلى البحث عن مصادر تمويل بعض المشاريع الملحة كالتعليم والصحة والإسكان وغيرها فهو لابد أن يقدم ما يشعر الناس بأنه يعمل ويسعى ، وعلى الرغم من أن بريطانيا قد شددت من قبضتها على البلاد لمواجهة المد القومى الذى يهدد مصالحها والآتى من مصر بعد قيام ثورتها فإن الملك إدريس كان راغبًا فى الوجود البريطانى ذاك أو هو محبًا للإنجليز حماية أو اعترافًا بالجميل ، وما كادت تغيب شمس ذلك اليوم حتى كان الرجل قد حزم أمره وكان دائم التفكير فى هذا الإجراء (مملكة مرتبطة بالغرب وتعتمد على القبائل وبلا أحزاب أو تنظيمات سياسية) والواقع أن الوجود فى البداية كان مفيدًا أولاً لحماية النظام الجديد فى البلاد من مطامع الآخرين المحيطين به وثانيًا لفتح أبواب العيش لكثير من الناس الذين

التحقوا فيما بعد بالعمل ووجدوا فرصًا فى المعسكرات الإنجليزية والأمريكية والفرنسية فى كل من برقة وطرابلس وفزان فى وقت لم تكن فيه فرص العمل متوفرة فى غيرها ، ورغبة فى الحصول على بعض المال الذى يمكن أن يواجه به الحكم أعباء مصاريف الإدارة فقد اتجه إلى مفاوضة القوى الأجنبية من أجل تأجير الأراضى الليبية لاستخدامها كقواعد عسكرية وحجته فى ذلك أولاً الاحتياج وثانيًا وجود تلك القوى أصلاً فى البلاد وطالما أنها موجودة فلا ضير من تأجير أراضى لها وهى باقية شئنا أم أبينا ، ولأنها موجودة فقد كانت شروط التأجير مجحفة فى حق البلاد (وهكذا ، إذا لم يكن غير الأسنة مركبًا فما حيلة المضطر غير ركوبها !) وإذ كان قد نص على أن ليبيا مملكة متحدة وراثية فإن شيئًا لم يتغير كثيرًا باستثناء الشعارات كَالعَلَمْ الواحد والنقد المتداول والرسم الذى يوضع على قبعات الجنود ، وكما يقول المثل العربى (كل طير يرتاح فى عشه) فقد بقيت الحدود كما هى وصارت طرابلس ولاية وفزان ولاية أخرى وبرقة ولاية ثالثة أو هى أولى كما يجب لأن إدريس (ملك ليبيا وأمير برقة) وهذا يضفى امتيازًا على برقة ولهذا السبب فقد طفق الإنجليز وأعوانهم يؤججون مشاعر التمايز والتميز بين الناس والولايات واستمر اليهودى (بيو ناحوم أو بن ناحوم) يستخدم الوكلاء فى جمع

وشراء خردوات ومخلفات الحرب العالمية الثانية (حديد ونحاس وألمنيوم وغيره) حتى وصل إلى شراء قضبان السكك الحديدية التى كانت بحالة جيدة وكان يمكن تطويرها لولا أن بعض المسئولين أرادوا ذلك ربما لنفع خاص ، أما أولئك الذين كانوا ينبشون أكداس القمامة بأظافرهم أمام معسكرات الجيوش بحثًا عن خبز يابس يتعيشون منه وأولئك الذين قطّعت أيديهم أو أرجلهم أو فقئت عيونهم بسبب انفجار القنابل والألغام فى طبرق ومنهم عبدالله فقد بقوا يعانون من العوز ويجترون ذكريات مؤلمة متمثلة فى أطراف مقطوعة فعبدالله الذى كان قد فقد يده اليمنى وتشوه وجهه على إثر انفجار قنبلة كان يفككها عاد إلى قريته وحاول أن ينشئ لنفسه دكان بضاعة متواضع فقد صار ضعيف البصر بسبب ما ظهر على عينيه من ضعف مصحوب بإحمرار وألم دائمين قيل له إنهما من أثر البارود وقد نصح باستنشاق مسحوق التبغ المخلوط بالعنبرة فصار ينشق ذلك السعوط فى كل وقت الشىء الذى أضاف مشكلة أخرى على مشاكله الصحية والمعيشية المزمنة ، وكلما استنشق ذلك السعوط تذكر طبرق وسوق العجاج والرفاق الذين ماتوا والأحياء منهم ويوم انفجرت فيه تلك القنبلة وبترت يده وكم بقى فى المستشفى المتواضع بطبرق ولسان حاله يردد ما قاله الشاعر العربى :

كـــان لـــى بـــهـــا زمـــان وانـــقـضـــى

فـسـقـى الـلـه زنـامـى وسـقـاهـا

أما الرجال الذين قتلوا فى طبرق إثر انفجارات قنابل وألغام ودفنوا هناك فقد كانوا شجعانًا لم يمدوا أيديهم طلبًا لصدقة أو مِنّةٍ ولا تهافتوا على محرمات أو تسللوا ليلاً إلى مكان غير مشروع وإنما كانوا شديدى الولاء للقيم الدينية الإسلامية التى آمنوا بها وحرصوا عليها فهم كما قيل: (إن عزرائيل ليشرف باستقبال الشجعان) وكما قال فيهم الشاعر الليبى:

مـــلاويـــح قـــعـــدوا دوس لـــلأذيـــاب

لا قـــبـــر لا تـــلـــحـــيـــد مـــا انـــدفـــنـــوش

لا غـــســـل لا تـــكـــفـــيـــن لا نـــدّاب

والـــلـــى مـــوتـــوا والـــلـــه مـــا هـــانـــوش

المعاهدات :

لا مناص من الاعتراف بأن النظام كان مرغمًا على قبول وجود مختلف القوات الأجنبية فى البلاد ولا مفر من القول إنه استفاد من وجودها كذلك فإن توقيع المعاهدات مع دولها كان مجديًا على الرغم من أنها مجحفة فقد جاءت بعدها شركات التنقيب عن النفط ومعها فتحت

أبواب رزق ووجدت فرص عمل ثم جاءت بعض المساعدات وخصوصًا الأمريكية ، وأنشئت النقطة الرابعة التى تحوّلت فيما بعد لتكوّن مجلس الإعمار الذى كان الغرض منه والمتوقع أن يساعد على بناء المدارس وغيرها من مؤسسات البنية التحتية ، وفى تلك الفترة كان الصراع الخفى قد بدأ من أجل تبادل مواقع الأقدام ونشر النفوذ ونهب الثروات بين قوى الاستعمار القديم متمثلاً فى بريطانيا وفرنسا وبين القوة الناهضة المتحفزة الولايات المتحدة الأمريكية ، هذه الأخيرة التى فرضت سيطرتها على أوروبا فى نهاية الحرب العالمية الثانية بمشروع اقتصادى عرف باسم وزير خارجيتها (مارشال) لإعادة بناء أوروبا وإذ كانت قد بدأت من هناك فقد أرادت أن تحل محل تلك البلدان ليس فى بلادها فقط وإنما أينما كان لها وجود فى شكل قواعد عسكرية أو نفوذ سياسى واقتصادى ولهذا دخلت هذه بشركاتها ومستشاريها ومخابراتها وحصلت على قواعد بتوقيع معاهدة تعاون وصداقة مع البلد المستقل حديثًا (ليبيا) كما حدث مع بريطانيا وما كان الليبيون يهتمون بغير توفر لقمة العيش ومن العبث أن يفكر أحد وقتئذ فى غير ذلك ، ولقد حدث أن الولايات المتحدة بعد أن أقامت قاعدتها العسكرية الضخمة فى طرابلس وتسمى (قاعدة هويلس) وحشدت فيها الكثير من

القوات والطائرات والأسلحة وصارت تجرى التجارب الصاروخية فى الصحراء الليبية الشىء الذى مثل رزقا آخر للناس فقد تكونت جماعات تراقب إطلاق تلك الصواريخ وعندما تقع فى الصحراء يبدأون فى جمع نحاسها وقطع الألمنيوم المتناثرة منها ليبيعوها كخردة حتى أن أحد الظرفاء كان يردد نكتة قال إن تلك الجماعة كانت تردد إذا ما تأخرت تلك التجارب ، فيقولون (يارب ارزقنا بصاروخ) ومن سخريات القدر أن يكون أولئك الناس الذين كانوا يمارسون تفكيك القنابل والألغام فى طبرق هم الذين صاروا يجمعون قطع هذه الصواريخ حيث كانت مناطق تجاربها متاخمة لقريتهم .

كان الناس يتطلعون إلى مستقبل زاهر وحياة أهدأ وأهنأ وأرغد ، أليس هذا نظامهم الوطنى الذى طالما انتظروه ؟ ولابد أنهم يتصورون ذلك المستقبل فيقولون بتفاؤل وتطمين للنفس .

(حقًا إن جهاد الآباء والأجداد لم يضع أدراج الرياح) وكانت الأغلبية العظمى من هؤلاء الناس لا يعنيها وجود القوات والقواعد الأجنبية ذلك أن المهم الحصول على لقمة العيش فالحياة مسغبة بيد أن أولئك الذين مارسوا السياسة ونالوا قسطًا من العلم والثقافة قد شغلهم هذا الحدث إذ أنهم يعلمون أبعاده كما شغلتهم أحداث ما قبل

الاستقلال وكانوا منذ البداية ينادون بالاستقلال التام والدولة العربية المسلمة التى يجب أن تنحاز إلى جانب العرب والمسلمين وقد أكدوا هذا الموقف أمام لجنة الأمم المتحدة التى زارت البلاد لاستطلاع رأى الشعب الليبى فى شكل نظام الحكم ، ولكن هؤلاء خاب أملهم وفقدوا القدرة على التأثير إما لأنهم لم يدركوا حقيقة الواقع وما يجرى وراء الكواليس ومصالح القوى الكبرى أو أنهم راهنوا على أن البطن الخاوية يمكن أن ترضيها الشعارات ، ورغم خيبتهم فإن المستقبل سيثبت أنهم كانوا على حق على أن معرفة المستقبل ليست فى قدرة الإنسان .

الولايات والمجلس والحكومة الاتحادية :

تكونت الحكومات المحلية فى الولايات الثلاث وعين الولاة وكان لكل ولاية أجهزتها من شرطة ومجالس تشريعية وتنفيذية ومخابرات وصحف جميعها تقع تحت إشراف واليها المعيّن بمرسوم ملكى ، كذلك تشكلت الحكومة الاتحادية بأجهزتها كالشرطة والاتصالات والعلاقات الخارجية وكانت هذه مع العَلَمْ والجيش والبرلمان والعلاقات الخارجية تمثل جسم وحدة البلاد ، وقد جرت انتخابات المجالس المحلية والبرلمان الاتحادى مما يعطى الانطباع بأن النظام الجديد ينهج نهجًا ديموقراطيًا وفى تشكيل الحكومة الاتحادية

كان الرئيس يكلف من قبل الملك بتشكيل الوزارة ، بمعنى أنه يختار الوزراء ويعرض أسماءهم على الملك للموافقة وإصدار المرسوم القاضى بتشكيل الوزارة ، وإذ كان قد نص فى الدستور أن عاصمة البلاد هى مدينة طرابلس فإن الملك لم يقم بها وإنما اتخذ لنفسه مقرًا فى بداية العهد ببلدة فى الجبل الأخضر تسمى (مسّه) وربما كان السبب فى ذلك لأنها كانت واحدة من مقار الدعوة السنوسية ، وهذه البلدة تتوسط الجبل الأخضر الذى تبدو ذراه دائمة الاخضرار على عكس ما يحدث فى مناطق أخرى من العالم ، هذه الذرى الخضراء تلامسها أشعة الشمس الغاربة وهو كما قيل يحب ذلك كأنما يريد الاستزادة فى طول النهار حيث إن العمر كان قد قارب على الغروب هو أيضًا ، أو كأنه كان يريد أن ينظر إلى عاصمة ملكه الشرقية من عليين ليشعر بالفخر إذ حقق حلم جده ، والحقيقة أن طقس الجبل الأخضر معتدل وأغلب الإصباح فيه جميلة خصوصًا أثناء فصل الخريف حيث يستيقظ الناس مبكرًا ليفتحوا عيونهم على سحابات بيضاء متقطعة تلاحق بعضها البعض مع نسيم رطب يداعب الأجفان وهى تتموّج معطّرة بشذى البطّوم وليله يرين عليه هدوء بديع وسكينة رائعة ، وكانت برقة قد سبقت الولايتين الأخريين فى تكوين إدارتها وأجهزتها الأخرى باعتبارها كانت إمارة

سنوسية منذ قبل الاستقلال وهى ترفع العلم السنوسى الأسود الذى يتوسطه هلال فى وسطه نجمة ورجال شرطتها يضعون على رؤوسهم قلبقا مثل قلابق بعض أهل آسيا ، ولقد كانت بداية الحكم الوطنى جيدة ومشاريعة متفائلة لأنه رغم شح الموارد بدأ يبنى المدارس والبيوت الشعبية والمصحات وهذه أهم ما يحتاجه بلد فى مثل وضع ليبيا آنئذ ، وضعها التعليمى والسكنى والصحى ، وتقرر أن يكون التعليم مجانيا فى جميع مراحل التعليم وكذلك العلاج والسكن ، وصار الاهتمام بالمراحل الأولى من الدراسة حيث كانت تقدم وجبات غذائية للأطفال فى المدارس بالتعاون مع مجلس الإعمار فى شكل حليب وتمر ، وقد ساعدت أرض الكنانة (مصر) فى توفير المدرسين الأكفاء والكتب المدرسية وبقية أدوات التعليم والدراسة وقد اتجه التفكير إلى إنشاء الجامعة لتستقبل طلاب الدراسات العليا ومن أجل تنمية الوجدان الوطنى علمياً ولعدم توفر المبانى المناسبة فقد تبرع الملك بقصره فى بنغازى ليكون مقرًا لأول جامعة ليبية ، وأنشئت الجامعة بجهود مجموعة من الأساتذة المصريين الذين كانوا خير رسل لمصر ، ورغبة فى تشجيع التعليم المتقدم والعالى فقد تقرر أن يمنح الطالب الجامعى مكافأة مالية شهرية إضافة إلى بذلتين إفرنجيتين حال التحاقه بالدراسة الجامعية

عليهما شعار جميل هو عبارة عن رسم مبنى الجامعة يعلوه سارى ينتشر منه شعاع فى كل اتجاه ، وخلال هذه الفترة أفاء الله الذى يعطى بلا مِنَّةٍ على البلاد بالغيث وكانت سنوات ممطرة وقد حرث الناس وحصدوا وتوفر الماء والكلأ لإبلهم وأغنامهم وعاد أهل الأرياف إلى إحياء تراثهم وانتعشت حياة الناس نسبيًا بشكل عام ، كما أن أولئك الذين بقوا فى برقة استقرت أمورهم حيث صار أهل برقة الذين كانوا يتخوّفون من تدفق عرب الغرب على بلادهم اقتنعوا أنهم قد استفادوا من وجود هؤلاء الناس ذلك أن المصالح قد تشابكت إذ إن من كانت له حيوانات وجد من يرعاها ومن كان له زرع وجد من يحصده وربما أحس الكل بأنهم ليبيون فى بلادهم ، وفى هذا المجتمع الذى ورث أهله قيم الشجاعة والفروسية والذى يتمثل دائمًا فى الفرس والبندقية ولذلك صار الرجال يقتصدون فى معاشهم ليشتروا الخيول والبنادق وقد عادت مهرجانات سباق الخيل فى الشارف وغيرها من ميادين السباق فى مختلف أنحاء البلاد وصار الفرسان يتمنطقون باحلطة الذخيرة ويحملون البنادق الإيطالية (أم حربية واللابس والطويلة) حيث اعتاد هؤلاء على استخدام السلاح الإيطالى منذ زمن ، وكما هى العادة يتجمع الناس حول ميدان السباق على المرتفعات الواقعة على جانبى ميدان الشارف من الشمال

والجنوب ، الأطفال يتصايحون ويصفقون بينما النساء يزغردن لهذا
الفارس أو ذاك ، ويظهر عبدالله وكأنه ولد من جديد على الرغم من أنه
فقد يده اليمنى فى الرابش بطبرق وصارت هناك غشاوة على عينيه من
أثر البارود الذى انتشر من الانفجار ، ظهر راكبًا فرسًا كأنها الغزال شهباء
سبيبها يلامس الأرض تخبّ على أرض الميدان حتى لكأن الناظر إليها
لا يلاحظ قوائمها وإذا ما لكزها الفارس تراها كأنها تسابق الريح ، سرجها
مطهما بالفضة التى تلمع تحت أشعة الشمس ، وكان يفاخر بها كل
المتسابقين وتبهجه تلك الزغاريد التى تنطلق عندما يتوسط الميدان وما
كان يؤلمه شىء غير أنه لا يستطيع استخدام البندقية المستندة على
كتفه الأيسر بسبب فقدان يمناه ، لعن الله الرابش وألغام الحرب
العالمية الثانية ، هكذا يقول فى داخله ، لكن لا بأس فهو يعد ابنه محمد
الذى صار يشد له السرج كلما أراد المشاركة فى السباق وما هى إلا
سنوات قليلة حتى يكون رجلاً يركب الفرس ويحمل البندقية ، وقد
أحس الناس رغم ذلك أن أجهزة النظام الوطنى قد صارت تتشدد فى
منع حيازة واستعمال الأسلحة النارية وقد أصدرت القوانين التى تعاقب
المخالفين وصار من اللازم الحصول على ترخيص رسمى لحيازة أى
سلاح مهما كان صغيرًا وكان ذلك بعد أن جرى أول اغتيال سياسى فى

تاريخ البلاد عندما أقدم أحد أفراد الأسرة السنوسية على اغتيال
الشلحى مستشار الملك إدريس وخادمه الخاص منذ عقود من الزمان
(وجدير بالذكر أن عمر الشلحى هذا ربما كان صديقًا مخلصًا للإنجليز
لأنه درس فى كلية فيكتوريا ببريطانيا وأقام هناك فترة طويلة) وكذلك
جرى أول حكم إعدام عندما حكمت المحكمة على القاتل بالإعدام
شنقًا حتى الموت ونفذ الحكم فورًا ، وعلى إثر ذلك حرم الملك أغلب
أعضاء الأسرة السنوسية من امتيازاتهم بل ونفى أغلبهم إلى مناطق نائية
وقيل إنه بعد ذلك الحادث صار حزينًا تنتابه نوبات غضب شديد حتى
لكأنه سيهدم القصر الذى يعيش فيه وما يلبث أن يصعد إلى حجرة
صغيرة أعدت فوق سطح القصر وينطوى على نفسه لا يقابل أحدًا وكان
الذين يقومون على خدمته لا يسمحون لأحد بالمقابلة مهما كان وهم
عادة ما يقولون أنه معتكف على قراءة القرآن الكريم وبالتالى لا يمكن أن
يقاطع وعندما ظهر على الناس بعد فترة من الوقت كان صوته يرتجف
حتى لكأن ارتعاش مزمن قد أصابه وكانت عصاته التى يظهر بها دائمًا
تهتز بين أصابع يده اليمنى وذكر أن مزاجه معتكرًا بسبب من ألم فى
أمعائه يلّم به بين وقت وآخر ، ومن المعروف عنه أنه يركّز نظراته من
خلال تلك النظارة الطبية الدائرية على محدّثه وهو لا يضحك وقلما

يبتسم أساسًا ولا يظهر إلا بلباسه الليبى المعتاد وإذا جلس يضع كلتا يديه على مسندى المقعد كما لو كان يتهيأ للوقوف وخطواته وئيدة إذا صار يمشى ، ومنذ اغتيل مستشارة ذاك أصبح كثير الريب والشكوك حتى أنه أقسم بعد فترة من ذلك الحادث أن لا يدخل المدينة التى اغتيل فيها الشلحى (بنغازى) ولأن الطريق الذى كان يسلكه متجهًا إلى البيضاء أو طبرق كان يمر من وسط المدينة فقد عمل المسئولون على شق طريق جانبى يتحاشى المرور من وسط تلك المدينة التى عوقبت بلا ذنب ، وثمة شىء مؤكد على أى حال وهو أن هذه المدينة لها طابعها الخاص فهى أولاً تلك المدينة التى تجمّع فيها كل الليبيين وصاروا منها لا يبرحونها ولا يقبلون عليها اعتداء ولو بالكلام ، وهناك حدوتة يتناقلها الناس وتتداول بين الشفاه أن ملك إيطاليا (عمنويل الثالث) أرسل مندوبًا يستطلع الرأى العام فى ليبيا وعندما عاد وأبلغ الملك بما شهد وأشهد سأله الملك قائلاً هل ذهبت إلى بنغازى فقال الرسول لا ، أجاب الملك ، إذن أنت لم تسمع رأى الليبيين (علمًا بأن هذا الحديث متواتر بين الناس فى بنغازى) وعلى الرغم من التشدد فى منع الأسلحة فإن أهل الدواخل والصحراء من طباعهم عادة لا يهتمون كثيرًا بقرارات وقوانين الحكومة المركزية ، وكانت الثورة الجزائرية قد انفجرت ضد

الاستعمار الفرنسى وكان النظام الليبى والملك إدريس بشكل خاص متحمّسًا ومؤيدًا لها إما لقناعة شخصية باعتباره أصلاً من الجزائر أو لأن الإنجليز الذين كانوا يقبضون على مرافق ومفاصل الدولة وقتئذ يريدون ذلك ربما نكاية فى فرنسا لثأر قديم ، وفى الحالين فقد كان هذا الحدث مفيدًا حيث راجت تجارة السلاح فى ليبيا وتيسر امتلاكه إذ كانت الشرطة الليبية تساعد على نقله وتهريبه عبر الصحراء الليبية إلى الجزائر ، كذلك كانت المساعدات والأسلحة التى تقدمها مصر تمر غالبًا عبر ليبيا وكان الليبيون على مختلف المستويات يساهمون فى الثورة الجزائرية بالمال والسلاح والإعلام وحتى الاشتراك فى القتال كما كانوا يجمعون كل شىء لمساعدة المناضلين الجزائريين من حُلِى النساء إلى جلود الأضاحى وقد بلغ الحماس بالناس أنك ترى المرأة تنتزع القرط أو العقد من رقبتها أو أذنها لتقدمه تبرعًا وترى الطفل الصغير يقدم القريشات القليلة التى تعطى له ثمنًا لإفطاره فى المدرسة يقدمها إلى أى لجنة من اللجان الكثيرة التى كانت تطوف أرجاء البلاد لجمع التبرعات كما كانت الأرض الليبية مفتوحة لإقامة الثوار وإجراء تدريباتهم أو حتى القيام بعملياتهم منطلقين منها ولم يكن هناك ما يزيد على احتياج الناس فى حياتهم ولكنه الإيمان بالعروبة والإسلام الذى كان وراء كل ذلك .

ومع المزارات وسباق الخيل وزغاريد النساء وصوت المقرونة فى الأفراح ذلك الصوت الشجى الذى يدغدغ المشاعر ويطرب الوجدان ومنظر الصبايا اللواتى كن جاثيات على ركبهن وهن يهدّن مستعرضات شعورهن السوداء الطويلة وانتظام الحياة فى سيرها الجديد عادت جلسات الشاى بالكاكوية فى الكندورة والشىء الوحيد الذى تغير أنهم بدلاً من حكايا أبو زيد الهلالى والخفاجى عامر صاروا يستمعون لأحاديث الشيخ عبد الحميد الذى رجع حديثًا من مصر حيث كان يدرس بالأزهر الشريف وكانت أحاديثه عن العروبة والإسلام وعن ثورة مصر وجمال عبد الناصر والعدوان الثلاثى الإنجليزى الفرنسى الإسرائيلى الذى استهدف الثورة المصرية وكيف وقف جمال عبد الناصر على منبر الأزهر الشريف ثم كيف قاوم الشعب المصرى ذلك العدوان الغاشم ، وما الذى سيحدث بعد أن خرجت مصر منتصرة بعد هذا العدوان ، وكان عبدالله كعادته عندما يرغب شيئًا يداوم على حضور تلك الجلسات فى الكندورة تلك ويسأل الشيخ عبد الحميد بين وقت وآخر عن مصر وأهلها وهل هم جميعًا مسلمين وماذا تعنى الاشتراكية وهل هى ضد الإسلام وماذا يعنى توزيع الأراضى والتأميم الذى تحدث عنه الشيخ كذلك كان الفقى مصباح الذى يجلس القرفصاء طيلة الوقت

واضعًا يده اليمنى تحت حنكه فى حين تكون عينه اليمنى منفتحة والأخرى نصف مغمضة وهو يغمد طاقيته البيضاء حتى تغطى نصف أذنيه ولا يظهر من خلف رأسه إلا شعيرات متباعدة ملتوية فهو لا يحب حلاقة شعر رأسه مثل بقية أهل قريته حتى أنهم أحيانًا يتندرون عليه بالقول (بو غفّه) كان يصيخ السمع عندما يتحدث الشيخ عبد الحميد وما يكاد هذا ينتهى حتى يرفع سبابة يده اليمنى معقبًا بالقول إن الاشتراكية ليست من الإسلام وإن وحدة المسلمين هى أجدى وأنفع من وحدة العرب ورغم أن الشيخ عبد الحميد لا يوافقه على ذلك لكنه يمتنع عن مناقشته ربما ليدرأ عن نفسه تهم وهجوم هذا الفقى ذى الأذنين الكبيرتين الغارقتين تحت الطاقية وإن كان يتندر عليه عندما لا يكون حاضرًا فيقول صدق ابن المقفع فى تندره على سفيان بن معاوية المهلبى الذى كانت أذناه كبيرتان حيث كان أينما وجده جالسًا وحده يقول له (السلام عليكما) أى عليك وعلى أذنيك ، وكانت جلسات الشاى هذه تمتد ليلاً ولأن الشيخ عبد الحميد كان يحمل وهج الثورة فى قلبه ويعتقد أن الحياة يمكن صياغتها فى شكل جديد بين هؤلاء الناس رغم أن أغلبهم لا يجيدون القراءة أو الكتابة كما أنه يعتقد أن هدف الحكم الوطنى لابد أن يكون تنمية الوجدان الوطنى وترسيخ القيم

الإسلامية فقد ثابر على الحديث عن تلك القيم والأهداف وسرعان ما انتشر خبره ووصل مدير المنطقة الذى كان ينظر بعين واحدة إلى كل متعلم توجسًا وخشية وهكذا اندسّ بين هؤلاء البسطاء والشيخ الذى جاء حديثا وهو لا يعرف الشىء الكثير عن دواخل البلد وشئون الحكم ، اندس بينهم فى كل جلسة شاى مخبرًا أو اثنان لنقل أى حديث ورصد كل كلمة ، وما أكثر هؤلاء إذ إن المخبرين فى عهد الطليان صاروا مخبرين للإنجليز ثم للحكم الوطنى ولابد أن هؤلاء الناس ينطبق عليهم قول (شوبنهور) (الإنسان وحده هو من بين الحيوان جميعًا الذى يصبّ على الآخرين أذاه دون غاية اللهم إلا هذا الإيذاء نفسه) ويذكر تاريخنا الوطنى أن كل أولئك الذين قتلوا إما شنقًا أو رميًا بالرصاص فى عهد الطليان كانوا بسبب من وشايات هؤلاء المنافقين الذين قال فيهم القرآن الكريم : ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا هِىَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾[1] صدق الله مولانا العظيم .

★ ★ ★

(١) سورة التوبة – الآية : ٦٨ .

ما بال جهلك بعد الحلم والدين

وقد علاك مشيب حين لا حين

جريـر

وكان سيّان ألا يسرحوا نعما

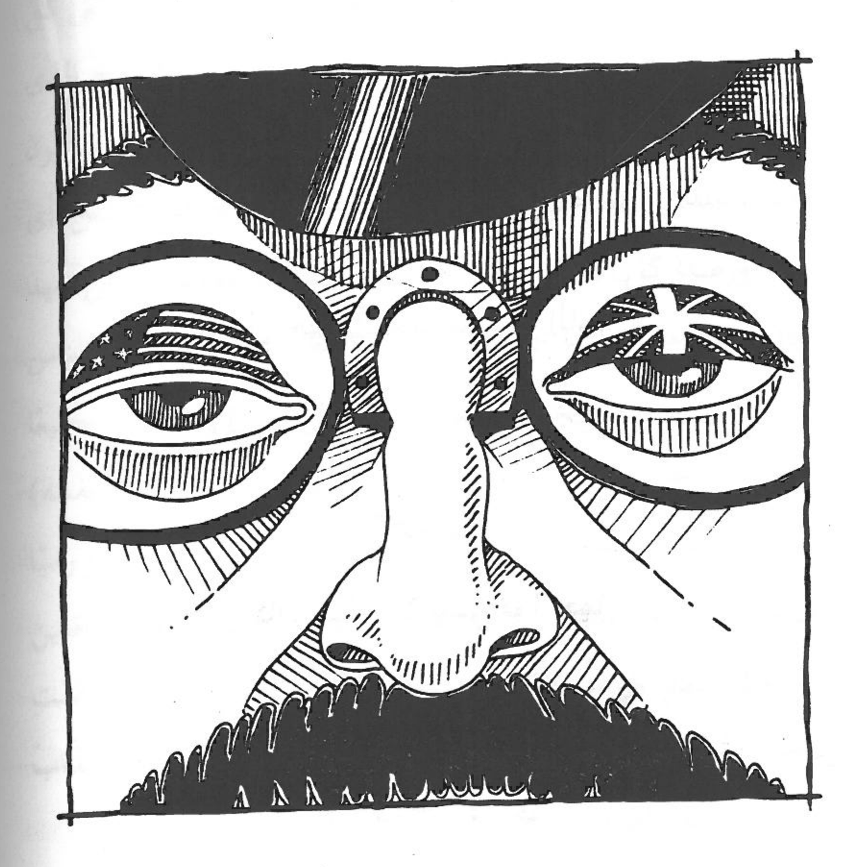
أو يسرحوه بها واغبرّت السوح

أبو ذؤيب الهذلى

الفصل الثامن

فتح الأبواب رغبة ورهبة - القوات والقواعد

لم تكتف الولايات المتحدة الأمريكية بقاعدتها الضخمة فى طرابلس فأنشأت لها قاعدة عسكرية أخرى فى بنغازى وزادت من عدد أفراد بعثتها العسكرية لدى الجيش الليبى بل وأدخلت عددًا من المستشارين فى أجهزة الشرطة يحصون كل كلمة ويرصدون كل حركة ، أما بريطانيا التى كانت تتعلل بضرورة المحافظة على طرق السويس ومصالحًا فى الهند والشرق الأوسط فقد عملت على إقامة عدد من القواعد والمعسكرات وبؤر الأرصاد فى مختلف المناطق الشرقية فى برقة وكانت أكبر قواعدها تلك التى تعرف باسم قاعدة (العدم) جنوب مدينة طبرق إضافة إلى عيونها داخل وحدات الجيش الليبى المتمثلة فى بعثتها العسكرية التى قيل إنها من أجل إعداد وتدريب الجيش الليبى الفتى ، وكان الإنجليز فى تعاملهم مع المواطنين أعقل كثيرًا من الأمريكيين مما يؤكد أن العالم الثالث سيعانى من غطرسة هذا المستعمر الجديد الذى ينام ويصحو على مغامرات وشطحات راعى



البقر ذى القبعة الدائرية والمسدسين الكبيرين والذى يطلق الرصاص فى كل اتجاه ليصيب العديد من منافسيه (ورامبو لم يكن قد عرف بعد) وفى هذا الوقت كان الملك إدريس قد استقر بشكل نهائى فى طبرق ربما لأنه أراد أن يكون قريبًا من الإنجليز حتى أنه انتقل بعد فترة قصيرة من القصر الملكى بالمدينة إلى قصر آخر أعد على عجل على الجانب الآخر من خليج البحر الذى يطوّق مدينة طبرق من الجنوب ، وعندما أقيم هذا القصر (أو البيت لأن الحقيقة تحتم علينا أن نقول إن الرجل لم يكن يهتم كثيرًا بالفخامة أو البهرجة حتى إنه فيما بعد ألغى بقرار رسمى تعبير الجلالة حيث كان يطلق عليه لقب جلالة الملك ، فقال إن الجلالة لله وحده) عندما أقيم القصر رأت الحكومة ضرورة تزويده بالمياه العذبة من بعيد فاستقر الرأى على نقل مياه الجبل الأخضر إلى هناك (مياه الدبّاسية) وكان أن تم توقيع اتفاق مع شركة ألمانية تسمى (مانسمان) لإنشاء خط نقل المياه ذاك من مرتفعات الجبل الأخضر قرب درنة إلى طبرق وقيل وقتئذ إن المستهدف هو مدينة طبرق وليس القصر الملك ، وكانت نتيجة هذا المشروع نضوب مياه أجمل شلال فى الجبل الأخضر يعرف باسم (شلال درنة) وأحيانًا يقال عنه (شلال رأس الهلال) وكانت مياه هذا الشلال تنحدر عبر سفح الجبل المطل على تلك المدينة التى

اشتهرت بشجر الموز والقرنفل وأجمل أنواع الورود وصناعة العطور وينساب ماءه مزبدًا متموّجًا عبر الصخور ليمر فى وادى درنة قاسمًا المدينة إلى جزءين ومضفيًا عليها جوًّا رطبًا طريًّا مما يزيد عبق الورود انتشارًا ثم ينفرج الوادى قبل أن ينتهى إلى البحر لتتفرع منه سواقى يسمع منها خرير المياه ليلاً ونهارًا دون انقطاع ، وفى التقائه عند النهاية مع البحر يحدث اصطخابًا اعتاد عليه السكان كما لو كان معزوفة موسيقية رائعة تحدثها الطبيعة ، ولكن هذا الجو الذى جادت به الطبيعة على درنة منعه الإنسان عنها دون أن يؤخد رأى أهلها وكما يقول المثل الليبى (الغالب يجبر المغلوب على أين يضع رأسه) أو المثل العربى (سيان كسر رغيفه أو عظم من عظامه) إذ لم يسأل أحد لماذا حرمت تلك المدينة وأولئك الناس من هدية الطبيعة لهم !! ولكن درنة بقيت مدينة الورود رغم نهب شلالها ، وربما يكون بعض الناس فى طبرق قد أفادوا من المشروع ولكن ضرره كان أكبر على غيرهم وحتى على الطبيعة فى المنطقة (ولله فى خلقه شئون) .

وعلى الرغم من أن قاعدة العدم الإنجليزية كانت تقع فى منطقة صحراوية وربما كان هؤلاء الذين جاءوا من (جزيرة الخبثاء) كما قال عنهم نابليون أرادوا أن تكون القاعدة تلك قريبة من جنوب مصر عدوهم

اللدود فى ذلك الوقت ، فإن تجمعا سكانيًا قد نشأ قرب هذه القاعدة وهو عبارة عن أكشاك من التنك يسكنها العمال الذين يشتغلون فى القاعدة العسكرية الإنجليزية هذه وأعمالهم متواضعة جدًا كجمع القمامة وأعمال التنظيفات الأخرى ، ومرتباتهم متدنية أيضًا غالبًا لا تزيد على عشرين قرشًا فى اليوم ، والمنطقة التى نشأ بها تجمع الأكشاك ذاك كانت تسمى (الووتر بوب) أى منطقة مضخات المياه شمال القاعدة وهى التى تزودها بما تحتاج من الماء العذب ، وكانت هناك بعض الأعمال الطفيلية التى يقوم بها بعض الليبيين المتحذلقين الذين يتحدثون لغة إنجليزية مهجّنة كأنما هى بين العربية والإنجليزية خليطًا ، تلك الأعمال كانت فى شكل تعهدات لتزويد القاعدة ببعض المواد الغذائية أو الفواكه والخضراوات ثم تجارة التهريب وقد عرف هؤلاء أن الجندى البريطانى يبيع أى شىء من بنزين خزان السيارة العسكرية التى يقودها إلى تغيير إطاراتها الجديدة بأخرى قديمة مقابل الحصول على الفرق فى الثمن ، ويتواتر الحديث بين بعض الناس بأن هناك قناة تليفونية للاتصال المباشر بين القاعدة والقصر الملكى فى طبرق وأن ذلك قد حدث عندما تزايد تأثير إعلام ثورة ٢٣ يوليو فى مصر وتصاعد العمل الفدائى ضد الإنجليز فى منطقة قناة السويس الشىء الذى كانت له استجابة شعبية هائلة فى ليبيا

واستحسانًا حيث بدأت الإضرابات عن العمل فى بعض القواعد العسكرية وتظاهرات طلابية فى بنغازى والزاوية ، وكذلك أثناء وبعد توقيع اتفاقية جلاء القوات البريطانية عن مصر حيث جاءوا بالعدد الكبير منها إلى قاعدة العدم لتكون جاهزة للعودة إلى قناة السويس حسب نصوص الاتفاقية تلك في حالة وقوع ما يهدد مصالح بريطانيا فى الشرق الأوسط أو حدوث اعتداء على حلفائها هناك وهذا النص الذى جاء فى الاتفاقية يمثل فى الحقيقة (مسمار جحا) لأن بريطانيا بذلك أرادت خلق مشكلة للثورة فى مصر وهو ما حدث فعلاً فقد أخذته بعض القوى التى تسعى للإطاحة بالنظام الجديد تَعِلَّة للتشكيك والهجوم على الثورة وقادتها مما دفع قيادة الثورة إلى تقييد الحريات (صحافة وأحزابًا ومؤسسات) ولأن مؤامرة الإنجليز تلك لم تنجح فقد جعلوا يخططون لضرب النظام الذى أرغمهم على الخروج من مصر والتخلى عن أهم شريان مائى فى الشرق الأوسط وكانت إسرائيل دائمًا هى الذراع التى تستخدمها قوى الاستعمار فحدث الهجوم على غزة التى كانت تحت الإدارة المصرية وقتلت القوات الإسرائيلية جنود الشرطة المصريين هناك فى وقت كانت فيه القيادة المصرية منشغلة فى الأمور الداخلية والبحث عن ممولين لمشروع السد العالى فى الغرب ، لكن هذا

الحدث والعدوان دفعها إلى أن تبحث عن مصدر للسلاح من أجل الدفاع عن نفسها ومن تطور الأمور وتتابع الأحداث كالاتجاه إلى الكتلة الشرقية من أجل الحصول على السلاح ثم صفقة الأسلحة التشيكية ثم التفاوض مع البنك الدولى لتمويل السد العالى وقرار ذلك البنك بسحب مشروع التمويل والموقف الأمريكى الغاضب من اتفاق السلاح الشيوعى مع مصر (حسب التعبير الأمريكى) ثم تأميم قناة السويس ، من تطور هذه الأحداث وجدت بريطانيا ضالتها فصارت تعمل بالاتفاق مع فرنسا وإسرائيل برعاية أمريكا على ضرب ثورة عبد الناصر (الدكتاتور كما تقول) وكان دالاس وإيدن وجى موليه وبن غوريون فى اجتماع (سيفر) بفرنسا قد قرروا ضرب مصر عسكريًا ، وجلس على طاولة المفاوضات للتوقيع على الاتفاق ثلاثة (جى موليه وإيدن وبن غوريون مع معاونيهم) وكان الاتفاق هو ضرب مصر وإسقاط ناصر ، وقد وقَّع إيدن رئيس وزراء بريطانيا وتبعه جى موليه رئيس وزراء فرنسا وعندما جاء دور بن غوريون رئيس وزراء إسرائيل رفض التوقيع قبل الموافقة على مطالب إسرائيل من الدولتين قائلاً : (إن بريطانيا تريد إسقاط ناصر لأنه أمَّم قناة السويس وفرنسا تريد إسقاطه وقتله لأنه يساعد الثورة فى الجزائر فما هى فائدة إسرائيل فى هذا العمل؟) ولهذا قال : على فرنسا أن توافق وفورًا

على تزويد إسرائيل بمفاعل ذرى غير مفاعل (ديمونة) وتزويدها بالوقود وبعض الخبراء أما بريطانيا فيجب أن توافق على أن تقوم إسرائيل باحتلال الضفة الغربية (وهذه كانت تحت الإدارة الأردنية) فوافق جى موليه على الطلب وقام وزير دفاعه بالتوقيع مع وزير دفاع إسرائيل على تزويد إسرائيل بالمطلوب أما إيدن فقال إن بريطانيا لديها اتفاقية دفاع مشترك مع الأردن ولا يليق بدولة كبرى أن تخل باتفاقها فى الوقت الحاضر وأن تلك الاتفاقية ستنتهى سنة ١٩٦٦م فطلب بن غوريون الموافقة المبدئية ثم يؤجل الاحتلال إلى سنة ١٩٦٧م وهكذا حدث ، وكما هو معروف فقد حدث العدوان الثلاثى على مصر وفشل فى إسقاط ناصر وأثناء ذلك العدوان أشيع فى ليبيا أن قاعدة العدم البريطانية وهى فى الأراضى الليبية قد استخدمت لضرب مصر بالطائرات فكان ذلك هو القشّة التى قسمت ظهر البعير حيث ثار الليبيون مهددين المصالح الغربية فى البلاد واجتمع مجلس النواب الليبى فى جلسة طارئة ليقرر إلغاء الاتفاقية الليبية البريطانية ، وعلى الرغم من أن هذا المجلس كان أغلب أعضائه من مؤيدى الحكومة حتى إنه كان يقال إن رئيسه وهو يضع طربوشًا على رأسه بصورة دائمة كان يقول لنواب الحكومة أنه إذا مال بطربوشه إلى جهة اليمين عليهم أن

يؤيدوا المشروع المطروح للمناقشة أما إذا مال به جهة اليسار فعليهم أن يرفضوه ورغم ذلك فقد قرر المجلس إلغاء الاتفاقية وطلب من الحكومة المباشرة فى التفاوض مع بريطانيا من أجل ذلك وقد باشرت الحكومة فعلاً التباحث مع بريطانيا لغرض تنفيذ قرار مجلس النواب الليبى وهى بذلك لابد أنها تريد أن تدرأ عن نفسها تهمة العمالة والفساد والانحياز إلى الغرب وهو الشىء الذى كان يردده الإعلام المصرى ، وحقيقة الأمر أن المفاوضات لم تحقق شيئًا وما كانت الاجتماعات بين الطرفين إلا للتهدئة ودر الرماد فى العيون ، وفى هذا الوقت صعّد الإعلام المصرى القوى وخصوصًا من صوت العرب من حملته ضد الغرب وظهر ناصر من تلك الحرب بطلاً قوميًا بلا منازع أما الملك إدريس السنوسى وكعادته لا يتصرف إلا بهدوء تاركًا للحكومة اتخاذ مواقفها المناسبة فقد بقى ساكنًا دون حراك فى طبرق وربما يكون بذلك قد أدرك أن أوراق حكومته تلك (إن لم تكن أوراق دولته) قد ذبلت وصار الشعب لا يثق فى حكوماته المتتالية حتى لو جاءت واحدة منها وهى تمسك السماء بأيديها ، وإذ كانت الأوراق قد ذبلت فإن الرياح صارت عاتية ، ومع تغير الحكومات وتدخل الإنجليز بشكل سافر صارت إدارات المباحث وكانت (ثلاثة إدارات) بالولايات الثلاث توجه الاتهامات للشيوعيين

والناصريين خلاف ما كانت عليه فى السابق إذ كانت الاتهامات تذهب غالبًا إلى جماعة حزب التحرير الإسلامى أو جماعة الإخوان المسلمين . وإنه لمن طبيعة الأمور أن يحدث الفراق بين حكومة هذا حالها وشعبها الذى كان يجب أن تعبر عن إرادته الوطنية ، ولكن (هل يصلح العطار ما أفسده الدهر؟).

وفى هذه المرحلة كعادة أى متخاذل أو مهزوم توجه الإعلام الليبى وهو هزيل وغبى إلى تمجيد أعمال الحكومة وصار الخطباء فى المساجد يرددون فى كل خطبة ذلك الدعاء المأثور (نصر الله مولانا الملك المعظّم ومحق بسيفه رقاب الطائفة الكافرة) ويسخر الناس من هذا الكلام .

مواطن ليبى يقول لزميله ، أين نحن من الصواريخ والطائرات وغيرها إذا كان سيف الملك لابد أن يمحق الرقاب فى هذا الزمان ؟

الثانى يتأتى بكلمات غير واضحة ، يا سيدى من هو الذى يحسب لنا أى حساب ؟

ويمر بجانبهما رجلاً يسمى المرابط أحمد كان يجول دائمًا فى شوارع المدينة وكلما وجد جمعًا من الناس توقف وهو يحمل فى يده

اليمنى بندقية صيد قديمة ليقول (الحق أزناد والشرع أفلوس واللى ما عنداش أفلوس يمشى محبوس) ثم يوجه تلك البندقية إلى أعلى وهى فارغة ويضيف ، تو تو بم بم ويستمر فى تجواله دون أن يعبأ به أحد ولا هو يتحدث مع أحد .

وكان أن أخذ الليبيون يتحدثون فى السياسة ويتابعون ما يجرى من أحداث فى العالم والوطن العربى رغم قلة وجود أجهزة الراديو أو وسائل الإعلام المكتوب على أن الوسيلة إلى ذلك كانت التجمع لدى أحد الناس الذين يملكون جهاز استماع أو التحلق قرب راديو معلق على حائط مقهى لكن صار الاستماع إلى إذاعة صوت العرب جريمة فى نظر الأجهزة الأمنية وحَمْل أى كتاب يتناول شئون السياسة أو القومية تهمة وشبهة ، وقد كثر تبعًا لتلك الإجراءات المتلصّصين والمخبرين الذين يندسّون بين الناس لنقل الأخبار إلى رؤسائهم ، وعلى الرغم من اهتمام الناس بأخبار السياسة وخصوصًا عن فلسطين واليهود لأن ذكريات حرب سنة ١٩٤٨م ، ومرارة هزيمة العرب فيها (وكانوا سبع دول مستقلة) أعلنت الحرب على اليهود ما زالت عالقة بالأذهان ، ولأن أغلب الذين ذهبوا إلى الجهاد فى فلسطين لم يعد منهم أحد ولا يعرف ما إذا كانوا أحياء أو أموات ، وكان الليبيون آنئذ قد تطوعوا بالمئات

وذهبوا إلى مصر فى الغالب سيرًا على الأقدام حيث نقلوا من هناك إلى ساحة الحرب ، على الرغم من ذلك فإن اهتماماتهم لم تكن منظمة إذ لا توجد أحزاب أو نواد بالمعنى المفهوم بل ولا حتى دور سينما أو ملاهى ففى مدينة بنغازى مثلاً وهى المدينة الثانية فى البلاد من حيث عدد السكان كانت بها دار سينما هى عبارة عن ساحة محاطة بسور حجرى وليس بها مقاعد وعلى الداخل إليها أن يأتى بشىء يجلس عليه كأن يحضر معه صندوق خشبى أو علبه حديد أو ما شابه ذلك ولهذا فإن الناس فى المنطقة الواحدة عادة ما يلتقون ليلاً فى حجرة تسمى (مربوعة) لدى أحد الموسرين أن وجد ليستمعوا الأخبار أو يلعبوا الورق (الكارطة) ثم يعودوا إلى مساكنهم وفى اليوم التالى يباشرون مناشطهم (عملاً إن وجد أو تجارة وهى قليلة أو زراعة وهى متواضعة) ولكن بصورة عامة كانت الحياة بعد تلك الأحداث مضطربة ثقيلة وقد ظهر الشك والخوف فى مجتمع صغير مترابط أسريًا ولكن الانقلاب الكبير الذى أحدثته تطورات الشرق الأوسط وما يجرى فى مصر جعل مشاعر وإحساسات الناس تتغير تغيرًا كاملاً تجاه القوى الأجنبية فمن قبول بتلك القوات والقواعد على اعتبار أنها أوجدت فرص عيش للناس إلى رفض كامل لها رغم احتياجهم وضنك معيشتهم على أساس أنها ضد

العرب والمسلمين ، وكذلك الحال بالنسبة لنظام الحكم فمن نظام أبوى يحنو على الناس إلى شكل بوليسى يحصى عليهم أنفاسهم وينغص عليهم حياتهم وهى تعيسة أصلاً ، ومن المؤكد أن تلك الأجهزة التى أستأسدت على الناس (وتلك طبيعتها كلما سنحت الفرصة) كانت تبالغ فى إجراءاتها من أجل إرضاء المسئولين والذين بدورهم يحاولون إرضاء المسيطر الأجنبى خصوصًا أن أولئك المسئولين الليبيين من تربية وصنائع الإنجليز وبقايا إدارتهم ، وصار الاتصال بأى مصرى تهمة وشبهة رغم أن أولئك المدرسين كانوا يؤدون خدمة إنسانية ويساهمون فى تنمية وجدان المواطن الليبى وترقية ذوقه بالتعليم الحديث ، ويتفق لمخبرى المباحث أن ينشروا الإشاعات حول أى مواطن بحيث يعزلونه عن بقية الناس كأن يقولوا إنه شيوعى ملحد وهذه أشنع تهمة تلصق بإنسان فى مجتمع تسيطر على كل ذرة من كيانه القيم الإسلامية ، أو أن يقال إنه عميل للمخابرات المصرية .

وهكذا تلبد الجو وصار المواطن مطاردًا من المباحث والأجهزة الأخرى ومضنوكًا فى عيشه وقد يُقْطَعْ رزقه ويطرد من العمل فى أى مكان إذا ما أرادت تلك الأجهزة ولكن (ماذا يضير الشاة سلخها بعد ذبحها كما يقال ؟) ذلك أن الإنسان إذا ما ضاقت به الدنيا بفعل بنى

جنسه لابد أن يرد الضرر ولو بأسنانه وأظافره ولهذا السبب زرعت البذرة المؤدية إلى الرفض والتمرد على الوجود الأجنبى والنظام الوطنى فى وقت صار فيه هذا النظام يظهر الرغبة فى بقاء القوات الأجنبية وقواعدها والرهبة من مواطنيه ، وكان ذلك إنذار لما سيأتى .. وكما قال ابن الرومى :

لما تؤذن الدنيا به من صروفها

يكون بكاء الطفل ساعة يُولد

وإلا فما يبكيه منها وإنها

لأفسح مما كان فيه وأرغد

★ ★ ★

لا تصلح الناس فوضى لا سراة لهم

ولا سراة إذا جهّالهم سادوا

تبقى الأمور بأهل الرأى ما صلحت

فإن تولت فبالأشرار تنقاد

شاعر عربى

ألا يجهلَنْ أحد علينا

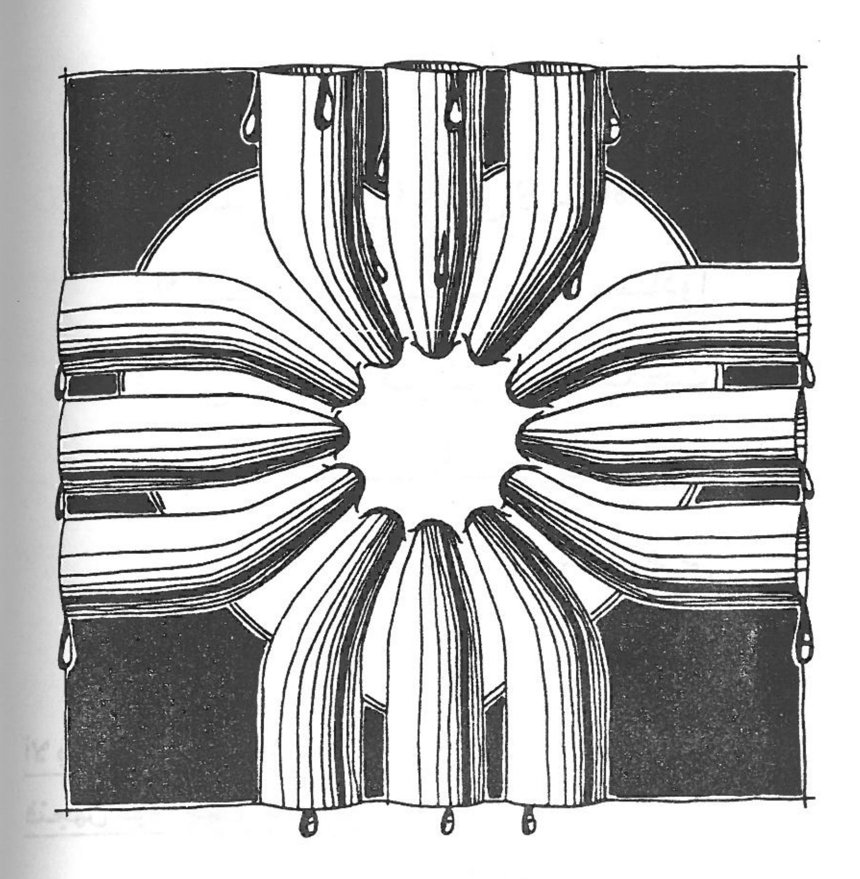
فنجهل فوق جهل الجاهلين

عمرو بن كلثوم

الفصل التاسع

العلاقات العربية والدولية
شركات النفط ودورها
النقطة الرابعة ومجلس الإعمار

على قد لحافك مد رجليك ، هذا مثال عربى يدعو إلى الواقعية وإلى الإدراك وتقدير الأمور كما يجب ، وكان لحاف الدولة الليبية قصيرا جدا حتى لكأنه لا يمتد أبعد من الركب ، وكانت الحكومة فى هذا البلد لا تدرك هذه الحقيقة فى حين أن مواطنيها الذين عانوا كثيرا من الفقر والهجرة وشح الموارد يطلبون الكثير ، وكانت المساعدات الخارجية دولية أو إنسانية ضنينة ، والمشكلة هى كما يقول المثل الإنجليزى (إن المكان الذى ينزل منه القوت يخرج منه الصوت) بمعنى أن الذى يمد يده لا يمكن أن يتكلم أو يرفع صوته ، ومن نافلة القول وإقرارًا بالحقيقة أن هناك جهودا قد بذلت واهتماما بالداخل قد لوحظ ولكن الموقف السياسى أفسد تلك الجهود حيث إن الدولة كانت عاجزة عن رفع صوتها وإن استمرت تمد يدها طلبا للعون والمساعدة ، ولقد أقيمت



العلاقات الدبلوماسية مع مختلف دول العالم عدا تلك التى تسمى شيوعية (وهذا بالطبع إرضاء للغرب) وكان الأمر الهام فى هذا وجود الكوادر وكان النظام بالكاد قد يوفّر العناصر اللازمة لشغل وظائف السفراء والملحقين وبقية الدبلوماسيين للسفارات بالخارج وكانت مهمة أولئك الناس ليست سهلة ذلك أنه مطلوبا منهم فى البلاد التقدمية أن يدافعوا أو يبرروا أسباب تلك الاتفاقيات التى عقدت مع دول الاستعمار وما اشقّ مهمة الدبلوماسى عندما يضطر للدفاع عن قضية خاطئة لأنه سيحتاج إلى كثير من الكذب والتزويق ، وكذلك الحال مع تلك الدول التى قدمت أو تقدم مساعدات لأن شروطها قاسية وهى يمكن أن توقف المساعدة أو الهبة لأتفه الأسباب، كذلك لم يكن الوضع فى الداخل يساعد كثيرا على التفكير الهادئ وما اتعس النظام الذى يفقد الثقة فى مواطنيه لأنه فى هذه الحالة لابد أن يعتمد على الأجهزة السرية (مخابرات ومباحث محلية وأجنبية) وهى لها أهدافها وأغراضها ولذلك فقد كان الدور الهام والآذان الصاغية مفتوحة خصوصا بعد أحداث سنة ١٩٥٦ م واشتداد حملة مصر الإعلامية على الغرب والمرتبطين به ، كان الدور الهام لرجلين (مدير الأمن العام ووزير الداخلية) وكنا قد أشرنا إلى الأول فى جزء الرواية الأول وربما يكون مفيدا لمن لم يقرأ ذلك الجزء

أن نعيد عليه رسم صورة الرجل ودوره فى تلك المرحلة ، وقلنا إن مصيبة الحاكم العربى، فيمن يحيطون به وأولئك يأتون عادة من خلال القرابة أو الصداقة أو المرافقة وجميع الحكام العرب منذ معاوية بن أبى سفيان رحمه الله إلى هذا الزمان الذى صار فيه العالم قرية صغيرة بتكنولوجيا الاتصالات الفائقة ومنذ اخترع الترانسيستور إلى الإنترنت ، هؤلاء الحكام مع استثناء (حالة أو اثنتان) ما زالوا يمنعون الكلمة ويحجرون على الرأى ويسخرون إعلامهم الحكومى الكاذب لتزيين أعمالهم القبيحة وسرقاتهم الفاضحة والمفضوحة، كان أقرب المحيطين بالملك السنوسى رجلا أسود البشرة كبير الرأس معتدل القامة عيناه يغشاهما البياض أذناه صغيرتان تكاد تكونان مستديرتين أسنانه بيضاء أفطس الأنف أكرت شعر الرأس يداه طويلتان حتى كأنهما متساويتان مع قامته عندما يمدهما على جانبيه ، قدماه كبيرتان حتى أنه كان يوصى على أحذيته لتصنع على مقاسهما ، كان هذا الرجل ملازما للملك كظله وهذا قرّب أصهاره ومعارفه حيث كان صاحب النفوذ وكلمته لا ترد وهو يحظى بثقة الملك وإن كان فى الواقع كخادم الملك (بيوراكس بن مرداس) المكنى (بالضحاك) فى رواية الشهنامة للفردوسى ذلك الملك الذى نصحه هذا الخادم بإطعام حيّاته بأدمغة اثنان من مواطنيه كل يوم !!

وكان قد أغتيل الشلحى كما قلنا بواسطة أحد أفراد الأسرة السنوسية إذ إن هؤلاء كانوا يعتقدون أنه يقف حائلا بينهم وبين قريبهم الملك وذكرنا ما حل بهم بعد ذلك ، وإذا كان هذا قد اغتيل (رحمه الله) فقد حل محله ابنه البكر وهو شبيهه فى الشكل والسلوك ، وكان مدير الأمن العام أحد أصهار القتيل وقبل أن يكون مديرا عاما للأمن العام فى المملكة كان مديرا للأمن فى ولاية برقة قبل استقلال البلاد وهو رجل قصير القامة ضيق الكتفين بارز الجبهة عيناه صغيرتان عسليتان ، أوداجه منتفخة دائما ورقبته قصيرة ورأسه يغرق بين كتفيه ، يداه قصيرتان صغيرتان متواضع وقد أشيع أنه تعلم القرآن الكريم فى زاوية الجغبوب وهى إحدى أهم مراكز الدعوة السنوسية فى بدايتها ، انتماءه قبلى يتمتع بسمعة طيبة وأخلاقه حسنة ولم يعرف عنه أى فساد فى ذمته وكان صاحب الكلمة الأولى فى شئون الدولة وكلمة نافذة لدى الملك ، أما وزير الداخلية خلال تلك الفترة فقد جىء به ليكون مكملا للثلاثى الذى يجب أن يكون حاكما للبلاد ، وقلنا إن الوزراء كان تعيينهم يتم حسب توازنات خاصة بالقبائل التى كان الملك يرى فيها سنده وتأييده وهو يعلم أن دعوة جده السنوسى الكبير لم تنجح إلا بالاعتماد على أهل البادية ، كوزير الداخلية فى تلك المرحلة رجلا ينتمى إلى عائلة كانت دائمًا فى

خدمة الأجنبى (من الأتراك إلى الطليان ثم الإنجليز) وكان كبير الرأس شعره أكرت مترهل الجسم أنفه كبير أقنى حاجبيه كبيرين كثَّين رقبته قصيرة حتى إن رأسه الكبير غائص بين كتفيه شكله منفر يداه خشنتان أصابعهما غليظة صوته أجش يتمتع بقدرة عجيبة على التزلف والتملق مع صاحبى النفوذ الآخرين وقدر كبير من الكره والاحتقار للبسطاء من الناس ويستعمل كلمة لعلها تركية عندما يتحدث عن المواطنين فيقول (أوباش) يرتدى بذلة أفرنجية دائمًا وإذا ما كان فى حضرة الملك وضع غطاء على رأسه هو عبارة عن قبعة لونها أسود داكن تسمى فى ليبيا (كبّوس) مظهره فى الغالب كئيب وكان لا يشك أو يكذّب أى كلمة عن أى ناشط ولا يقرأ إلا تقارير أجهزته وقراراته حاسمة سريعة، عندما يمشى يرى وكأنه يجرى ، وفى هذا الجو الخانق كانت الحكومة متحفزة متوجسة بينما الشعب قد فقد الثقة وشبابه منتفض وكانت شركات البترول تتسابق على توقيع عقود الامتياز فى وقت ظهر فيه أن هذه المادة متوفرة بكميات كبيرة فى البلاد وسرعان ما اكتشفت أولى الشركات الأمريكية حقلا نفطيا وأنشأت أول ميناء للتصدير فى البريقة وأقامت احتفالا كبيرا بالمناسبة حضره الملك إدريس ورجال دولته وفى أثناء الحفل قدم مدير الشركة تلك علبة صغيرة شكلها يشبه برميل النفط

كهدية للملك حتى أن الناس تندروا على تلك الهدية بالقول (إن هذا ما يمكن أن تناله من بترول بلادك) ولكن الحقيقة أن الرجل كان زاهدا متقشفا أما النهب فكان من نصيب بعض وزرائه الشيء الذى عرف فيما بعد حتى أن أحد أبرز الشعراء فى برقة كان قد أنشأ قصيدة مطلعها يقول (وين ثروة البترول يا سراقا..) سنوردها كاملة فى مكانها من الكتاب ، ومع ازدياد شركات التنقيب عن النفط فى البلاد وتكاثر العمال الليبيين فى خدمة تلك الشركات تكونت نقابة عمال النفط وكان من المتوقع أن تلعب دورا فى خدمة العمال والمحافظة على حقوقهم فى وقت لا توجد فيه مؤسسات أخرى كالأحزاب مثلا ، وكان هؤلاء العمال باعتبارهم تكتل كبير وهم جزء من المجتمع الليبى كان لابد أن يتأثروا بما يحدث فى البلاد وفى العالم العربى وقد حاولوا من خلال قياداتهم النقابية التعبير عن وجهات نظرهم ، ولأن الأجهزة كانت متحفزة جاهزة فقد راقبت وسجلت ثم قررت وهكذا تم القبض على تلك القيادات وعلى كل من حامت حوله ولو شبهة بسيطة ، والتهم بطبيعة الحال كانت جاهزة (الإضرار بمصالح البلاد والتآمر على الحكم القائم) وحدث أن كثيرين انتزعوا من بيوتهم ليلا وأمام أطفالهم المرعوبين ونسائهم المفجوعات ، ولقد سَرَتْ الأخبار صباحا فى الشوارع والأحياء كسريان

النار فى الهشيم وكانت تلك فاجعة للناس لأنها جاءت من حكم وطنى أيده كل كبير وصغير وحدث أن تلك النساء اللواتى زغردن له صِرن يبكين منه وعليه !! وتواترت القصص والروايات فمن قائل إن فلاناً قد أخرج من بيته وهو فى لباس النوم وإن فلانا قد دوهم فى داره عندما قفز رجال الأمن من على الحائط واقتحموا حجرة نومه لينهالوا عليه ضربا بالهراوات أمام زوجته الباكية المولوه وأن علاّن قد اقتيد مكبلا بالحديد فى ليلة عرسه ، وكان عثمان البالغ من العمر ثمانية وخمسين سنة أحد الذين اعتقلوا ليلا وقد اقتحم عليه عملاء المخابرات منزله ليجروه جرا أمام أعين أطفاله الذين استيقظوا على صوت الطرق المتواصل على باب بيتهم وكذلك سى سالم الذى كان عائدا لتوه من حقل العمل وقد حصل على إجازة مدتها أسبوعان حيث كان يعتزم حضور فرح ابنته البكر ساعة زفافها على زوجها الشاب على ولم يسمح لسالم هذا حتى بدخول بيته وإبلاغ أهله إذ كانوا فى انتظاره أمام البيت بعد أن روعوا أهله بتفتيش كل ركن من البيت اعتقادا منهم بأنه مختفى وفى اليوم الثانى اعتقل خطيب ابنته فقط لأنه صهره على الرغم من أنه ليس عضوا فى النقابة ولا يعمل فى حقول النفط وقد اعتبروه شريكا فى تلك الجريمة التى لا يعلم بها ، وسالم هذا ملتحى تظهر علامة الصلاة على جبهته

ويبلغ من العمر واحدا وستون سنة ولهذا فهو وزميله عبد الله الذى اعتقل قبله كانا قد عاصرا جزءا من عهد الطليان وقد دار بينهما حديثا عندما التقيا فى المعتقل ..

عثمان ، سبحان الله يا أخى إن الذى قاد الجماعة التى اقتحمت علىّ بيتى هو نفسه ذلك البليد الذى يوحى شكله بالرعب وكلامه بكل بذاءة وهو ذلك الذى كان مخبرا مع الإنجليز وربما كان مع الطليان أيضا والغريب أن هؤلاء العملاء يغيرون جلودهم كالأفاعى وحسب النظام الذى يخدمونه ! تصور أنه منعنى حتى من تغيير ملابسى ، آه يا أخى ما أصعب وخزة الظلم وما أثقل اليد التى يضرب بها الأخ أخيه إذا صح أن يقال عن هؤلاء أنهم أخوة فى العروبة والإسلام ، ما أبشع تغولهم ، يضغط على أسنانه حتى تبرز حنكيه كما لو كانتا ستخترقان جلد وجهه .

يقول الثانى ، إنهم يكررون ما فعلوه فى الناس إبان عهد الإدارة الأجنبية ، وأسفاه كنا نعتقد أن الحكم الوطنى سيعزز فى الناس الكرامة ويقوّى الثقة بالنفس ويؤكد الارتباط بالوطن الذى رواه الآباء والأجداد بالدماء وإذا به أكثر شراسة وظلما وقهرا من الأجنبى ، تصور أن هذا الرعديد وزير الداخلية يقول إننا خونة متمردين وفى خدمة دولة أجنبية وهو الذى كان إيطاليا أكثر من الإيطاليين وإنجليزيا أكثر من الإنجليز ، هذا

المخلوق غشوما ظلوما لا يتورع عن التنكيل حتى بالأطفال والعجزة كما كان يفعل أيام الطليان ، إن هؤلاء المرتزقة اقتادونى عنوة من أمام بيتى بعد أن روّعوا أهلى بتفتيش كل شىء فى البيت يوم عقد زفاف ابنتى !

ولم يمض وقت طويل حتى قُدم هؤلاء جميعا بتهم مزورة انتزعت بالقوة إلى المحاكم وأدخلوا السجون ، ولم يتوقف استفحال الأجهزة عند هذا الحد بل طال كل مكان بما فى ذلك القرى والنجوع وإن بنسب مختلفة وصار إسمار الناس مع بعضهم تهمة ولقاءاتهم تآمرا ، وكان الشيخ عبد الحميد ما زال يواصل جلسات الكندورة مع أهل قريته ويحدثهم عن العروبة والإسلام ومصر عبد الناصر ودور الأزهر الشريف فى نشر الإسلام وشحذ همم العرب كذلك عن أسباب هزيمة العرب فى حرب سنة ١٩٤٨ م إضافة إلى الصلاة بالناس فى المسجد العتيق بالقرية وإمامتهم يوم الجمعة وتدريس الأطفال فى خلوة الفقى محمد التركى الذى انتقل إلى رحمة الله منذ سنة بعد أن ظل يعلّم الأطفال القرآن الكريم ويؤم الناس فى هذا الجامع لمدة نصف قرن تقريبا رحمه الله رحمة واسعة، لكن الشيخ عبد الحميد هو الآخر لم يسلم من مضايقات المخبرين الذين يتطفلون على جلساته ويندسون بين المصلّين لينقلوا كل كلمة من خطبه ..

وبتلك الإجراءات والقمع والتشهير ورعونة وزير الداخلية ذاك وقع ما زلزل الكيان وأفقد الثقة وأزم الأمور بين الناس وحكومتهم الوطنية أو نظامهم الوطنى الذى صفقوا له كثيرًا ، وكان عبد الله ما زال يعانى ألم احمرار عينيه وهو كعادته لا يتملق ولا يحابى يلّوح بيده اليسرى إذ كانت يمناه قد قطعت كما ذكرنا فى طبرق ، يلّوح مصرًّا على طرد أولئك الذين يتطفلون على جلسة الشيخ عبد الحميد لأنهم كما يقول كالوباء يصيب المريض والمعافى ، لكن الشيخ بنظريته الصوفية العميقة يهدّئ من ثورة عبد الله قائلا إن الله قد يهدى هؤلاء الناس ذلك أن الحديث عن الإسلام وهو دين الحق الذى يهدى إلى الخير ، وكأن أحد المخبرين الذين يداومون على الاندساس والتطفل يثير القلق فهو رجل ضخم الجثة يلهث دائما كأنه يحمل أثقالا ، وجنتيه ناتئتان ، فاهه واسع ورأسه كبير على رقبة طويلة يميل إلى اليسار غالبا ، عيناه بارزتان يغشاهما بياض ، أصابع يديه طويلة أظافرها مسودّة قذرة ، مجرد النظر فى وجهه يجعل المرء يحس بالاشمئزاز ، أذناه كبيرتان كأنما جعلتا خصيصا للتنصت ، وكان من الصفاقة حتى كأنه لا يفهم الغمز واللمز الذى يوجه إليه رغبة فى جعله يبتعد عن جلسة الجماعة .

يقرأ الشيخ عبد الحميد كلما بدأ يتحدث قوله تعالى :
بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ صدق الله مولانا العظيم.

يردد الجمع ، صدق الله مولانا العظيم ، الحمد لله .

يتململ ذلك المتطفل ولا يردد معهم بصوت مسموع (صدق الله مولانا العظيم) لكنه لا يترك المكان ، ينظر إليه عبد الله شزرا ، ثم يتنهد ويقول : سبحان الله ، دون أن يزيد كلمة فيقول الشيخ عبد الحميد ، اتركوا الخلق للخالق ، لعل الله يشرح القلوب المغلقة ، ولأن هذا الشيخ لم يفقد الأمل فى الحكم الوطنى باعتبار أن ليبيا دولة مسلمة وليس بها مذاهب مختلفة وشعبها متجانس، يقول، منذ عودته إلى البلاد وكان عندما وصل قد سجد معفرا وجهه فى تراب الأرض التى أحبها منذ كان طفلا يافعا ، يقول إن هذا الحكم الوطنى لابد أن يكون هدفه تنمية الوجدان الوطنى بترسيخ القيم العربية الإسلامية وأنه إذا كان ينظر إلى المستقبل فإن الحاضر يجب أن يتمثل عبر الماضى ، و ذلك الماضى المجيد الذى كتب بالدم دفاعا عن الوطن وكرامة الإنسان الليبى .

وعندما ينفضّ لقاء الكندورة والشاى الذى يكلف خمسة قروش
إذا كان بدون كاكوية وهم عادة يتوزعون المبلغ فيما بينهم بعضهم يدفع
نصف قرش والبعض الآخر يدفع قرشا حسب الظروف المادية وصار الآن
غالبا ما يدفع المبلغ كله الشيخ عبد الحميد ، وأحيانا يتبرع أحد الجلوس
بقرشين ثمنن الكاكوية (الفول السودانى) ، عندما ينتهى اللقاء يعودون
الى مساكنهم ومنهم عبد الله الذى ما يكاد يتمدد على الحصير ويغمض
عينيه حتى تترائى له طبرق وتلك المعاناة والألم والقلق ، قنابل تنفجر
وأطراف رفيق تقطع ، دماء ولحم بنى آدم مبعثر ممزق ، دوى الانفجار
يصم الآذان ، يقفز من نومه ، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، حلم مزعج ،
يتذكر أن بعض الناس يقولون إنه لا يبقى من زمن الذكريات المؤلمة
شيئا لكنها بالنسبة له منقوشة فى ذاكرته بل هى ماثلة فى جزء من
جسمه ، هذه يده اليمنى المبتورة وعيناه المحمرتان الدامعتان يكاد
بصرهما أن ينطفئ ، يده التى كلما نظر إلى مكانها حيث لم يبق منها غير
جزء صغير ملتصقا بكتفه تستثير منه المواجع وتعتصر قلبه كيد من
حديد ، فكيف له أن ينسى وهو يعانى ضروبا من الشقاء النفسى الذى
لا يتخفف منه إلا مؤقتا عندما يكون مستمعا لحديث الشيخ عبد الحميد
المتحدث اللبق والخطيب المفوّه ، عبد الله هذا عندما يكون فى حضرة

الشيخ صاحب الخاطرات اللطيفة والفكر المتدفق رغم الرؤيا المزعجة
ليلا عادة ما يضحك بقهقهة عالية حتى يميل إلى الوراء وتصير عيناه
دامعتان كما لو كان يبكى فيقوم بمسحهما بكم يده اليسرى ، وهو فى
غير هذه الجلسة لا يضحك إلا نادرا ، لكن كلام الشيخ يسعده ويبعث
فيه نشوة فائقة تظهر على ملامحه وهو يصغى باهتمام لكلام وتلميحات
الشيخ عبد الحميد الذى أضفى على الجلسة جوا جديدا، والشيخ يظهر
شديد الوفاء للقيم التى آمن بها ويحرص على الحديث فيها لتثبت
وترسخ وهى قيم الدين الإسلامى الحنيف ذلك الشىء الذى لا يتمتع
به إلا قلة مصطفاة من الناس عمرت قلوبهم بالإيمان والصدق مع النفس
والسمو فى الخلق ، هذا الشيخ الذى يحذق أسلوب النقاش ويعرف
موضع الكلمة ووقتها لذلك فإن حديثه لا يمل حتى أن اللمحة أو النكتة
الخفيفة لا تفوته، وهو إضافة إلى لقاء الكندورة يبادر يوميا مع انبلاج
الفجر وانبعاث خيوط ضوء الصباح يبادر متجها إلى الجامع العتيق عبر
الطريق المترب الذى يمر من وسط مقبرة القرية ، وهكذا يفعل عبد الله
الآن وكما كان مع المرحوم والده عندما كانت الحياة هادئة هانئة وقبل أن
يعرف هو طبرق والرابش وسوق العجاج ، تلك الأيام التى ما ينفك
يتذكرها بامتنان وهو يصحب ابنه محمد معه الآن كما كان والده يفعل به.

وذات ليلة كان عبد الله يغط فى نوم عميق قلما نعم به منذ مدة وإذا برؤيا أقضت مضجعه وتصور بعد أن استفاق وكان قد ضجر الحياة بسبب ما عانى فيما مضى وما تعانيه زوجته المصابة بمرض السل منذ كان فى طبرق وهى تجمع نبات الحلفاء مثل بقية أهل قريتها فى ذلك الوقت من أجل إعاشة أطفالهما ، تصور أنه سيموت قريبا بسبب تلك الرؤيا ولهذا قرر أن يزوج ابنه البكر محمد فى أقرب وقت ممكن وصار يتذكر كلمات والده عندما كان طريح الفراش مريضا وهو يلح عليه بإكمال نصف دينه ، فى طويَّته يقول ، هكذا هى الحياة ، وكما قيل قديما (إن القدر مع الأسف لا يمهل الإنسان حتى يستفيد من أخطائه) وإذ أستعرض فى مخيلته فتيات القرية محاولا اختيار واحدة لتكون زوجا لابنه محمد وفجأة أهتدى إلى أن الشيخ عبد الحميد حفيدته قد بلغت سن الزواج هذا الرجل الذى يشرف الإنسان بمصاهرته ، ولكن هل سيوافق وابنته المدعوة فاطمة مربية تربية جيدة ومؤدبة تأديبا لم تبلغه واحدة فى البلاد ، أو ليس الشيخ عبد الحميد هو والدها ؟

وقد تمنى أن تكون من نصيب ابنه فهو يود أن يزوجه امرأة متعلمة ، وكان ابنه محمد هذا قد حفظ القرآن الكريم على يد المرحوم الفقى محمد التركى وهو على خلق وأدب كما أنه يجيد الكتابة والقراءة وذى

خلق رزين ويحذق ركوب الخيل واستخدام البندقية خلاف ابنه الثانى أحمد الذى ما زال طائشا مبذرا متلافا وهو دائم الشكوى منه ومن طيشه لكن الشيخ عبد الحميد يقول له كلما اشتكى رعونة أحمد ذاك إنه جيل آخر يا سى عبد الله ولا يجب أن تتوقع منه أن يكون نسخة منك وعليك أن تتعامل معه بهدوء وتعتبره صديقا وأن تأخذه بروية ، هل تتذكر أن أهلنا يقولون (إذا كبر ابنك صادقه) فكر فى مفاتحة الشيخ عبد الحميد ولكنه تردد وتهيب كثيرا قبل أن يجرؤ على مجرد الإشارة إلى هذا الموضوع سبب ذلك أنه كان ينظر إلى هذا الشيخ نظرة إجلال وتقدير ويراه فى مرتبة عالية وشأن كبير ، وذلك قد يحول دون موافقته على هذا الطلب وهو يستصعب ذلك أن حدث لأنه سيخلق ظلاً بينه وبين الشيخ الذى لا يود مفارقته أو الغياب عن جلساته وإذ عرض الفكرة على زوجته وهى التى تعانى مرض عضال قد لا يتركها تعيش طويلا اغرورقت عيناها الذابلتان بالدموع وجرت من مآقيها ساخنة وكانت تلك دموع الفرح، وقالت كلمات متعثرة (مبروك ، هذا يوم الهناء) ثم فاتح ابنه فى فكرة الزواج واقترح ابنة الشيخ عبد الحميد الذى تحدث عنه بإعجاب شديد وعلى الرغم من أن الابن موافق على الفكرة ذلك أن والدته صارت شبه عاجزة بسبب مرضها المزمن وأعباء خدمة العائلة أصبحت ثقيلة عليها

ولابد من امرأة تقوم مقامها أو تساعدها لكنه تردد فيما يتعلق بابنة الشيخ حيث إنه لا يريد لوالده أن يصدم بالرفض فهو يدرك الفارق الاجتماعى وحتى الثقافى بين العائلتين ، إلا أن والده قال إننا لا نخسر شيئا وهو يرى أن علاقة الود القائمة بينه وبين الشيخ قد تساعد ، وفى النهاية كل شىء بالنصيب .

وكان محمد قد رأى فاطمة ذات مرة عندما كان يزور الشيخ عبد الحميد فى بيته وهى شابة مليحة ذات وجه دائرى أبيض كالقمر المكتمل وعينان تشبهان لون البحر واسعتان وإن كان شعر رأسها قصيرا لا يكاد يتجاوز أذنيها ، حدث هذا عندما كانت تقدم الشاى له ولوالدها ، هى فتاة جميلة وقد انبهر محمد بجمالها وتناسق قوامها إذ لم تكن ترتدى ملحفة كعادة النساء فى قريتهم وإنما كانت ترتدى قفطانا طويلا مطرزا يظهر مفاتن جسدها وإن كان يصل إلى كعبيها وقد قدمت الشاى على طبق نحاسى مستدير لامع وكان الشاى عبارة عن كوبين كبيرين كعادة أهل مصر فى شرب الشاى فى حين أن الشاى فى ليبيا يقدم فى أكواب صغيرة وعلى دفعات عادة لثلاث مرات غالبا ما يكون شايا أخضر ، وعندما غادرت البيت بعد أن لاحظ أنها نظرت إليه مليا كأنها أرادت أن تتفحصه ، وهو لا يعرف بأى طريقة كانت تفكر فيه ، قروى بسيط أم شاب

يصلح لأن يكون زوجا ، وطفق يفكر، أنها فتاة جميلة ولكنها لم تعش فى هذا المجتمع وبالتالى فهى لا تعرف التقاليد والعادات الليبية ذلك أن أمها مصرية وقد ولدت وترعرعت هناك بل عاشت فى القاهرة تحديدا كما علم ولابد أنها ليست مثل النساء فى ليبيا ولا يمكنها أن تخبز البازين أو تعمل الرشدة وقد لا تقبل أن تعيش مع أمه ووالده وأخيه أى فى وسط عائلة، يتوقف قليلا ثم يتفكر ، أن الحياة لابد أن تتغير وتتطور بحيث تختلف طرق المعيشة وعلى أى حال فإنه لا أحد جاء من بطن أمه (كما يقال) يعرف كل شىء ، وبالتأكيد أن الشيخ ما رجع إلى ليبيا وأظهر كل هذا التحمس إلا لأنه يريد الاستقرار بأسرته فيها ، وقرر أو قد عزم على أن يطلب من أمه زيارة أسرة الشيخ لاستطلاع الوضع ولابد من رأيها فهو لا يمكن أن يخالف ذلك الرأى مهما حدث لأن أمه هذه هى التى كافحت وحفيت وتعرّت من أجل أن تراه هو وأخاه أحمد فى صحة وسعادة .

وخلال اليوم التالى كانت والدة محمد تقوم بزيارة لأسرة الشيخ وهى غير معتادة على مثل هذه الزيارات وربما حتى لا تعرف كيف تتعامل مع أناس ما زالت هى وغيرها يعتبرونهم غرباء ، ولم يطل بها الأمر فقد عادت إلى سكنها مفجوعة حائرة فالبنية جميلة ومهذبة لكن اسرتها

تعيش فى مستوى غير مستواهم فقد رأت أنهم يستخدمون ملاعق حديد لامعة وهى لا تستخدم إلا مغرفة من خشب ويطهون على نار موقد كاز يبهر العيون وليس فيه دخان وهى لا تعرف إلا الحطب وهم يستخدمون أيضا العديد من الصحون فى حين أنها لا تعرف إلا قِدْرَةً واحدة وقَصْعَةً واحدة كذلك هم يقيمون فى بيت من الحجارة البيضاء به أبواب وشبابيك وهى تسكن داموسا مظلما فى الغالب وليس به إلا مدخل واحد ولديهم أدوات أخرى وفرش ملون وهى لا تعرف إلا الحصير والوسادة الخشنة المحشوة بالصوف كذلك فإن لباسهم لا يعجبها ، قالت كل هذا لابنها وقد قابل ذلك بابتسامة واسعة وكان يشبك يديه الاثنتين معا ، قال إن الحياة تتغير وهو يعمل الآن بالمدرسة القرآنية التى أنشئت حديثا ويحصل على مرتب قدره ستة جنيهات فى الشهر ويمكنه شراء وابور الكاز وأشياء أخرى ، المهم أن يصير الاتفاق وأن تحدث الموافقة ، وهو نفسه لابد أن يتغير فإذا كان والده لا يخرج إلاوهو مرتدى جَرْدًا على بدنه وطاقية على رأسه فإن الناس لم تعد تهتم بذلك وكثيرون يرتدون الآن ملابس لم تكن معتادة ، وهكذا فقد طلب منها أن تقول لوالده إنها موافقة وعليه أن يطلب يد البنية من الشيخ عبد الحميد ، تقول ، (حاضر يا وليدى وإن شاء الله) تكون نصيبك ، وهكذا فعلت .

ولكن عبد الله لم يخشى شيئا أكثر من الحديث فى هذا الموضوع مع صديقه الشيخ عبد الحميد ، فكر ، ترى ماذا سيكون رد الشيخ وكيف يكون الحال إذا ما رفض ؟ يضرب أخماسا فى أسداس ، وأخيرا اهتدى إلى فكرة وهى أن يحادث أحد الجلوس ممن يطمئن إليهم وقد اختار الحاج سعد ، فهو أولا رجل متدين وصادق ثم إنه كتوم فربما ينصحه بعدم الإقدام على الحديث مع الشيخ وبالتالى لن يسمع أحد شيئا (ويا جحا ما انقطع ثوبك) والحاج سعد هذا يحضر كل جلسات الشيخ عبد الحميد ولا يناقش أو يتحدث وإنما ينصت دائما باهتمام وهو يدحرج حبات مسبحته بانتظام وقلما يقول (الله الله زدنا يا شيخ زادك الله علما) وبعد هذا لا يسمع له نفسا إلا طقّات على علبة النشوق (النّفه) تلك العلبة التى لا تفارقه ، وبعد كل نشقة يعطس عدة مرات ثم يقول ، الحمد لله ، يبادر عبد الله بالجلوس فى الكندوره رغبة فى لقاءالحاج سعد قبل مجىء الشيخ عبد الحميد وقد التقيا وبعد السلام والتحية بادر عبد الله بالحديث مع الحاج سعد فى خصوص رغبة ابنه محمد الاقتران بابنه الشيخ عبد الحميد وهو يريد أن يستأنس برأى الحاج قبل مفاتحة الشيخ فى الأمر وقد أبدى مخاوفه خصوصا إذا ما رفض الشيخ طلبه ولكن الحاج سعد بعد أن سمع ما قاله عبد الله تحمس كثيرا للفكرة لأن محمد

شاب ممتاز ولا يفوته وقت من أوقات الصلاة وهو موظف الآن ولابد أن الشيخ سيوافق ووعد بأن يتحدث هو فى هذا الشأن نيابة عن سى عبد الله وابنه ، وما هى إلا دقائق حتى ظهر الشيخ يتمخطر فى لباسه الأزهرى جبة شهباء تظهر ياقة القميص الأبيض من أطراف رقبتها وقبّعة خفيفة حمراء محاطة بعمامة بسيطة تغطى حوافها وسندل تظهر منه أصابع قدمى الشيخ نظيفة منظّمة مقلّمة الأظافر ومسبحة صغيرة بين أصابع يده اليمنى ، يصل فيقول ، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، يردون ، وعلى حضرتكم السلام ورحمة الله ، صوت عبد الله كان خافتا مرتعشا وقد لاحظ الشيخ ذلك فقال ، لا بأس عليك يا سى عبد الله، انتفض هذا ورد ، الله لا يوريك بأس يا شيخ عبد الحميد ، وكان فى نفس الوقت قد وصل الفقى مصباح مغبّرا يجر رجليه جرًّا كأنه يمشى نائمًا وكعادته كان متشائما مبتئسا ، حياهم بصعوبة كأنما الدنيا قد أطبقت على رأسه ، نظر إليه الشيخ مبتسما وقال ، الدنيا بخير يا سى مصباح ، ولا تكن مبتئسا إن الله يرزقكم من حيث لا تحتسبون ، جلس هذا دون أن ينبس بكلمة ، تبادل عبد الله

والحاج سعد نظرات متسائلة كأنهما قد قررا أن لا يتحدثا مع الشيخ بحضور هذا الفقى المتشائم ، وقد انتظمت كالعادة الجلسة وتناولوا طاسة الشاى الأخضر (لم يكن هذا النوع من الشاى معروفا قبل هذا الوقت) وتحدث الشيخ كثيرا عن سماحة الإسلام وتوادد المسلمين وعن عهد النبوءة والخلفاء الراشدين وكيف كان المسلمون أهل علم وثقافة وحضارة وكيف هو حالهم الآن وأشار إلى أن الإمام محمد عبده الذى كان قد زار باريس وعندما رجع إلى مصر سألوه عن البلاد التى زارها وأحوال الناس فيها قال : (رأيت مسلمون هناك بلا إسلام ورأيت إسلاما هنا بلا مسلمين).

فى وقت واحد يقولون ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، سبحان الله، يا لطيف .

كان عبد الله يركّز نظرات عينيه على الفقى مصباح ويَود أن يقول له لو استطاع قم وانصرف لكن ذلك الفقى كعادته كان يضع يده اليمنى تحت حنكه وعينيه لا تطرفان ولا تتحولان من على وجه الشيخ عبد الحميد ومن الغريب هذه المرة أنه لم يناقش وإنما تنهد ثم وقف ليغادر المكان وكانت تلك لحظة سعادة بالنسبة لسى عبد الله فهو يريد أن يخلص من قلقه وكما يقول المثل الشعبى (يا تورا يا مورا) ولا أحد

يعرف معنى هاتين الجملتين بدقة ومن أين جاءتا لكن الناس فى عرفهم يقولون إنهما تعنيان (إما خيرا أو شرا)..

تنحنح الحاج سعد واعتدل فى جلسته قبالة الشيخ وقال ، يا شيخنا الكبير (فى هذا الوقت ارتعشت شفتا عبد الله ووضع يده اليمنى متكئا على الأرض كما لو كان يستعد للنهوض اعتقادا منه أن الحاج سعد سوف يتحدث مباشرة فى موضوع الزواج وربما يرفض الشيخ وبالتالى عليه أن يغادر المكان) .

لكن الحاج سعد قال ، ومن يكون محمد عبده يا شيخنا ؟ وبهذا لعله كان يمهد لحديث أهم .

تنفس عبد الله الصعداء .

قال الشيخ : إن العلاّمة الشيخ محمد عبده رحمه الله كان أبرز علماء الأزهر الشريف فى ذلك الوقت وهو يعرف فى زمانه بإمام التجديد والإصلاح الدينى وقد ولد فى قرية محلة نصر بمديرية البحيرة المصرية ونال شهادة العالمية من الأزهر الشريف خلال الثلث الأخير من القرن التاسع عشر وكان فارس الكلمة وفارس الفروسية فقد عرف عنه فى بداية حياته حبه لركوب الخيل واستعمال السلاح ، شارك فى الثورة العرابية ضد الحكم الملكى سنة ١٨٨١ م وبعد فشل تلك الثورة حكم عليه

بالنفى من مصر لمدة ثلاث سنوات وكان ذلك سنة ١٨٨٢ م وهو من مريدى الشيخ العلامة جمال الدين الأفغانى رحمه الله رحمة واسعة وهذا من أفغانستان ويعرف بلقب الثائر المعلم ولد سنة ١٨٣٨ م فى قرية هناك اسمها أسد آباد وهو من أسرة شريفة ويمتد نسبه إلى الحسين بن على بن أبى طالب حفيد الرسول ﷺ (يرددون فى وقت واحد ، عليه الصلاة والسلام) درس اللغة العربية وعلوم الدين وهو يتكلم العربية والفارسية والأفغانية والتركية ، وكان زاهدا متصوفا عفيف النفس خاشع لا ينام إلا قليلا زار مكة المكرمة سنة ١٨٥٦ م لتأدية فريضة الحج وجاء إلى مصر سنة ١٨٧١م ومنها انتشرت دعوته الثورية الإصلاحية ولم يلبث بها طويلا رغم انتشار دعوته وكثرة مريديه حيث طرد منها سنة ١٨٧٩م ، وهو صاحب الرسالة العلمية الشهيرة وعنوانها (الرد على الدهريين) التى كتبها فى الهند ..

وهنا استقام الحاج سعد فى جلسته وركز عينيه على وجه الشيخ ليقول ، لدينا يا شيخنا طلب ورغبة نود أن نأخذ رأيكم فيهما، فتساءل الشيخ، من أنتم ؟

قال الحاج سعد ، أنا وسى عبد الله وأكمل ، إن سى عبد الله توكل على الله واعتزم طلب يد كريمتكم لابنه محمد وهو من خيرة شباب

القرية خُلقا وأدبا ، يتوقف عن الكلام منتظرا الرد ، أما سى عبد الله فقد نكّس رأسه وصار ينظر إلى الأرض بين ركبتيه .

تنحنح الشيخ وقد احمرّ وجهه كما طقطق حبات المسبحة فى يده اليمنى ورفع حاجبيه مفكرا ثم قال ، سى عبد الله صديقنا وجليسنا وابنه محمد شاب ممتاز وأنا كما قال الأولون (اخطب لبنتك ولا تخطب لابنك) لكننى أحتاج لبعض الوقت للتفكير والتشاور لأنه شرعا لابد من أخذ رأى الفتاة، هنا قفز عبد الله كما لو كان قد انتشل من بئر عميق وكان يتصبّب عرقا، ليقول، سيدنا الشيخ نحن نوافق على كل ما تقول وتقرر، نهض الشيخ وهو يقول ، هه على بركة الله ، نلتقى غدا فى نفس الموعد .

ولقد فكر الشيخ كثيرا وقلّب الأمور على وجوه عدة فرأى أن فى هذه المصاهرة عدة فوائد، أولها أن زوجته لا ترغب فى البقاء فى القرية وإذا ما تزوجت ابنتها هنا سوف تبقى ، وثانيها أن عبد الله والد محمد له رصيد طيب وسمعة ممتازة فى القرية وهو وإن لم يكن انتهازيا فإن عينه على انتخابات مجلس النواب القادمة وسيكون عبد الله عونا له بالتأكيد فى تلك الانتخابات كذلك فهو يرى أن أمثاله من النواب سوف يفيدون البلاد بعلمهم وتجاربهم وعقلانياتهم ، وثالثها ، أن هذا الشاب محمد يتمتع بنوع من الفطنة والذكاء ولابد أن يكون له مستقبل يسعد ابنته

وهى كذلك سوف تساعده بسبب ثقافتها على تغيير حياته إلى الأفضل ، فكر هكذا قبل أن يتحدث مع زوجه ولا فاتح ابنته فى الأمر ولم يَرِدْ أن يتعجل فى الرد على طلب سى عبد الله واقتراح الحاج سعد ولابد له أيضًا أن يحادث ابنته على انفراد كيلا تؤثر عليها أمها وهى لابد أن تحترم رأيه، ولقد رجع عبد الله سعيدا عيناه تطفح فرحا ليخبر زوجته بالنبأ السار وهى بالتالى تخبر ابنها الذى كان ينتظر على أحرٍّ من الجمر نتائج اللقاء وقد كان يرقب جلسة الشاى من بعيد وكان يتمنى لو أمكنه أن يسمع الأحاديث ذلك أن فاطمة أصبحت جزءا من حياته وعيناها الخضراوان المائلتان إلى الزرقة لا تفارقانه فى صحو أو منام ..

التأمت جلسة وأخرى وثالثة ورابعة والانتظار ممل بينما الشيخ لا يفصح عن شىء ولا رأى ولا سأله سى عبد الله أو الحاج سعد عن دخيلة الأمر .

وفى إحدى جلسات أمسيات فصل الخريف الطرية اتخذ الشيخ قراره حيث وافق على خطبة ابنته فاطمة لمحمد بن عبد الله، وإذ أفصح عن ذلك سأله سى عبد الله والفرحة تدغدغ جوانبه عن الشروط والمهر وما إلى ذلك ، فقال الشيخ (أقلهن مهرا أكثرهن بركة) وليس هناك من طلب غير سكن لائق واحتياجات المعيشة كما هى فى بيت أبيها ومد يده

اليمنى ليصافح عبد الله فالتقت أيدى الثلاثة الشيخ وعبد الله والحاج سعد ليقرأوا الفاتحة وصارت شفاة كل واحد تتحرك إلى أن قالوا (آمين) .

كان ذلك أسعد يوم فى حياة محمد حيث تلقى الخبر من أمه مع زغرودة مجلجلة فقد امتلأت جوانحه نشوة وأحس بأن باب السعادة قد انفتح أمامه وتزاحمت فى قلبه الرغبات والعواطف والآمال حيث طفق يفكر فى قول الشيخ (سكن لائق واحتياجات المعيشة كما فى بيت أبيها) بيت أبيها مقام من الحجارة وفيه ما ليس موجودا لدى أهله ؟

هذا يحتاج منه إلى أن يبنى دارا من الحجارة بالقرب من الداموس بحيث لا يكون بعيدا عن أبويه وأن يشترى وابور كاز وأشياء أخرى للطبخ وربما فرشة مخططة كالتى رآها فى بيت الشيخ عبد الحميد وهذه جميعها أمرها سهل فالمرتب ستة جنيهات يساعده على شراء ما يحتاج إليه خلال مدة قصيرة بإذن الله وإن كانت والدته مريضة ووالده متشائم من رؤياه تلك فإنه يأمل أن يتم عقد القران وإتمام العرس فى أقرب وقت ممكن (وخير البر عاجله) هكذا خمن وقد صار الآن مسئولا عن إعداد بيت الزوجية وبعد فترة سيكون مسئولا عن إعالة أسرة ..

واستمرت جلسات الشاى كالعادة واللقاءات صارت أكثر حميمية بين سى عبد الله والحاج سعد من ناحية وشيخهم من الجانب الآخر ،

ولا يعكر صفو اللقاء أحيانا إلا وجود ذلك المخبر البليد المتطفل الذى لابد أن مهمته الوقيعة والأذى وتلك الأنباء التى صارت تتواتر عن إجراءات أجهزة الأمن وتلك الاعتقالات التى شملت بعض الناس فى المدن ، أولئك الناس الذين صوّرهم الإعلام الحكومى على أنهم خونة وعملاء لدولة أجنبية وغير ذلك من التهم والافتراءات الرسمية، وكما يقال (فإن الشىء إذا زاد عن حده انقلب ضده) وبذلك فإنه لم يعد هناك من يصدّق ما تقوله صحف وإذاعة الحكومة (لم يكن التليفزيون قد عُرف بعد) وما يصل الناس فى هذه المناطق هو أخبار ينشرها عملاء الحكومة ومرتزقتها وهم كثار ، لكن الشيخ يردد دائما القول (تبينوا) ويضيف (قل لى ولك عند الخالق العظيم أجر عظيم من نصدّق) وإن كان المطّلعون على دخائل الأمور والذين يقفون بالقرب من مواقع القرارات وقوى النفوذ يؤكدون أن جهات قد تدخلت ونصحت بالتخفيف من إجراءات وتشدد أجهزة الأمن ذلك أن أصحاب المصالح وخصوصا شركات البترول ينشدون الهدوء والاستقرار ولهذا (ربما) جاءت الأحكام مخففة على أولئك الذين تم اعتقالهم وكانت قد وجهت إليهم تهمة الخيانة وقبل أن يطال السيف رقاب الناس كذلك فإن تلك النصائح قد قدمت إلى مجلس الإعمار الذى ورث مسئوليات

النقطة الرابعة بحيث يقوم ببعض الخدمات التى سيحس بها الناس ويقدرونها تهدئة للنفوس ، وإذ انتهت مهمة النقطة الرابعة صار مجلس الإعمار يشارك فى مشاريع بناء المدارس والبيوت الشعبية وغذاء الأطفال فى المدارس كما أن الولايات المتحدة الأمريكية قد قدمت عبره كميات وافرة من القمح والأغذية الأخرى وكانت علامة اليدين المتشابكتين المطبوعة على الصناديق والجوالات تُرى فى مختلف الأماكن حتى إن المحتاجين كانوا يحيكون من جوالات القماش قمصانا وسراويل دون أن يزيلوا تلكم العلامات المطبوعة عليها، وقد هدأت الأمور نسبيا ذلك أن لقمة العيش منالها صعب وحدث أن الناس التهوا فى شواغل دنياهم الجديدة ولابد من التعويض على ما فات فقد مرت البلاد بأسوأ فتراتها منذ عقدين من الزمان وإلى هذا الوقت وعندما يضرب الفقر منطقة وتصاب البطون بالجوع يصعب تخيل ما يمكن أن يحدث كذلك فإن نسيان الآلام يحتاج الكثير من الوقت .

عـريـن مـن عـريـنـه لـيس مـنـى

فـإنـى لست مـنك ولست مـنـى - جـريـر

ومن هاب أسباب المنية يلقها   ولو رام أسباب السماء بسلم

زهير بن أبى سلمى

ألا لا تلومانى كفى اللوم ما بيا   فما لكما فى اللوم خير ولا ليا

ابن وقاس الحارثى

ها هنا فى الشرق يا سمراء ، حتى الريح تلجم

لا تلم عذراء تشكو من حبيب صار أبكم

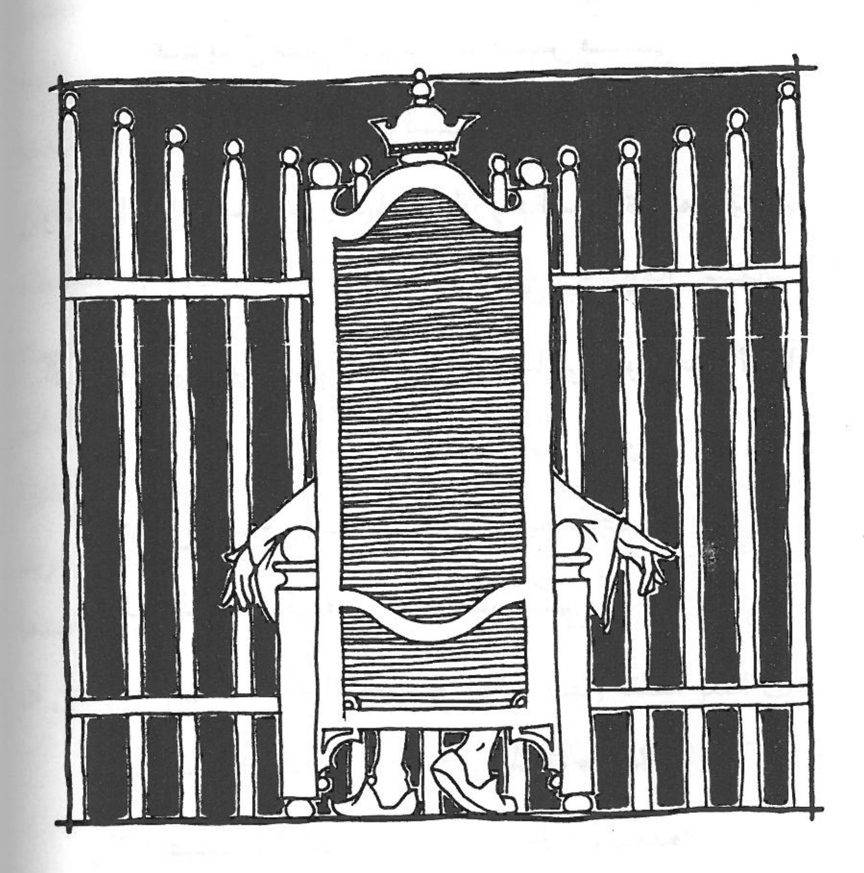
أيها الطين لماذا يولد الإنسان مرغم؟

ولماذا يكدح الدهر فقيرا ؟ ويلاقى الموت معدم؟

ولماذا يصمت الحرف ، ويبقى حوله الخوف يدمدم؟

أيها الطين، أجبنى ، فأنا قد صرت طينا أتألم !!

على الفزانى



الفصل العاشر

الفراق المؤلم

المتنفذون فى مواجهة الأسرة الحاكمة وأزمة الحكم ..

كان هناك صراع خفى متواصل يجرى بين المتنفذين أى الذين يشغلون مناصب كبيرة فى الدولة والقصر والأجهزة السرية التى تأتمر بأمرهم بين الأسرة السنوسية ، أى الحاكمة ، فقد كان السنوسيون يتمتعون بامتيازات مختلفة مادية ومعنوية وهم جميعا يعاملون كأمراء ، وبالتالى فهم يرون أنهم فوق كل أجهزة الدولة وأقرب إلى الملك بروابط الأسرة والمصاهرة ، أقرب من غيرهم وذلك بالضرورة (كما يعتقدون) حق مكتسب بسبب أدوار آبائهم وأجدادهم فى الدعوة السنوسية وفى حركة الجهاد وحتى مرحلة العمل من أجل الاستقلال ، وكانت الدعوة السنوسية التى قادها السنوسى الكبير السيد (محمد بن على السنوسى) قد بدأت فى برقة سنة ١٨٤٠م وبعد عودته مباشرة من الأراضى المقدسة وأداء فريضة الحج حيث كان قد اتصل بالوهابيين هناك واطلّع على كتيبات ابن تيمية ، ثم السنوسيون من بعده فى مرحلة حركة

الجهاد الوطنى الليبى الذى بدأ فى نوفمبر ١٩١١م إلى ديسمبر ١٩٣٣م ذلك الجهاد الذى يمثل فخرا لكل مواطن ليبى لأنه ملحة جهادية ربما لا مثيل لها فى العالم الثالث من حيث ظروفها الزمانية والجغرافية والإنسانية إذا ما قيست فى إطارها الزمانى ومناخها السياسى والاجتماعى ، وهى كما وصفها الشاعر الليبى الكبير السيد (أحمد الشارف) فى قصيدة معبّرة رائعة تقول :

رضينا بحتف النفوس رضينا
ولم نرض أن يعرف الضيم فينا
ولم نرض بالعيش إلا عزيزا
ولا نتقى الشر بل يتقينا
فما الحر إلا الذى نام حرا
ولم يرض بالعيش إلا أمينا
وما العز إلا لمن كان يفدى
ذماما ويفنى عليه الثمينا
وما الخزى والعار إلا لشخص
إلى وطن العز أضحى مهينا
ونحن فروع زكت من أصول
فنُحيى مآثرنا ما حيينا

لتاريخ عنصرنا فى الورى
حديث على صفحات السنينا
وفى جانب العز كأس المنايا
وجدنا بها لذة الشاربينا
إذا قامت الحرب كنا رجالا
إلى الحرب أرسخ من طور سينا
ترانا عليها نشاوى كأنا
شربنا بها خمرة الأندرينا

إلى آخر القصيدة وهى طويلة وللشاعر الكثير من القصائد التى تمجّد البطولات فى حربنا ضد الغزاة الطليان ، وكانت نظرة الأسرة السنوسية تلك أنها صاحبة الحول والطول أيضا فى مرحلة النضال السياسى بعدئذ داخل ليبيا وخارجها حتى نيل الاستقلال والاعتراف بليبيا كدولة مستقلة فى يناير ١٩٥١م وهكذا فهم يعتقدون أنهم أصحاب حق تاريخى فى القيادة الفكرية والجهادية ثم السياسية وهو اعتقاد من الناحية العملية غير صحيح لأن الجانب التنفيذى سواء حرب أم دبلوماسية وسياسية قام به آخرون ، وهؤلاء أغلبهم صاروا متنفذين ، الشىء الذى أراد أن ينكره عليهم أعضاء الأسرة السنوسية ، ولذلك حصل التنافس بشكل غير مباشر ثم الصراع وتدبير مختلف الوسائل

لأبعاد هذا أو ذاك ثم استخدام السلاح وهو ما وصل بالمواجهة إلى نهايتها ، هذه النهاية التى كانت فراقا بين الملك والأسرة السنوسية وذلك عندما أقدم كما ذكرنا أحد أفراد الأسرة على اغتيال خادم ومستشار الملك (عمر الشلحى) وذلك كان أول اغتيال سياسى فى البلاد ، بعده أمر الملك بإبعاد أفراد الأسرة السنوسية وحرمانهم من كل امتياز كانوا يتمتعون به ثم نفيهم إلى مناطق بعيدة داخل ليبيا، ولابد أن ذلك الإجراء كان مؤلما إذ إنه شمل حتى أهل زوجته الملكة فاطمة ، لكن يظهر أن ألمه كان أبلغ ربما لسببين، أولهما لأنه أول اغتيال سياسى فى بلد لم يعرف أهله هذا الأسلوب فى التعامل مع الخصوم ، وثانيهما لأن القتيل هو أقرب الناس إليه وقاتله من أسرة الملك نفسها ، ولقد جرت محاكمة القاتل وحكم عليه بالإعدام شنقا (كما قيل العين بالعين والسن بالسن) وقد نفذ الحكم فورا ودون إبطاء ، وعلى الرغم من أن فحوى التحقيقات لم تظهر أبدا ولا حيثيات مداولات المحكمة عرفت فقد كان مفهوما أن القتيل كان يمثل سدا منيعا بين الملك وأسرته وهذا ما انتشر بين الناس خصوصا بعد الإجراءات العنيفة التى اتخذها الملك ضد أهله ، وليس معروفا إذا ما كانت هناك خفايا أو جهات أجنبية أخرى وراء الحدث وتطوراته..

وعند هذا الحد خسر السنوسيون كل شىء وفاز المتنفذون بكل شىء ولم تبق مع الملك إلا زوجته فاطمة من الأسرة السنوسية وهى امرأة لا تتدخل فى شئون الدولة ولا هى ظهرت فى المناسبات حتى الاجتماعية

منها ، وقلنا إن أبرز المتنفذين كانوا ثلاثة أولهم ابن المستشار القتيل وثانيهم مدير الأمن وهو زوج أخت ابن المستشار ذاك وثالثهم وزير الداخلية ، وهؤلاء دفعوا الأمور إلى حدها الأقصى وجعلوا الملك يعتمد على قبيلة واحدة فى شغل الوظائف الهامة والحساسة ، فكان مدير الأمن العام ، وكان مدير المباحث الجنائية ، وكان رئيس الحرس الملكى وأغلب ضباطه ... إلخ ، من تلك القبيلة ، وكان هؤلاء ينظرون بعين واحدة وفى اتجاه واحد وصاروا كحالة البرامكة مع الرشيد فى بداية عهدهم ، وكل من اختلف أو من خالف ذلك الاتجاه يوصم بالشيوعية والناصرية والمروق سواء أكان ذلك متمثلا فى كتاب أم صحيفة أم حتى كلمة تنقل بواسطة مخبر يعشق الأذى ، وصار حال الناس ينطبق عليه القول الشائع (إذا قمت من ذئب عثرت بحية) حتى أن الصحيفة الوحيدة الخاصة التى كانت تصدر فى بنغازى [1] حوصرت بالمخبرين الذين يدققون فى كل حرف وكل كلمة وكانت وشاياهم وراء إيقافها بسبب وبغير سبب حتى أنه قيل ذات مرة إن وزير الداخلية تصفح تلك الجريدة ومر سريعا على أعمدة الأخبار فقال : إن الشيوعيين والناصريين العملاء يحتلّون وسائل الإعلام وهذا ما لا نسمح به فى عهد مولانا ، فأوقفت الصحيفة وعند هذا الحد صرخ شاعر الوطن رفيق المهدوى بقصيدة [2] يخاطب بها الملك قائلا :

(١) الجريدة أصدرها عمر الأشهب فى بنغازى عام ١٩٥١ م

(٢) أحمد رفيق المهدوى المولود سنة ١٨٩٨م والمتوفى سنة ١٩٦١م القصيدة من ديوان رفيق الجزء الأول ، القاهرة مطبعة الرسالة ١٩٥١م ص ٥١ - ٥٢

التاج يشكو لرب التاج ما لاقى
من الوزارة تعطيلا وإغلاقا

وزارة جاوزت ما لا يطاق فقد
جارت على الشعب إعناتا وإرهاقا

وكان منها نصيب التاج أن جعلت
جهاده فى سبيل الحق إزهاقا

لا ذنب للتاج إلا أن يقال سطا
مثل الخليل على الأصنام إصعاقا (١)

صحيفة جاهدت حق الجهاد ولم
تأل الحقيقة إظهارا وإحقاقا

نالت رواجا لدى الجمهور واكتسبت
من أكثر الناس أنصارا وعشاقا

كان الجزاء على إخلاص خدمتها
للعرش بالروح تمزيقا وإحراقا

---

(١) إشارة إلى فعل ابراهيم الخليل عليه السلام بالأصنام بحسب ما ورد فى قوله تعالى: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ (سورة الأنبياء : ٥٧)

و(صودرت) وهى تحت الطبع ما اقترفت
إثما ولا اكتسبت للسوء أخلاقا

وليس فى العدل قانون يقام على
حرية الرأى للأنفاس خنّاقا

إن الصحافة فى الدنيا وظيفتها
نقد صريح كضوء الشمس إشراقا

فليس من سبب يدعو الوزارة أن
تصادر التاج ، لكن عقلها ضاقا

إلا على تهمة أوهى وأوهن من
بيت العناكب إسنادا وإلصاقا

فلما سألنا عن الأسباب فى عجب
كان الجواب لنا ، صمتا وإطراقا

ولو أجابت لما كان الجواب سوى
عذر أشد من الظلم الذى حاقا

وما الذى فهم الإنسان إن نعقت
له الغرابين إلا قولها (قاقا)

التاح تاجك يا مولاى فأبق لها
حق الحياة - رعاك الله - خفاقا

والله لـولا حـيـاء مـنك يمنـعـنـى مـن
أن أخـــوض حـــديـــثـــا ربما عـــاقـــا
لـكـنت قـدمت شـكـوى الـتـاج فـى صحف
تسـتـنـفـد الجـهـد أقـلامـا وأوراقـا
ولـكـن كـتـمت سـهـام الـظـلم فـى كبدى
خــوف الملام وســال الــجــرح دفــاقًــا
فـلـيس يـنـقـذهـا مـن مأزق وقعت فـيـه
ســوى الملك المحبــوب إشــفــاقــا
أنت الملاذ الــذى تـأوى إلـيــه إذا
خاب الـرجـاء مـن جـمـيع الـنـاس اطلاقا
أبــقــاك ربك يــا مــولاى فــى رغــد
ودمت لــلــعـدل والإنـصـاف حـقّـاقـا

وهكذا ومن خلال تلك التطورات والأحداث والتناقض دخل النظام فى النفق المظلم لأنه وضع الثقة فى وسطاء السوء ومستشارين لا يصدقونه القول ولأن رفيق المهدوى عضو فى مجلس الشيوخ وهو شخصية بارزة لها وزنها فى المجتمع لم يستطع مدير المباحث الأمر بالتحقيق معه ربما كما يقال (لحم السبع يكسر أسنان الثعلب) لكن رئيس

تحرير جريدة التاج استدعى إلى إدارة المباحث الجنائية لاستجوابه فهو كان سببا فى عدة مشاكل أولاها إثارة الرأى العام بما تنشره الجريدة وثانيتها تضليل المسئولين وثالثتها التشهير بالإدارة . جاء أحد المخبرين وكان يرتدى بنطلونا شكله أزرق وقميصًا نايلون أبيض تظهر البطاقة الشخصية التى تدل على أنه مخبر من تحت القماش الشفاف فى جيب القميص على الجانب الأيسر من الصدر وبجانبها قلم حبر جاف وفى قدميه صندل قديم أبيض اللون إلا أنه صار أشهب من كثرة الاستعمال ، وعلى رأسه قبّعة حمراء حوافها يعلوها خط أسود من أثر العرق ، عينه اليسرى حولاء عندما ينظر إلى الأمام يغشاها البياض وهو يستخدم دراجة هوائية فى تنقلاته ، ومهمته المعتادة يوميا الجلوس على كرسى حجرى يقع فى وسط حديقة صغيرة قبالة المركز الثقافى المصرى فى بنغازى الواقع بشارع الاستقلال فى الصباح الباكر وقبل أن تفتح أبواب المركز يكون قد أسند دراجته القديمة تلك على جذع شجرة فى الجانب الغربى من الحديقة ويأخذ مكانه المعتاد بحيث يسجل اسم الداخل والخارج من المركز وإليه من الليبيين ، لكنه هذه المرة كلف بإبلاغ رئيس تحرير تلك الجريدة بضرورة المثول أمام ضابط التحقيق فى تمام الساعة الثامنة والنصف من صباح اليوم التالى ومن حبه للأذى والوقيعة بالناس

كان يتمنى لو أن رئيسه قد طلب منه إحضار رئيس التحرير ذاك وليس إبلاغه فقط ، لكن لا بأس فحتى فى هذه الحالة يمكنه أن يمارس ساديته على هذا المثقف وهو يكره المثقفين ولذلك يقول (المتثقفين) الذين يرفعون أنوفهم فى السماء ، أسرع بتلك الدراجة الهوائية متجها إلى مكاتب الجريدة وهو منتفخ الأوداج ، وما يكاد يصل حتى يشبك عجلة الدراجة الأمامية مع مقودها بسلسلة وقفل خوفًا أن تسرق أو على الأقل يعبث بها ، سأل موظف الاستقبال فى مدخل البناية بينما كان يضع يديه الاثنتين فى جيبى السروال متكلما بأنفة ، قال : أين مكتب رئيس التحرير ؟ وقد قدم نفسه على أنه أحد أعضاء إدارة المباحث الجنائية وأن رئيس التحرير مطلوب القبض عليه (لم يقل مطلوب استدعاؤه) يرد الموظف دون أن يهتم بما قاله هذا المخبر ، لأن الناس عادة ما تكره المخبرين عموما : مكتب رئيس التحرير بالدور الأول المكتب الثالث على اليمين ، ثم يضيف : ولكنه خارج المبنى الآن ، يرفع المخبر رأسه ليحدّق فى السقف متصورا أنه ربما سمع بالاستدعاء فهرب ، قال : سوف أنتظره لابد من القبض عليه ، يصعد متمهلا درجات الطابق الأول وكان صندله يحدث صوتا كما لو كان يدّق بمضرب من حديد بسبب قطعتى الحديد اللتين ثبتهما أسفل قدمى الصندل بحيث لا يتآكل بسرعة ، وما كاد

يصل نهاية درجات السلم حتى كان الخبر قد انتشر بين الموظفين الذين يعملون بالجريدة وإن كانوا قد اعتادوا على زيارات رجال المباحث عندما تتقرر مصادرة أى عدد أو تعطيل الجريدة ، وكذلك استدعاء رئيس التحرير بين وقت وآخر لكن لم يحدث أن سمعوا بقرار اعتقال كما يردد هذا المخبر الذى أصر على أن يبقى واقفا أمام مكتب رئيس تحرير الجريدة وهو يتفحص وجوه المارين بين هذا المكتب وذاك ..

يصل رئيس التحرير وهو رجل كبير الجثة ، بطنه بارز أمامه ، بشرته سمراء ، رأسه أصلع ، مظهره يوحى بالثقة وهو يرتدى قميصًا ذا أكمام قصيرة وبنطلونًا واسعًا مخبخبًا ويضع نظارة طبية على عينيه من النوع السميك ، عارى الرأس بيده اليمنى عصاة يتوكأ عليها أحيانا بسبب ألم بركبته اليمنى إثر عملية جراحية كانت قد أجريت فيها ، وفى يده اليسرى حقيبة جلدية لونها بنى منتفخة ربما محشوة بالأوراق ، وقد تبلغ فورا بأن هناك مخبرا يقول إنه مكلف بالقبض عليه لكنه وقد اعتاد على مثل ذلك الإجراء فهو يقابل كل مخبر بابتسامة عريضة ، ورئيس التحرير هذا من المثقفين الليبيين الذين حلموا بعهد وطنى تسود فيه الحرية وحقوق الإنسان ويسعد كل ليبى بظلال العدل والاستقرار ، ولقد ظل ينادى بتلك المبادئ والمثل وهو مازال يعتقد بإمكانية ذلك رغم أن فئة من الناس

كهذه الأجهزة تحاول قتل هذا الحلم بإجراءاتها الغاشمة ، وهو نفسه على علاقة بالقصر الملكى ومن المؤيدين للنظام الملكى بشدة .

عندما استقرت رجلاه على آخر درجة من السلم ومال إلى اليمين فى اتجاه مكتبه شاهد ذلك الأحول يقف أمام باب المكتب ورغم أنه اشمأز من مظهره ووقفته تلك لأنه كان مستندا بشكل مائل على الحائط واضعا رجله اليسرى على الحائط خلف ظهره وعندما حركها تركت بقعة سوداء على الحائط النظيف إلا أن رئيس التحرير مع ذلك عندما توقف عند باب المكتب قال : السلام عليكم ، تفضل ، فرد المخبر كأنما قد فوجئ بالسلام قائلا بشكل متلعثم : وعليكم السلام يا أستاذ ، ودخل وراءه وقد جال بنظره فى المكتب الملىء بالكتب والصحف الموضوعة على الطاولة وعلى الرفوف وكان المكتب مكيّفا رطبا حيث كان جهاز التكييف شغالا ، تغيرت لهجته فقال : يا أستاذ ، وتوقف قليلا ثم أضاف : إن المقدم فلان يستدعيك إلى مكتبه بإدارة المباحث غدًا الساعة الثامنة والنصف بالتمام ، نظر إليه رئيس التحرير شزرا وسأله : ألم تقل إنك أمرت بالقبض علىّ ؟

انتفض كمن لدغه عقرب وقال : لا لا ، الأمر ليس كذلك ثم خرج مسرعا دون أن ينتظر إجابة وعاد إلى مكانه أمام المركز الثقافى المصرى يقف ويجلس كصنم هناك ..

ولأن عدد الجريدة كان موعد صدوره اليوم التالى أى يوم استدعاء رئيس التحرير الذى كان عليه أن يسهر الليل لمراجعة العدد قبل صدوره وكتابة الافتتاحية ، ومن عادة المسئولين فى هذه الأجهزة أن يصادروا كل أعداد الجريدة بسبب أى مقال يشتمّ منه نقد ولو تلميحا وتتم المصادرة بعد الطبع وقبل توزيع أى نسخة وهم بذلك يمنعون توزيع الجريدة ويتسببون فى خسارة المحرر الذى يكون قد دفع فاتورة الطبع أى أن العقاب عقابان (مثنى) أو إذا ما تم التحقيق يكون (ثلاث) وفى مواجهة المصادرة والمنع والتحقيق عليه أن يتوقف نهائيا (وكفى الله المؤمنين القتال) لأن هؤلاء يعكسون المثل القائل : يتقدمكم العلم ولا تتقدموه ، فيتقدمون العلم ولا يتقدمهم وبذلك يكون سيف المنية على الرقاب ..

وإدارة المباحث تقع على جانب كورنيش البحر فى الجانب الشمالى الغربى من المدينة فى مبنى مهيب مكوّن من خمسة أدوار وطابق تحت الأرض هو عبارة عن دهليز يوضع فيه أولئك المشبوهون الذين لم تنته التحقيقات معهم ، وللمبنى مدخلان أحدهما شرقى واسع بابه من الحديد يفتح لدخول السيارات الخاصة بالمسئولين إلى الباحة أمام المبنى ، والآخر غربى صغير بابه من الخشب الأحمر يدخل منه

الضيوف والمطلوبون وبعض الأفراد ، فى كل دور عدة أجنحة أمامها حراس يرتدون الملابس المدنية ويحملون مسدسات تحت تلك الملابس، والمبنى من الداخل نظيف ومنظم .

يصل رئيس التحرير المطلوب وكان يقود عربة صغيرة وقديمة طلب منه أن يوقفها بعيدا عن المبنى ولا أحد يعرف لماذا بعيدا عن المبنى (فالسيارات المفخخة لم تكن قد عرفت بعد) المهم أن يوقفها بعيدا ، يسأل عن الضابط فلان فيقاد إلى صالة قريبة من المكتب بالدور الثانى ويطلب منه الانتظار ، جلس على كرسى وثير وفجأة جاء شخص ليجلس أمامه دون أن يتكلم معه أو حتى يحييه وصار يحدّق فى وجهه ولعل الفكرة من ذلك التصرف كما فهم بعدئذ أن انتظار المطلوب أو المتهم لابد أن يوتّر أعصابه وبالتالى يسهل دفعه إلى الاعتراف بجريمته ، أراد أن يدخن سيجارة ولكن الرجل الذى يجلس قبالته ودون أن ينبس ببنت شفة أشار إلى لوحة صغيرة معلّقة على الحائط مكتوب عليها (ممنوع التدخين) أعاد السيجارة إلى العلبة ولم يكن ثمة ما يفعله غير الانتظار ، وبعد بعض الوقت أتى رجل آخر بلباس يشبه لباس خدم المقاهى أو المطابخ وطلب منه أن يتبعه ووقف قبل أن يمشى متفحصا وجه ذلك الجالس الذى تبعه عندما خرج من الصالة إلى مكتب التحقيق ، كان المكتب واسعا وأثاثه

جيدا تدور فى وسط سقفه مروحة كهربائية كبيرة تشبه تلك التى يستخدمها الجيش البريطانى فى المعسكرات وكان هناك ملف واحد على طاولة المحقق الذى رحب به دون أن يمد إليه يده ثم دعاه لأن يجلس وسأله ما إذا كان يرغب فى تناول قهوة أو شاى ، فقال : لا بأس من قهوة بعد هذا الانتظار الطويل الممل ، اعتذر الضابط المحقق بأدب قائلا إنه كان فى اجتماع، ومع القهوة قدم سيجارة تناولها رئيس التحرير وقد رسم ابتسامة على وجهه كما لو أنه أراد أن يقول (ممنوع عليهم وليس علينا لأنه كان قد منع من التدخين فى الصالة) بعد الرشفة الأولى من فنجان القهوة سأل : خيرا ، ما سبب الاستدعاء بل ربما القبض كما قال المخبر الذى جاء أمس إلى مقر الجريدة؟ اعتذر الضابط مرة أخرى وبلا تحقيق سلم رئيس تحرير الجريدة قرارا بإيقاف جريدته لمدة شهر والسبب مقال انتقد فيه رئيس التحرير حقوق الامتياز التى منحت لواحدة من شركات النفط الأمريكية !

خرج الرجل من لدن هذا الضابط وذلك المبنى ولسان حاله يقول إن الحكم الذى يكون هذا حاله لابد أن تذروه الرياح كنخالة ولا رجاء منه ..

واكتشاف النفط بكميات تجارية وتكاثر الشركات الأمريكية والأوروبية المنقبّة والمنتجة والتى تبحث عن فرص جديدة وعقود وبالتالى

توفر فرص العمل لدى تلك الشركات جعل الليبيين يتخلون عن أعمالهم التقليدية كالزراعة ورعى وتربية الأغنام ، وحتى الصناعات اليدوية الصغيرة ويتجهون للعمل مع الشركات فى مختلف المهن : موظفين وخفراء وعمالاً وسائقى سيارات وآليات وطباخين ... إلخ ، ولقد نشأت تجمعات سكانية هائلة قرب معسكرات الشركات تلك وعلى أطراف المدن وهى كلها من التنك ذلك أن هؤلاء الناس قد تركوا بيت الشعر والصحراء الواسعة ومعيشتهم المتواضعة والبسيطة ليبحثوا عن عيش اعتقدوا انه أفضل ذلك أن الذى كان يزرع الأرض ويربى الأغنام كان لا يحصل خلال سنة كاملة على ما يزيد على مرتب شهر فى شركة بترول ، وبعد أن كان الليبيون يصدرون الحبوب والمواشى وغيرها صاروا يستوردون كل شىء، كما نمت حركة التجارة والمقاولات والتعهدات ، وكما نشأت أسواق شعبية فى فترة ما قبل الاستقلال وشركات النفط ، تلك الأسواق التى كانت تعرض فيها الملابس القديمة من جنود الجيش كالبطانيات والبالطوات والبنطلونات والتبغ المفروك من أعقاب السيجاير والإطارات القديمة التى يستعملها بعض الناس عجلات لعربات تجرها الخيول والتى كانت تمثل وسيلة النقل الوحيدة بين المناطق إلخ نشأت أسواق شعبية أخرى وإن اختلفت البضائع فيها من الملابس إلى الأحذية

والأجهزة الكهربائية والأخشاب وألواح الصفيح كما اختلف السوق نفسه فبينما كان مجرد ساحات لا مبانى فيها وهى متنقلة فإن الجديدة هذه صارت إما ساحات محاطة بأسوار أو صفوف من الدكاكين بعضها مبنى بالحجارة والبعض الآخر مقام من علب الحديد كالبراميل وغيرها ، ولأن البلاد صارت تستورد كل شىء فقد جاء حتى الباعة من كل مكان ، وكان أشهر تلك الأسواق يسمى (سوق الرويسات) فى بنغازى وصار فى هذا السوق باعة ينادون بأصوات عالية معلنين عن بضائعهم ومثل تلك النداءات هى جديدة على الليبيين فى البيع والشراء لأنهم كانوا يعرضون البضاعة ويبيعون بدون مفاصلة على الإطلاق ولا يرفعون الأسعار أبدا ، وما حدث يدل على أن البلاد أصبحت منطقة استقطاب بعد أن ظهر فيها البترول ، والليبيون كانوا يتركون محالهم مفتوحة عند سماع الأذان حيث يؤدون الصلاة ويعودون إلى تجارتهم ، وكما هو معروف فإنه كلما زاد المال زاد الطلب على كل شىء ، وكان الجنيه الليبى مرتبطا بمنطقة الاسترلينى كذلك كانت المصارف إيطالية وإنجليزية ووكلاء التجارة والمعاملات الأخرى أجانب أيضا ، يهودًا وطليانًا ومالطيين وعربًا من لبنان وسوريا وغير هؤلاء ، وقد تم إنشاء مصرف مركزى وطنى وإن كان مديره أجنبيا وصار التعامل بالتقسيط أو ما عرف (بالكمبيالات)

وحدث التفاوت المعيشى والاجتماعى بشكل مثير وسريع .. ولقد وجدت إذاعة صوت العرب من القاهرة وهى الإذاعة الأكثر تأثيرا على الرأى العام فى ليبيا ، وجدت ضالتها فيما نشر وأشيع من إجحاف فى حق الليبيين من طرف شركات النفط الأوروبية والأمريكية كما حدث فى اتفاقيات ومعاهدات القواعد والقوات الأجنبية مما شجع بعض العناصر الوطنية فى البلاد على القيام بأعمال سرية منها تفجيرات فى معسكرات الإنجليز فى بنغازى ومهاجمة بعض المواقع العسكرية مثلما حدث فى ولاية فزان عندما هاجم الليبيون قاعدة عسكرية فرنسية وهم لا يملكون إلا سيوفا ورغم أن المهاجمين قد قتلوا جميعا إلا أن الحدث قد مثل سابقة فى منطقة كانت تعتبر هادئة ، وحدثت مظاهرات احتجاج فى الزاوية قرب طرابلس ، كما أشيع أن هناك تنظيما لبعض ضباط الجيش ربما يخطط للانقلاب على الحكم الدستورى وتعتقد بعض الجهات أن الذى سرب تلك الأخبار كانت مصادر أمريكية إذ كان هناك اعتقاد سائد بأن كبار الضباط فى الجيش كانوا موالين للإنجليز فى حين أن الأمريكيين صاروا ضد النفوذ الإنجليزى والفرنسى منذ زمن ومن المؤكد أنهم ليسوا على استعداد أن يروا أن هناك من ينافسهم فى بلد كليبيا مهم عسكريا واقتصاديا وحتى سياسيا لموقعه الاستراتيجى وثرواته الطائلة كما أنه بلد بكر بالنسبة للغرب ..

وكان موعد انتخابات مجلس النواب قد اقترب ، وهكذا أدت كل هذه التطورات إلى التفكير فى إحداث بعض التغييرات فى مناصب الولاة والقيادات العسكرية والمدنية وربما تشكيل وزارة جديدة استعدادا للمرحلة القادمة ، أو قل التطورات القادمة ، وكان مشروع إقامة مدينة فى البيضاء لتكون مبدئيا المقر الإدارى الصيفى للحكومة الاتحادية ومجلس النواب إلى أن تتهيأ الأمور والظروف لإعلانها كعاصمة للبلاد وكان الملك ميالا لتلك الفكرة ربما لأن البيضاء كانت مقرا لأول زاوية سنوسية أقامها جده السيد محمد بن على السنوسى ، وربما لاقتناعه بأن قبائل تلك المنطقة أكثر حماسا وتأييدا لحكمه وربما لأشياء أخرى خصوصا أن أولئك المتنفذين كانوا قد أقنعوه بأن السنوسية السياسية تحتاج إلى السنوسية الدينية ولهذا بدأ العمل فى بناء الأضرحة لموتى السنوسيين ، وطلب الملك بعض الشخصيات للاجتماع بهم ، منهم أولا زعماء القبائل فى المنطقة الشرقية، وهؤلاء كانوا دائما يقولون إنهم وقبائلهم على استعداد للدفاع عن النظام الملكى حتى أن زعيم واحدة من تلك القبائل ظل يقول إن لديه سبعين ألف مسلح جاهزين للدفاع عن الملك ، وعلى الرغم من مبالغات هؤلاء الناس إلا أنهم فعلا كانوا مؤمنين بالملك وسلطته وقبل ذلك بالسلطة الدينية السنوسية وهم يعتقدون بجدية فى صلاح تلك

الدعوة حتى أنهم لا يقسمون إلا باسم الملك فترى الواحد إذا أراد أن يكون صادقا يقول (وحق سيدى إدريس) وكان أهم تلك الاجتماعات أو المشاورات الاجتماع الذى ضم مستشاره الخاص والمدير العام للأمن العام ووزير الداخلية ورئيس الديوان الملكى وقد وصلوا تباعا عندما أرادهم وكانوا جميعا يضعون قبعات حمراء على رؤوسهم إذ جرت العادة أن كل من يقابل الملك يضع على رأسه قبعة حمراء ربما احتراما للملك أو تقليدا له وكان كل منهم عند السلام على الملك ينحنى على يده ليقبلها لكنه سرعان ما يسحبها قبل أن تمسها الشفاه وتلك عادة قديمة اتبعها كل السنوسيين ، وفى مثل هذا الاجتماع يسود الصمت إلى أن يطلب الملك من أحد الجلوس التحدث فى الموضوع الذى يريد مناقشته ، وكانت جلستهم تلك بعد المغرب حيث تناولوا وجبة العشاء فى معية الملك ثم جلسوا فى شرفة القصر المطلة على ميناء بحر طبرق الذى تنعكس على مياهه الزرقاء أضواء الشاطئ بينما تظهر متماثلة أضواء البواخر الراسية بسبب حركة مياه البحر ، تحدث الملك بصوت خافت كعادته ثم طلب من وزير الإعلام الحضور وهذا كان بطرابلس على أن يمثل أمام الملك بعد انتهاء مجلس المستشارين وهكذا حدث ، وهذا عندما مثل أمام الملك بدأ فورا بمهاجمة مصر وإعلامها ورئيسها عبد الناصر الذى

يتدخل فى الشئون الداخلية للدول العربية وطلب الإذن بالرد على الهجوم بأشد منه لكن الملك لم يوافق ، والحقيقة أنه كان دائما لا يوافق على مهاجمة أو الإساءة إلى مصركيفما كانت الأمور بل إنه حتى لا يحب التعدى ولو إعلاميا على الدول الأخرى .

فى ذلك الاجتماع تقرر ، أولا أن يستمر العمل فى بناء مدينة البيضاء وبوتيرة أسرع وأن يجهز مقر الحكومة ومبنى البرلمان وبأسرع وقت ممكن ومهما بلغت الاحتجاجات ، وثانيا إعادة تشكيل الحكومة وكان وزير الداخلية قد اقترح اسم رئيس الحكومة الجديد لكن المجتمعين استبعدوا الاسم فى هذه المرحلة لأنه كان من منطقة فى غرب ليبيا وربما لا يكون مقبولا إنجليزيا أو أمريكيا وإرضاء هذين البلدين مهم تحقيقا لمصالح ليبيا ، وهذه ربما كانت (كلمة حق أريد بها باطل) وثالثا حل مجلس النواب الذى أوقف الدنيا ولم يقعدها (على حد تعبير مدير الأمن العام) ورابعا وهذا هو الأهم إخراج جميع الضباط الذين حامت حولهم الشبهات أو حتى الإشاعات من الجيش، وقد حدث خلاف حول قائد الجيش بسبب وضع قبيلته المؤثرة فى البلاد وبعض رجالاتها الذين كان لهم قصب السبق فى الجهـاد الوطنى الليبى وعلاقة أحد زعماء تلك القبيلة بالملك وهو فعلا من كانوا بارزين فى الجهاد ، وكان الملك تقديرا له قد عينه رئيسا لمجلس

الشيوخ ولدوره ذاك وكبر سنه علما بأن النص القانونى فيما يتعلق بأعضاء هذا المجلس يشترط أن يكون العضو قد بلغ سن الأربعين سنة ميلادية ، وصارالاقتراح بأن يعين قائد الجيش وزيرا للدفاع فى التشكيل المقبل ..

صدر المرسوم الملكى بحل مجلس النواب وتحددت الفترة التمهيدية لإجراء الانتخابات واختيار أعضاء المجلس الجدد ، وكلف رئيس الوزراء بتشكيل الوزارة وقبلئذ كان السفير الأمريكى وكذا البريطانى قد قابلا الملك بطبرق وقيل إنها زيارات للتحية كذلك زار القصر الملكى العديد من الشخصيات الوطنية البارزة قيل إن بعضها لتقديم الولاء والبعض الأخر للتشاور والسؤال عن صحة الملك الذى لوحظ أنه كان قد احتجب لبعض الوقت وكان يروق له أن يفعل ذلك، والحقيقة أن صحته لم تكن على ما يرام فهو يعانى من بعض الأمراض وإن كان لا يحب التطبب بالأدوية الكيميائية ولا يدخن أو يتناول المنشطات كالشاى أو القهوة ، وللناس معتقدات وأذواق وطرائق عيش حتى لو كانوا ملوكا ..

كان رئيس الوزراء الذى وقع عليه الاختيار وكلف بتشكيل أول حكومة بعد تلك الاضطرابات ينتمى إلى واحدة من قبائل الجبل الأخضر ، تعليمه متواضع جدا قوى البنية جسمه يشبه المصارع وهو محسوب على الأغنياء لأنه كان يهتم بالحرث والحصاد وتربية الحيوانات ،

وقد ظهرت فى تلك الفترة طبقة عرفت باسم (أغنياء الحرب) أى الذين تكونت أموالهم من تجارة خردوات الحرب العالمية الثانية ثم دخلوا فى أعمال المقاولات وأعمال النقل والتعهدات عندما بدأت شركات النفط أعمالها فى البلاد ، وكما يقول المثل (القرش ايجيب قرش) ..

تشكلت الحكومة ولم يحتفظ بمناصبهم من السابقين إلا ثلاثة وزراء ، وهم وزير الداخلية ووزير النفط ووزير الخارجية ، أما البقية فأغلبهم من الوجوه الجديدة ، وعقدت هذه الحكومة أول اجتماع لها بمدينة البيضاء وبذلك تكون قد دشنت افتتاح تلك المدينة كمقر صيفى للحكومة والبرلمان ، ومع انتقال أجهزة الحكومة برزت الاحتجاجات والتذمر برغم توفر مساكن لائقة لأغلب الموظفين الاتحاديين فى شكل فيلات مؤثثة بالمجّان ، وعندما تطورت الاحتجاجات رأت الحكومة أنها يمكن أن تُسْكِتَ الناس وتقضى على التذمر بالمال فأقرّت زيادة فى مرتبات موظفيها عرفت باسم علاوة البيضاء ، ومع ذلك فإن التذمر والنقد قد استمرا ، والحقيقة أن المدينة جميلة وهى محاطة بأشجار الجبل الأخضر ويسود أجواءها طقس منعش رطيب لكن الليبيين عرفوا منذ القدم ودائما أن عاصمة بلادهم هى مدينة طرابلس التى يجتمع فيها الناس من الغرب والشرق والجنوب على مدى التاريخ وهم ربما لا يريدون

لتاريخهم أن يخالف مقولة (إن الحاضر يعانق الماضى بالذكريات ويطوق الغد بالحنين) ماضيهم المجيد وغدهم الذى يأملون أن يكون سعيدا ناصعا يجعلهم جزءا من العالم المتمدين المتحضر المتقدم ، ولكن الانتقال إلى البيضاء كان رأيا أو رغبة ملكية وهذا يصدق عليه المثل القائل (نكت الملوك تهز السامعين بالضحك ورأى السلطان هو سلطان الآراء) واستتبعت تلك الحكومة أعمالها بالإعلان عن الإجراءات التى يجب أن تتبع فى شأن الانتخابات البرلمانية وقد استهدفت أن تعلن ذلك قبل الموعد بوقت طويل ربما لأنها تريد انشغال وإشغال الناس وتحويل انتباههم عن أهم ما كان يشغلهم وهو وجود القواعد والقوات الأجنبية والتى كانوا بسببها قد أحدثوا اضطرابات ومظاهرات ، كذلك عن دعايات مصر وإذاعاتها ، وقد أقدمت الحكومة الجديدة على أول إجراء تأديبى شمل عددا من ضباط الجيش الذين أحيلوا بمرسوم ملكى إما إلى أعمال مدنية إدارية أو إلى التقاعد ..

بهذه الإجراءات أو الترتيبات تجاوز الحكم أول أزمة معقدة دفعت بكل القوى إلى السطح والمواجهة وربما كان يمكن أن تؤدى إلى انقلاب عسكرى أو أن تدخل البلاد فى مأزق قد يكون حربا أهلية ، والواقع أن البلاد كانت ربما مهيأة للحرب الأهلية نظرا للانقسام الواضح بين القوى

والولايات والقبائل ولعل الذى منع حدوثها هو تلك الاستثمارات الكبيرة فى مجالات التنقيب وإخراج النفط وهى استثمارات غربية واعدة ، وهذا ما يؤكد قوة وتوسع النفوذ الأمريكى حيث إن الشركات الأمريكية كانت أول من استخرج النفط بكميات تجارية إضافة إلى الشركات الإنجليزية والإيطالية التى تنقب فى مناطق واسعة أخرى ..

ولأن ابتداء حملة الانتخابات البرلمانية قد اقترب فإن الشيخ عبد الحميد لمَّح أثناء جلسة الشاى فى الكندورة وفى حديث مع الحاج سعد أن محمد بن عبدالله لابد أن يكون قد استعد لإتمام الفرح فابتسم الحاج سعد كأنه يفهم ما يهدف إليه الشيخ وقال : أرى أنه قد ابتنى لنفسه دارا جميلة ولابد لنا أن نستوضح الأمر من سى عبدالله، وهكذا حدث فما هى إلا بضع دقائق حتى وصل سى عبدالله ليأخذ مكانه مع جماعة الشاى وبعد أن سلم اعتذر لأنه قد تأخر بعض الوقت وهذه أول مرة يحدث فيها هذا التأخير حيث إنه كان دائما يأتى قبل مجىء الشيخ عبد الحميد .

يرد الشيخ والحاج فى وقت واحد : لعل السبب خير ؟

يقول عبدالله : لا ، لا شىء جديد فالسبب هو شغلنا الشاغل فى كل وقت ، إنه مرض ربة البيت (مازالوا فى مجتمع القرية لا يذكرون

أسماء زوجاتهم عندما يتحدثون عنهن) يتدخل الحاج سعد بسرعة فيقول : الأعمار بيد الله ولكن أليس من الأنسب أن نسرع بإتمام زواج محمد من فاطمة كى لا قدر الله يحدث ما يؤخر ذلك خصوصا أن الشيخ عبد الحميد سوف ينشغل فى الإعداد لشىء آخر (لم يقل ينشغل فى الانتخابات رغم أنه عرف بنيّة الشيخ) .

أجاب عبدالله : نعم خير البر عاجله وهذا ما نتمناه نحن ولا شىء يؤخر الزواج لأن محمدًا أعد كل شىء .

توسّعت حدقات عينى الشيخ وقد حرك حبات مسبحته وقال: على بركة الله نحن أيضا على استعداد .

فى هذا الوقت يصل الفقى مصباح وهو يلهث كعادته وكرشه يهتز عندما يقف وهو يلفظ كلمات متقطعة : السلام عليكم .

يردون : وعلى الفقى مصباح السلام والرحمة من عند الله وإن كان قد جاء متأخرا ، وقبل أن يجلس وهو مازال يلهث يمد يده بصرّة ويقول : هذا جزاء التأخير ، يبتسم فتظهر أسنان سفلى صدئة وتهتز أسنان الفك الأعلى الاصطناعية (طقم) يضحك الشيخ ويقول : قطعة من فم سبع ، يضحكون معا ، فيجلس الفقى ويقول : هه لا بأس فالسبع سيد الغابة ولابد أن يكون نصيبه من الشاى والكاكوية أكبر ، آه لأننى السبع ،

يضحك ، وما يكاد يجلس حتى يسأل وربما بحدسه توقع أنهم تحدّثوا فى أمر الزواج ، فقال : متى لحمة العرس يا سادة ؟

يرد سى عبدالله : يا فقى مصباح تريد مقابلاً سريع لحبات هالكاكوية ؟

يتوقف النقاش بعدما تنحنح الشيخ عبد الحميد واستعد للحديث ، وكان حديثه دائما وكالعادة عن الإسلام وإسهامات هذا الدين الحنيف ، وهنا وصل ذلك المخبر فقال عبدالله : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

أما الشيخ فقال : له تفضل بالجلوس يا سى .... لم يذكر اسمه .

نظر إليه الحاج سعد نظرة ازدراء وهو يجلس القرفصاء لكن هذا لا يأبه كأنما لا شىء يحدث ، المهم أن يكون موجودا ويتنصت ثم ينقل الأخبار ، قال فلان وقال علاّن بل ويصطنع من عنده ما ينسبه لهذا أو ذاك وعلى المسئولين أن يقرروا بعد ذلك ..

يبدأ الشيخ فيقول :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ .

صدق الله العظيم

ثم يقوم بتفسير معانى هذه الآيات ، يقول :

قل أعوذ برب الفلق - أعوذ بالخالق الكريم فالق الإصباح .

من شر ما خلق - أى من كل مخلوقاته الحيوان المكلف وغير المكلف والجماد وغير ذلك .

ومن شر غاسق إذا وقب - أى الليل إذا أظلم والقمر إذا غاب .

ومن شر النفاثات - أى السواحر تنفث .

ومن شر حاسد إذا حسد - ذلك الذى يظهر حسده ويعمل به .

يقول الحاج سعد وسى عبدالله فى وقت واحد : الله أكبر زادك الله علما يا شيخنا الكريم ، وخوفا من أن يظهر كحاسد قال الفقى مصباح بصوت عال : زادك الله علما على علمك أيها الشيخ الكريم.

أما ذلك المخبر وكان فى هذه الأثناء يضع أصبعه فى منخره وربما كان يفكر فى كيف يخبر بما حدث اليوم فهو لابد أنه يعتقد أنه المقصود بذلك التفسير فى حين أن بقية الجلوس كانوا ينصتون بانتباه شديد ، وبعد تناول الطاسة الثالثة من الشاى (وهنا يتناولون ثلاثة أدوار من الشاى فى طاسة صغيرة ، هذا فى المنطقة الغربية من ليبيا ، بينما يتناولون فى شرق ليبيا طاستين فقط) وكان الفقى مصباح يلوك حبات الكاكوية بين هذا الجانب من فمه والآخر بسبب ما تخلل أضراسه .

نهض الشيخ لينصرف وما كاد يخطو عدة خطوات حتى لحق به الحاج سعد وسى عبدالله بينما بقى الفقى مصباح يلاحقهما بنظراته وهو يزدرد ما فى فِيه بصعوبة وكأن حلقه قد جف ، ورغب الشيخ أن يؤجل الحديث إلى الجلسة القادمة فوافقه الحاج سعد وسى عبدالله ثم تبادلوا التحية وانصرف كل منهم إلى سكنه ، وكان من العادة أن يأخذ سى عبدالله أدوات الشاى معه كلما انتهت الجلسة إلا أنه هذه المرة انصرف دون أن يأخذها فكان على الفقى مصباح أن يقوم بذلك لأنه كان آخر المنصرفين ومن هنا فقد صار لزامًا عليه أن يكون أول الحاضرين إلى جلسة الغد وهو غالبا ما يتأخر ، أما كانون النار فمن المعتاد أن يبقى فى نفس المكان لأنه عبارة عن حفرة فى الأرض بها وعلى جوانبها حجارة ، وبعد أن عاد الشيخ وسى عبدالله كل منهما إلى سكنه وكان شاغلهما الإعداد لعقد القران وإتمام الفرح ، تحدث عبدالله إلى زوجته وطلب منها أن تبلغ ابنه محمدًا بما تحدث فيه مع الشيخ وقال لها إنه بإذن الله سوف يحدد موعد الزواج غدا مع الشيخ عبدالحميد ، وعليها أن تتأكد من ابنها وتسأله فيما إذا كان قد جهز كل شىء ، وجدير بالذكر أن الأبناء لا يتحدثون مع الآباء فى مثل هذه الحالة ، أما الشيخ فقد حادث ابنته وزوجته خلال تلك الليلة واتفق معهما على موعدى عقد القران والزفاف ..

وإذ كان اليوم التالى يوم جمعة فإن الشيخ سوف لن يحضر إلى الكندورة كالعادة بعد العشاء مباشرة لأنه خلال يوم الجمعة يجلس ليدرّس الناس قبل الصلاة ثم يلقى خطبة الجمعة ويؤم المصلين ويعاود الدرس بعد صلاة العصر بحيث يستمر إلى أن يؤدى صلاة المغرب بالجامع ومن ثم يعود إلى بيته وقبيل صلاة العشاء يأتى ماشيا عبر الطريق المترب الذى يشق المقبرة القديمة صاعدا وهو يسبّح دون أن يلتفت أو يكلم أحدًا إذا ما قابله ما عدا رد تحية الإسلام ، فيصل وقت الأذان ليصلى بالجماعة وبعدئذ يعود إلى بيته لاستراحة قصيرة بعدها يأتى إلى الكندورة ليحضر جلسة الشاى ويباشر حديثه الذى لا يملّ عن الإسلام والمسلمين وتاريخ الحضارة العربية الإسلامية والفتوح الكبيرة وسماحة المسلمين فى التعامل مع الأجناس الأخرى ... إلخ .

ويمر الليل طويلا إذ سى عبدالله لم ينم فقد زاد الألم على زوجته المريضة أصلا وهو لا يريد أن يحدث ما يعكّر صفو تلك المناسبة السعيدة ، رفعت زوجته رأسها قليلا لتطلب شربة ماء فقدم لها الجرة وقد أمسكت بها ولكن ارتعاش يديها جعل الماء يندلق على صدرها ، تعوذ عبدالله من الشيطان وقد أقلقه خاطر مزعج طرأ على ذهنه إذ يقال إن المريض إذا طلب ماء فذلك يعنى أنها سكرة الموت ، ظل يرقبها لبعض

الوقت ، وفجأة طلبت أن يسندها وأن يميل وسادتها إلى اليمين بحيث تكون فى اتجاه القبلة ، اعتقد أن ساعة المنية قد حانت ، حرك الوسادة وقرأ الفاتحة وانتظر ، أغمضت عينيها وهدأت ، وضع راحة يده اليمنى على صدرها ليتحسس دقات القلب وجدها تتنفس فاطمأن قليلا ثم خرج ليتمدد على الأرض أمام الداموس ، ينظر إلى السماء الصافية وكان القمر مكتملا ويطل بنوره الهادئ على الكون تلك الليلة ، قال فى نفسه : سبحان الله ما أكثر أسرار الليل وما أسرع تنقل تفكير الإنسان ، ابنه محمدكان قد ذهب إلى طرابلس لشراء بعض اللوازم لأنه يتذكر أن الشيخ عندما وافق على زواجه من ابنته قال (أن تعيش كما فى بيت والدها) وهذا يعنى توفير ولو القليل مما يتوفر لها فى ذلك البيت ، أَوَلم يقبل ذلك الشرط ؟ ينظر سى عبد الله مجددا إلى السماء المنظومة بالنجوم اللامعة وذلك القمر ، فهو يعرف أن القمر يكتمل يوم أربعة عشر من الشهر الهجرى وهذا فأل طيب ، فى هذه الأثناء سمع صياح الديكة ، إنه الفجر ، ينهض ليتوضأ حتى يصعد إلى المسجد ، تناول الإبريق ذا الرقبة المستطيلة والأنبوب القصير الذى يشبه الثقب على جانب الإبريق والمصنوع محليا من الطين وقد أمسك بعروته وصب الماء وعندما انتهى من الوضوء صارت أشعة ضوء الصباح تلامس الأرض وبدأ يتبين

الأبيض من الأسود وذلك ما عرف به المسلمون وقت الصباح عندما لم يكن هناك ساعات أو تواقيت محددة ، فهم يعرفون الصباح بالنور ويعرفون أوقات الظهر والعصر بميول ظل الواقف التى يعدّونها بالقَدَم وهكذا ، وقف وهو يقول : أصبحنا وأصبح الملك لله ، قبل أن يغادر المكان يدخل ليلقى نظرة على المرأة الممددة داخل الداموس فيراها كما تركها نائمة على جانب واحد بلا حراك ، صعد إلى المسجد وتبادل تحية الصباح مع المصلّين الذين سبقوه ومنهم الشيخ عبد الحميد الذى أدى صلاة الفجر فيما يظهر وقد جلس يسبّح الله فى جانب من المسجد ، المسلمون لا يتحدثون داخل المساجد خشوعا لله ويتبادلون التحية بإشارات من الأيدى أو بهمس خفيض جدا ، تقضى صلاة الصبح ويخرج المصلون كل يضع حذاءه فى خفيه ويغادرون المسجد كل إلى حال سبيله ويقف الحاج سعد وسى عبدالله أمام عتبة المسجد فى انتظار خروج الشيخ على الرغم من أن سى عبدالله يود أن يعود مسرعا إلى داموسه ليرى ما حدث لتلك المرأة المريضة ، يمد يده ليحيى الشيخ ويظهر عليه القلق ، فيسأله هذا إلا أنه ما أراد إزعاجه فقال ، الحمدلله لا شىء ، ينحدر عبر طريق المقبرة فى اتجاه السكن وعند وصوله فوجئ بما أضفى على ذلك الصباح سعادة فائقة فقد كانت الزوجة جالسة وقد أوقدت النار لإعداد الشاى فتنهد

تنهيدة كما لو أنه قد أزاح عن صدره حملا ثقيلا مما جعلها تنظر إليه باستغراب لكنه أضاف قائلا : حمدا لله على السلامة ..

اغتصبت ابتسامة وكأنها تريد أن تقول ، أين هى السلامة .

نظر إلى قعر الداموس وتذكر أن محمدًا كان غائبا فخالجه بعض القلق ، نظر إلى أعلى وقال فى داخله : يارب سترك ، ابنه الأصغر أحمد مازال نائما وكان قد نهره عدة مرات من أجل صلاة الصبح فهى الصلاة الوسطى المستحبة لكنه كسول ، نظر إليه فى مرقده وقد لوى شفته السفلى دون أن يتكلم لكن ذلك دلّ على كثير من الامتعاض ، ولكن ما العمل ؟

نادته فاطمة بصوت واهن لتناول طاسة الشاى وكانت قد أعدت إفطارا من الزمّيتة المسقّاة بزيت الزيتون .

وبعد أن تناول عبوّدين أو ثلاثة من الزمّيتة وتناول طاسة الشاى فى رشفات سريعة خرج ليقف على كدوة مشرفة على ميدان السباق فى الشارف ونظر إلى تلك الزيتونة الهرمة التى تقف فى وسط الجانب الغربى فى الميدان تحت الكندورة مباشرة وتذكر أيام شبابه عندما كان يلعب الكعب مع بعض أقرانه هنا كما تذكر أن هذه الزيتونة المعَمِّرة والتى تسمى بلهجة أهل القرية (فرعونية) شهدت الكثير من الاحتفالات والمزارات والأفراح والسباق ربما منذ مئات السنين كما تذكر تلك الخيول

وسروجها المطهمة بالفضّة وطوابير المتفرجين من النساء والرجال والأطفال يظهرون بمختلف أشكال وألوان الملابس على جانبى الميدان ، وتلك كانت فترة عزّ القبيلة وقوّتها ، فالخيول كانت تعد بالمئات قبل حدوث سنوات الجفاف والهجرة وأهوال طبرق، ونظر إلى بعيد مؤملا أن يعيد الزمان أمثال تلك الأيام الزاهية، ويذكر أن والده رحمه الله كان قد حدثّه عن أولئك العساكر الطليان الذين أسرهم المجاهدون فى عملية جريئة سنة ١٩١٦ م وكان عددهم يزيد على الثلاثين جنديا وضابطا واستعرضوهم هنا فى ميدان الشارف تأكيدا على قدرة المجاهدين وشحذا لعزائم الناس وإظهارا للقوة فى مواجهة تلك الدولة المعتدية وقواتها الغاشمة وقائدها الذى اعتبر غزو ليبيا إنما هو نزهة بحرية وبعدها ستكون هى الشاطئ الرابع لورثة الرومان!! بعد فترة من التذكّر وإعمال الفِكْر فيما مضى دار على قفاه عائدا حيث جلس أمام الداموس منتظرا مجيء ابنه محمد من طرابلس وكان ومازال مبعث قلقه ألا يفى بالوعد الذى قطعه على نفسه أمام الحاج سعد مع صديقه الشيخ عبد الحميد خصوصا أنهما اتفقا على تحديد موعد عقد القران والزفاف فى لقاء الليلة القادمة .

ولم تستمر جلسته أمام الداموس طويلا حيث صعد إلى الكندورة وصار يرنو ببصره إلى السوق القديم الواقع على ربوة عالية قبالة المركز الذى كان مقرا للجنود الطليان وبعدهم الإنجليز وهو الآن تشغله الشرطة

الوطنية وبه مكتب مدير المنطقة ومكتب المباحث الذى يتردد عليه ذلك المخبر القمىء حيث يقدم وشاياته ، وهذا المركز عندما بناه الإيطاليون على قمة ذلك المرتفع أرادوه أن يكون مشرفا على البلدة من الجهات الأربع ، وسبب تطلع عبدالله من الكندورة إلى السوق أن عربات النقل كثيرا ما تتوقف بالقرب من دار تعرف باسم دار البريد وهى أيضا مقامة منذ عهد الطليان ، وقف هناك لبعض الوقت أحسه طويلا ثم عاد إلى الداموس وبدأ يتهيأ بعد أن توضأ لصلاة الجمعة وقد غير ملابسه التى كان يرتديها بأخرى نظيفة وإن كانت مكرمشة لأنهم لم يعرفوا المكواة بعد والمهم أن تكون الملابس نظيفة وعادة ما يرش الواحد منهم على ملابسه رائحة تسمى (بارازيتى) ورائحتها حادة نفّاذة وهى النوع الوحيد الذى يعرفونه، ثم إن النظافة والتطهرّ عند قصد المساجد هى كما قال الشيخ عملا بقوله تعالى : ﴿ يَـٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ .. ﴾[1] .

وقبل أن يغادر عبد الله إلى المسجد صار يرنو إلى تلك المرأة المنطرحة على الأرض بقلب موجع وهو لا يستطيع أن يعمل لها شيئًا وود لو أمكنه أن يوصيها بشأن ابنه محمد لكنه خمن أنها نائمة وأن لا فائدة من ذلك ، تناول مسبحة طويلة خرزاتها بيضاء وهو لا يأخذها إلا

(١) سورة الأعراف ، آية ٣١ .

يوم الجمعة عادة وكان قد تأخر توقعًا لمجىء ابنه حتى أنه وعلى غير عادته وصل فى الوقت الذى صعد فيه الإمام على المنبر وهذا يعنى أنه لم يحضر درس الشيخ عبدالحميد قبل الأذان الأول وقد جلس دون أن يؤدى ركعتى تحية المسجد ذلك أن الأذان الثانى كان قد رفع ، تابع خطبة الإمام بغير وعى بسبب قلقه الذى انتابه منذ الصباح ، وكانت تلك الخطبة عن العادات والتقاليد الجديدة التى ظهرت فى المجتمع ومشاكل الشباب والزواج ، وفى نهاية الخطبة قال الإمام : لقد تحرج المسلمون من الوجود الأجنبى تحرّجًا لم يألفوه فيما سبق من تاريخهم عندما كانوا أقوياء ولهم دولة لا تغيب عنها الشمس ، وقد حدث هذا الحرج عندما أصبحوا ضعفاء وأصابتهم الهزائم وهذا مدعاة للنفور من الأجنبى والعادات الأجنبية) ومع ذلك أيها المسلمون نعتصم بقول الله تعالى فى محكم آياته الكريمة :

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ صدق الله العظيم[1] ثم أقيمت الصلاة وأمّ الشيخ جموع المصلين واختتم الصلاة بالدعاء للمسلمين بالنصر والهداية .

(١) سورة القصص ، آية ٥ .

هذا كله وسى عبد الله كما لو كان منوما لا يعى شيئًا ، وشاغله الشاغل غياب ابنه محمد وهو الذى لا يفوته وقت من أوقات الصلاة ناهيك عن صلاة الجمعة وهى فرض على كل مسلم ، ربما حضر الصلاة فى مسجد بطرابلس ، هكذا طمأن نفسه ، وقد خرج مسرعًا من المسجد دون أن يحيى الشيخ كما كان يفعل ، طفق عائدًا والداموس لا يبعد عن المسجد بأكثر من خمسمائة متر وحمد الله عندما ألقى نظرة إلى الداخل ليرى زوجته جالسة ولم ينتظر كثيرًا بعد أن تناول قطعة خبز مصنوع من الشعير يسمى (خبز فُرن) وتناول جرة الماء فشرب قليلاً من ماء الغدير ثم خرج ليجلس على الكندورة منتظرًا الغائب ولم يفكر فى زيارة أحد من معارفه إذ جرت العادة أن يتزاور الناس خلال أيام العطلات ، وعطلة المسلمين يوم جمعتهم ، مالت الشمس غربًا وحلّ وقت صلاة العصر وهو لا يزال جالسًا ينقل نظره بين السوق والمسجد وأخيرًا وقف ليتجه حيث يؤدى صلاة العصر مع الجماعة صعد عبر طريق المقبرة مطأطئ الرأس فهو لا يعرف ماذا سيقول للشيخ عبد الحميد لو سأله عما حلّ به ، وبعد صلاة العصر قرر أن يبقى مع المصلّين الذين عادة ما يجلسون فى ساحة المسجد الخارجية حتى يحل وقت صلاة المغرب ، وهو بذلك يريد أن يروّح عن نفسه على

الأقل بالنسيان المؤقت ، نسيان تلك المشاعر المتداخلة فى نفسه والتى تزعجه كلما فكر فيها ولن تفارقه إلا إذا انشغل فى أحاديث أخرى .

كانت أخبار مصاهرة الشيخ عبد الحميد قد انتشرت بين أهل القرية وربما كان مصدرها الفقى مصباح لأنه مهذار ، وهكذا كان ذلك حديث الساعة فى تلك الجلسة ولم ينف أو يؤكد سى عبد الله ما قيل وقد لاذ بالصمت عندما سئل وأكثر من قوله : إنها سنة الله فى خلقه ، وتحدثوا كذلك عن الانتخابات البرلمانية القادمة ومَنْ مِن المتوقع أن يكون المرشح لمقعد المنطقة فى البرلمان ، وسرت تكهنات وهمهمات ورددت إشاعات لكن سى عبد الله لم يشارك فى أى منها حتى أن أحدهم سأله عن الشيخ عبد الحميد نفسه إلا أنه لم يجب بشىء .

وعندما أُذن لصلاة المغرب وقف الجميع ودخلوا المسجد للصلاة حيث كان الشيخ جالسًا فى مكانه ، كبر للصلاة وأقيمت وعندما قضيت سارع سى عبد الله بالخروج وما هى إلا دقائق حتى وصل الداموس وكم كانت فرحته غامرة عندما وجد ابنه محمدًا قد وصل وهو يجلس قرب والدته التى مازالت ممدودة على فراش محشو بالتبن وموضوع على الأرض ، قابله محمد بابتسامة عريضة معتذرًا عن تأخره بسبب عدم توفر المواصلات ولولا رحمة الله لكان قد تأخر أكثر .

وإذ حدجه بنظرة متسائلة ربما لأنه أراد أن يعرف ماذا فعل فى طرابلس ، قال سى عبد الله : الحمد لله على السلامة وفرج الله قريب من عباده دائمًا ، ولأنه كان يساوره القلق لم يتمكن من الحديث مع أحد قبل العودة إلى الداموس رأى أن يلتقى الحاج سعد بحيث يتشاور معه بشأن لقاء الشيخ عبد الحميد بعد العشاء إن شاء الله وسكن الحاج سعد ليس بعيدًا فانطلق إليه ليجده جالسًا يفتل حبلاً ، بادره قائلاً : هل تستعد للحرث يا حاج سعد ؟

ضحك الحاج وقال : بل أستعد لأكلة دسمة فى عرس ابن أخى .

يبتسم عبد الله ويقول : ولم تفتل حبلا ؟

أجاب الحاج ضاحكًا مرة أخرى : ربما نحتاج لربط العروس لعلها تكون شاردة وقد تجفل من خشونة محمد وهى الرقيقة التى تربت فى مصر ووالدها شيخ أزهرى قضى نصف عمره فى القاهرة العامرة ؟

عبد الله : سامحك الله يا أخى أضحكتنى وأنا فى أمس الحاجة للحظة فرح فقد كنت قلقًا طيلة اليوم والله ، وجلس بقرب الحاج حيث قال : توقف يا أخى فهناك ما هو أهم من الحبل .

الحاج : قلت لك قد تحتاجه .. لكن لا بأس هات ما عندك .

سأل عبد الله عن عقد القرآن والفرح و و و

أخيرًا اتفقا على أن يذهبا مباشرة بعد صلاة العشاء إلى الكندورة ولا بأس إذا ما تأخر الشيخ فسوف نتحادث فى كل شىء بينما نحن ننتظر ، فى هذه الأثناء جاء ابن الحاج سعد وهو يحمل قصعة بها العشاء وهو عبارة عن (رشدة بالقَدّيد) وهذه عبارة عن أكلة ليبية لذيذة بها لحم مجفّف ، واستتبع العشاء شاى أخضر .

فقال عبد الله : حمدًا لله لقد كسبنا مرتين ، الأولى المشورة والثانية العشاء مع الشاى الأخضر ، يضحك .

ضحك الحاج وأضاف : وكذلك ابنة الشيخ عبد الحميد أى أنك كسبت ثلاثًا .

قال عبد الله : قل إن شاء الله وعلى بركة الله .

الحاج : لا تخف أنا لست حسودًا ، إن شاء الله .

يرتفع آذان العشاء .

فقال عبد الله هه صدق الحق فلنذهب لأداء حق الله علينا .

ينهضا ويقول الحاج سعد ، ألا تعتقد إنك ستحتاج للحبل ؟ يضحك .

فقال عبد الله : أنسيت أن ابنة الشيخ مؤدبة ومثقفة والحبال لربط الماعز ، يغمز بعينه اليسرى ، لأمثال ما لدينا يا حاج .

يضحكان ويتجهان إلى المسجد .

ومن سكن الحاج سعد وهو عبارة عن داموسين متحاذيين تحت الأرض أمامهما باحة والخارج أو الداخل لابد أن يمر بسقيفة طولها حوالى خمسة أمتار وهى مظلمة وأحيانًا تكون بها حيوانات كالخيل أو الحمير أو بعض الأغنام ، خرجا من السقيفة وكان الحاج يتأبط ذراع سى عبد الله ليساعده على الخروج حيث إن نظره ضعيف ، ومن هناك إلى المسجد مرا فى طريق غير ذلك الذى كان يسلكه عبد الله عادة ، هذا الطريق محاذٍ للسوق القديم من جهة الشرق وككل الطرق أو كما هى فى الواقع مسارب لم يكن مظلمًا هذه المرة ذلك أن القمر كان مكتملاً رغم أن هؤلاء الناس يمشون فى هذه الممرات أو المسارب حتى أثناء الليل المظلم ، وهذا المسرب يمر ملتويًا بين دواميس حتى يصل المقبرة القديمة من طرفها الغربى ثم ينحرف جنوبا ليصل باب المسجد الجنوبى وخلوة تحفيظ القرآن الكريم حيث يُدرس الشيخ عبد الحميد صباح كل يوم ما عدا يوم الجمعة .

وبعد أداء الصلاة انتظرا حتى خرج المصلّون وتقدما لتحية الشيخ الذى مد يده مسلمًا وكان سى عبد الله سعيدًا منشرح البال وملامح وجهه تدل على ذلك فرمقه الشيخ بنظرة تجلى فيها ما يضمره وقال : سبحانه مغير الأحوال سى عبد الله لم نره طيلة اليوم !

فرد سى عبد الله معتذرًا ، قال : ظروف البيت يا فضيلة الشيخ والآن حمدًا لله الأمور عال ، ابتسم الشيخ وهو يسوى ياقة رقبة قفطانه بيده اليمنى وقال : نلتقى الليلة فى الكندورة بإذن الله .

قالا فى وقت واحد : بإذن الله .

خرج الشيخ وتبعاه وقد اتجها إلى الكندورة لإعداد الشاى وانتظار مجىء الشيخ وبقية الجماعة .

وما كادا يلهبان نار الشاى حتى تقاطرت جماعة الجلسة إذ وصل الفقى مصباح وآخرون ولم يمر وقت طويل حتى قدم الشيخ وكان هذه المرة يرتدى جبّة زرقاء فاتحة وصندلا أبيض وقميصا أبيض أيضًا تظهر ياقته نظيفة حول الرقبة وقد وضع شالاً مخططًا جميلاً بنى اللون حول الرقبة والكتفين يتدلى طرفه على صدره ، وعلى رأسه القبعة المعتادة المحاطة بعمامة بيضاء صغيرة ، سلّم وجلس على جانب من وسط الحصيرة .

تنحنح الحاج سعد ولكز بمرفق اليد اليمنى جنب سى عبد الله وعندما نظر إليه هذا غمزه وقد رسم ابتسامة على محياه دون أن تنفرج شفتاه كأنما أراد أن يقول إن الشيخ يظهر وكأنه هو العريس ، وكان الحاج سعد هو الذى يعد الشاى هذه الليلة وقد صار يوزّع الطاسات بمجرد أن

جلس الشيخ ، ودار الحديث الذى بدأه الشيخ عبد الحميد حول الانتخابات وما إذا كان هناك من ينتوى أن يرشح نفسه فى المنطقة وكيف يجب أن يختار الناس من يمثلهم ويحقق مصالحهم لأن المنطقة فى حاجة إلى كثير من الخدمات التعليمية والصحية والزراعية وغيرها .

فقال أحد الجلوس : إن الذين كانوا يرشحون أنفسهم لمثل تلك المناصب لا نراهم إلا وقت الانتخابات وهم يتحدثون عن الخدمات ويقدمون الكثير من الوعود والمشاريع ولكنهم لا يحققون شيئًا ولا يهتمون إلا بمصالحهم أى أنه بعد الانتخابات لا يعملون للمنطقة شيئًا (واضرب الطوب تلقى التراب) .

وتحدث آخر وآخر وأخيرًا تدخل سى عبد الله ليقول : لا نرى أصلح من الشيخ عبد الحميد ليمثلنا فهو خير من يمثل المنطقة علمًا وخلقًا وأمانة ودينًا ومعرفة بأحوالنا .

انفرجت أسارير الشيخ ولم يعلق بشىء رغم أنهم أجمعوا أثنوا على اقتراح سى عبد الله وألحوا على الشيخ الذى وعد بأن يفكر فى الأمر ، وقال : حتى يعلن الموعد يكون خيرًا إن شاء الله .

ولم يصبر الفقى مصباح فأفشى الخبر الذى سمعه قائلاً : مبروك يا شيخ عبد الحميد .

فقال الشيخ وإن لم يفاجأ : علامَ ؟

قال الفقى مصباح : على خطبة كريمتكم .

وهنا ابتسم الشيخ وقال : عقبالكم وجعل الله أيامكم أفراحًا .

ضحكوا جميعًا فالفقى مصباح متزوج منذ خمسين سنة

رمقه الشيخ وقال : لكنه مازال فى ريعان الشباب ، ابتسم .

قال الفقى : أيه إن شاء الله الخاتمة خيرًا ، ثم تنهد وقال : المهم متى نأكل اللحمة ؟

اعتدل الشيخ فى جلسته واقترح أن يتم عقد القرآن يوم الأربعاء والزفاف يوم الخميس ، وخير البر عاجله .

قالوا جميعًا : على بركة الله .

فقال الفقى مصباح : هه لحمتان فى أسبوع واحد ويجب أن يكون اللحم وطنيا (موش مازيقرى) . الليبيون يقولون عن اللحم المستورد (مازيقرى) وأحيانًا إذا كان اللحم ملفوفًا بقماش أبيض يقولون (مكفّن) .

بعد الاتفاق على موعد عقد القران والزفاف وتناول الطاسة الثالثة من الشاى نهض الشيخ وقال : تصبحون على خير ولابد أنه كان قد اتفق مع أهله على تلك المواعيد بينما حاول سى عبد الله أن يسارع ليزف البشرى والخبر السعيد لأهله لكنهم أبقوه ، أما الفقى مصباح فقال وهو

قلما يبتسم أو يضحك : يا جماعة كما يقولون فى الفقه (إن الفتوى على قدر السؤال) ابتسم .

فقال الحاج سعد : ماذا تعنى ؟

أجاب : ألست أنا الذى سوف يعقد القران ؟

قالوا : بالتأكيد .

قال : إذن سيكون الدعاء على قدر ما يكون الغذاء .

ضحكوا وقال الحاج : عليكم ببطن الفقى يا أهل الفرح ، ثم انصرف كل إلى داره ، عندما عاد سى عبد الله إلى الداموس على الرغم من أن الوقت كان متأخرًا ومن عادة أهل القرى أن يناموا باكرًا وخصوصًا النساء لأنهن يقضين النهار كاملاً فى عمل البيت من غزل ونسيج وتحطيب وخبز وغير ذلك لكنه أراد أن يبث زوجته الخبر السار فأيقظها لتنهض مستندة على مرفقها بينما كان جسدها ممددًا وقد دعكت عينيها بسبابتيها فأبلغها موافقة الشيخ عبد الحميد على تحديد موعدى عقد القران والزواج حاولت أن تظهر فرحتها فانتزعت كلمات محشرجة عبر حلقها الجاف لتقول : مبروك على محمد ، وبالبنين والبنات إن شاء الله .

صباح يوم الأربعاء أى الموعد المضروب لعقد القران كان أول الحاضرين إلى دار الشيخ عبد الحميد هو الفقى مصباح وكان يجر طرف جرده كالعادة خلفه .

بادره الشيخ قائلاً : لعل الفقى مصباح ما أراد أن يكتفى بالغداء فجاء للإفطار . ابتسم ولم يعر كلام الشيخ أى اهتمام وإنما جلس وطلب ماء باردًا وطاسة شاى أحمر ، وأضاف : ما يأتى بعد ذلك فيه البركة .

وبعد فترة توافد الجماعة واحدًا بعد الآخر ولم يشأ سى عبدالله أن يأتى مباشرة إلى دار الشيخ فعرّج على دار صديقه الحاج سعد ليصحبه معه ، وإذ تكامل العدد قال الفقى مصباح : هه على بركة الله نقرأ الفاتحة .

قرئت الفاتحة وتم عقد القران طبقًا لنصوص الشريعة الإسلامية وقام بذلك الفقى مصباح ، ثم قُدم الشاى والماء البارد وندت عن الفقى حركة تدل على أنه يبحث أو ينتظر شيئًا ما فبادره الشيخ قائلاً : الغداء بلحم الخروف الوطنى يا فقى مصباح آت ، وابتسم .

قال الفقى : هه إذن نضاعف الدعاء ورفع كفيه وهو يبسطهما ، اللهم اجعله زواجًا مباركًا وبالبنين والبنات ووفق بينهما يا الله .

يردد الجماعة : آمين

قطّب سى عبد الله وقال : لو لم يبادر الشيخ بطلب الطعام أظن أن الفقى مصباح ما كان يتم العقد ، ينظر إلى الفقى كأنما أراد أن يقول ، اشبع يا فقى .

ضحك الفقى وقال : أنا قلت إن الفتوى على قدر السؤال وهذه قاعدة فقهية ، ولهذا أضفت القول إن الدعاء على مقدار الطعام .

قدم الأكل حيث طلب الشيخ من الجماعة أن يجلسوا فى جمعين ، وكان الفقى على رأس واحد من هذين الجمعين وقد أتى على بقية اللحم الذى كان فى القَصْعَة رغم تخلخل طاقم أسنانه الاصطناعية .

دخل الشيخ فسمعت الزغاريد مجلجلة من داخل الدار ثم عاد ومد يده لمصافحة سى عبد الله وهو يقول : مبروك .

تحرّج سى عبد الله كثيرًا لأنه كان مضطرًا أن يصافح الشيخ بيده اليسرى ولكنه تدارك الأمر وقال : آسف لأن يمناى قد دفنت فى طبرق .

ولم يعلق أحد .

سرت الفرحة فى مجتمع القرية وما أجمل الأفراح فى مثل هذا المجتمع ، ما أسعد الإنسان الذى كاد أن يقنط ويصاب باليأس لولا رحمة الله ويتفكر المسلم دائمًا فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[1] عبد الله الذى واجه الكثير من الصعاب ومشاكل الحياة يرى الآن أمانيه تتحقق ، وأمنيته كانت أن يعود إلى أهله وقريته وأن يرى ابنيه قد كبرا وهذا محمد يكمّل نصف دينه وزواجه أدخل بعض الفرح على هذه الأسرة التى لم يفرح منها أحد منذ سنوات طويلة ، لم تكن فاطمة وهى والدة العريس قادرة على الحركة أو الوقوف وقد ظلت جالسة فى مكانها

(١) سورة البقرة – آية : ١٥٣ .

وهى توزع الابتسامات عندما تحادثها أو تنظر إليها واحدة من جاراتها وقد طلبت أن ترى ابنها وعندما جاء طوّقته براحتى يديها الضعيفتين وقد انهمرت دموع الفرح من عينيها وبصعوبة قالت : مبروك يا محمد . أما عبد الله فإنه مع شعور الفرح ودّ لو أنه يستطيع أن يلغى من ذاكرته تلك السنوات المحزنة والأهوال التى واجهها فى طبرق أثناء السنوات العجاف التى مرت بالبلاد وزوجته خصوصًا .

أقيم الفرح وتبارى فيه الشعراء الشعبيون بالقصائد الغزلية وهدّت الشابات وتمايلن يمنة ويسرة وقد جثون على ركبهن مستعرضات ذلك الشعر الأسود الطويل الذى غالبًا ما يلامس الأرض وهو مضمّخ بزيت الزيتون كما كانت المقرونة سيدة الطرب بصوتها الشجى الذى يهدهد ويدغدغ المشاعر منسكبًا فى الآذان حيث يجعل السامع يتمايل كأغصان شجرة تتخللها ريح هادئة ويصاحبها تصفيق هادئ ومنتظم ، وأفراح أهل القرى هؤلاء يتقابل فيها الشباب فى صف والشابات اللواتى يهدّن فى صف وتكون وراء كل شابة امرأة من أهلها تسرّح لها شعرها وعندما تتوقف تغطّى رأسها بمنديل عادة ما يكون ملوّنًا ، ويجلس عادة ذلك الذى ينفخ فى المقرونة بين الصفّين من جهة الشباب أى أنه يكون متقدمًا عن صف الشباب فى مواجهة صف الشابات ، أما الكبار من

الرجال فيجلسون فى مكان منفصل غير بعيد بحيث يتمتعون بسماع الأغانى والمقرونة والزغاريد ، وبينما كان الحال هكذا إذا بأحد رجال الشرطة وكان هذه المرة يرتدى بذلة عسكرية ويمتطى صهوة جواد قد أطل على الجلوس قرب المكان الذى يجلس فيه الكبار وعندما ترجل من على ظهر الحصان نظر إليه جميع الحضور بدهشة إذ ليس لهم علاقة بهؤلاء الناس أولاً لأن أغلب رجال الشرطة من خارج القرية وثانيًا أن لا أحد منهم كان مدعوا لحضور الفرح لكن دهشتهم لم تطل لأن العسكرى عندما وقف قال إنه مكلّف باستدعاء الشيخ عبد الحميد وفورًا للتحقيق معه فيما نسب إليه من أقوال ، نهضوا جميعًا مستنكرين هذا الكلام والتصرف من طرف الشرطة فكيف يحقق مع رجل كهذا !! فهو شيخ عِلْم ولا يدعو إلا إلى الخير ، وكيف يحدث هذا فى يوم فرح ابنته ؟ لكن الشيخ هدأ من احتجاج أصحابه وقال إنه سيذهب إلى مكتب المباحث كما أراد هؤلاء ، وعليكم أن تستمروا فى فرحكم فلا شيء يجب أن يكدّر صفو هذا اليوم مهما كان عظيمًا ، فقال الجميع بصوت واحد ، كأنما هذه الأجهزة تتعمد الوقيعة وإلحاق الأذى بالناس وتتقصد إفساد أفراحهم وكأن السعادة والفرح لا يجب أن يسودا بين الناس ولابد أن ذلك يمثل جزءًا هامًّا من عقائدهم وأسلوب تربيتهم

وهذا ما فعلوه الآن مع الشيخ عبد الحميد رجل البر والخير ، لقد استدعى الشيخ للمثول أمام ضابط المباحث فى نفس مركز الشرطة الذى كان الضابط الإيطالى ويسمى باللهجة المحلية (بارقادير) يأمر منه بالإعدام والشنق لأى مواطن ليبى حتى لو كانت تهمته مجرد وشاية من واش ، وهو نفس المركز الذى أصدر منه ذلك الضابط الإيطالى أمره بإعدام عشرة من أهل هذه القرية الذين عرفوا باسم (شهداء الكردون العشرة) وهم الذين دفنوا فى حفرة واحدة قرب ذلك المركز ولم يسمح حتى لأطفالهم أو زوجاتهم بدفنهم ، هذا المركز الإيطالى الذى هاجمه المجاهدون الليبيون سنة ١٩١٦م ليحرروه من الطليان وقد استشهد منهم الكثير فى تلك العملية ، أولئك المجاهدون الذين ماتوا من أجل حرية الوطن وكرامة المواطن ، هذا المركز يستدعى إليه الشيخ ليحقق معه فقط لأنه تحدث عن الأجانب وخطر وجودهم فى البلاد ، ولأنه ينادى بالمثل والأخلاق والقيم الإسلامية !!

ذهب الشيخ أسيفًا على نفسه وآسفًا على هذا الوضع ليمثل أمام ضابط ربما لم يقرأ كتابًا فى حياته ولم يتعلم غير طريقة التحقيق واضطهاد الناس ، وهذه المرة الأولى التى يحقق فيها مع الشيخ عبدالحميد وكان لافتًا للانتباه حتى بالنسبة لأولئك الذين يعملون فى ذلك المركز أن

يروا شيخًا معمّمًا يدخل المركز مطلوبًا فى وشاية ربما كيدية ، أجلسوه لبعض الوقت على مقعد خشبى مستطيل موضوع فى جانب من حجرة بها بعض الأوراق المبعثرة وفى ركن منها كانون كهربائى جوانبه سوداء من أثر اندلاق الشاى وبجانبه زجاجة نصفها مملوء بالماء ، وبعد فترة من الانتظار جاءه شخص يرتدى ملابس عربية : سروالاً وقميصًا لونهما أزرق فاتح وشبشبًا بلاستيكيًا فى خفيه وعلى رأسه قبعة بيضاء جوانبها مسودة ، شنبه أشيب كثيف تظهر عليه آثار التبغ من الأعلى مما يدل على أنه يستعمل نشوق التبغ ، عيناه دامعتان ، فمه واسع وأنفه أفطس ودون أن يحييه مثلما يفعل أهل القرية عادة حيث يقولون (السلام عليكم إذا ما دخلوا على أحد قال : هيه أتبعنى ، وقف الشيخ متثاقلاً بعد أن نفض جوانب قفطانه من أثر التراب الذى كان على كرسى الخشب الذى أجلسوه عليه ، وقد أدخله ذلك الشخص على مكتب به طاولة موضوعة قبالة الداخل وهى مصنوعة من الخشب اللامع وخلفها رجل فى مقتبل العمر لم يقف عندما حياه الشيخ وإنما رد التحية ، كان يرتدى ملابس مشابهة لملابس ذلك الذى أدخله وإن كانت نظيفة ومحاطة بجرد أبيض وعلى رأسه طاقية بيضاء نظيفة ، أمامه على الطاولة ملف أحمر ليس منتفخًا مما يدل على أن الأوراق التى به قليلة وقد

خمن الشيخ أن تلك الأوراق والملف تخصّه ، دعاه الضابط للجلوس وكان هناك كرسيان من خشب وإن كانا بمساندهما الجانبية والخلفية ، تناول الضابط ورقة من الملف وقرأ فيها مارا بعينيه من اليمين إلى اليسار ثم رفع عينيه وسأل الشيخ قائلاً : فى خطبة الجمعة تحدثت يا شيخ عن خطر وجود الأجانب فى البلاد فماذا تعنى ؟

رفع الشيخ حاجبيه متعجبًا ، ثم قال ، وماذا فى ذلك ؟ ثم هل أنت تحقق أم تسأل ؟

قال الضابط : أنا أستفهم أولاً وبمعنى آخر هل تعنى القواعد العسكرية ؟ وقبل أن يجيب الشيخ أضاف الضابط : إن تلك القواعد جاءت بناء على اتفاقيات مع الحكومة الليبية كذلك فهى مورد رزق لليبيين ؟

قال الشيخ : عجبًا ، إن الرزق من عند الله ، أما قضية القواعد فهى أمور لا علاقة لى بها وما قصدته هو العادات والتقاليد فهؤلاء الأجانب يأتون أشياء يحرمها الإسلام وإذا ما جاراهم الناس فربما تنتشر تلك العادات أو التقاليد المسيئة للإسلام وَمُثُلِهِ .

قال الضابط : ما هى تلك الأشياء والعادات التى ترى أن الإسلام يحرمها ؟

الشيخ : مازلت أسأل هل هو تحقيق وإذا كان الأمر كذلك فما هى تهمتى ؟

الضابط : مازلت أقول إننى أستفهم ، تغيرت لهجته كأنما هو يهدد وتغيرت ملامح وجه الشيخ ، ثم أضاف قائلاً : الأجانب عاداتهم كثيرة منها سفور المرأة والاختلاط وشرب الخمور وغير ذلك .

الضابط : فهمت ومطلوب منك أن تمتنع عن الحديث فى مثل هذه المواضيع لأنها قد تؤدى إلى كثير من المشاكل والشغب وبالتالى قد يحدث ما لا يحمد عقباه .

الشيخ : إذا كنت تطلب منى مخالفة ما أعتقد فأنت مخطئ ، أنا مسلم وأصلى بالناس كإمام لهم بحيث أرشدهم إلى الخير وأعلمهم رسالة الإسلام السمح ، ورسولنا عليه الصلاة والسلام قال : «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان» .

قال الضابط : وهل ترى أن وجود الأجانب منكرًا ؟

الشيخ : أنت تريد اتهامى عنوة ، أنا لم أقل إن وجودهم أو غيره وإنما قلت عاداتهم وإن شئت أعيد عليك ما قلت ألف مرة ومرة ، قلت العادات

التى يحرمها الإسلام فلا تضع الكلام فى فمى وأظن أنك مسلم ، تحرّج الموقف وسكت الضابط قليلاً ثم قال : يمكن للشيخ أن ينصرف ، ولم ير الشيخ موجبًا لأى نقاش فخرج وهو يستعيذ من الشيطان ، وقد خطر بباله ما كان يقال كنكت عن الحكومة يتندر بها بعض الظرفاء ، قالوا إن ليبيًا لم يعجبه الحال فقال : اللعنة على الحكومة وفى هذه الأثناء كان هناك مخبر سمعه فأتى به إلى المركز للتحقيق بتهمة شتم الحكومة ، وعندما سأله ضابط التحقيق قائلاً : لماذا تشتم الحكومة ؟ أجاب : شتمت الحكومة ولكنى لم أقل إنها الحكومة الليبية .

فقال الضابط : وهل هناك حكومة تستحق الشتم غير الحكومة الليبية؟

وتبسم الشيخ وهو يتذكر هذا القول مصدقًا أنها فعلاً تستحق الشتم حكومة هذا ديدنها ..

وفى أول جلسة شاى بعد ذلك الاستدعاء ظهر الشيخ عابس الملامح على غير عادته وقد حاول الحاج سعد أن يروّح عليه وأن يلطّف الجو ، فقال : خيرًا يا شيخ إن أهلنا يقولون : (إن الدبّانة لا تقل ولكنها تجعل المرء يتقيأ) ونحن لا نريد أن نراك عابسًا .

يرد الشيخ : يا ليت شعرى لو أن أحدًا واجهنى بما يستحق الاستدعاء أو حتى التحقيق والمساءلة .

فقال سى عبد الله : نحن لا يجب أن نسكت على هذا التصرف

فتساءل الحاج سعد : لمن نشتكى ؟

فقال سى عبد الله : هناك مسئولون أعلى من هذا الضابط ويمكن ألا يقبلوا بأن يعامل رجل بهذه الطريقة كما عومل الشيخ عبدالحميد رجل البر والتقوى .

ابتسم الشيخ وقال : يا سى عبد الله يقول أهل مصر (ليس فى القنافيد أملس) والشكوى لهؤلاء لا فائدة منها وستكون كحالة بائع الماء فى حارة السقائين ، ولقد صدق الشاعر الكبير (أحمد الشارف) فى وصف هؤلاء القوم ونوعيتهم وأخلاقهم .

وهنا بادر الحاج سعد برجاء أن يتفضل الشيخ بإسماعهم ولو جزءًا من قصيدة الشاعر أحمد الشارف .

تردد الشيخ بعض الوقت ولكنهم ألحوا عليه ، مال برأسه إلى أعلى وصار يتذكر وبعد برهة قال :

وطنى هو الوطن العزيز أحبه

ويحبنى لولا حديث وشاته

لـم أنـج يـومًـا مـن عـقـارب أرضـه

أو مـــن زنـــابـــره ومـــن حَـــيَّـــاتـــه

ولـطـالـمـا اضـطـربـت سـيـاسـة أمـة

بـوشـايـة الـواشـى ومـخـتـلـقـاتـه

يـلـقـى الـوشـايـة مـن خـزانـة صـدره

فـكـأن مـا يـلـقـيـه مـن نـفـثـاتـه

لـم يـتـخـذ نـسـج الـكـلام ووشـيـه

إلا عـلـى مـنـوال مـبـتـغـيـاتـه

ومـن الـبـلـيـة أن يـكـون لـبـثـه

ولـنـشـره أثـر لـمـجـتـمـعـاتـه

لـيـس الـمـصـاب بـآفـة مـن جـنـبـه

مـثـل الـمـصـاب بـآفـة مـن ذاتـه

ورداءة الأخـــلاق مـــزرعـــة الـــردى

وبـهـا يـضـل الـمـرء عـن حـاجـاتـه

وإذا نـظـرت إلـى الـشـقـاق فـلـم

يـكـن إلا بـسـعـى دهـاتـه ودعـاتـه

وهنا توقف الشيخ وقد اصفر وجهه وعبس عبوسًا شديدًا كأنما أصيب بهبوط ، وقد حاول سى عبدالله أن يقدم له ماء لكنه امتنع وبعد قليل قال : لنترك هذا الموضوع جانبًا الآن ، المهم ألا يعكر صفو فرحكم هذا التصرف .

فى هذه الأثناء سمعوا صوت المقرونة والطبل والبندير والغناء وجلبة متجهة نحو دار سى عبد الله وأمام الجمع كانت هناك مشاعل لإضاءة الطريق وتسمى (فنارات ريح) وقد سميت بهذا اسم لأنها لا تنطفئ عند الخروج بها إلى مكان فيه رياح وهى تشتعل بالكاز كما أن هناك نوعًا آخر من وسائل الإضاءة داخل البيوت وهو عبارة عن فتيلة مغموسة فى زيت موضوع فى إناء وبرأسها نار ، على أن الشيخ عبدالحميد يستخدم فى بيته إنارة غير هذه التى تعرف فى القرية إضاءتها قوية (أى ما يسمى كلوب) عرفوا أن تلك المشاعل والجلبة إنما هى الزفّة هذه الزفّة التى ستكون حديث القرية فالعروس هى ابنة الشيخ عبد الحميد وهى أجمل شابة عرفت فى القرية منذ جاءت وعندما يتحدثون عنها يقولون (المصرية) فقد كانت ذات وجه دائرى كالقمر وأنف قصير شامخ وعينين خضراوين وفم صغير وشفاه ممتلئة وزادها جمالاً ما أضيف إليها من زينة الآن وهى تزف فقد كانت يداها

الصغيرتان مخضبتين بالحناء السودانية الداكنة وكذلك قدماها الصغيرتان وهكذا ظهرت كأنها القمر فى ليلة أربعة عشر .

وبعد أن تمت الأيام السبعة من الطرب ومظاهر الفرحة فى بيتى الشيخ عبد الحميد وسى عبد الله وقد كان هذا الأخير مزهوا بشكل خاص رغم ما كان يعشعش ويتزاحم فى رأسه من أفكار وأحداث طيلة ذلك الأسبوع تلك الأفكار التى ظلت تهز كيانه كلما أعاد فى ذهنه تفاصيلها المرعبة .

كان فصل الخريف قد قارب على الانتصاف وقد هطلت الأمطار فى بعض المناطق وصار الناس يتهيأون للبذار والحرث وهو ما ينتظره كل أهل المنطقة ، كذلك كان موعد إجراء الانتخابات البرلمانية قد تحدد وهو ما كان ينتظره الشيخ عبد الحميد بكثير من الاستعداد والأمل فى نيل ثقة أهل المنطقة ومن حولها .

سبحان من قسم الحظوظ
فلا عتاب ولا ملامة
أعمى وأعشى ثم ذو
بصر وزرقاء اليمامة

شاعر عربى

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله
وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعم

المتنبى ،،

والناس قد نبذوا الحفاظ فمطلق
ينسى الذى يولى وعارف يندم

المتنبى

أعمى يقود بصيرًا أبالكم
قد ضل من كانت العميان تهديه

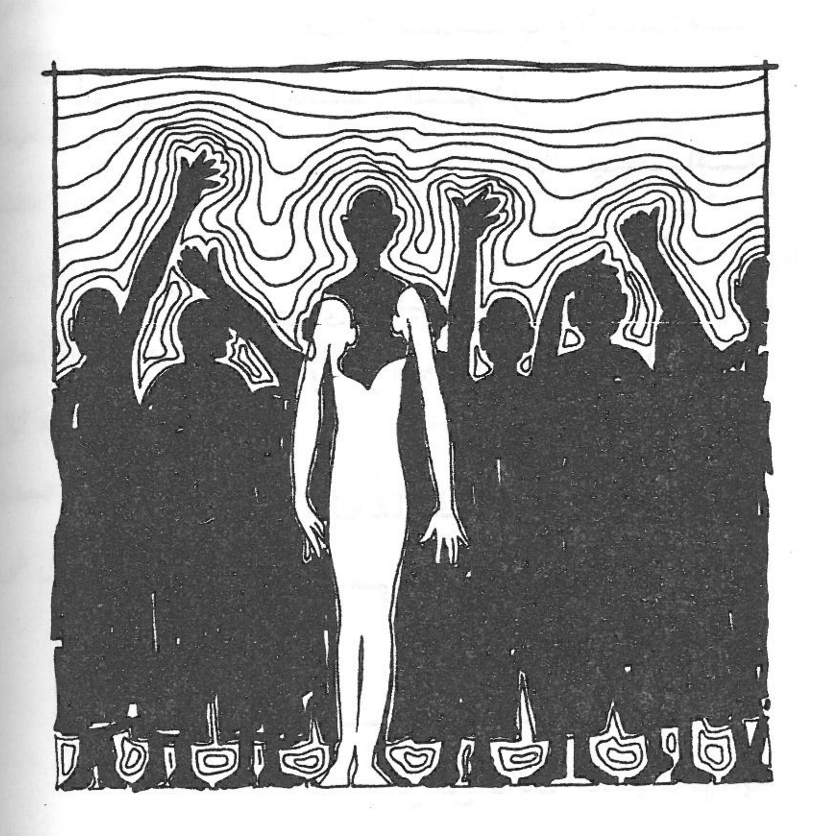
بشار

الفصل الحادي عشر

البساط الأحمر والكرسى الوثير

النفق الطويل - محاولات الترقيع - المخاض

هناك حكاية تتردد بين الناس وهى تشبه الخرافة ولكنها ذات معنى عميق يدل بصدق على كيف يكون تصرف الإنسان الذى يحاط بعدد من المتملقين والمنافقين الذين يزينون تصرفاته مهما كانت قبيحة بحيث يقدمون له معلومات خاطئة أى أنهم يغشونه مهما كان خلوقًا وصادقًا ومصلحًا ، وتلك الحكاية تقول : (إن ملكًا يعتقد أن شعبه يحبه وقد تجمع حوله بعض الأعوان المنافقين وقالوا له إنه لكى يعرف مقدار حب الناس له فقد أعدوا له ثوبًا من قماش لا مثيل له فى العالم وأنه عندما يرتديه سوف لن يراه غير المخلصين والعقلاء ومحبيه أما أعداؤه وكارهوه والسفهاء فلن يروه أبدا وقد صدّق الملك تلك الرواية وهكذا خرج عاريًا يمر بموكبه عبر الشوارع وكانوا قد طلبوا ممن جاءوا ووقفوا مصطفين على جنبات الطرق أن يهللوا ويصفّقوا ويرددوا كلمات الابتهاج والإعجاب بأثواب الملك ، وهكذا حدث إلا أن طفلاً كان يقف بين



الناس صرخ قائلاً : إن الملك عارٍ فانفضح الأمر وانتشر بين القاصى والدانى وما أسرع أن تنتشر الفضائح) .

وهكذا فإن مثل أولئك الناس يدخلون الحاكم فى نفق مظلم لن يخرج منه لأنهم يزينون له كل شىء ولا ينقلون الحقيقة .

والملك إدريس السنوسى كان رجل دين ودولة ولم يكن راغبًا فى متاع الدنيا ولا عرف عنه الطمع أو الاستغلال لكن حكمه اعتمد على ثلاثة عناصر أو جهات أضرت به ، أولها الإنجليز الذين ربما اعتقد أن دولتهم فعلاً لا تغيب ولن تغيب عنها الشمس وربما لم يستطع أن يدرك أنهم قد يتخلون عن دورهم طوعًا أو كرهًا للولايات المتحدة الأمريكية وهذه بالتالى لا تريد حكامًا موالين للاستعمار القديم إنجليزيًا كان أو فرنسيًا ، وثانيًا زعماء القبائل فى بلاده الذين غمروه بالتطبيل والتهويل حتى أنهم لا يقسمون إلا باسمه وبذلك طوقوه بهالة زائفة متمثلة فى قوة تلك القبائل وقدرتها على الدفاع عنه فى كل الأحوال ومن هنا فإنهم لم يتيحوا فرصة للتجديد والاستفادة من عناصر وطنية ذات كفاءة وقادرة على تفهم الواقع والتعامل مع المتغيرات العربية والدولية ، وثالثًا استخدام عناصر انتهازية منافقة ووجوه محروقة فقط لإرضاء جهات معينة إما محلية أو دولية ، وربما يكون الملك قد اقتنع فعلاً أن أمور الدولة على

ما يرام على الأقل لفترة من الوقت حتى وصل الحكم إلى وضع فى غاية من الغرابة ، وكان شكله كالتالى :

ملك معتكف فى قصره بالطرف الشرقى من البلاد ، وشعب ينام ويصحو على صوت أحمد سعيد ونشرات صوت العرب الملتهبة ، وحكومة وزراؤها يتنافسون على المناصب والمكاسب ويتصارعون على السلطات دون التزام بقانون أو مُثل أو أخلاق ولا يهتمون إلا بإرضاء الإنجليز ، وبرلمان صار مشلولاً عاجزًا لتغيب أعضائه بسبب وبغيره ، ولقد تداخلت وتشابكت الأمور والأحداث والتطورات السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية وصار النظام كأنما هو فى خدر أو أنه لا يعى ما يحدث ويجرى حواليه وتحته وفى العالم ، وكان ما يجرى فى البلاد مضحكًا ومبكيًا فى نفس الوقت وحكامه انطبق عليهم قول الله فى كتابه العزيز : ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا * ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [1] صدق الله العظيم .

ولقد فقد النظام الإحساس بنبض الشارع الليبى وآلام الناس ومشاعرهم وبالتالى فقد تأييد أغلبهم بمعنى أنه لم يكن مواكبًا للتطور

---

(١) سورة الكهف ، الآيتان : ١٠٣ ، ١٠٤ .

والوعى السياسى ، وحدث كما يقول المثل الليبى أن (الجمل صار يأكل من تبن الحوية) على الرغم من أن أجهزة الحكم العلنية والسرية كانت تبث إشاعات وتسرب أخبارًا تقول إن البلاد ستخرب إذا ما حدث أى مكروه للملك إذ ليس هناك من يخلفه لقيادة البلاد إلى بر الأمان وهى محاولة لتضليل المواطنين كما ضللوا الملك نفسه ببث برقيات التأييد وتنظيم لقاءات الهرج والتطبيل وندوات شعر النفاق والكذب وتجمعات المنتفعين التى ترتفع فيها أصوات تشبه خوار البهائم .

وبعد الانتقال إلى البيضاء وتزايد الاحتجاجات والإضرابات وظهور المنشورات التى صارت توزع فى مختلف المدن الليبية قدم وزير الداخلية ذاك اقتراحًا إلى الحكومة وتضامن معه وزير الدفاع فى تأييد هذا المقترح الذى يقضى بتجنيد وتدريب عدد من الأفارقة الليبيين الذين لا يعرفون الناس ولا يتحدثون اللغة العربية وتكليفهم بحراسة المنشآت ومقار وبيوت المسئولين فى البيضاء حتى صار الناس يتندرون على أزمة قيل إنها حدثت وهى أن بيت حكمدار البيضاء وهو من كبار الضباط كان محروسًا من طرف أولئك الجنود ولم يكن هذا الحكمدار داخل البيت عند استلامهم الحراسة وعندما حضر منعوه من الدخول لأنهم يعتقدون أن الحكمدار داخل البيت ولهذا لم يكن قادرًا على

التفاهم معهم بسبب اللغة وبقى خارج بيته إلى أن جاء أحدهم وكان يفهم بعض كلمات عربية وأفهمهم أن الواقف خارج البيت هو الحكمدار الذى يحرسون بيته حتى سمحوا له بالدخول ، وهذا يدل على أن الحكومة بذلك لم تعد تثق فى مواطنيها أى أن الهوة كانت واسعة بين الناس وحكومتهم ومن هنا فإن الكرسى الوثير لم يعد مريحًا وإن لم يشعر به هؤلاء ، أما صاحب البساط الأحمر فلم يعد يملك غير عبارات تردد دون أن يعيها أحد (لقد بلغ السيل الزبى !) وكان قبل فترة قد أصدر مرسومًا بتعيين ولى للعهد ، وكان ولى العهد هذا رجلاً متوسط القامة يميل إلى الطول سحنته سمراء مثل بقية أفراد الأسرة السنوسية عريض المنكبين أنفه كبير ووجهه مستطيل عيناه واسعتان عسليتان شفتاه غليظتان ملامحه متناسقة له شارب صغير فاحم الشعر جسمه ممتلئ بطىء الحركة قليل الكلام يميل إلى الهدوء والسكينة ، يرتدى جلبابًا طويلاً فى الغالب أشهب تحته قميص أبيض ويضع على رأسه قبعة حمراء فاتحة ، لم يره أحد بغير هذا اللباس ولا سمعه أحد يتحدث بصوت مرتفع ، وحتى عندما رأس الوفد الليبى المشارك فى المؤتمر التاريخى الذى عقد بالخرطوم بعد هزيمة العرب سنة ١٩٦٧م لم يقل كلمة واحدة لا فى المؤتمر ولا مع الصحفيين ، وهو منذ كان طفلاً لم

يكن يشارك فى أى نشاط حتى أن أطفال المنطقة الذين كانوا يلعبون كرة القماش حفاة بالساحة الواقعة أمام بيت والديه الذى يقع فى منطقة البركة ببنغازى لم يكن يشاركهم اللعب أبدا وإنما كان يخرج من البيت مرتديًا قفطانًا أبيض ليجلس على الأرض متفرجًا ولا يحرك ساكنًا حتى عندما تصدمه الكرة وهى عبارة عن جورب محشو بقطع من القماش ويسميها الليبيون (كرة شخشير) ولقد كان كاتب هذه السطور ضمن أولئك الأطفال ، رحم الله هذا الرجل الذى لم تسمح له الظروف كى يُعرف بخير أو بشر وللتاريخ أسجل أنه مات فقيرًا ولم يعرف عنه أنه قد استغل أو حتى تمتع بشىء من أموال الدولة غير بيت سكن لأسرته عندما تزوج .

محاولات الترقيع :

بعض الناس وكذلك الحكومات يفقدون صوابهم عندما يتوفر لديهم المال وبالتالى يعتقدون أن كل شىء يمكن شراؤه ، وهكذا فبعد أن استقرت الحكومة فى البيضاء (وكان الملك قد اعتكف بقصره فى طبرق) كانت قد أصدرت ضمن ما أصدرت من تعليمات وتوجيهات قرارًا بزيادة مرتبات الموظفين العاملين هناك فى شكل ما عرف (بعلاوة البيضاء) ولعل هذا يمكن أن يفسر على أنه استجابة لنبض الشارع وإن كانت قد قصرت عن إدراك أبعاد ذلك النبض ، وقبلئذ حاكمت أو

طردت من الخدمة كل من اشتبه فى أمره أى الذين قيل عنهم إنهم شيوعيون أو ناصريون أو قوميون أو عملاء ، وقررت زيادة مرتبات العمال والمستخدمين والعاملين فى مرافق الدولة بالولايات الثلاث كما قررت علاوة للعائلة أى الزوجة والأطفال ومنحت ترقيات لضباط الجيش والشرطة وأقامت احتفالات كبيرة بالمناسبتين الهامتين وهما عيد الاستقلال وعيد تأسيس الجيش (٢٤ ديسمبر و٩ أغسطس بالتوالى) لكن تلك الإجراءات والقرارات كانت داخلية معيشية فقط ولم تفكر الحكومة فى الحريات العامة ولا درست أو تدارست تأثيرات العوامل القومية وما يشد مشاعر الناس مما ينشر ويذاع من خلال أجهزة عربية مجاورة ، لماذا كان الليبى منفعلاً بما يحدث فى بلاد العرب والمسلمين فلقد قتل الليبيون رسول نابليون بونابرت خلال غزوته لمصر لمجرد أنهم عرفوا أو اعتقدوا أنه جاسوس ينقل أخبار المسلمين ، وقاتلوا مع الأتراك وساندوهم رغم ظلمهم للناس خلال عهدهم الثانى لأن تركيا العثمانية تمثل آنئذ دار الخلافة الإسلامية ، وتطوعوا وذهبوا إلى فلسطين سيرًا على الأقدام من ليبيا لنصرة إخوتهم العرب المسلمين هناك ، وتطوعوا وقاتلوا وساندوا وقدموا كل غال ونفيس للثورة الجزائرية ضد فرنسا لأن الجزائريين إخوتهم فى العروبة والإسلام ، ولذلك فإن هؤلاء على طول

وعمق وامتداد تاريخهم الوطنى كانوا يقدمون الكرامة على الخبز والعروبة والإسلام قبل الراحة والاستقرار بل وحتى الحياة بسبب من رابطة الدم والعقيدة ، وإذا كانت تلك الترقيات والعلاوات قد مثلت استجابة لنبض الشارع الوطنى (وذلك عمل محمود) لو تجاوز حد البطون على أنه ربما أسعد بعض الناس إلا أنه لم يكن مرضيًا لكل الناس ، ومن ضمن تلك الترقيعات إجراء الانتخابات البرلمانية بحيث يولج المرحلة القادمة برلمان جديد وحكومة جديدة ، وقد بدأت حملة الانتخابات البرلمانية فى المدن والقرى والنجوع ، وكانت قرية سى عبدالله واحدة من تلك القرى التى كانت فيها المنافسة على أشدها وكان الشيخ عبد الحميد قد رشح نفسه وقاد حملته الانتخابية سى عبد الله والحاج سعد وغيرهما ، وحدث قبل التصويت أن طاف مئات المندوبين مختلف مناطق الانتخاب واستخدموا مختلف وسائل النقل واتفقوا مع المشايخ والمدراء وأغلب الشخصيات المؤثرة فى المجتمع من أجل مناصرة هذا المرشح أو ذاك كما كانوا يقدمون المساعدات فى شكل أموال لدفع الرشاوى وإقامة الموائد حيث تذبح الخراف وتقدم أكلات الكسكسى وتقام قعدات الشاى التى لا تنتهى ليلاً ولا نهارًا وحجز البيوت والدور والقاعات وحتى الميادين للخطابة وإعلان البرامج الانتخابية وكل مرشح

يقدم هو نفسه أو وكيله الوعود لخدمة المناطق كإقامة المدارس والمستشفيات والمساكن والمساجد وشق الطرق والمشاريع الزراعية ومختلف الخدمات الأخرى ، وإذ كان الناس فى السابق قد سمعوا الكثير من مثل تلك الوعود فهم ما عادوا يهتمون كثيرًا بما يقال ، ولأن الفصل كان خريفًا فقد هطلت الأمطار غزيرة واستمرت سحب تلك الأيام مثقلة بالأمطار التى صارت تهطل بين وقت وآخر الشىء الذى يتفاءل به الناس كثيرًا وخصوصًا أهل الزراعة وتربية المواشى فى القرى والصحارى ، وهكذا فقد تحول الطريق المترب الذى يتوسط المقبرة إلى ممر موحل زلق لأن المتجه إلى المسجد يكون صاعدًا وكان سى عبد الله مضطرًا أن يسلكه بحذر شديد وذلك لأنه أقرب الطرق بين مسكنه والمسجد وكما كان يفعل منذ سنوات فى فجر كل يوم ولا يعود إلى سكنه هذه الأيام إلا قبل المغرب حيث يذهب مع الحاج سعد بعد أن يلتقيا بالمسجد للاتصال بالناخبين من أجل الدعاية للشيخ عبد الحميد وعلى الرغم من أن الشيخ أفضل المرشحين وكانت شعبيته طاغية غالبة لكنه لم يكن موافقًا على دفع الأموال وإعداد الولائم لأنه يرى أن ذلك حرام نظرًا لشبهة الرشوة فيه وهو يقول إن هؤلاء الذين يدفعون الأموال أثرياء وإن وراء كل ثروة كبيرة فى هذا الزمان جريمة

كبيرة إذ قد يكون هؤلاء مرتبطين بقوى أجنبية تدفع وتساعد وتطلب بعدئذ خدمات على حساب الصالح الوطنى ، وهكذا فقد كانت مهمة سى عبد الله والحاج سعد فى غاية الصعوبة حيث كان المرشحون فى المنطقة ثمانية لمقعد واحد فى البرلمان ، وكان من المعتاد فى انتخابات سابقة أن المرشح الموالى للحكومة هو الذى ينجح غالبًا حيث يكون لأجهزة وزارة الداخلية أصابعها التى تلعب بأصوات الناس تزويرًا وإغراءً وإرهابًا ، ويحدث ذلك عادة فى المدن لكن بين سكان القرى والنجوع حيث مطالب الحياة قليلة والتزامهم الأخلاقى والدينى يكون أمتن وأصدق تكون السمعة الطيبة والتدين والعصبية القبلية هى صاحبة القول الفصل والأول والأخير ولأن شعبية الشيخ عبد الحميد هى الغالبة فقد حصد أغلب الأصوات فى المنطقة رغم محاولات التزوير ودفع الأموال من جانب بعض المرشحين ، وكانت تلك فرحة غامرة لأصفياء الشيخ وجلّاسه وأقربائه وأهله ولم يعكر صفو تلك الفرحة إلا وفاة زوجة سى عبد الله التى عانت كثيرًا من مرض عضال إذ فى ذات صباح وكان سى عبد الله يترقب أذان صلاة الصبح ليؤدى الصلاة حاضرًا فى المسجد كعادته منذ زمن وكانت هناك جرة ماء بالقرب منه لأنه يحب أن يطهر ريقه بماء الغدير قبل أن يصعد إلى المسجد ويتسوّك

بالعود كما أمر الرسول محمد بن عبدالله عليه الصلاة والسلام سمع أنينًا متقطعًا وما كاد يدخل الداموس حتى وجد فاطمة قد فاضت على فيها رغوة بيضاء وغرقت عيناها وهى رافعة سبابتها كأنما هى تتشهد فأدار رأسها تجاه القبلة وقال : (أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله) وعندما فاضت روحها رفع عبد الله رأسه إلى السماء وقد تجلى الحزن فى عينيه الدامعتين وأحس أن عويلا يصرخ فى صدره وإذ كان قد مددها وغطاها بلحافها نهض ليتجه إلى المسجد حيث يؤدى الصلاة وعندما دخل رأى الشيخ جالسًا يسبّح وبالقرب منه الحاج سعد فحياهما بصوت خفيض لا يكاد يسمع وقد ظهرت على محياه علامات حزن عميق لكنهما لم يسألاه إلا بعد تأدية الصلاة فعرفا أن فاطمة قد وافتها المنية وفى هذا الوقت كان عبد الله شاحب الوجه إذ أخبرهما بفاجعته التى أحدثت توجعًا وأسى مضافًا إلى أساه الذى ظل يعانيه منذ تلك الأحداث فى الرابش بطبرق ، على أن الشيخ عبد الحميد صار يهدئ من روعه وهو يردد (إنا لله وإنا إليه راجعون ، وإن الله مع الصابرين ، وإن صبرتم أجرتم) فى حين أن الحاج سعد لم ينطق بكلمة كأنما أصيب بالصمم بينما قدم بقية المصلّين تعازيهم لسى عبد الله والكل يردد (إنا لله وإنا إليه راجعون) وبينما شمل الكون ضوء الصباح تجمع أهل القرية لمواساة سى عبد الله وابنيه

وتعزيتهم فى الفقيدة وصارت بعض النساء تصرخ كما هى العادة لكن الشيخ أسكتهن وقال إن من يحب الفقيدة يجب أن يترحم عليها لا أن يصرخ ويولول ذلك أن البكاء والصراخ بصوت عال مكروه فى الإسلام ولا يستحب من ذلك إلا دموع الرحمة ، وإن (كرامة الميت فى دفنه) حيث يلاقى أعماله وحسابه عند الله وقال : إن الإنسان عندما يموت تذهب معه إلى المقبرة ثلاثة أشياء وهى (عمله وأهله وماله) وبعد أن يدفن يعود المال والأهل ولا يبقى إلا العمل وهو ما يحاسب عليه .

تم تغسيل ودفن فاطمة وتفرق المعزون حيث كان الوجوم يخيم على الجميع وهو الشىء الذى يذكّرهم بأحبائهم الذين قضوا فى طبرق وغيرهم الذين يعانون من عاهات باقية معهم إلى يوم الممات ، وأحد أسباب التأسى أن سى عبد الله كان محبوبًا بين أهل القرية وفاطمة كانت امرأة صالحة ودودة وصبورة حتى فى أوقات المحن ولم يحدث أن تذمرت أو اشتكت أو أساءت لأحد ، وكان البعض منهم يقول : مسكينة ارتاحت فقد عانت كثيرًا من آلام المرض والفقر ، والبعض الآخر يرثى لسى عبد الله الذى فقد يده فى طبرق وما كاد يفرح حتى فقد زوجته وربما سيفقد بصره قريبًا إذ لابد أن يبكى عليها ولو سرا وذلك ما يؤثر على عينيه المصابتين بمرض لم يعرف وقيل إنه لابد أن يكون من أثر

البارود الذى نتج عن تلك القنبلة التى انفجرت فيه عندما كان يفكك القنابل والألغام بطبرق ، وبعد تفرق المعزيّن اختلى عبد الله بنفسه بذلك الداموس فى أول ليلة بعد وفاة فاطمة أحس بأن الداموس كما لو كان مغارة مهجورة منذ زمن على الرغم من أنها حتى قبل أن تموت كانت جثة هامدة كالميتة ، وكانت هناك بجانبه فتيلة زيت مضاءة وقد رأى فراشة تحوم حولها فنهض سريعًا وأطفأ تلك الفتيلة كيلا تحترق الفراشة لأنه كره الموت وإن كان يطلبه وينتظره ، وأراد أن ينام لكن تلك الأهوال والمآسى طافت برأسه وكانت ليلته مسهدة حيث نهض صباحًا بصداع فى رأسه كأنه نواقيس كنيسة وكان ريقه جافًا وعيناه تؤلمانه بشدة وقد تمنى لو كانت لديه مرآة حتى يراهما ، خمن لبعض الوقت ثم توضأ وقام لأداء الصلاة وكانت هذه هى المرة الأولى التى لم يؤد فيها صلاة الفجر والصبح بالمسجد ، ابتهل كثيرًا فى صلاته وهو يناجى خالق الكون الكريم طالبًا الرحمة لزوجه والصبر والسلوان له ولأولاده وقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ صدق الله العظيم [1] .

---

(١) سورة آل عمران ، آية ١٨٥ .

ثم جلس أمام الداموس مفترشًا حصيرًا وبجانبه ولداه فى حين كانت زوجة ابنه محمد تتلقى التعازى والمواساة بدارها المجاورة للداموس إذ إن المتبع والمعتاد أن يجلس الرجال فى مكان والنساء فى مكان آخر، كانوا فى انتظار المعزين وزوارهم للمواساة مثل الشيخ عبدالحميد والفقى مصباح والحاج سعد وغير هؤلاء من معارفهم فى تلك القرية وقد توافدوا الواحد تلو الآخر، واستمرت أيام العزاء الثلاثة يخيم عليها الحزن والأسى وإن كان عبدالله يحاول أن يكون صابرًا وأن يخفف من وطأة الحزن على ولديه قائلاً : (إن الموت حق ، ولا راد لمشيئة الله ، وكل نفس ذائقة الموت..) وكان من عادة أهل تلك المنطقة أن أهل المتوفى لا يطبخون طيلة أيام العزاء حيث يتناوب أو يتعاون أهل القرية أو المنطقة حسب الحال فى تقديم الأكل والشاى وحتى ماء الشرب.

ومرت الأيام ثقيلة موحشة وخلال اليوم السابع من وفاة زوجته زار عبد الله قبرها ليقرأ الفاتحة ترحمًا على روحها وكان ذلك بعد صلاة العصر فوقف وسط تلك المقبرة التى تصطف فيها قبور الموتى منذ زمن طويل بعضها كان قديمًا والبعض الآخر لم يمر عليه وقت طويل حيث تنبت على جوانب تلك القبور القديمة عشيبات صفراء ذابلة كأنها ميتة هى الأخرى ، وقف وسط المقبرة إلى أن لفّ الظلام الكون كله ،

هواجس كثيرة تزاحمت وتداخلت فى ذهنه ، فإذا كان قد فقد يمناه فى طبرق أيام كان يمارس عمل تفكيك القنابل والألغام بسبب الاحتياج وكانت المرحومة تنهض فجر كل يوم لتجمع نبات الحلفاء من أجل إطعام ولديهما وكانت تسهر على خدمة أمه وهذين الولدين فها هو قد فقد رفيقته تلك وهذا اليأس والألم يحرقان فؤاده وكاد يفقد صبره وإيمانه وهو الرجل الذى كان مفطورًا على تحمل الصعاب وفى زمن سابق كان قد استهان بأخطار القنابل والألغام فى العدم وبئر حكيم وصمد لرياح القبلى وبرد الشتاء والعوز لكنه الآن يحس بأن الموت يقترب منه بل ربما هو يطلبه إذ ليس هناك ما يستحق الحياة ، نظر يمنة ويسرة متفحصًا القبور المتناثرة على تلك الأرض الجدباء وقال فى داخله : كانت لكل هؤلاء همومهم ومشاكلهم لكنهم ارتاحوا الآن ، وعندما نظر فى الظلام ظل واقفًا يحدق فى لا شىء كأنما رجلاه قد تسمرتا أو غاصتا فى تلك الأرض ، فى المقبرة ، وهو الحى الميت ، وإذ سمع نباح كلب التفت لكن الظلام كان دامسًا ، قال فى سره : مع الأسف فإن مقابر المسلمين تترك هملاً وتكون مرتعًا للكلاب والقطط وحتى الدجاج وبقية الحيوانات .

وعندما عاد إلى الداموس تلك الليلة أرهقه السهاد والضجر لأن النوم لم يداعب عينيه أبدًا ، وقال للشيخ عبد الحميد إن الحياة صارت لا مذاق لها بالنسبة له لكن الشيخ أجابه بالقول : إن الحياة لا تتوقف عند أحد أو على أحد ومن فضل الله على الناس أن وهبهم النسيان وأضاف (اعمل لدنياك كأنك تعيش دهرًا ولآخرتك كأنك تموت غدًا) .

ولابد أن الفواجع إذا تتابعت تكون صعبة الاحتمال وهكذا لم يمر وقت طويل على سى عبدالله حتى انتشر الشيب فى سوالفه وشاربه وحواجب عينيه كذلك ظهرت التجاعيد على الخدود والرقبة وظاهر اليدين وتحت العينين وتلك شيخوخة لا تخطئها عين وحتى فى جلسات الشاى بالكندورة التى لم يستمر فى الحرص عليها كما هو الحال فى السابق كان لا يتكلم ولا يناقش وكان الحاج سعد وهو أقرب الناس إليه يقول له كلما رآه صامتًا حزينًا غائب الفكر : يا سى عبد الله لا تجعل بقية حياتك نواحًا وقد كانت بعض بدايتها فواجع ، لكنه لا يرد وإنما ينظر بعينين زائغتين محمرتين بريقهما يكاد ينطفئ ، وفواجع بعض الناس ربما تكون ككرة الثلج كلما استمرت تتدحرج كبرت وهو ما حاق بسى عبد الله بعد وفاة زوجته فقد صار ابنه الثانى أى الأصغر أكثر تبرمًا بالحياة وبكل شىء يحيط بهم وهو يشاكس لأتفه الأسباب ولا يطيق

الحديث أو التعامل مع أحد وخصوصًا زوجة شقيقة محمد رغم أنه لا يقيم معها فى سكن واحد ومع ذلك فهو ينتقدها ولا يحب أكلها ولا سماع كلامها وهذه كانت حاملاً وفى فترة الوحم التى تنقلب فيها سلوك أغلب النساء فيكرهن أحيانًا حتى أزواجهن ومن ثم صار التشاحن بينهما عادة يومية ، الشىء الذى ضاعف من بؤس حياة سى عبد الله فهو لا يريد أى خلاف بين ولديه ولا يتمنى إغضاب زوجة ابنه محمد وهى ابنة الشيخ عبد الحميد صديقه الذى شاركه أحزانه وشد من أزره إبان أزمته الحادة قبل وبعد وأثناء وفاة زوجته ، وصديقه هذا صار نائبًا فى البرلمان ويخاطب بتعبير النائب المحترم كما جرت العادة فيما يتعلق بأعضاء البرلمان ولهذا المنصب مهابة واحترام كبيران خصوصًا بالنسبة لأولئك النواب المعارضين والذين يمثلون عادة رأى الناس ، كما أنه لا يريد لهذه الأسرة الصغيرة أن تتفكك أو أن يحيق بها المزيد من الحزن والبؤس أو الشقاء على الأقل إلى أن يتوارى هو .

وصار سى عبد الله إما هروبًا من الضغط النفسى أو رغبة فى الحفاظ على توازنه العقلى يختلي كل ليلة جمعة إلى حلقة الذكر بالزاوية القادرية حيث يتجمع عدد كبير من رواد تلك الحلقة يرددون ابتهالات دينية وذكرًا منظمًا يمارسونه كمجموعة مع الدق على البندير وتتصاعد

فيه أدخنة البخور كثيفة من مواقد مصنوعة من الطين المشوى موزعة فى جوانب الزاوية حيث يقوم على إلهاب النار فيها ورش البخور عليها أواخر الملتحقين وهؤلاء يسمون أنصارًا ومنهم بالطبع سى عبد الله .

ولقد انتشرت زوايا الذكر فى كل مكان كالشاذلية والأسمرية والعيساوية وغيرها وهذه مثلها مثل القادرية لها أتباعها ومريدوها وأنصارها ، كذلك لها طقوسها وأعلامها وبرامج احتفالاتها الأسبوعية والشهرية ، ويظهر أن الناس كلما ألمت بهم المشاكل والصعاب والأزمات يلجأون إلى الطرق الصوفية وما وراء الطبيعة من سلوك حتى أنهم يرفعون أعلامًا على قبب بعض الأضرحة ويزورونها حيث يحرقون البخور تبركًا ورجاء .

وكانت الانتخابات البرلمانية قد انتهت منذ بعض الوقت وفاز من فاز إن حقًّا أو تزويرًا واحتفل المؤيدون لهذا المرشح أو ذاك ولم تحدث مشاكل خلال تلك الانتخابات وربما تنفس المسئولون الصعداء وابتهجوا بتلك النتائج ، وإذ صار النواب المحترمون يتهيأون لمباشرة مسئولياتهم فى ظل ظروف سياسية واجتماعية ومعيشية مدوية تطلع الناس على مختلف مشاربهم وانتماءاتهم ورغباتهم إلى أولئك النواب والبرلمان الجديد وكذلك تلك الحكومة التى تشكلت قبل الانتخابات واتخذت مقرًّا جديدًا لها أيضًا فى مدينة البيضاء أسمته (المقر الصيفى

للحكومة) ربما تخفيفًا لوطأة القرار على الناس ، ولابد أن أول دورة لهذا البرلمان ستعقد كذلك فى مقره الجديد بتلك المدينة وسيلقى خطاب العرش الذى يحدد حسب ما هو متوقع مهام الحكومة ومتطلبات المرحلة القادمة كما لابد أن يشير كما هى العادة إلى ما كان قد أنجز من مشاريع وخدمات وسياسات ثم تتفرع عن المجلس لجنة الرد على خطاب العرش ذاك ، ومن هنا تكون المرحلة الجديدة قد بدأت .

المخاض :

حدث التوتر السياسى والاجتماعى والاقتصادى بين أفراد مجتمع كان هادئًا ولم تلتفت الحكومة أو تهتم بمعالجة هذه التطورات بل على العكس زادتها تعقيدًا ، ففى الجانب السياسى كانت ثورة الجزائر وكانت أحداث سنة ١٩٥٦م (تأميم قناة السويس والعدوان الثلاثى على مصر وقبل هذا كان القتال ضد الإنجليز فى السويس) ثم وحدة مصر وسوريا وحدوث الانفصال بعدئذ ، وفى الجانب الاجتماعى كان الانتقال إلى البيضاء قد جعل عائلات تتوزع بعد أن كانت مستقرة منذ وقت طويل فى العاصمة طرابلس فالبعض حدث أن انتقل وترك عائلته والبعض الآخر نقلها إلى حيث مكان العمل وكلاهما واجه العديد من المشاكل التعليمية والصحية وحتى النفسية وهو الشىء الذى لم يعهده

المجتمع الليبى المترابط المحافظ والمتمسك بالعادات والتقاليد الاجتماعية مثل حالات الوفاة والزواج ورعاية كبار السن وعيادة المرضى من الأقارب والصحاب والأصدقاء ... إلخ ، أما اقتصاديًا فإن توزع الأسرة الواحدة وكثرة التنقلات بين البيضاء وطرابلس وسبها قد أضاف عبئًا على ميزانية كل أسرة وكذلك اتجاه الحكومة إلى فرض المزيد من الضرائب والرسوم ، هذا على المستوى الإقليمى ، أما على المستوى القومى فقد تجاهلت الحكومة روابط التاريخ والثقافة والدين والتراث واللغة والآمال وهى روابط أقوى من الحواجز الإقليمية والمصالح الآنية الذاتية (على أهمية هذه الأخيرة بالنسبة لشعب فقير عانى كثيرًا من البؤس والفاقة والقحط) وهكذا كانت سمة تلك الفترة هى اللامبالاة والأنانية وفى هذه الحالة فإن قوى الشر لا يردعها رادع (إن وجد) ولذلك كانت صرخة (قد بلغ السيل الزبى) فى واد ولم تجد آذانًا صاغية ولا عقولاً واعية وكأنها فكرة عجفاء ، ولعله من المستحيل تفسير ذلك بغير القول الشائع (من المعضلات توضيح الواضحات) وما أتى فيما بعد ينطبق عليه المثل العربى القائل (على نفسها جنت براقش) .

ومع بداية دخل النفط حدث الترف والإفراط فى الفخفخة فجأة بمعنى أنه لم يحدث الانتقال التدريجى بحيث يحسب ذلك على أنه

تطور طبيعى ومعايشة روح العصر ولهذا حدث لغالبية الناس عسر فى العيش وعسر فى السياسة وضاقت فسحة التسامح لدى شعب كان متسامحًا ، ولأن الإعلام كان حكوميًا موجهًا وبعض الصحف الخاصة كانت مكممة بالرقابة الرسمية لم تكن هناك فرصة للتعبير عن آلام الناس وكشف الفساد فى أجهزة الدولة (كالرشوة والواسطة والمحسوبية والقبلية ... إلخ) ولذلك حدث اللجوء إلى العمل السرى الذى تمثل فى أحزاب وتنظيمات تحت الأرض بما فى ذلك داخل القوات المسلحة رغم الرقابة الشديدة عليها من أجهزة النظام ومخابرات وخبراء بريطانيا والولايات المتحدة ، وقد سبق ذلك ما حدث خلال الانتخابات البرلمانية التى كانت مناسبة لإبداء الآراء وطرح البرامج التى تتحدث عن مصالح الناس وصورة المستقبل المأمول والعلاقات مع العالم ... إلخ .

وما يمكن أن يعبر عن العمل السرى يتمثل فى كتابات على الحيطان ومنشورات توزع ليلاً فى مختلف مناطق البلاد وهكذا عمدت الأحزاب والتنظيمات إلى فعل ذلك فى حين تمت دعوة أعضاء مجلس النواب الجدد إلى عقد جلسة افتتاح الدورة البرلمانية فى مدينة البيضاء ، وفى هذه الفترة هطلت أمطار غزيرة فملأت الآبار بالمياه العذبة

وهو الشيء الذى جعل الناس يتفاءلون خيرًا بالغيث الذى جاء مبكرًا ، وكما قال تعالى فى كتابه الكريم : بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ (1) وكانت نساء قرية الشيخ عبد الحميد يأتين بماء الشرب من عين تقع فى كعب واد بين جبلين تسمى (مسلاغين) يذهبن إليها كل صباح حاملات على ظهورهن قِرَبًا حيث يملأنها ويصعدن بها ذلك الجبل الذى يبلغ ارتفاعه أكثر من ألفى متر سيرًا على الأقدام وعلى بعد مسيرة ساعة كاملة من القرية ولذلك فإن هطول الأمطار يعتبر هدية من خالق الكون بالنسبة لهن كما هو لكل الأنام ، وهؤلاء الناس كانوا لا ينتظرون الكثير من مجلس النواب أو غيره لأنهم يكتفون بإنتاجهم إذا ما رحمهم الله بالمطر ، وأهل هذه القرية بل كل قرى الجبل والنجوع فى الحمادة كانوا تحقيقًا لحاجاتهم يجففون كل شيء بما فى ذلك اللبن حيث يدخرون الطعام المجفف ، فهم مثلاً يشرّحون الطماطم الخضراء ويقددون اللحم ويخزّنون القمح والشعير وزيت الزيتون وبعد ذلك يضعون كل تلك المأكولات فى قلَلٍ وأزيار وجِرَار ، وغالبًا ما تكون فاكهتهم التمر والتين وقت نضوجهما وخضارهم الخبيز ويتطببون بالزعتر والحرمل والقبار والشيح والرتم ويربّون الأغنام

(1) سورة الأنبياء ، آية ٣٠ .

ويسكنون فى الدواميس كما أنهم كانوا لا يسمعون ما يحدث ويجرى إلا بعد وقت طويل حتى فى حالات الحروب كالحال فى فلسطين حيث كانت الأخبار تصلهم بعد شهور ومن أفواه العائدين من هناك ، هذا قبل أن يعرفوا الثلاجات فى عهد النفط أما الآن وقد عرفت الثلاجات وأجهزة الراديو والهواتف والكهرباء ، وإن لم تكن عامة ، لكنها وجدت ، فقد صار ما يجرى فى أبعد نقطة من العالم يسمع ويعرف فى نفس الوقت ولهذا أصبح ما يناقش أو يقرر يعنيهم ويؤثر فى حيوتهم سلبًا أو إيجابًا ، ومن هنا كان الاهتمام بما يناقش فى البرلمان الجديد ، وإذ انتظم أعضاء البرلمان فى جلسة الافتتاح بالمقر الجديد فى البيضاء تحقق بذلك أول هدف للحكومة وكان التقليد المتعارف عليه أن يرأس جلسة الافتتاح أكبر الأعضاء سنًا فكان هذه المرة شيخًا معممًا هو الشيخ عد الحميد الشيء الذى أسعد ناخبيه وخصوصًا فى تلك القرية التى يقيم بها وأولئك الناس الذين كان يجالسهم فى الكندورة وقد اخترعوا قصصًا وحكايات من ذلك كالقول إنه رجل دين وإنه مفطور على الصدق والاستقامة وكان أكثر المتحمسين سى عبد الله حتى أنه قال إن الحكومة لابد أنها رأت فيه كل المزايا اللازمة لهذا المنصب اعتقادًا منه أن ذلك حدث بقرار من الحكومة ، وعندما التقوا فى جلسة الشاى ليلاً تساءل الحاج سعد :

ترى هل سيجلس معنا الشيخ على هذا الحصير كما كان قبل العضوية و.. توقف قليلاً ، والرئاسة ؟

حدجه سى عبد الله بنظرة فيها استغراب وقال :

كيف تقول هذا الكلام يا حاج سعد ؟ الشيخ لا يمكن أن يتغير حتى لو صار ملكًا ..

يهز الفقى مصباح رأسه يمنة ويسرة وهو يعض على شفته السفلى وقال :

بل قولوا هل سيبقى فى القرية بعد أن صار رئيسًا للبرلمان وتنسم هواء الجبل الأخضر و.. وفلوس الحكومة ؟

قال آخر : إن مدينة البيضاء يقال إنها جميلة وفى أحسن منطقة بالجبل الأخضر والحكومة أعدت (فيللات) مجهزة بكل شىء لسكن النواب والوزراء مجانًا ، بل وحتى الموظفين صغارًا وكبارًا . ينظر مباشرة فى وجه سى عبد الله متوقعًا الرد العنيف .

الحاج سعد : خلونا ننتظر ونشرب الشاى الآن .

عبد الله بامتعاض : أنا أظن أن البقاء فى الزاوية والحضرة أفضل من الشاى والكندورة ؟

الفقى مصباح وهو يحك صدغه : هيه سنفقد الشيخ وصهره ، ينظر إلى سى عبد الله مستغربًا هذا التغير المفاجئ وخصوصًا بعد الكلام عن الشيخ عبد الحميد ، فى داخله : ماذا يريد عبد الله ، هل هو الطمع ؟

فى هذا الوقت وصل الأستاذ على وهو جديد على القرية وكان قد نقل إليها كالمنفى ويعمل موظفًا بالمحكمة الشرعية ، هو رجل فى مقتبل العمر شاحب اللون وجهه مستطيل عيناه صغيرتان يشع منهما بريق قوى مما يدل على الطموح ، منكباه قويان أنفه معقوف طويل القامة يرتدى ملابس إفرنجية دائمًا وهؤلاء يتندرون عليه كلما جاء مضغوطًا فى تلك الملابس وهم يسمونها (فضائحية) أما الفقى مصباح فيقول إنها لباس الشياطين ، لكن الأستاذ على مَرِحٌ ضحوك يضفى على الجلسة كلما جاء جوا مرحًا وهو كثيرًا ما يتحدث فى السياسة وينتقد ما يجرى فى البلاد ، وربما كان هذا هو السبب فى إبعاده إلى هذه القرية وهو الذى كان يعيش فى المدينة ، وعندما جاء كان يحمل معه جهاز راديو متوسط الحجم ومعه بطارية جافة توصل بخيوط خارجية تظهر عليها كتابة أجنبية ، جلس على يمين الفقى مصباح فقال الفقى : زارتنا البركة ، وفى سره الشياطين ، ابتسم الأستاذ على وانشغل فى

توصيل خيوط البطارية ثم صار يبحث عن محطة الإذاعة الليبية وفى هذه الأثناء قال للفقى مصباح : سوف تسمع يا فقى مصباح صديقك الشيخ عبد الحميد فى البرلمان (غمز بعينه اليسرى عندما قال ، الشيخ عبد الحميد) فرد الفقى وهو ينظر إلى وجه سى عبد الله قائلاً : سوف يسمعه الحبايب ، ألا تعرف أن عبد الله صهر الشيخ عبد الحميد ، صنع الأستاذ على ابتسامة صفراء دون أن يعلق ، ثم قال : أرجو أن تكون الإذاعة اليوم واضحة لأنها عادة ما تكون ضعيفة ، ينظرون إليه باهتمام وهو منشغل فى البحث ، تظهر أصوات وصفير وطرطقة فيقول الفقى : لعل البطارية هى التى لا تصلح ؟ وفجأة سمعوا صوتًا يقول : هنا الإذاعة الليبية من طرابلس ، ونتحول الآن إلى مقر مجلس النواب فى البيضاء لننقل لكم وقائع جلسات افتتاح الدورة البرلمانية وخطاب العرش ، تبادلوا نظرات الاستغراب ، وتساءل الحاج سعد :

متى سيصل إلى البيضاء وهو فى طرابلس ؟ وما كاد يكمل جملته حتى عاد المذيع ليقول : سيداتى سادتى هنا الإذاعة الليبية من البيضاء ، ومنها ننقل إليكم وقائع جلسة الافتتاح من مبنى البرلمان الجديد .

قالوا : سبحان الله كيف يحدث هذا وبهذه السرعة ؟

قال الفقى مصباح : العالم يتقدم .

لم يعلق الأستاذ على الذى كان يوجه جهاز الراديو وهو يحركه بين هذا الاتجاه وذاك بحيث يكون الصوت مسموعًا وواضحًا .

انثالت على رأس سى عبد الله ذكريات ، إنها السفر من طرابلس والتوجس والخوف فى الطريق من البوليس والتوقف أمام بوابات التفتيش ثم الوصول إلى أجدابيا فطبرق عبر الصحراء القاحلة من خلال طريق برى متعرج يسمى (طريق رومل) بعد قرابة أربعة عشر يومًا مشيًا على الأقدام ، سوق العجاج والعدم وبئر حكيم والرابش حيث كانوا يفككون القنابل والألغام وهم بين الحياة والموت ، انفجارات وأشلاء لحم بشرى مبعثر،أموات بلا عزاء ولا صلوات ولا مراسم دفن ، ثم العودة من طبرق إلى درنة والبيضاء ثم بنغازى وبعدئذ طرابلس وصولاً إلى قريته ، رحلة طويلة شاقة تذكرها عندما سمع اسم البيضاء ، وتذكر عودته بعد ذاك ، تلك العودة المشئومة حين انفجرت فيه قنبلة قطعت يده وكسرت رجله وكادت تفقده البصر وها هو مازال يعانى آثارها ، ينظر فجأة إلى عقب يده اليمنى المبتورة ساهمًا متذكرًا تلك الأحداث كما هى ظاهرة على جسده هى أيضًا منقوشة فى ذاكرته ، كان الآخرون يحدّقون فى جهاز الراديو الذى صار يصدح بالموسيقى وهم لا يفهمون لماذا الموسيقى فى افتتاح البرلمان لكن الأستاذ على قال إنها موسيقى

السلام الوطنى وهى لابد منها فى كل مناسبة وطنية ، ثم جاء الصوت معلنا افتتاح الجلسة وقدم رئيس الوزراء ليلقى خطاب العرش وقبل ذلك كان المجلس قد انتخب رئيسًا له وهذا عادة ما يكون من أولئك الموالين للحكومة ، كان هذا الرئيس شخصًا كأنه منحوت من صخر صلد ، ذا رأس كبير وجسد كأنه الفيل غير مهندم ، تصرفاته وحركاته وسماجة كلامه توحى للسامع بما هو عليه ، أما فى حمقه فكأنه عجل بن لجيم بن صعب الذى قال فيه شاعر قومه عندما سأله بعض الناس : ما سميت فرسك ؟

ففقأ عينه وقال : الأعور ، سميته الأعور :

رمتنى بنو عجل بداء أبيهم

وأى امرئ فى الناس أحمق من عجل

أليس أبوهم عار عين جواده

فصارت به الأمثال تضرب فى الجهل

وكان الخطاب طويلاً وهكذا لم يتحرك أحد من الجماعة المتحلقة حول الراديو ولا فكروا فى إعداد الشاى كالمعتاد ، وكما هو متوقع حوى خطاب العرش الكثير من الوعود وبالغ فى تعديد الإنجازات (عملت

حكومتى ونفذت حكومتى وستعمل حكومتى ... إلخ) وقبل أن ينتهى الخطاب علقّ الأستاذ على قائلاً : سبحان الله كأن رئيس الوزراء هذا وهو يلقى خطاب العرش يخاطب أناسًا فى شِعْبٍ من شِعَابْ الجبل الأخضر وليس إلى مجلس يفترض فى أعضائه أنهم يمثلون الشعب ، ثم أضاف بعد قليل من التوقف : من الواضح أن فصل الخريف كما يعرى ويسلب الأشجار أوراقها سيعرى هذا الحكم .

نظروا إليه باهتمام لأنه لابد يعرف أكثر منهم وهو قد تابع كل كلمة قيلت فى هذه المناسبة ولهذا فإن تعليقه له معنى خاص ، ولأنهم لم يتفوهوا بشىء أضاف : سنرى كيف يكون رد النواب على خطاب العرش .

فقالوا بصوت واحد : هناك الشيخ عبد الحميد ولابد أنه سيكون أول المتحدثين ، وهو فى رأيهم لا يصعب ولا يستغلق عليه شىء .

تأتأ الفقى مصباح بكلمات لكن السعال أدركه فلم يفهم منه شىء وقد أخرج منديلاً مكرمشًا ليكفكف دموع عينيه الشاحبتين من أثر السعال ، وكان سى عبد الله قد أخرج فى هذا الوقت علبة السعوط وقبض بإصبعيه بعد أن فتحها على مسحوق منها ودفع به فى منخريه حتى صار يعطس ثم قدم العُلبة للفقى مصباح لكن هذا امتنع بينما

تناولها الحاج سعد ليفعل نفس الشيء ويعطس هو الآخر عدة مرات وفى كل مرة كان يقول الحمد الله ، وإذ هبت ريح قبلية وصارت تلطم وجوههم وقف كل منهم وصار الأستاذ على ينفض جانب بنطلونه من الخلف حيث كان يجلس على حَجَرٍ لأن ملابسه إفرنجية ضيقة لا تساعده على الجلوس مثلهم على الحصير ورمقه الفقى مصباح بنظرة ولكنه لم يعلق بشيء كما اعتاد أن يفعل كلما رأى الأستاذ يجلس أو ينهض وهو يرتدى ذلك اللباس .

قال الحاج سعد : الليلة يظهر أنها ستكون عاصفة ممطرة . وقد سمعوا أزيز الرياح من خلال أغصان الزيتون وتطاير الغبار من الكدوة المقابلة لمكان جلوسهم .

قالوا فى وقت واحد : إن شاء الله لأن المطر خير وبركة وهذا وقتها .

توجه كل منهم إلى سكنه على وعد باللقاء يوم الغد كالمعتاد بينما انشغل الأستاذ بفك أسلاك البطارية ونقلها مع جهاز الراديو قابضًا عليها بيده اليمنى والراديو باليسرى وتمتم وهو ماشٍ : لم يكن هناك من جديد فى خطاب العرش غير بعض ما يمكن اعتباره تمنيات فلا شيء عن

القواعد والقوات الأجنبية ولا تغير فى السياسة الخارجية وقد جاء كل شيء كمن يمسك بالعصا من الوسط وهو ما ألفه الناس فى مناسبات سابقة ولذلك فهم فى الغالب لا يهتمون بما يقال فيه .

ولابد أن الوزراء قد جلسوا فى مكاتبهم المكيفة المدفأة والمجهزة بما يتناسب مع المقر الجديد كما لابد أن النواب قد انشغلوا فى مناقشات الرد على خطاب العرش وسيكون هو أيضًا كما عرف ، ترحيب ومباركة ، وسوف يترددون على مكتب وزير الإسكان من أجل تخصيص البيوت لأسرهم وتجهيزها بما يلزم بحيث يمكنهم أن يقيموا فى هذه المنطقة الجميلة ولابد أن بعضهم قد انبهر بتلك المروج الخضراء والورود الفواحة والأزهار كذلك الجو والطقس اللطيفان المشبعان بروائح عطرة تفوح من كل اتجاه ، الشيء الذى ربما سينسيهم واجباتهم تجاه الناس والبلاد أو على الأقل يلين من كان متصلبًا منهم .

انقضى أسبوعان بعد الافتتاح وكان ثلاثة من النواب الذين اختيروا لتقديم الرد الذى صيغ بكلمات بليغة للإشادة بما جاء فى خطاب العرش ، كانوا قد التقوا بالملك فى طبرق بعد انتظار طال حيث قيل لهم إن الملك مستاء جدًا من الأخبار التى جاءته عن مظاهرات

الطلبة وعن ضباط الجيش الذين عبروا الحدود بالقوة مع بعض وحداتهم لينضموا إلى الجيش المصرى إذ كانت الأخبار قد تواترت عن حشود عسكرية إسرائيلية على حدود سوريا وأنها تستعد لمعركة فاصلة وأن الجيش المصرى سيدخل المعركة إذا ما هوجمت سوريا المهددة بالاجتياح الإسرائيلى فى أى لحظة وأن عبدالناصر قد أعلن أن مصر سوف تقف بكل إمكانياتها مع الشقيقة سوريا ثم بعد ذلك طلبت مصر رسميا من السكرتير العام للأمم المتحدة سحب قوات الطوارئ الدولية المرابطة على الحدود المصرية الشرقية ، وكانت القوات البريطانية فى ليبيا وقواعدها قرب الحدود المصرية قد وضعت فى حالة استعداد وقد حدث فى هذا الوقت شىء طريف اهتم به الناس فى البلاد وأشبعوه نقدًا وتندرًا ذلك هو زيارة وزير الدفاع الليبى ليوغسلافيا كأنما أرادت الحكومة الجديدة بذلك أن تفهم الشعب أنها ليست مع الغرب قلبًا وقالبًا وها هى قد أرسلت وزير دفاعها إلى دولة شيوعية من أجل التفاوض على شراء السلاح وبالغت وسائل إعلامها فى إبراز أهمية تلك الزيارة وذكرت أن الوزير والوفد المرافق له قد التقى الرئيس اليوغسلافى جوزيف بروز تيتو ووزير دفاعه كما زار المصانع الحربية وبعض القواعد العسكرية للاستفادة من خبرة ذلك البلد ، وإذ لم ينتج عن تلك الزيارة

أى اتفاق قال الليبيون : إن الوزير الليبى فى زيارته لقاعدة عسكرية وقف أمام طائرة -حربية وطرق مقدمتها بعصاه وقال : (بكم هذه الشهباء) والمعروف أن الوزير كان يحمل معه دائمًا عصا يتوكأ عليها ، ولأن المرافقين هزأوا من ذلك القول قرر أن السلاح اليوغسلافى لا يصلح لليبيا وهو ما كان متوقعًا ، كما قيل إن هذا الوزير عندما قابل الرئيس اليوغسلافى قال له هذا الأخير فى كلمة ترحيب وربما للتخفيف من الحذر المعروف عنه وعن حكومته من الشيوعية ، قال : إن الغرب يتهمنا بالشيوعية ونحن أبرياء منها لأن بلادنا تنهج نهجًا خاصًا بها نسميه التسيير الذاتى ، وعندما رد الوزير الليبى ذاك قال : سيدى الرئيس نحن أيضًا يتهموننا بالديمقراطية ونحن منها براء (اعتقادا منه أنها تهمة !) .

وعلى إثر تلك الأنباء والتطورات حدث الانقسام الشديد بين جيلين فى المجتمع الليبى : جيل الشباب المتطلع المتحفز المنفعل ، وجيل الكبار المتعقل الذى يحمل الكثير من هموم الماضى ومآسى الفقر والعوز والفاقة والقحط والذى يرى أن الحال أفضل بكثير من العهود السابقة فهناك خدمات صحية وإسكانية مجانية وفرص عمل وتعليم مجانى فى جميع المراحل الدراسية وكذلك جميع الأدوات من كراسات وكتب وغيرها ، بل إن الطالب الليبى عندما يلتحق بالجامعة

تخصص له منحة مالية شهرية ويحصل على بدلتين إفرنجيتين فى أول التحاقه بالدراسة الجامعية ، وصغار التلاميذ يحصلون على الغذاء والدواء الجيد مجانًا وهناك جهود تبذل فى شق الطرق وإقامة المنشآت الرياضية والخدمية والتعليمية ، لكن هذا لا يقنع جيل الشباب الذى يود أن يرى أن مصير بلاده باعتبارها دولة عربية إسلامية يجب أن يرتبط بمصير الأمة العربية والإسلامية ويجب أن تكون ليبيا حرة وهذا يتمثل فى إلغاء القواعد العسكرية وطرد القوات الأجنبية لأن وجودها ينتقص من سيادة البلاد بل إنها استعملت فى السابق ضد البلاد العربية ، كذلك يرى ضرورة تقوية وتدريب الجيش الليبى ليتمكن من القيام بدوره فى المحافظة على استقلال البلاد والمساهمة مع العرب فى تحرير فلسطين .

وظل هذا الانقسام آخذًا فى التوسع ، ومما زاد الطين بلّة وألهب النار فى قلوب الناس وأجج حنقهم على حكومتهم تلك الكارثة التى حلت بالأمة العربية وجعلت ذلك النجم الذى صعد إلى السماوات العليا يهبط بشكل مدوٍّ وقد تحطم كبرياؤه وبهت عنفوانه فى حين كان يملأ دنيا العرب بالفخر والاعتزاز بالنفس ، تلك كانت هزيمة سنة ١٩٦٧م وإذلال الجيش المصرى بانكساره فى حرب دبرت بليل ، تلك

الهزيمة التى قتلت جمال عبدالناصر عمليا ، فلقد كانت كارثة بكل معنى الكلمة وخصوصًا بالنسبة للتيار القومى فى ليبيا وفى العالم العربى ذلك التيار الذى كان يعلّق آمالاً على قيادة جمال عبد الناصر ومعتمدًا على ثورته ، وبتلك الهزيمة قضى على طموحه خلال ساعات ، والليبيون لم يواجهوا فيما سبق من تاريخهم القريب حوادث حربية أو طبيعية غير حادث طبيعى واحد عندما ضرب الزلزال بلدة المرج شرق البلاد خلال الستينيات وهو الذى مازالت آلامه عالقة بأذهانهم ربما حتى الآن ولهذا يمكن القول إنهم لا يعرفون كيف يتحملون الكوارث ويكون تبعًا لذلك انفعالهم سريعًا وتأثرهم بالغًا .

ومن المعروف أن العالم العربى أيضًا انقسم بين متألم وشامت ذلك أن عبد الناصر كان له أعداء وأنصار مثله مثل أى حاكم وخصوصًا إذا كان ثائرًا مصلحًا فى بلد أو وطن تفشّت فيه الرشوة والفساد ويسيطر عليه الإقطاع وحكم الباشوات كحالة مصر وقتذاك.

وكان الشيخ عبد الحميد قد عاد إلى القرية حيث كان رفاق جلسة الشاى ينتظرون أخباره ، لكنه فى اليوم الأول لم يأت إلى الكندورة وهكذا ذهبوا لزيارته فى سكنه للترحيب به وتحيته ثم تهنئته على انتخابه لرئاسة المجلس ، ولم يكن الأستاذ على بين الحضور وقد اعتقد هؤلاء

أن مجرد انتخابه لرئاسة جلسة الافتتاح يعنى أنه رئيس للمجلس لكنه شرح لهم أن الأمر ليس كذلك وقد كان متحفظًا فى كلامه وليس كما عرفوه فيما سبق ، وعند خروجهم من لدّنه قال الفقى مصباح : إن ملامح التغير واضحة على الشيخ ، ثم ضحك وقال : أسبوعان فى هواء الجبل الأخضر تأثيرهما بيّن ، وحدّق فى وجه سى عبد الله ، لكن هذا قال :

لابد أن الشيخ متعب من كثرة العمل والمناقشات والأسبوعان كانا للعمل فقط وذلك شىء ليس يسيرًا على شيخ فى هذه المرحلة من العمر.

فبادر الحاج سعد يقول :

دعونا ننتظر حتى نلتقى مساء الغد ، وأشار إلى الفقى مصباح قائلاً : الكاكوية عليك غدا يا فقى .

ضحك الفقى وقال وهو يغمز من طرف خفى : ألا ترى أن ذلك يجب أن يكون من واجب سى عبد الله لأن الشيخ النائب المحترم ليس صهرى يا حاج سعد ؟

قال سى عبد الله : حاضر سأقوم بذلك غدا ، ثم سأل : ألا ترون أنه من الغريب ألا يأتى الأستاذ على لتحية الشيخ ؟

قال الحاج سعد : لعله مشغول ، وضحك ، إما فى الراديو أو فى البطارية .

لكنهم ما كادوا يجلسون على الكندورة ويبدأ الحاج سعد فى إعداد الشاى حتى وصل الأستاذ على وهو يحمل معه ذلك الراديو .

فقال الفقى مصباح : هيه هذا الأستاذ على قد شمّ رائحة الشاى فجاء مسرعًا ، وربما لديه بعض الأخبار عن مصر وماذا حدث بعد استقالة جمال عبد الناصر من الرئاسة وبعد هزيمته العسكرية وتحطم قواته واقتصاد بلاده .

قفز الحاج سعد فجأة ليقول : لا ، هو لم يستقل وإنما قدم استقالته أعنى أعلن استقالته .

الفقى : وما الفرق ؟ ينظر باستغراب !

الحاج سعد : الفرق أن الشعب رفض الاستقالة ولهذا فعبدالناصر مازال رئيسًا .

الفقى لا يعجبه الكلام لكنه لم يعلّق فيما كان ينظر فى اتجاه القادم .

يصل الأستاذ على ويحيى الجماعة وقبل أن يجلس سأل ، ماذا يقول الفقى مصباح ؟ لعله ينتقدنى ؟

يرد الفقى : نحن فى انتظار أخبارك فأنت صاحب الراديو ، يبتسم جلس الأستاذ على وقال : أووه هناك أخبار مثيرة وهامة هذا اليوم نظروا إليه بانتباه ، وقال الفقى : أفدنا أفادك الله .

قال : أولاً الشعب المصرى رفض استقالة عبد الناصر .

فبادره الفقى قائلاً : يا سيدى عرفنا ذلك وما الأهمية فيه ؟

قال الأستاذ : الأهمية فى ذلك أن إسرائيل لم تحقق ما أرادت رغم انتصارها العسكرى وهزيمة الجيش المصرى وموقف الشعب المصرى من الحدث ومن قائده .

يرد الفقى بنرفزة : يا سيدى ما هو الخبر المهم والمثير الآخر ؟

قال الأستاذ : ذكر فى الأخبار أن هناك اتصالات بين الزعماء العرب لعقد مؤتمر قمة عربى . يتساءلون معًا : وما الفائدة من ذلك بعد هزيمتهم ؟

الأستاذ : لعل وعسى .

الفقى مصباح : ليس هناك لعل وعسى فلقد هزمنا وتعرى الحكام العرب بمن فيهم أولئك الذين يتحدثون عن النضال والثورة و.. توقف قليلاً ، والقومية .

الحاج سعد وسى عبد الله لم يشاركا فى الحديث وقد اكتفيا بالاستماع ، أما الأستاذ على فقال : على الرغم من أن الوقت ليس وقت تشفٍ ولكن الحقيقة أنها هزيمة ماحقة وأنا أعتقد أن السبب ليس تدخلاً أمريكيا ولا خيانة وإنما عدم استعداد من جانب وانعدام الحرية والديمقراطية فى الوطن العربى من الجانب الآخر فالرأى الواحد هو الذى كان سائدًا ، فلا صحافة حرة ولا سيادة قانون ولا فرص لإبداء الرأى وبالتالى فإن الإنسان العربى كان مقهورًا مهزومًا من الداخل . يتوقف ، وكان صدره يهبط وينهض من شدة الانفعال .

الجماعة ينظرون باهتمام فى وجه الأستاذ على إلى أن استأنف الحديث ليسأل : هل هناك حرية أو حقوق إنسان فى غير بلد واحد ، هل يحصل المواطن العربى على أبسط حقوق المواطنة فى أى مكان حتى نتوقع منه أن يقاتل بشجاعة وإيمان ؟

تساءل الفقى : أى بلد تعنى ؟

قال : هو لبنان فقط لا غير مع الأسف الشديد ، والبقية خواء وكذب .

ضحك الفقى بصوت عال وقال : أهى تلك الحرية التى دمرت لبنان ؟

فرد الأستاذ على : الحرب التى كادت تحدث أو ربما بعض التقاتل الذى حدث كانت له أسبابه ، والحرية هى التى أبقت لبنان موحدًا ورغم كل شىء ورغم التدخل الأجنبى فإن الإنسان فى ذلك البلد يتمتع بحق النقد والتظاهر والإضراب بمعنى الحرية الدينية والسياسية والفكرية والاجتماعية .

قاطعه الفقى مصباح : تقول حرية دينية ونحن نسمع بين وقت وآخر من بعض الناس الذين عرفوا ذلك البلد أن المسلمين لا يحصلون على حقوقهم فى الوظائف الحكومية وغيرها وأن الحكم فى يد المسيحيين فقط ؟!

الأستاذ على : تلك قضية قانونية يوافق عليها أهل البلاد منذ عهد الاستقلال ولا علاقة لها بالحريات والحقوق وهذا ربما سينتهى مع الوقت ، المهم الحرية وكرامة الإنسان .

الحاج سعد : ولماذا انهزم الجيش المصرى من وجهة نظرك ؟

الأستاذ على : أنا أعتقد أن كل شىء مرتبط بحقوق وحرية الإنسان ورغم أن عبد الناصر وثورته ربما قد استهدفا مصلحة الناس هناك إلا أننى أعتقد أن منع الأحزاب وعدم وجود صحافة حرة ورأى عام حر كان السبب الحقيقى فى كل الذى حصل ولابد من تغيير إما فى

أسلوب الحكم أو الحكم كله بحيث تتاح الفرص للناس للمشاركة وإبداء الرأى والمسئولية .

يتدخل سى عبد الله طالبًا تأجيل الحديث فى هذه الأمور حتى يأتى الشيخ عبد الحميد الذى لابد أنه مطلّع على دواخل الأمور بسبب وجوده هناك ، ينظر فى اتجاه الشرق .

فقال الحاج سعد : عين الصواب ، تفضلوا نشرب الشاى وإذا تفضل الأستاذ على نرغب أن نسمع الراديو لأننا أصبحنا من عشاق الإذاعات والأخبار ، يبتسم .

انشغل الأستاذ على فى البحث بمؤشر الراديو عن أى إذاعة عربية بينما كان الحاج سعد يعد الشاى الأخضر ، وفى جلسة الشاى يتشعب ويتفرع الحديث ، وحدث أنه لأول مرة منذ جاء الشيخ عبدالحميد إلى القرية يعودون إلى استذكار الأحاديث السابقة عن أبى زيد الهلالى والخفاجى عامر ثم عن الهلالية وبنى سليم وكيف جاءت هاتان القبيلتان أولاً إلى صعيد مصر أثناء الحكم الفاطمى ثم إلى ليبيا والمغرب العربى عندما ضاق بهم الحاكم بأمر الله الفاطمى فى مصر وبالتالى شجعهم على الزحف إلى الشمال الأفريقى والاستيلاء على ما يشاءون من تلك

البلاد وكانت تلك الأحاديث تشغل وقتهم كله فيما سبق وظهر أن الفقى مصباح يحفظ البعض منها على أن سى عبد الله قد حوّل مجرى الحديث وصار يسرد أخبار الرابش وطبرق وتلك المعاناة حيث تتفجر القنابل والألغام وكيف كانوا يقومون بجمع لحم من ينفجر فيه لغم أو قنبلة ودفنه فى وقت هم أنفسهم كانوا معرضين للموت فى أى لحظة ولكن لا أحد يعبأ بالخطر بسبب الفقر والبحث عن بعض الرزق ، وقد أطال الحديث وعدّد الفواجع وهكذا فإنه من العادة أن يزين الخيال كثير من القصص والأحداث وقد يبالغ الراوى فيها خصوصًا إذا كانت مفجعة مؤلمة بحيث يؤثر فى سامعيه ويشد انتباههم .

وبعد أن انتهوا من الشاى نهض كل منهم لمغادرة المكان ذلك أن الطقس صار باردًا ليلاً لأنهم فى فصل الخريف وربما لن تكون هناك جلسات أخرى للشاى فى الكندورة لهذا السبب غير مرة أو اثنتين بعد مجىء الشيخ عبد الحميد ، وقبل أن يتفرقوا أبلغوا الأستاذ على أنهم زاروا الشيخ عبد الحميد فى سكنه هذا الصباح وأن الشيخ قد سأل عنه فوعد بزيارته صباح اليوم التالى ، ولم تكن هناك أخبار جديدة فى راديو الأستاذ غير التأكد من الاتصالات العربية بشأن مؤتمر القمة العربى الذى تقرر كما قيل أن يعقد بعاصمة السودان مدينة الخرطوم .

فكك الأستاذ خيوط البطارية كالعادة وتأبط جهاز الراديو عائدًا إلى سكنه وطفق وهو فى الطريق يفكر فى زيارة الشيخ بحيث يفهم منه ما دار من مناقشات فى البرلمان بل وما يدور فى رأسه من مشاريع ومقترحات وهى أمور ربما لا يحبذ الشيخ الخوض فيها ومناقشتها أمام أولئك الصحاب فى جلسة الشاى ، كذلك ربما أمكن للشيخ مساعدته فى الانتقال معه للعمل فى أى وظيفة بحيث يكون قريبًا من مطبخ السياسة ليروى عطشه وهو منذ زمن يشعر بأن المحكمة الشرعية ليست المكان المناسب له ولا هذه القرية التى تمثل حجرة مغلقة لا جديد فيها غير جلسة الشاى والكندورة والكلام القديم الجديد ، وما كاد يصل حتى نضجت الفكرة فى ذهنه وتبلورت بشكل كامل بينما كان يقلبها فى رأسه قبل أن ينام وكان يبحلق فى السقف وهو يستعرض وجوه جلساء الكندورة واحدًا واحدًا وتوقف كثيرًا أمام وجه الفقى مصباح الذى كان غالبًا ما يشاكسه ويتندر عليه فأغمض عينيه وتذكر شعرًا ردده بصوت خفيض :

يـــا مــــن لــــه حـــركـــات

عــلــى الــنــفــوس ثــقــيــلــة

ولـــيس يـــعـــرف مـــعـــنـــى

قصـــيـــرة مـــن طـــويـــلـــة

أورثـــتـــنـــى بـــجـــلـــوســـى

إلـــيك حـــمـــى مـــلـــيـــلـــة

ولم ينم تلك الليلة نومًا متواصلاً هادئًا إذ داهمته الهواجس والأفكار والرغبات وربما حتى الآمال وكان أكثرها إلحاحًا رغبة الانتقال إلى البيضاء وانتهاز فرصة وجود الشيخ عبد الحميد وهو الذى سوف يساعده بفضل ما فطر عليه من حمية ومودة للناس ومع الناس .

وفى الصباح الباكر وعلى غير عادته بعد أن تناول كوبًا من الشاى على عجل ارتدى بدلة مناسبة وحرص على تلميع حذائه توجه إلى بيت الشيخ مزمعًا زيارته وعندما خرج اتضح له أن الوقت مازال مبكرًا حيث لم ترتفع الشمس إلا قليلاً والأرض لا تزال مبللة بندى الليلة الماضية حتى أن صياح الديكة مازال يسمع وكذلك نباح بعض الكلاب ، وسكن الشيخ ليس بعيدًا ، ولهذا عاد أدراجه إذ ربما كان الشيخ نائمًا أو أنه لا يحب الزيارات فى وقت مبكر ، وفجأة تذكر أنه قد يكون فى المسجد فهو كما عرف من رفاقه يؤدى صلاة الصبح حاضرًا بالمسجد ولكن زيارته

هناك لابد أن تكون مستغربة إذ إنه لم يحدث أن صلى هو نفسه حاضرًا بالمسجد منذ جاء إلى هذه القرية وخصوصًا صلوات الصبح وإذا ما رأوه هذه المرة فلابد أن يجعلوا من مجيئه قصة يتندرون عليها ولذلك فمن الأفضل الانتظار على الرغم من أن الناس فى القرى عادة ما يصحون مبكرًا كل يوم ، منهم من يخرج ليرعى شويهاته ومنهم من يذهب لتقليم أشجاره أو تقليب أرضه ومنهم من يُحمِّل ناقته أو جمله بمعدات الحرث استعدادًا لذلك العمل كما تتصاعد الأدخنة من أمام مختلف البيوت حيث تقوم النسوة بإعداد خبز اليوم ويخرج الأطفال للعب أو يتجهون إلى السوق لشراء بعض اللوازم بالمقايضة أو النقود مثل الشاى أو السكر أو التبغ وغير هذه وتلك ، وقد انتظر الأستاذ على إلى الضحى حيث اتجه إلى سكن الشيخ عبد الحميد الذى قابله بترحاب وأظهر له المودة حتى أنه أصرّ على دعوته بعد أن قدم له الشاى والكعك أن يبقى لتناول طعام الغداء معه ، وكان الأستاذ قد أثنى على الشيخ وعدد مواقفه ومزاياه وعلمه وقال إنه باعتباره أحد المؤيدين بشدة للشيخ فى الانتخابات وحتى قبل تلك الانتخابات فقد أسعده نجاح الشيخ ورئاسته جلسة افتتاح البرلمان الجديد وأنه قام بشرح أهمية ذلك فى مستقبل عمل الشيخ السياسى ودوره فى قيادة التيار المستنير فى البرلمان ذلك

التيار الذى تعلق عليه آمال الناس فى القضاء على الفساد إن وجد (شدد على كلمة إن وجد لكى لا يحرج الشيخ) ومحاسبة الحكومة وإرشادها إلى ما فيه خير الوطن والمواطن .

كان الشيخ يهز رأسه استحسانًا و يصيخ السمع ويركز النظر فى وجه الأستاذ على كأنه يقرأ تعبيرات عينيه ووجهه ، وعندما تناول الأستاذ عدة رشفات من كوب الشاى استأذن فى المغادرة شاكرًا للشيخ ترحابه به ودعوته لتناول الغذاء معتذرًا لعدم تلبية الدعوة تلك ، وهذا كرم ليس جديدًا على فضيلة الشيخ ، وقد حاول مضيفه استبقاءه لكنه كرر الاعتذار بكل أدب مؤجلاً الغرض الذى جاء من أجله وقال إنه فقط رغب أن يحيى الشيخ ويرحب به ، مضيفًا أن الجماعة فى جلسة الشاى افتقدوا الشيخ وأحاديثه الدينية طيلة فترة غيابه على الرغم من إدراكهم أن ما ذهب إليه أهمّ وأجّل لأنه فى صالح البلاد كلها ، ودعه الشيخ حتى خارج السكن وقال : سنلتقى مساء إن شاء الله ، السلام عليكم .

وهكذا غادر الأستاذ على مفعمًا بأمل تحقيق ما انتوى عن طريق هذا الرجل الفاضل ، وفى مساء اليوم التالى وصل الأستاذ على إلى الكندورة قبل غيره وهذه هى المرة الأولى التى يحدث فيها هذا وكان يحمل معه جهاز الراديو والبطارية كما تعود أن يفعل خلال الأيام

الماضية وقد أحضر معه صندوقًا خشبيًا صغيرًا بحيث يقدمه للشيخ عندما يأتى إذا رغب إذ ربما لم يعد يريد الجلوس على الحصير ، وعندما وصل الفقى مصباح وقف مشدوها لأنه لم يعتد أن يرى الأستاذ على جالسًا قبل بقية الجماعة ، فقال : غريبة ماذا حدث فى الدنيا ؟

نظر إليه الأستاذ على ثم قال : ما وجه الغرابة ؟

أجاب الفقى : ليس من عادتك أن تأتى قبلنا ، وفى سره غابت الملائكة بحضور هذا الشيطان ، والفقى يرى فيه شيطانًا فقط بسبب تلك الملابس الضيقة المغرية ، والإغراء من أساليب الشياطين كما كان يقول ، والعياذ بالله .

يتساءل الأستاذ : بم توشوش ؟

الفقى : لا ، لا شىء خيرا ، يبتسم ، لكن لعلك تعتزم إعداد الشاى ؟

الأستاذ على : لا ، أنا مهمتى الراديو والبطارية وضبط الإذاعات ، يضحك .

فى هذه الأثناء وصل بقية الجماعة بالتتابع وظلوا فى انتظار الشيخ قبل أن يبدأوا بإعداد الشاى ، خلال هذه الفترة كان الفقى مصباح يغمز

من طرف خفى وفى كلمات هامسة مع الحاج سعد متحاشيا نظرات سى عبد الله ، قال : لكل جديد زهوة كما يقال ، وجديد حياة الشيخ أنه صار نائبا فى البرلمان ولابد أن مكوثه فى الجبل الأخضر أثناء انعقاد جلسات البرلمان قد مكنّه من الاختلاط بمختلف الناس بل من عِلْيَةِ القوم كالوزراء والمسئولين هناك وهذا بالتأكيد يجعله يغيّر من طريقة حياته وربما حتى تفكيره ، كان الحاج سعد يستمع ولا يتكلم ، وفجأة يتدخل الأستاذ على الذى يعوّل كثيرا فى مستقبل وظيفته على الشيخ عبد الحميد ليقول : لقد زرت الشيخ هذا الصباح للتحية رأيت فيه ذلك الرجل الذى عرفناه صاحب الفكر النيّر والطموح الأخلاقى الرفيع فأنا أتصور أنه سيلعب دورا بارزا فى الحياة السياسية الليبية وقد لا يكتفى بأن يكون نائبا فقط .

انشدّ الجماعة إلى هذا القول : كيف لا يكتفى بأن يكون نائبا فقط؟

قال الحاج سعد : نحن انتخبناه ليمثلنا ويطالب بمصالحنا فقط.

تنهد الفقى مصباح وقال :

المال والوظيفة هما ميزان الشخص .

حدّق فى وجهه سى عبد الله لكنه قبل أن يتكلم وصل الشيخ وقد

حياهم بتحية الإسلام فردوا فى صوت واحد : عليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، أهلا وسهلا يا شيخنا ، تفضل بالجلوس .

قدم له الأستاذ على ذلك الصندوق الخشبى الذى كان قد أحضره معه لكن الشيخ تمنع وجلس على الحصير كعادته من قبل ربما لأنه لم يرد أن يظهر أنه قد تغيّر أو ترّفع .

نظر الفقى مصباح إلى الاستاذ على وقرأ سرا : ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا هِىَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ .

ابتسم الشيخ وسأل : فيم يفكر الفقى مصباح أراه شاردا ؟ وكان الشيخ متأنقا معطرا يضفى عليه لباس رجال الأزهر هيبة ووقارًا ورهبة .

رد الفقى : أبدا لا شىء يا شيخ ولكن لا يخلو بال الإنسان من بعض الوساوس والمشاكل، مشاكل الدنيا ، والمهم أخبار الشيخ والبرلمان والناس هناك والبلد و.. وأخبار الملك والحكومة والكثير الكثير الذى نود أن نسمعه إذا سمحت .

تنحنح الشيخ وأدار عينيه بين وجوه الجماعة ثم توقف عند سى عبد الله ليسأله : كيف الحال ؟ وقد أدرك هذا ماذا يعنى الشيخ فقال :

(١) سورة التوبة ، آية ٦٨ .

الحمد لله كل شىء عال العال، لكز الفقى بمرفقه الحاج سعد الذى كان يجلس على يمينه وحرك حواجبه إلى أعلى وبصوت هامس قال : هكذا النسب ، أدام الله الود يا سى عبد الله . عاد الشيخ إلى الحديث عن البيضاء وهواء الجبل الأخضر وتلك الروابى والأرض الخضراء والورود الفواحة وقد أطنب فى الحديث عن جمال الطبيعة الذى يطيل العمر كما قال ، ثم استغفر الله فالعمر لا يحدده المكان .

بادر الأستاذ على فسأل الشيخ عن أخبار فكرة مؤتمر القمة العربية فى الخرطوم المزمع عقده قريبا ، وما إذا كانت ليبيا ستشارك فيه وما هو المتوقع منه بعد الهزيمة العسكرية ؟

ولكن الشيخ تجاهل السؤال وصار مرة أخرى يتحدث عن المدينة الجديدة فى البيضاء وجمال الطبيعة فى تلك المنطقة من ليبيا وكيف كان افتتاح البرلمان والمناقشات لإعداد الرد على خطاب العرش الذى قال عنه إنه كان ضافيا وافيا وكل ما جاء فيه استهدف مصلحة ليبيا وكيف أن النواب لكى يقوموا بواجبهم يجب أن يقيموا هناك ، وفى حديثه ذاك كان متحفظا كأنما الأسبوعان اللذان قضاهما هناك أثرا فى تفكيره وأسلوبه وصار يتحدث كما لو كان وزيرا للداخلية يدافع عن الحكومة وليس الشعب الذى انتخبه ، ويظهر أنه نسى أو تناسى أنه يتحدث إلى أناس انتخبوه اعتقادا منهم أنه أصلح من يمثلهم فى البرلمان .

تنحنح الفقى وقد اتكأ على الحاج سعد ليقول : عندما قلنا إنه سيتغير بحكم المنصب وإنه سيكون كغيره من السابقين زعل منا سى عبد الله ، سبحان الله ، سبحانه الذى يغير ولا يتغير .

فقال الشيخ وكأنه يحدس : اصبر يا فقى مصباح ولا تسئ الظن بنا ، ثم صار يختلق الحجج ويصطنع الأوهام من أجل إقناعهم أو التأثير عليهم مبررا السبب فى ضرورة أن يقيم النواب هناك فى البيضاء ، وهكذا كانت فجيعتهم ظاهرة للعيان بسبب هذا التحول الذى طرأ على تفكير الشيخ عبد الحميد ، لكنه استمر يقول عندما سأله الاستاذ على عن موقف ليبيا المتخاذل حين وقعت الحرب مع مصر ثم لماذا كان باهتا بعد الهزيمة كما لو كان تشفيًا ؟

تبرم الشيخ من تعبير باهتا ومتخاذلا ، وصار يقول : يا جماعة لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، ولا تغالوا فى الأمر ، وتعاونوا على البر والتقوى ، والصبر طيب .

قال الأستاذ على ، فى سره : والمنصب طيب ، والمال طيب .

وتساءل الفقى مصباح موجها الكلام إلى سى عبد الله ، قائلا : ما رأى سى عبد الله ؟

نظر إليه هذا وقال : الشيخ يعرف أكثر ولابد أنه على حق ولا يجب أن نحاسبه .

تدخل الاستاذ على ليقول : نعم ، نعم الشيخ يفهم أكثر وأود أن أسمع رأيه فى مؤتمر الخرطوم .

نظر إليه الفقى وقال : ها قد ظهرت حقيقة الأستاذ على ، أيه والله الدنيا مع الواقف ولابد أن الأستاذ على له مآرب وأغراض يريد تحقيقها، ترى ماذا ستظهر الأيام ؟

لم يرد الأستاذ وبادر الشيخ بالقول : اتركوا الخلق للخالق ، وقف وصار ينفض أطراف قفطانه ثم انصرف غير سعيد كما لو أنه قد رأى هؤلاء الناس للمرة الأولى .

تفرق الجمع دون أن يتبادلوا التحيات كما كان يحدث فيما سبق ولابد أن الشيخ قد اختار طريقا آخر ومكاناً آخر ولم يعد بالتالى منسجما مع ما يحدث ويجرى فى هذه القرية وهؤلاء الجماعة ، ولا يمكن أن يكون الحصير أفضل من الكرسى .

ولم يبق إلا الأستاذ على الذى شغل نفسه فى تفكيك بطارية الراديو ثم لحق بالشيخ فى سكنه ليطمئنه بالقول إن هؤلاء الناس لم

يقصدوا إحراجه وهم لا يفهمون فى السياسة وبالتالى مصلحة البلاد . كما أنهم لم يدركوا أن فضيلة الشيخ أصبح مسئولاً عن الكلام الذى يقال وأن مسئوليته تتعدى حدود القرية بل وحتى المنطقة ، وأن كلامه يجب أن يكون فى البرلمان ومع المسئولين .

شكره الشيخ وتبسط معه لبعض الوقت ثم ودعه ببضع كلمات عندما غادر .

وكانت بداية دخول الشيخ البرلمان بانتخابه من طرف هؤلاء الناس البسطاء الذين كانوا جلساءه فى الكندورة ومؤيديه فى الانتخابات بحماس منقطع النظير دون طمع ولا مقابل بل إنهم كانوا يتبرعون بما لديهم وهو قليل من أجل إنجاحه ، كان ذلك الحدث قد وضع حدا لتلك الجلسات واللقاءات فالشيخ لم يعد يأتى بل ولم يعد حتى يحرص على الوعظ والتدريس فى المسجد وقد انشغل فى بداية الأمر باستقبال الزوار والمهنئين فى سكنه ثم صار غيابه عن القرية متكررا نظرا لسفره إلى طرابلس والبيضاء، كذلك انشغل بقية الجماعة بالحرث فى مناطق الحمادة والوديان وهذه بعيدة عن القرية ، ولم يبق بالقرب من الشيخ عندما يعود إلى القرية إلا الأستاذ على وهو الذى

وجد تفسيرا موضوعيا لتغير تفكير الشيخ وكان يقول إن النائب لابد أن يكون قريبا من الحكومة وفى مركز صنع القرار السياسى وما لم يكن كذلك فهو مجرد موظف يتقاضى مرتبًا شهريًا ، لكن رفاق جلسة الشاى قبل أن يتفرقوا صاروا ينظرون إلى الاستاذ على بريبة وشك وكان من الصعب عليهم أن يصدّقوا أن الشيخ يمكن أن يتغير بهذه السرعة لمجرد أنه أصبح نائبا فى البرلمان وهم كانوا يعتقدون أنه لن يتغير حتى لو صار ملكا ولكن ربما كان للمناصب بريقها وهيلمانها وللجغرافيا تأثيرها كما للتاريخ دروسه .

وحدث أن انعقد مؤتمر القمة فى الخرطوم وكان انعقاده محطة تاريخية جديدة فى حياة العرب ، كان الشامتون فى جمال عبد الناصر ينتظرون أن ذلك العملاق الذى كثيرا ما أثار أعصابهم وأقلق مضاجعهم بخطبه ومواقفه وقراراته سوف يأتى منكسرا مطأطئ الرأس بعد هزيمة جيشه ومشاريعه واشتراكيته فخيّب الشعب السودانى ظنهم حيث ظهر ذلك الشعب فى استقبال عبد الناصر عن بكرة أبيه رغم ما حدث ، ولقد جاء جمال عبد الناصر حاملا فى قلبه وهج الثورة وإيمان المناضل الذى لا تثنيه العثرات فكان أن بث فى محبيه الثقة فى المستقبل والقدرة على النهوض من الكبوة عندما قال : (ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة) وقيل

وقتئذ إن (موشى دايان) وزير دفاع إسرائيل ذكر أنه يجلس بالقرب من جهاز الهاتف منتظرا مكالمة من عبد الناصر المهزوم يطلب الصلح ويعلن الاستسلام فجاءت لاءات الخرطوم الثلاث (لا سلام لا تفاوض لا صلح مع إسرائيل) ردا بليغا وتصميما قاطعًا على أن العرب لا يقبلون بالإهانة ولن يركعوا أو يستسلموا ما لم ترد حقوقهم المشروعة ، وهكذا فقد حدث بنتائج ذلك المؤتمر أن أخذ التاريخ مدارا آخر وبدأت مرحلة جديدة من نضال أمة لا تفرّط فى أمجادها، وكان بن غوريون قد قال فى مذكراته التى نشرت منذ زمن طويل قبل تلك الهزيمة إن اسرائيل لن تسمح لمحمد آخر فى شخص جمال عبد الناصر أن يظهر ليوحّد العرب وجاء مؤتمر الخرطوم ليقول لإسرائيل إن العرب لن يسمحوا لإسرائيل بأن تفرض عليهم الهزيمة والاستسلام ، وكانت ليبيا قد شاركت بوفد كبير رأسه ولى العهد ، ولما كان الوفد قد شارك بالسكوت ووافق على المقررات كما وافق على المساهمة المالية العربية لدعم دول المواجهة ، فقد صار الليبيون يتساءلون عن جدوى مشاركة ذلك الوفد إذا كان لم يناقش ولا أدلى بتصريحات صحفية أو إذاعية حتى أن الصحافة العربية وصفت وزير الخارجية الليبى آنئذ وكان عضوا فى الوفد بوصف الوزير الصامت ..؟!!

وبعد انتهاء المؤتمر وعودة الوفد تجمع عدد كبير من الشباب فى بيت أحد أهم أعضاء ذلك الوفد وكان رجلا فاضلا ولأسرته رصيد ضخم فى تاريخ الجهاد الوطنى الليبى وهو فى نفس الوقت كان رئيسا لمجلس الشيوخ وقد استقبل أولئك الشباب بترحاب وبعد السلام والتحية أمطروه بالعديد من الأسئلة لكنه بهدوء ولباقة كان يتحاشى الرد المباشر ، إلا أنهم فى النهاية أصروا على أن يحدثهم ويصف لهم موقف كل رئيس أو ملك أو أمير أو رئيس وفد شارك فى المؤتمر فوافق ..

قالوا : ما رأيك فى إسماعيل الأزهرى وكان هذا رئيس وزراء السودان ، البلد المضيف؟

قال : صوت عالٍ وجوف خالٍ .

قالوا : ما رأيك فى أمين الحافظ وكان هذا رئيس جمهورية سوريا ؟

قال : متربص مثل النمر ولا أحد يعرف فى أى اتجاه سيقفز بلا هدف .

قالوا : ما رأيك فى عبد الله السلال وكان هذا رئيس جمهورية اليمن الشمالى؟

قال : اللحية على الكرسى والحكم فى يد عبد الناصر .

قالوا : ما رأيك فى فلان وفلان وفلان ؟ وكانت إجاباته هكذا إلى أن قالوا : وما رأيك فى جمال عبد الناصر رئيس جمهورية مصر ؟

قال : هو رجل الساعة وشيخ الجمع ، عندما يتفرقون يجمعهم وإذا اختلفوا يوفّق بينهم . ثم جاء السؤال المحرج ، قالوا : ما رأيك فى ولى العهد الليبى الذى رأس الوفد الليبى وأنت عضو فيه ؟

وكان الرجل وهو صاحب الماضى الناصع وصاحب المنصب الرفيع فى الحكم الليبى وهو كذلك طاعن فى السن وقد فكر كثيرا ، فهو إذا ما انتقد ولى العهد كأنما انتقد الحكم الذى هو جزء منه ، وإذا ما شكره كذب وهو لا يقبل لنفسه فى هذا العمر أن يكون كذوبا ، وإذا أشاد بموقفه سيظن هؤلاء الشباب به الظنون وأقلها أن يقولوا إنه منافق أو على الأقل مداهن وهم يعرفون كل شىء عن الوفد وعن ولى العهد .

انتظروا الإجابة وكلهم عيون تحدّق فى وجه الرجل ذى اللحية البيضاء، قال : يا أبنائى (إن الزيجة بخت) بمعنى أن الزواج حسب الحظ فقد تتزوج امرأة وتكتشف أنها لا تصلح ، وبذلك تكون إجابته تلك فى غاية الذكاء والدبلوماسية بل والحكمة فهو لم ينتقد ولم يشكر وعلى السامع أن يفسّر كيفما شاء .

وهكذا تفرق الشباب وغادروا بيت هذا الشيخ الوقور الذى كان صادقا مع نفسه متصالحا معها كأحسن ما يكون الصلح فلا هو بالغ فى النقد بحيث يتحرج فيما بعد ولا لجأ إلى الإطراء بحيث يسىء إلى وقاره وكبر سنه وتاريخه .

وعلى الرغم من المشاركة فى مؤتمر الخرطوم والموافقة على قرارات ذلك المؤتمر كذلك المساهمة فى المبالغ المالية التى خصصت لدعم دول المواجهة العربية فإن شيئًا لم يتغير فى تعامل الدولة مع مواطنيها وظلت السياسة الخارجية سياسة مجاملة غير صادقة والسياسة الداخلية سياسة ترقيع وتجاهل للرأى العام بل وسياسة الترغيب والترهيب ، وكان أن تحول أغلب كبار ضباط الجيش والبوليس إلى مقاولين وسماسرة وأصحاب شركات كما أن القواعد والقوات الأجنبية (وهى بيت القصيد فى كل احتجاج شعبى) قد بقيت هادئة بل ربما زاد تدخل الإنجليز والأمريكان فى شئون البلاد وخاصة الأمنية منها وأغرقت الأسواق بالمواد الكمالية والاستهلاكية بحيث يحدث التكالب على الكسب بأى شكل وأى طريق وصار بعض المسئولين ، وزراء ونوابًا وولاة - يسافرون إلى إيطاليا أو يبعثون وسطاء ينوبون عنهم فى الاتصال باليهود والإيطاليين الذين هربوا من ليبيا بعد أحداث سنة ١٩٦٧م اتقاء

غضب المواطنين الليبيين ، يتصلون بهم لشراء بعض عقاراتهم أو وكالاتهم التجارية أو غير ذلك حتى أن أحد الولاة كان قد اشترى أغلب أملاك اليهود والطليان فى مدينة بنغازى فى حين أن تلك الأملاك كانت لابد أن تنتقل إلى الدولة بل تجرأوا على مساعدة أولئك الأجانب على تهريب أموالهم من البلاد ، وهكذا توالت المنشورات والكتابات والمظاهرات المنددة بالفساد والتسيب والسرقة ولكن كل تلك الجهود والأحداث لم تكن تصل إلى الملك لأن الرجل قد بلغ من العمر عتيا وأصبح عجوزا يتعثر خطوه وترتعش يداه وقد قصر نظره وصار مثقلا بالهموم ومنها المرض من مختلف العلل فهو يسمع ولا يسمع يتشكك غالبا ويصدق أحيانا ، وكان بعض الخلّص عندما تتاح لهم فرصة لقائه وهى نادرة يبلغونه الأخبار الحقيقية وهى سيئة وإن بشكل مخفف عن وضع البلاد والعباد ، كذلك رأى الناس فى نظام الحكم ومظاهر التسيب الذى أصبح سمة من سمات النظام القائم، لكن المسئولين الكبار من وزراء وقادة ونواب كانوا ينقلون الصورة الوردية وهم على أعتابه فى كل وقت وتمكنّوا من إقناعه بأن تلك الوشوشات التى تأتيه من خلال بعض الناس ما هى إلا تلفيقات وأخبار مغرضة حتى أنه صار يقول كلما كان الحديث عن مسئول فى الدولة (إن كل ذى نعمة محسود) كما لو كانت

النعمة التى يشير إليها قد جاءت من طريق حلال وشرعى حتى أن الملكة وقد كانت فى جانب الخلّص من أهل البلاد وتصله من خلالها بعض الأخبار لم يعد يستمع إليها ولهذا أقلعت من تلقاء نفسها عن الحديث فى الشئون العامة وصارت تتلهى مع ابنتها بالتبنى وأحيانا تتحادث مع المربية وبعض من يزورونها بأسلوب راق وما عرف عنها من رقة الشمائل وسماحة النفس وسمو الأخلاق ، وهى تعلم أن أولئك الذين أقنعوا الملك بأن يتزوج عليها من أجل أن ينجب وليا للعهد وجعلوه يقدم على زواج فاشل هم الذين يخفون عنه ما يجرى فى البلاد ويقنعونه فى كل مرة بأن كل الناس سعداء ويدعون له بالصحة وطول العمر فى حين أن الحقيقة عكس ذلك تماما فالليبيون يطالبون بالتغيير فى شكل تلك المنشورات التى توزع فى كل مكان بدقة وتنظيم حتى أن أجهزة المخابرات والمباحث والذين يساعدونهم أو يتعاونون معهم لم يتمكن أحد منهم من معرفة مصدرها أو مصادرها ، وكذلك تلك الكتابات على الحيطان ومظاهرات الطلبة التى قمعوها وغير ذلك ، وعلى الرغم من أن أحدا لم يتعرض بالنقد أو التهجم على الملك بعدُ فإن ذلك يعنى أن الأمل ما زال يراود تلك القوى فى أن الملك ربما يكون قادرا على الإصلاح والتغيير إذا ما وصله الخبر الصحيح وأدرك حالة البلاد ومعاناة

الناس وفشل سياسة الحكومة داخليا وخارجيا وأن أولئك الذين يزينون الأمور إنما يغشّونه ويكذبون عليه ، هكذا كان الاعتقاد .

وفى هذه الأثناء كان مجلس النواب يناقش ميزانية الدولة وليس فى جدول أعماله شىء عن القوات والقواعد الأجنبية بمعنى أن مطالب الشعب لم يلتفت إليها أحد ، وكان الشيخ عبد الحميد قد انتقل بعائلته إلى البيضاء وترك تلك القرية غير آسف ، ثم استطاع أن يجد وظيفة لزوج ابنته حيث إن زوجته أصرّت على أن تكون ابنتها قريبة منها إذا أراد منها الشيخ أن تبقى فى البيضاء وما هى إلا فترة قصيرة حتى انتقلت ابنته وزوجها إلى البيضاء ويكون بذلك محمد قد ترك والده سى عبد الله وحيدا مع ابنه الصغير فى قريتهم وهكذا تلاشى أمل سى عبد الله فى أن يكون ابنه محمد أحد فرسان القرية الذين يشاركون كل سنة فى مهرجانات الفروسية بميدان الشارف وهو الذى كان يقول إنه إذا كان قد فقد يده اليمنى وصار بصره ضعيفا ولذلك فهو لا يستطيع المشاركة فى مهرجانات الفروسية تلك فإن ابنه محمد سوف يكون ذلك الفارس الذى يمثل العائلة فى هذه المناسبات ، هذا الأمل تلاشى الآن وسيبقى الحصان يسهل فى مربطه والسرج المطهّم بالفضة مهملا فى زاوية من الداموس إلى حين ، واعتبر سى عبد الله يوم مغادرة ابنه قريتهم

أتعس يوم فى حياته رغم ما عانى من تعاسات فى السابق كما أنه ندم على اليوم الذى عرف فيه الشيخ عبد الحميد ويوم تزوج ابنه كريمة ذلك الشيخ لأنها كانت السبب فى ضياع ابنه محمد (مغادرة القرية يسميه ضياعا) وعليه الآن أن يكون الأب والأم والخادم لابنه الصغير حيث أصبحا يتيمان فلا زوجة ولا ابنة ولا أم وقد وجد سى عبد الله شفاء لتأسيه فى تلك الحضرة التى يداوم عليها بالزاوية القادرية ، أما الأستاذ على الذى صار فى المدة الأخيرة شبه ناطق باسم الشيخ عبد الحميد فقد أصيب بإحباط كبير فى مسعاه رغم وعود الشيخ لكنه مع ذلك لم يفقد الأمل نهائيا إذ ربما يتذكره الشيخ ولو بعد وقت لأن توظيف صهره هناك بتلك السرعة يدل على أنه صار صاحب حظوة ونفوذ وقبول لدى الحكومة ، ومحمد الذى اعتبره والده قد ضاع كان قد باشر عمله فى وظيفة حكومية وهو يحظى برعاية النائب المحترم وحصل على فيللا جديدة مؤثثة بكل لوازم السكن المريح وبها جهاز هاتف لم يكن قد رآه فى حياته وتلك الفيللا محاطة بحديقة صغيرة بها شجيرات وورود وقد حرصت زوجته على وضع أصص ورود بمختلف الألوان ، ياسمين وغيره ، بالبلكونة المواجهة للطريق ، وهكذا تبدى محمد وكأنه أسعد إنسان فى العالم ولم يفكر فى تلك القرية ولا ذلك الداموس المظلم ولم يكن

محمد يدرك ثمن السكن والوظيفة وبقية المزايا التى حصل عليها إلا عندما صارت زوجته تتعالى عليه ، وكلما اختلف معها قالت لولا والدى ما كان لك أن تكون موظفا محترما ولا حتى حلمت بالسكن فى غير ذلك الداموس ، انتفض فى المرة الأولى وحاول أن ينهرها فالنساء فى بلاده لا يرفعن أصواتهن على أزواجهن ، والرجال قوامون على النساء ، قالت : هيه فى بلادك وأين هى بلادك؟ أهى تلك القرية ؟ ثار من أثر هذا الكلام والتصرف المتعالى والاستهزاء الذى لم يألفه ولا سمع به من قبل ، لكنها تعنتت وبالغت فما كان منه إلا أن صفعها على خدها الأيمن حتى كادت أن تقع على كنبة كانت تقف بالقرب منها فوضعت يدها على ذلك الخد وقالت : والله ستندم على فعلتك هذه يا جاهل ، تضربنى وأنت تعلم أننى ما تزوجتك إلا إرضاء لوالدى وكان يمكن أن أتزوج من هو خير منك ألف مرة، كانت دموعها تنساب على خديها حتى بللت صدرها البارز وقد تناولت حقيبة يدها وهمت بالخروج إلا أنه منعها قائلا : لا يجب أن تخرجى هكذا عارية الرأس وفى لباس غير محتشم وقد أمسك بذراع يدها اليسرى لكنها انتزعت يدها ورمقته بنظرة كلها احتقار دون أن تنبس بكلمة وخرجت ثائرة ولم يكن بيت والدها بعيدا وقد وصلت خلال دقائق ، عندما دخلت واستقبلتها والدتها

كانت تجهش بالبكاء وقد دست رأسها فى حضن والدتها باكية متأوهة وصارت فى حالة من التشنج ثم تمتمت بكلمات من خلال دموعها قائلة إن هذا الزوج الذى فرضه القدر عليها والذى تحملت كل مساوئه وعيوبه قد شتمها وصفعها على وجهها بل وتجرأ بكلمات نابيات على أهلها ، ولم يكن الشيخ وقتئذ فى البيت لكن والدتها وقد أثارها ما سمعت وما تجرأ به هذا القروى على ابنتها وقد أعماها الغضب فتناولت جهاز الهاتف وأدارت ثلاثة أرقام (الخط الداخلى فى مكتب الشيخ) لتبلغه الأمر بكلام متتابع سريع كأنه طلقات مدفع رشاش ، لكنه هدأ من روعها قائلا إنه سيتولى الأمر ، أما محمد فلم يدر ماذا يفعل لأنه لا يقبل معاشرة امرأة تحتقره ولكن ما العمل مع النائب المحترم وكيف الحال فى الوظيفة والفيللا والحياة الجديدة وأشياء أخرى لا يمكن التخلى عنها وقد عرفها حديثا ، وقبل أن يسمع الشيخ من ابنته اكتفى بما سمع من زوجته ولهذا طلب زوج ابنته بالهاتف وهكذا سارع محمد بالمجىء وحاول إفهام الشيخ أنه كما يعرف لا يمكن لمثله وقد تربى على تقاليد وعادات تعطى الرجل كل سطوة على زوجته مهما كانت ولا يقبل بأن ترفع صوتها عليه وأن له الطاعة الكاملة وهو كشخص يعتز بكرامته أثاره ما تفوهت به زوجته ولم يكن هناك بد من عقابها ، لكن الشيخ لم يسمع ولا يمكنه أن يقبل

بإهانة ابنته وضربها فقال : إن الله يأمرنا باحترام شريكات حياتنا وأمطره بآيات من القرآن الكريم ومنها قوله تعالى : ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1] وهو لا يريد لابنته الطلاق (إن أبغض الحلال عند الله الطلاق) كذلك هو لا يسمح لمحمد بتصرف كالذى سمع عنه ، وفى لهجة تهديد مبطن قال : أنا أعتبرك ابنى وعاملتك بكل التقدير وقدمت لك كل مساعدة وعليك أن تنظر ما أنت فيه الآن .

حاول محمد أن يتكلم لكن الشيخ رفض السماح له حتى بالاعتذار وقال : عليك أن تعتذر لزوجتك وسوف أساعدك على تجاوز هذا المأزق شرط أن تتعهد بألا تتصرف مرة أخرى بشكل غير حضارى ، ذلك أن الحياة الزوجية تفاهم وتعاون واحترام وليست ضربًا أو تهديد ، وكان ذلك درسا قاسيا لكن لم يكن هناك من خيار أمام محمد وقد وافق على الاعتذار لزوجته واستسماح والدتها ، وكان أن صحب الشيخ محمدًا معه إلى البيت من أجل أن يصلح ذات البين كما قال ، لكن الزوجة ما زالت غاضبة ووالدتها هائجة حتى أنهما رفضتا

(١) سورة التوبة : آية ٧١ .

مقابلة محمد رغم أنه كان برفقة الشيخ عبد الحميد الذى نهاهما عن هذا التصرف لكنه فى النهاية طلب من محمد أن يترك الأمور تهدأ لمدة ثلاثة أو أربعة أيام وأنه كفيل بإصلاح العطب الذى حدث وإعادة المياه إلى مجاريها ، وقد خرج محمد مطأطئ الرأس كما لو كان مطرودا رغم كل اعتذاراته للشيخ ، وصار من هذا الوقت طيعا حسب مشيئة الشيخ وابنته فلا يمكنه التفريط فى كل المكاسب السريعة التى حققها بعد هذا الزواج ، وكانت تلك الأيام الثلاثة التى بقيت فيها زوجته بعيدة كأنها سنوات وقد أحس كأن حريقا سينشب فى بيته ولهذا عليه أن يتراجع ويهادن إذ حدث له كدر شديد ربما أبلغ تأثيرا من الإهانة ، ففى تلك الثلاثة أيام كان يتعذب وقد خالجه الندم وتذبذب التفكير ، وكان يسائل نفسه : لماذا تصرف بذلك الشكل ؟ فالمرأة جميلة والسكن ممتاز والوظيفة مضمونة وصهره ذا نفوذ يحميه ، إذن لا معنى للتمسك والكلام عن التقاليد والعادات التى كانت يجب أن تترك فى تلك القرية .

ماذا يفعل ؟

لقد صار وجهه شاحبا وأصيب بالدوار حيث زهد فى الأكل وجفاه النوم وتوترت أعصابه حتى أنه لم يعد قادرا على تأدية عمله اليومى، يتساءل : ماذا لو رفضت العودة إليه ؟ وكيف يكون الحال مع تلك المرأة الثائرة الهائجة والدتها ؟

أحس بفراغ يملأ نفسه وقرر أن يتراجع عن موقفه حتى لو أدى به الأمر إلى أن يرتمى تحت رجليها ويقبّل يدى والدتها ، ومرت الأيام الثلاثة ثقيلة ، كل شىء فيها مظلم لم يسمع خلالها كلمة من الشيخ ولا جرؤ على التحدث إليه أو زيارته وما كاد بعد تلكم الأيام الثلاثة يتبلغ أن الشيخ يطلبه حتى طار لا يلوى على شىء لمقابلته ، فى المقابلة ذكر الشيخ مرة ثانية بشكل غير مباشر أن ما هو فيه يتوقف على رضا ابنته وكرر على مسامعه تعبير (التصرف غير الحضارى) والتمسك بالتقاليد والعادات ، ولأن محمدًا كان مأزوما بائسا ظل يهز رأسه بالموافقة ولم ينبس بكلمة، وأخيرا قال الشيخ إنه أقنع والدتها وستعود إليه قريبا إن شاء الله ، لكن كلمة قريبا هذه جعلت محمدًا يحدّق مليا فى وجه الشيخ ويتساءل : كيف ومتى ؟

وعده الشيخ قائلا ، بأسرع وقت ممكن ، وسكت قليلا ثم أضاف ، غدا إن شاء الله العلى القدير .

ابتسم محمد وكرر : إن شاء الله ، وقد خرج يجر رجليه كأنه يحمل أثقالا ولكن قبل أن يتجاوز باب المكتب قال له الشيخ : يمكنك أن تأتى بعد عصر اليوم لتأخذ زوجتك .

قال : إن شاء الله.

وهكذا عادت الزوجة إلى بيتها وعندما التقت بزوجها رمقته بنظرة كلها تحدٍ بل وشماتة وكان الشرر يتطاير من عينيها رغم جمالها كما كان وجهها محتقن الدم وساد بينهما صمت مؤرق ولكن ما كان منه إلا أن ابتسم وبذلك تأكد جليا الفارق الثقافى والاجتماعى والفكرى ، فلو أن محمدًا تزوج من امرأة قروية واقتنع بطريقة حياته لكان قد بقى فى تلك القرية مع والده وحافظ على عادات وتقاليد بل وشرف العائلة لكنه تطلع إلى أعلى أو ربما كان والده هو الذى فعل ذلك وهكذا (على نفسها جنت براقش) كما يقال فى المثل العربى .

ولم تفلح الجهود والمساعى والإضرابات والاحتجاجات والكتابات فى دفع الحكومة إلى الإصلاح ، الاحتجاجات تلك التى قامت بها القوى الوطنية والقومية من مدنية وعسكرية فى البلاد ولهذا كان لابد مما ليس منه بد وهو إحداث الصدمة وبعنف حيث تقرر التعريض بالملك نفسه بحيث لا يكون لأحد القدرة على إخفاء الحقيقة ، وصار البحث عن الفرصة المناسبة لعدة اعتبارات :

أولها : أن الملك على الرغم من تقشفه وتدينه يمثل (سواء أكان يدرى أو لا يدرى) مظلّة لحماية عناصر الفساد والتسيب والرشوة والقبلية .

وثانيها : أنه من المعتقد أن الملك سوف لن يسمح بإخراج الإنجليز وقواتهم وقواعدهم من البلاد وهو المطلب الوطنى والقومى الذى تنادى به كل قوى الشعب .

وثالثها : أنه صار مقتنعا بأن رجال دولته أسوياء أطهار وأن التشكيك فى ذواتهم وذممهم غير مقبول بدليل أنه قد نقل عنه القول (إن كل ذى نعمة محسود).

وفى فترة تاريخية لابد أنها تهيأت بمشيئة الله قرر الملك القيام بزيارات إلى اليونان وتركيا وكان من عادته أن يسافر دائما بالبحر ، وحدث أن اختيرت تلك الفترة للتعريض به ويمكن اعتبار الحدث جسّ نبض أو هو كما يقول المثل الإنجليزى (شخير تحت رأس النائم) فلقد كانت هناك القوات البريطانية وقواعدها المنتشرة فى البلاد وخصوصا فى المنطقة الشرقية من ليبيا حيث يعتقد أن تلك المنطقة تمثل رصيدا لتأييد الحكم الملكى .

وكانت هناك القوات الأمريكية وقواعدها فى كل من طرابلس وبرقة ، وكان هناك المستوطنون الطليان الذين يسيطرون على الاقتصاد والتجارة الخارجية وحتى الداخلية وعددهم بالآلاف وهم الذين ربما ما زالوا على يقين بأن ليبيا هى الشاطئ الرابع لإيطاليا ولو اقتصاديا ، وكان

هناك اليهود الذين يمكن أن يتعاونوا مع أى جهة تعطيهم الأمل فى الحصول على فوائد ومصالح ، وبعد هذا وقبله كانت هناك قوى محلية غير مرئية يمكنها أن تثير المشاكل والشغب وربما حتى الحرب الأهلية ، وفى ظل هذه الظروف صدر أول منشور يُعرّضْ بالملك وينتقده كما وصفه على أنه (شيطان) وقد وزع ذلك المنشور فى كل بقعة من أرض ليبيا تقريبا وكان له صداه البالغ وتأثيره العميق ذلك أن الملك قد أبلغ بفحواه فور صدوره ولا أحد يعرف الغرض من ذلك وأى الجهات التى أبلغت الملك ولماذا ؟ وربما كان المتوقع أن يعود بسرعة حيث يواجه ما يمكن أن يحدث على اعتبار أنه يحظى بتأييد القوى الخارجية وربما القبائل وبعض الأجهزة الأخرى أو على الأقل أن يوجه نداء من الخارج قد يقضى على أى احتمال فى المهد ، وربما وربما ... ولقد لحقه وفد من مجلس الشيوخ الليبى وقيل وفد آخر من القبائل عندما تنامى إليهم أنه فى غاية الغضب وأنه قد لا يعود إلى البلاد ، وقالوا له إن هؤلاء الذين أصدروا المنشور (شوية عيال) ربما من الشيوعيين أو الناصريين وليس لهم مؤيدون فى البلاد وبمجرد أن تعرف الناس أن الملك بخير وقد عاد إلى البلاد سوف يتوقف وينتهى كل شىء ، وقالوا وقالوا .. لكن الرجل لم يرغب فى العودة السريعة إما لأنه اقتنع بأنهم فعلا (شوية عيال) أو أن

هناك جهات معينة نصحته بالبقاء ريثما تتضح الأمور ، هكذا حدث وقد عادت الوفود وربما اطمأنت ، ولكن ضربات القدر لا يعلم بها إلا خالق الكون ..

وكان الشيخ قد واكب ركب الحكومة حفاظا على مصالحه .

وتخلى محمد عن تقاليد وعادات القرية إرضاء لامرأة ، وصارت القرية بالنسبة له ذكرى ماضية .

وبقى الفقى مصباح والحاج سعد فى قريتهما يتذكران جلسات الشاى والكندورة .

أما سى عبد الله فقد تضاعفت آلامه ومعاناته وكان منكسرا يعانى الخواء ويمذغ الريح لأنه فقد كل شىء ولم يعد له من أنيس غير الحضرة فى تلك الزاوية ليلة كل جمعة .

وتنمّرت أجهزة النظام لتنكل بكل من تحوم حوله شبهة ، ولكن ضربات القدر كانت أقوى وأسبق .. وكان التغيير على موعد مع صباح ذات يوم ..

لا يقيم على ضيم يراد به إلا الإذلان

عير الحى

والوتد

هذا على الخسف مربوط برمته

وذا يشج فلا يُرثى له أحد ...

شاعر عربى

الفصل الثاني عشر

فجر الفاتح من سبتمبر ١٩٦٩م حدث التغيير فانتهى حكم كان متهالكا لفظه شعبه ، وجاء حكم جديد شاب متحفز متطلع رحَّب به الكبير والصغير ، ولهذا قصة أخرى ستروى قريبا بإذن الله .. فإلى اللقاء .



الأعلاء عبد ثورو



الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى
اللجنة الشعبية العامة للإعلام والثقافة والتعبئة الجماهيرية
الإدارة العامة للمطبوعات

التاريخ 4 - 5 - 1430

الأخ / مدير إدارة التسويق والمعارض بالدار الجماهيرية .

تحية الفاتح العظيم ..

بالإشارة إلى رسالتكم رقم إشاري : 2121 - 579 ، بتاريخ 19 - 4 - 1430 ميلادية ، بشأن الموافقة على تداول كتاب بعنوان (مسافر يبحث عن الموت) لمؤلفه الدكتور / عبد الوهاب محمد الزنتاني

نفيدكم بعدم الموافقة على تداول الكتاب المذكور أعلاه داخل الجماهيرية العظمى .

والإسلام والفاتح أبدا ..

عبد السلام مسعود ...

مدير عام الإدارة العامة للمطبوعات

هذه هي الرسالة التي أصدرها رقيب المطبوعات ومنع بموجبها تداول الجزء الأول من رواية (مسافر يبحث عن الموت) دون إبداء أي سبب

لاتنسوا الماضى

بلادى حرة، هذا شىء جميل وهى غنية وهذا شىء مفرح ويدعو إلى الاطمئنان وراحة البال، لكن أهل بلادى ينسون أو يتجاهلون ماضيهم وهذا مفزع ومؤلم ومخيف كما إنه خلل فى البناء الاجتماعى.

والحرية لا تأتى إلا من خلال النضال والجهاد كذلك الغناء لا يتحقق إلا بالعمل الدؤوب والتخطيط السليم وتسخير كل الموارد الوطنية فى الاتجاه الصحيح.

ولقد جاهد الأجداد والآباء طويلاً من أجل حرية الوطن وحرية المواطن وكانت ثمرة ذلك النضال ما يتمتع به الأبناء الآن كذلك فقد منّ الله سبحانه وتعالى علينا بالخير الوفير متمثلاً فى ثروات بلادنا الطبيعية بعد أن كانت فقيرة تنتظر العون من الآخرين وهذه نعمة لابد أن نحمد الله عليها فى كل ساعة وكل دقيقة.

لكن أن ينسى المرء ماضيه أو يتنكر لذلك الماضى مهما كانت عيوبه أو مساوئه فإن ذلك يؤدى إلى الانفصال والانفصام وأعتقد أن هذا قد حدث فى بلادنا وهذه قضية حولها خلاف كبير وكثير فى مجتمعنا على أنه من الطبيعى أن تظهر القضايا الخلافية فى أى مجتمع إنسانى وهى إذا كانت اجتهادات ليس غرضها الفصل بين الماضى والحاضر وإنما التمييز بين ما يمكن أن يكون نافعًا وما قد يكون ضارًا عند الاقتداء به فى بناء المستقبل لذلك سيكون مقبولاً ومعقولاً.

ولقد حاولت فى هذه الرواية التاريخية أن أسجل أحداثًا وقصصًا تم تجاهلها أو تناسيها وهى جزء هام من تاريخنا الوطنى عاشها أهلنا فى زمن ماضى قريب.

وكنت مزمعًا أن أقدم تاريخًا فى شكل روائى وأزعم أنى قد فعلت.. وطبت أوقاتًا قارئ الكريم..

ومن الله التوفيق والعون ،،،

كتب صدرت للمؤلف

١ - المسطرة الحاسبة سنة ١٩٦٦م .

٢ - هندسة الراديو والتليفزيون سنة ١٩٦٧م .

٣ - مستقبل التليفزيون الملون سنة ١٩٦٨م.

٤ - مذكرات جندى فى سيناء ، ترجمة ، سنة ١٩٦٨م.

٥ - ثورة الأدغال فى أفريقيا ، ترجمة ، سنة ١٩٧٨م.

٦ - نفط الشرق الأوسط وأزمة الطاقة فى العالم ، ترجمة ، سنة ١٩٨١م.

٧ - تاريخ المخابرات الإسرائيلية ، ترجمة ، سنة ١٩٩٠م.

٨ - مولد دولة أفريقية فى الكونغو ، ترجمة ، سنة ١٩٨١م.

٩ - عدوى نفسى ، ترجمة ، سنة ١٩٩٠.م

١٠- مذكرات ذو الفقار على بوتو ، ترجمة ، سنة ١٩٩٣م.

١١- تدمير العراق بعد ١٣٩ يوما من المبادرات الدولية، ترجمة ١٩٩٣م.

١٢- الشعوب الإسلامية فى الاتحاد السوفيتى ، ترجمة ، سنة ١٩٩٩م.

١٣- حقيقة معارك الدفاع عن الجبل الغربى ، تأليف ، سنة ١٩٩٣م .

١٤- قائد معركة القارة ومعارك القبلة، سالم بن عبد النبى، تأليف، ١٩٩٣م.

١٥- تاريخ المسلمين فى البوسنة والهرسك ، ترجمة ، سنة ٢٠٠٠م .

١٦- الجهاد الوطنى أدب وتاريخ ، تأليف ، سنة ١٩٩٩م.

١٧- قبرص من معاوية إلى أجاويد ، تأليف ، سنة ٢٠٠٠م.

١٨- السودان بين ديمقراطية الشعب ودكتاتورية العسكر، تأليف، ٢٠٠٠م .

١٩- الفقى مصباح مؤذن الفجر ، رواية ، تأليف ، ١٩٩١م.

٢٠- مسافر يبحث عن الموت ، رواية ، تأليف ، الجزء الأول سنة ٢٠٠٠م .

٢١- حرب الشرق الأوسط بين الحقيقة والخيال ، تأليف ، ١٩٦٧م .

٢٢- وثائق الوحدة لا وثائق أكتوبر، تأليف ، سنة ١٩٧٩م.

٢٣- خرافة الستار الحديدى حول بلاد السوفييت ، تأليف ، ١٩٨٠م.

٢٤- الاتحاد السوفيتى نظرة من الداخل ، تأليف ، ١٩٨٥ م.

٢٥- ليلة الحلم الطويل ، رواية تحت الطبع ، تأليف ، سنة ٢٠٠١م.

٢٦- شهداء الكردون العشرة وروايات عن الجهاد ، تأليف ٢٠٠١م.

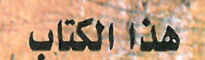
٢٧- مسافر يبحث عن الموت ، جزء ثانى ، رواية ، تأليف ٢٠٠٢م.

٢٨- الليبيون والثورة الجزائرية ، مخطوط ٢٠٠٢م.

٢٩- حجارة من سجيل ، الانتفاضتين دروس ونتائج ، تحت الإعداد ٢٠٠٢م .

٣٠ رحلة فى الصحافة خلال ثلاثة عقود ، ١٩٦٠ - ١٩٩٠م مخطوط .

الفهرس



هذا الكتاب

جاهد الأجداد والآباء طويلاً من أجل حرية الوطن وحرية المواطن وكانت ثمرة ذلك النضال ما يتمتع به الأبناء الآن كذلك فقد منّ الله سبحانه وتعالى علينا بالخير الوفير متمثلاً فى ثروات بلادنا الطبيعية بعد أن كانت فقيرة تنتظر العون من الآخرين وهذه نعمة لابد أن نحمد الله عليها فى كل ساعة وكل دقيقة.

لكن أن ينسى المرء ماضيه أو يتنكر لذلك الماضى مهما كانت عيوبه أو مساوئه فإن ذلك يؤدى إلى الانفصال والانفصام وأعتقد أن هذا قد حدث فى بلادنا وهذه قضية حولها خلاف كبير.

ولقد حاولت فى هذه الرواية التاريخية أن أسجل أحداثًا وقصصًا تم تجاهلها أو تناسيها وهى جزء هام من تاريخنا الوطنى عاشها أهلنا فى زمن ماضٍ قريب.

وكنت مزمعًا أن أقدم تاريخًا فى شكل روائى وأزعم أنى قد فعلت، وطبت أوقاتًا قارئى الكريم.

د. عبد الوهاب الزنتانى